تجليد صالح الدقر
تلفون ٢٢٩٧٧

DATE DUE

محمد علي الحوماني

892.709
N1381aA

الأصفياء

ندوة علم وأدب وفن وسياسة واجتماع بالقاهرة

دار مصر للطباعة
٣٧ (أ) شارع كامل صدقي "الفجالة"
١٩٥٥

تنبيـــه

ليست الندوة قاصرة على الأعيان الذين اشتملت هـــذه الباكورة على صور حياتهم ، وليس هؤلاء قاصرين عليها ، وإنما بعضهم أعضاء فيها والبعض الآخر موالون لهـا وليسوا منها .

الإهداء

لعميد الأدباء الشيخ محمد سرور الصبان



أى أبا الحسن :

إن إخوانك فى ندوة «الأصفياء» بالقاهرة إذ يرفعون إليك هذا السجل الخالد من نتاج أفكارهم لختام سنتهم الأولى ، إنهم يحيون فى شخصك أملهم السامى بتحقيق الفكرة التى من أجلها انتظم عقدهم ولها يهدفون بألسنتهم وأقلامهم .

تلك الفكرة هى بعث « عكاظ » من سباتها العميق فى عهد أطل فجر العروبة منه على مهبط الوحى مرة أخرى تحت سمائك الحافلة بأمجاد الإسلام فى ظل مليكها المفدى سعود ابن عبد العزيز حامى الحرمين وباعث النهضة العربية وموقظ الإسلام .

يا أبا الحسن :

إن هذه الندوة التى تضم النفر الصالح من مفكرى أمتك بين شاعر وأديب وعالم، رأت فيما تفكر أن عالمنا العربى بله الإسلامى يشخص اليوم إلى إحياء تراثه ، وتمعن فى البحث عمن يأخذ بيدها إلى إحيائه ، ولقد وقف بها البحث عند شخصك القائم على الحق فى إحياء هذا التراث .

ورأت أخيرا أن تراث العروبة فى الأدب والشعر أقل مزايا العرب حظا من هذا الإحياء إذ كان أقل حظا من عناية القائمين على الأمر به والرعاية له ، من أجل ذلك

عمد هذا النفر وهو يقدم إليك سفره الأول من ثمرات عقله وتفكيره وإخلاصه ، عمد إلى استنهاضك فى العون على بعث « عكاظ » التى هى إحدى مفاخرنا القائمة على تعزيز آدابنا وفنوننا إبان فجر الإسلام .

أى أبا الحسن :

إن لك فى الأدب يدا تعزز يدك فى السياسة ، وإن لك فى الشعر عاطفة تملأ قلبك حنانا على هواة الفن وغواته فى مجتمع أصبح فن الشعر فيه خاصة ، أحد المهازل التى يسخر منها أرباب السياسة الجفاة فلا ينظرون إلى الشاعر بعين الروح التى يلهبها الشعر نشيداً أمام الجيش وقصفاً على أعواد المنابر ، بين يدى مجد الأمة وتعزيزه .

لم يعد الشعر يا أبا الحسن غير الهية يعبث بها مخنث أو مرتزق ، هـذا يتملق به لصوص الأمة فى سبيل الخبز ، وذاك يتهافت به على الشهوات ليغرى الأحداث السذج من جماهير الناس بمتع الحياة القائمة على اللهو والعبث والاستهار ، أفلا نعود بقلبك الكبير ، وأذنك الواعية ، وعقلك الجبار إلى تعزيز دولة الشعر فنقر سلطانها فى الأمة العربية كما كان ، إحدى مفاخرها التى تدفعها للاعتصام بأمجادها ، والحرص على تراثها والدفاع عن كرامتها ، فيعود الشاعر مرة أخرى مظهر القوة فى الأمة بين يدى تحريرها واندفاعها إلى السيادة فى العالم ؟ ؟

أى أبا الحسن :

إن عناية هذه الندوة بالشعر خاصة فى مقدمة أول سفر أخرجته إلى العالم وهو قاصر على العلوم والآداب ، ذلك لأن أعضاءها يرون أن الشعر هو الإلهام الثالث من ثالوث الإنسانية المقدس الذى يصل الإنسان بخالقه « العقل والدين والفن » .

وإنما تبدأ هذه الندوة بالعمل على بعث عكاظ لأن عكاظ هذه كانت موسماً أول للعرب يتبارى فيه الشعراء وتتسنم آثارهم قمة أشرف بيت أقامه الله فى الأرض رمزاً لتوحيده فى السماء ، وإنما نختارك الباعث لهذا الموسم لأنك الشاعر الفاهم الذى أصبح بفهمه للشعر محل العناية من سيد الجزيرة العربية جلالة الملك سعود أمل الأمة فى بعث النور من فجرها .

مقرر الندوة

محمد على الحومانى

التقديم

بالله أعتصم وعليه أتوكل

فى قاهرة « المعز لدين الله » وعلى ضفاف النيل ، وتحت سماء مصر ، جال فى خواطر أخوة لغير أب واحد وأم واحدة ، قد ألف بينهم الأدب ، ونقى صدورهم الإخلاص للحياة ، وجمعتهم الصداقة القائمة على حسن التفاهم وصدق المحبة ، فكانوا كحبات العقد ينتظمها سلك من الألفة والتضامن ، أو كالسلسلة المفرغة الحلق ليس لها أول ولا آخر .

أقول : لقد جال فى خواطر هؤلاء وهم على قسط من الفقه فى الحياة ، أن لا يعبثوا بالزمن الذى ألف بينهم ، إذ دأبوا على الإمعان فى التمتع به ، والركون إليه ، والعكوف على نعيمه ، فى ندوات يقيمونها على رأس كل أسبوع فى خلواتهم إلى تبادل المحبة وتعاطى الأنس ، واغتنام اللذة فى كل ما يكلفون به ويصبون إليه .

فارتأوا أن يكون لتنادمهم هذا سجل يضم أرواحهم وينظم أفكارهم ، ثم يبعث بها إلى الأجيال ذكرى إخوان تلامس الشعور الحى فى أمثالهم من هواة الأدب وغواة الفنون ، فيؤدون بذلك رسالة الحق التى حز فى نفوسهم أن لا يفطن لها كل من أوتى قلبا ينبض وعقلا يفكر ولسانا يملى ويراعا يدون .

ثم أجمعوا أن يكون لأداء هذه الرسالة التى يضطلعون بعبئها ، نصيب من ندواتهم ، فى مجالس يعقدونها ، وأحاديث يتطارحون بها ، حتى إذا مر بهم عام أو أكثر ، توفر لديهم سفر يترجم أفكارهم ، ويحمل إلى أعقابهم تراثا نخلوا فيه الرأى ، وأخلصوا النصيحة ، فى بناء الكيان الذى يعوز تأسيسه من يخلفهم فى فقه الحياة .

ثم كان إجماعهم على أن يتناوبوا البحث عن مشاكل الحياة التى يفتقر إليها الجيل العربى الجديد ، فاقتسموا هذه المشاكل وأخلصوا فى بحثها ، ثم فى النقاش حولها ، ثم

فى تسجيلها ، ثم فى تخريجها إلى الملأ على يد من أولوه الثقة فى التخريج والتعليق منهم ، وهو أمين سرهم فى مؤسستهم ، والذى يصدّر أبحاثهم ونقاشهم بكلمته هذه .

ففيما يلى هذا التقديم سجل هذه الفئة المتآخية ، يقف به القارئ على الأبحاث مقدمة بصور الباحثين ، وبكشف موجز عن حياتهم ، ويلى كل بحث ما دار حوله من نقاش ، تخيرت الصالح منه غفلا من مثيره لتعذر ضبطه وتقرير مصدره ، ، ثم يلى النقاش تعليق من المؤلف لا يمس موضوع البحث والنقاش ، إلا فى التوضيح والتوجيه والتصويب إذا أعوز الموضوع شىء من ذلك .

أرجو أن أكون مخلصا فى تقديم هذا السجل إلى الأجيال ، وفى التعليق على ما تضمنه من بحث وحوار ، ولقد أمعنت فى تحامى الخطأ جهد ما أستطيع ، وأمعنت فى حسن التخريج وتسهيل الوصول إلى صلب الموضوع الذى تناوله البحث وحرره النقاش ، مستعينا فى هذا بأخى الأستاذ « أحمد الملائكة » المتطوع فى الطبع والتخريج ، على أن الفضل فى ذلك كله لله الذى ألهمنا العمل الصالح والعصمة له وحده .

٥٥ / ١ / ٢٢ — محمد على الحومانى



الدكتور على عبد الواحد وافى صاحب المحاضرة الأولى فى مشكلات اللغة العربية
ألقاها على إخوانه الأعضاء فى ندوتهم المؤتلفة
مساء يوم الأحد الثالث والعشرين من شهر نوفمبر سنة ١٩٥٤
بدار السيد عبد الله بن يحيى العلوى الحضرمى فى الزمالك بالقاهرة

حياة المحاضر

ولادته سنة ١٩٠١ فى مدينة حلفا بالسودان حيث كان والده أستاذا بكلية غردون ومدرسة أم درمان — وهو ينتمى إلى أسرة عربية شريفة تقيم ببلدة الحمام من أعمال مديرية بنى سويف بمصر .

نشأته ثم انتقل مع أسرته إلى مصر وهو فى سن الخامسة ، وكانت دراسته الأولى فى مدارسها الابتدائية ثم التحق بالأزهر ثم بكلية دار العلوم فى القاهرة وكان أول فرقته فأوفدته وزارة المعارف فى بعثة لجامعة السربون فى باريس حيث قضى ست سنين فنال منها دبلومات عالية فى الفلسفة والاجتماع والأخلاق والاقتصاد وعلم النفس والتربية ، ثم حصل على شهادة « ليسانس » فى العلوم الفلسفية والاجتماعية وتوج هذه الدراسة بشهادة « دكتوراه » فى الآداب من درجة الشرف الممتازة .

وظائفه عين بعد عودته إلى مصر أستاذا بكلية دار العلوم ثم فى كلية الآداب ، وانتدب بجانب وظيفته للتدريس فى بعض كليات الجامعة الأخرى وفى أقسام التخصص بالأزهر .

مؤلفاته صدر له نحو ثلاثين مؤلفاً تقرر تدريس معظمها بجامعة القاهرة ، ونال بعضها جوائز رفيعة وقد طبع بعضها أكثر من مرة ، وله إلى هذا كله أبحاث مبتكرة كثيرة نشرت فى الصحف العربية وغيرها .

منزلته الاجتماعية اختير فى الغرب عضوا فى المجمع الدولى لعلم الاجتماع ، وأثنت على مواهبه صحف أوروبا ، ومنها المجلة الدولية لعلم الاجتماع التى تصدر فى روما وعددت مناقبه وآثاره ، واختير فى مصر رئيسا للجمعية الفلسفية المصرية لعلم الاجتماع ، ووكيلا لكلية الآداب وعضوا فى مجلس الجامعة ورئيسا لقسم الدراسات الفلسفية والاجتماعية .

شخصيته

يمتاز الدكتور بسعة الاطلاع والتحقيق فى البحث والذكاء المفرط فيما يستهدف له من بيان علمى أو فلسفى ، فهو حريص على أن لا يفوت علمه ، كتاب يصدر أو بحث ينشر أو ندوة تعقد أو جمعية تنشأ ، أو معهد يؤسس ، ثم هو إلى ذلك كله لا يمل من التحدث إلى سامعه بما يفيد ولا يرهق ، لأن كلماته القيمة مشفوعة بابتسامه الندى الذى لا ينفد ، وكرمه الفياض الذى لا ينضب ، وخلقه الذى يحفظ عليه عروبته وإسلامه .

المحاضرة الأولى

الموضوع المشكلات فى اللغة العربية .

عنوان الكلمة اختلاف لغة الكتابة عن لغة الحديث .

لغة الكتابة يقصد بلغة الكتابة أو لغة الآداب ، اللغة التى تدون بها المؤلفات والصحف والمجلات وشئون القضاء والإدارة ، ويدون بها الإنتاج الفكرى على العموم ، ويؤلف بها الشعر والنثر الفنى ، وتستخدم فى الخطابة والتدريس والمحاضرات ، وفى تفاهم الخاصة بعضهم مع بعض ، وفى تفاهمهم مع العامة إذا كانوا بصدد موضوع يمت بصلة إلى الآداب والعلوم .

لغة الحديث ويقصد بلغة الحديث : اللغة العامية التى نستخدمها فى شئوننا العادية ويجرى بها حديثنا اليومى .

المشكلة ووجه المشكلة : أننا فى الأمور الأولى نستخدم اللغة العربية فى الصورة التى كانت عليها فى بلاد نجد والحجاز وقت أن نزل القرآن ، وهى الصورة التى اصطلحنا على تسميتها بالعربية الفصحى ، على حين أننا فى شئوننا العادية نستخدم اللغة العربية فى الصورة التى انتهى إليها تطورها الطبيعى فى لهجات المحادثة ، وهى الصورة التى اصطلحنا على تسميتها باللغة العامية ، أو بعبارة أخرى : إننا فى الأمور الأولى نستخدم العربية على الحالة التى كانت عليها فى مرحلة قديمة من مراحل حياتها ، وفى الأمور الأخرى نستخدمها على الحالة التى وصلت إليها فى الوقت الحاضر على ألسنة الناطقين بها .

ولما كانت هاتان الحالتان أو هاتان اللغتان ، تختلف كل منهما عن الأخرى اختلافا بيناً فى كثير من مظاهر أصواتها ومفرداتها ودلالة ألفاظها وأساليبها وقواعدها وتصريف

مشتقاتها ، فقد ترتب على ذلك أننا نستخدم فى تعبيرنا وتفاهمنا أداتين لغويتين نلجأ إلى إحداهما فى بعض شئوننا ، وإلى الثانيـــة فى الشئون الأخرى ، وازدواج كهذا يبدو فى نظر بعض الناس بمظهر حالة شاذة لا يصح السكوت عليها ، وينبغى تدبير وسيلة لعلاجها ، هذا إلى أن إحدى هاتين الأداتين وهى العربية الفصحى لا تنتقل من السلف إلى الخلف فى سن الطفولة عن طريق التقليـد كما تنتقل العامية ، وإنمـا نتعلمها تعلما فى مراحل دراستنا كما نتعلم لغة أجنبية تقريبا ونقضى سنين طويلة فى سبيل الإلمام بمفرداتها ومناهج أصواتها وقواعدها وأساليبها ، ولا يتاح لنا الانتفاع بها على الوجه الـكامل إلا بعد أن نجتاز معظم مراحل التعليم ، واللغة كما نعلم وسيلة للتفاهم ، والثقافة ، والعلم ، لا غاية مقصودة لذاتها . واضطرارنا إلى قضاء هذا الوقت الطويل ، وبذل هذه الجهود الجبارة فى سبيل الإلمام بالوسيلة ، يبدو فى نظر بعض الناس إسرافا كبيرا فى الوقت والمجهود ، وحالة شاذة ينبغى أن تتضافر الجهود على علاجها .

حل المشكلة

وقد انقسم الناس فى تدبير حل لهذه المشكلة إلى فريقين يرمى كل منهما إلى توحيد لغة الـكتابة ولغة الحديث :

أما أحدهما فيرى أن نسمو بلغة الحديث إلى لغة الـكتابة ، فنعمل بمختلف الوسائل التعليمية وغيرها على أن يتكلم جميع الناس فى البلاد العربيـة فى جميع شئونهم بالعربية الفصحى ، أو نهذب على الأقل من لغتهم حتى تقرب من العربية الفصحى ، وبذلك تتوحد لغة الـكتابة ولغة الحديث أو تـكادان ، ونقضى على مظاهر العنت والشذوذ الناجمة عن اختلافهما ، وتصبح العربية الفصحى لغة طبيعية تنتقل من السلف إلى الخلف عن طريق التقليد ، كما كان يأخذ الطفل القرشى فى القرن السادس الميلادى اللغة الفصحى عن أبويه بطريق المحاكاة فلا يقضى الناشىء فى تعلم كتابتها والإحاطة بمفرداتها وأساليبها وإساغة قواعدها إلا وقتا يسيرا يتفرغ من بعده للانتفاع بها فى الإحاطة بحقائق العلوم وشئون الثقافة ، فنوفر قسطا كبيرا من الأوقات والجهود التى نبذلها الآن فى تعلم اللغة الفصحى ، والتى لا يصح أن يبذل مثلها فى أمر مهما بولغ فى شأنه لا يعدو أنه وسيلة للثقافة والعلم لا غاية مقصودة لذاتها .

ويرى الفريق الآخر أن نهبط بلغة الكتابة إلى لغة الحديث فنستخدم العامية فى الشئون التى نستخدم فيها الآن العربية الفصحى ونقضى بذلك على هذا التعدد الشاذ فى أداة التفاهم ، ونسير على الطريق نفسها التى تسير عليها الأمم المتحضرة الأوربية ، ونذلل أمام جمهور الشعب سبل التعلم والثقافة ، ونوفر على المتعلمين قسطا كبيرا من الأوقات والجهود التى يبذلونها فى الإحاطة بلغة غير اللغة التى انتقلت إليهم من آبائهم فى مراحل الطفولة .

ومن المنتصرين لهذا المذهب الكونت كرلودى لندبرج الأسوجى فى تقريره الذى تلاه بمجمع اللغويين فى مدينة ليدن ١٨٨٣ واللورد دوفرين السياسى الانكليزى فى التقرير الذى رفعه إلى وزير خارجية انجلترا بشأن لهجة مصر العامية ، ومن هؤلاء كذلك ولهلم ستبابك الألمانى أمين دار الكتب بالقاهرة سابقا وقد توفى سنة ١٨٨٣ وقد مهد لتحقيق هذا المشروع باستنباط حروف إفرنجية تكتب بها لهجة مصر العامية ، وبتأليف كتاب ألمانى فى قواعد الصرف والاشتقاق التى تسير عليها هذه اللهجة .

وكلا الحلين يتعذر تحقيقه أو ينطوى على أضرار بليغة .

أما الهبوط بلغة الكتابة إلى لغة الحديث ، واستخدام العامية فى الشئون التى نستخدم فيها الآن العربية الفصحى فهو حل ساذج هدام لا يكاد يستحق عناء المناقشة ، وهو لا يقوم فى الواقع إلا على مجرد الرغبة الآثمة فى القضاء على أهم دعامة من دعائم الثقافة فى الأمم العربية .

فاللغة العامية التى يرى القائلون بهذا الحل استخدامها فى الشئون التى تستخدم فيها الآن العربية الفصحى ، لغة فقيرة كل الفقر فى مفرداتها ولا يشتمل متنها على أكثر من الكلمات الضرورية للحديث العادى ، وهى إلى ذلك مضطربة كل الاضطراب فى قواعدها وأساليبها ومعانى ألفاظها ، وتحديد وظائف الكلمات فى جملها ، وربط الألفاظ والجمل بعضها ببعض ، وأداة هذا شأنها لا تقوى مطلقا على التعبير عن المعانى الدقيقة ، ولا عن حقائق العلوم والآداب والإنتاج الفكرى المنظم .

ولا أدل على ذلك من أننا فى حديثنا العادى نفسه كثيراً ما نضطر إلى استخدام العربية الفصحى عندما نكون بصدد التعبير عن حقائق منظمة وأفكار مسلسلة ، لا نفعل ذلك للمباهاة أو إظهار القدرة على التعبير الفصيح ، وإنما نفعله مضطرين اضطرارا لأننا نرى أن العامية لا تسعفنا فى مفرداتها ، ولا فى قواعدها بما يضبط تفكيرنا وينقله نقلا صحيحا إلى الأذهان .

فإذا لم نجد أمامنا ، لا قدر الله ، إلا اللغة العامية نستخدمها فى جميع شئون تفكيرنا وتعبيرنا ، تقطعت بنا أسباب الثقافة ، ونكصنا إلى الوراء قرونا عديدة ، وقضى على نشاطنا الفكرى قضاء مبرما ، لأن الفكر إذا لم تسعفه أداة مؤاتية فى التعبير خمدت جذوته ، وضعف شأنه وضاق نطاقه ، واقتصر نشاطه على توافه البحوث وسفساف التأملات ، فاللغة هى القالب الذى يصب فيه التفكير ، فكلما ضاق هذا القالب واضطربت أوضاعه ، ضاق نطاق الفكر واختل إنتاجه .

هذا إلى أن اصطناع العامية فى الآداب والعلوم والكتابة من شأنه أن يحول ، عاجلا أو آجلا ، بين الأجيال القادمة والانتفاع بالتراث العربى المدون بالعربية الفصحى ؛ إذ تصبح هذه اللغة غير مفهومة إلا لطائفة قليلة من خاصة الناس ، وهم الذين يتوفرون على دراستها ، كما يتوفر بعض علماء الفرنجة الآن على دراسة اللاتينية أو اليونانية القديمة ، ولسنا فى حاجة إلى بيان الكارثة التى تصيب الثقافة العربية بضياع هذا التراث ، وعدم استطاعة الانتفاع به لمعظم المتعلمين .

وفضلا عن هذا كله فإن اللغة العامية فى بلد ما غير ثابتة على حال واحدة ، بل هى عرضة للتطور فى أصواتها ، ومفرداتها ، ودلالاتها ، وقواعدها ، وتطورها هذا سريع جدا حتى أننا لنجد فى العصر الواحد فروقا غير يسيرة بين عامية الشبان وعامية الشيوخ ، فإذا فرضنا أننا اصطنعنا فى الكتابة اللغة العامية التى نستخدمها فى العصر الحاضر ، فإننا لا نلبث بعد وقت غير قليل أن نرى أنفسنا أمام المشكلة نفسها التى التجأنا فى حلها إلى هذه الوسيلة ، وذلك أن لغة الحديث سوف تتطور وسوف ينالها كثير من التغيير فى أصواتها ، ودلالاتها ، وقواعدها ، وأساليبها ، ولا تزال كذلك حتى تبعد بعدا كبيرا عن

لغة الكتابة ؛ فنصبح وإذا بنا نكتب بلغة ونتخاطب بلغة أخرى ، فإذا صبرنا على هذا الازدواج ذهب كل ما عملناه فى هذا السبيل أدراج الرياح ، وإذا أخذنا على أنفسنا العمل على القضاء عليه كلما ظهر باستخدام الوسيلة نفسها التى استخدمناها فى المرة الأولى كان معنى ذلك أننا نضطر على رأس كل خمسين سنة ، أو كل قرن على أكثر تقدير إلى تغيير لغة الكتابة بلغة أخرى ، وهذا هو أقصى ما يمكن أن تصل إليه الفوضى فى شعب إنسانى .

يضاف إلى هذا كله أن اللغة العامية تختلف باختلاف الشعوب العربية ، وتختلف فى الشعب الواحد باختلاف مناطقه ، فعامية العراق لا يكاد يفهمها المصريون أو المغاربة ، وعامية المصريين لا يكاد يفهمها العراقيون ولا المغاربة ، وعامية المغاربة لا يكاد يفهمها المصريون ولا العراقيون ، وفى البلد الواحد تختلف اللهجات العامية باختلاف طوائف الناس وباختلاف المناطق ، فعامية المنيا غيرعامية جرجا ، بل إن المديرية الواحدة لتشتمل على كثير من المناطق اللغوية التى تختلف فيما بينها اختلافا غير يسير ، فالقضاء على الازدواج لا يكون إذن إلا بأن تصطنع كل منطقة ، بل كل مدينة ، بل كل قرية ، لغة كتابة تتفق مع لغة حديثها ، وبذلك يصبح فى البلاد العربية آلاف من لغات الكتابة بمقدار ما فيها من مناطق ومدن وقرى ، ولا أظن عاقلا ينصح بمثل هذه الفوضى .

وإذا لجأنا إلى جعل لغة الكتابة فى العالم العربى كله مماثلة للهجة واحدة من اللهجات العامية الحاضرة كلهجة القاهرة مثلا ، فإننا بذلك لا نكون قد قضينا على الازدواج إلا فى منطقة واحدة من المناطق ، وهى المنطقة التى جعلنا لغة الكتابة متفقة مع لغة حديثها ، أما ما عداها من المناطق فستظل مشكلة الازدواج قائمة فيها ، وذلك أنها ستكتب بلغة غير اللغة التى يجرى بها حديث أهلها .

***

وأما الحل الثانى وهو الصعود بلهجة الحديث إلى العربية الفصحى ، فهو أمنية غالية ومثل أعلى يحقق التوحيد فى صورة لا تنطوى على أى ضرر من الأضرار التى ينطوى

عليها الحل الأول الذى فرغنا من مناقشته ، غير أن هذه الأمنية على ما بها من فضل وسمو ، يتعذر تحقيقها لسببين رئيسيين :

السبب الأول : أن لغة المحادثة لاتفرض فرضا ، ولا يمكن النكوص بها إلى الوراء ، ولا رجعها إلى الحالة التى كانت عليها فى أدوارها القديمة ، لأن من سنتها التطور والتبدل ، ومن طبيعتها أن تختلف فى كل عصر عن الحالة التى كانت عليها فى العصر السابق له ، وأنها لا تسير فى تطورها هذا وفقا لإرادة الأفراد ، أو تبعا للأهواء والمصادفات ، وإنما تسير وفق نواميس ثابتة صارمة ، لا يستطيع الأفراد سبيلا إلى الحيلولة دونها أو التغلب عليها ، أو تغيير مجراها . نواميس لا تقل فى ثباتها واطرادها وعدم قابليتها للتخلف عن النواميس التى تخضع لها ظواهر الطبيعة ، وقد حاول بعض الأمم من قبلنا عمل شىء من هذا القبيل فباءت محاولاتهم بالإخفاق والفشل الذريع .

والسبب الثانى فى أننا إذا فرضنا جدلا أنه قد قدر النجاح لنا فى هذه المحاولة المستحيلة فجعلنا جميع الناس فى البلاد العربية يتحدثون بالعربية الفصحى أو بما يقرب منها ، فإن هذه اللغة المصطنعة لا تلبث بعد تداولها على الألسنة أن تخضع لجميع القوانين التى تخضع لها اللغات الطبيعية ، فما دام أفراد الأمم الناطقة بها مختلفين فى أصولهم الشعبية ، وفى التكوين الطبيعى لجسومهم ، وأعضاء نطقهم ، وفى الظروف الجغرافية والطبيعية والاجتماعية المحيطة بهم ، وفى قواهم الإدراكية والوجدانية ، وما دامت سنة الطبيعة تقتضى أن يختلف كل جيل عن الجيل السابق له فى جميع هذه الأمور ، فلا بد أن تختلف هذه اللغة فى مفرداتها وأصواتها ودلالاتها وقواعدها باختلاف العصور وباختلاف الشعوب الناطقة بها ، وأن تنقسم إلى لهجات تختلف كل واحدة منها عما عداها . وتتفرع منها لغات عامية ، وتتسع الهوة بين لهجاتها قليلا قليلا حتى تنفصل كل لهجة عما عداها انفصالا تاما ، أى لابد أن تسير فى المراحل نفسها التى سارت فيها العربية الفصحى من القرن السادس الميلادى إلى الوقت الحاضر ، وتنتهى إلى نفس النتيجة التى انتهت إليها ، وهكذا لن يمضى زمن قصير أو طويل حتى تنبعث مرة أخرى المشكلة نفسها التى حاولنا القضاء عليها وحتى نرى الناس يتحدثون بلهجات تبعد بعدا كبيرا عن لغة الكتابة .

فما هى الطريقة المثلى إذن لحل هذه المشكلة ؟

الطريقة المثلى هى : أن ندع الأمور تجرى فى مجاريها الطبيعية ، فللغة قوانينها ، وللظواهر الاجتماعية نواميسها التى تسير عليها ، ومن ضياع الوقت فى غير جدوى أن نحاول تغيير مجرى هذه القوانين أو صدها عن عملها ؛ إذ لا نستطيع إلى تغييرها سبيلا ، ولن نجد لسنتها تبديلا .

على أن اختلاف لغة الكتابة عن لغة الحديث لا ينطوى على شىء من الشذوذ حتى نتلمس علاجا له ، بل هو السنة الطبيعية فى اللغات ، فاللاتينية القديمة كانت إلى عهد قريب لغة الكتابة فى فرنسا وإيطاليا وأسبانيا والبرتغال ورومانيا ، بينما كان سكان كل مملكة من هذه الممالك ، يجرى حديثهم بلهجة عامية متشعبة عن اللاتينية القديمة ، ولكنها تختلف عنها اختلافا جوهريا فى أصواتها ومفرداتها ودلالاتها وقواعدها ، واختلافها عنها فى هذه الشئون ، قد بلغ فى العصور الحديثة مبلغا لا يذكر بجانبه اختلاف لغاتنا العامية عن العربية الفصحى ، حتى أن الفرنسى مثلا ، الذى لم يكن تعلم اللاتينية ، لم يكن يستطيع أن يفهم شيئا يعتد به من اللغة التى كان يكتب بها الناس فى بلده وهى اللاتينية .

وقد ظلت اللاتينية القديمة لغة كتابة حتى نضجت لهجات محادثتهم وكمل نموها ، فاستطاعت أن تنحى اللاتينية عن وظيفتها وتحل مكانها ، فأصبحت الفرنسية والإيطالية والأسبانية والبرتغالية والرومانية ، التى كانت لهجاتها عامية تستخدم فى المحادثة العامية فحسب ، أصبحت لغات كتابة وآداب ، وقد تم ذلك حوالى القرن السابع عشر الميلادى ، ولكن ظاهرة الازدواج القديمة لم تلبث أن انبعثت مرة أخرى ، وذلك أن لهجات الحديث فى هذه الممالك التى كانت فى المبدأ متفقة مع لغات الكتابة فيها ، قد أخذت تتطور شيئا فشيئا ، وتنحرف عن أصولها الأولى . بينما ظلت لغة الكتابة جامدة على حالتها القديمة ، وبذلك أصبحت لهجات الحديث فى هذه الممالك تختلف اختلافا غير يسير عن لغات الكتابة فيها ، صحيح أن الفرق بينهما لم يصل بعد إلى مقدار الفرق بين لهجات حديثنا والعربية الفصحى ، ولكن الهوة بينهما سيزداد اتساعها شيئا فشيئا ، حتى تصل

هذه الأمم إلى حالة شبيهة بالحالة التى كانت عليها ، وقت أن كانت لغة الكتابة فيها هى اللاتينية . فاختلاف لغة الكتابة عن لغة التخاطب ليس إذن أمرا شاذا ، حتى نتلمس له علاجا ناجعا ، بل هو السنة الطبيعية فى اللغات ، ولن تجد لسنة الله تبديلا » .

***

النقاش

لقد كان شبه إجماع من السامعين فى إقرار المحاضر على رأيه إلا بعض نقاط أشرت إليها من إمكان صعود العامية إلى مستوى الخاصة فى اللغة ، وبرهان ذلك ، القدر الجامع بينهما فى فهم الفصحى ، فإن العامى يفهم خطيب المسجد فى الجمعة والمحاضر فى المعاهد والمحافل ، ثم طويت النقاش معولا على التعليق .

التعليق

أتساءل ونفسى بعد سماع المحاضر : لم كان تطور اللغة سنة من سنن الطبيعة ؟ ومن يقول بأن سنن الطبيعة وقف على التغير والتبدل فى جوهره ؟؟ أفما نرى أن كلا من الإنسان والحيوان والنبات والجماد ثابت فى جوهره القائم عليه كالعقل فى الإنسان والنباهة فى الحيوان ، والنمو فى النبات والركود فى الجماد .

هل اللغة شىء خارج عن الإنسان أم داخل فى حيزه ؟ إن الثابت علميا أن الصوت جزء من قوة الناطق خالدة بخلوده فى عالم نسميه أثيرا ويسميه الديانون باللوح المحفوظ ، ولهذا يفكر العلماء فى الكشف عن أصوات القدماء فى صميم هذا اللوح الحساس الحافظ لكل ما يرتسم عليه حتى الصوت ، وإذا كان الصوت خالداً بخلود الصادر عنه ، فلم لا تخلد الحروف التى هى موسيقى الصوت واهتزازاته ؟ ؟

إذن ليس فى الطبيعة شىء يتغير بجوهره ، فإن العين فى الإنسان تبصر أخيرا كما أبصرت أولا ، وإن الأذن كما سمعت أولا تسمع أخيرا ، وهكذا نجد النبات كما نما وأثمر أخيرا نما وأثمر أولا ، على أن التطور قد يكون فى زيادة النمو أو نقصه لا فى تغيير جوهر النمو والإثمار ، وهذا التطور ناشىء عن الإنسان المتحكم أو المسيطر على استثمار هذا الجوهر .

فتطور الفاكهة والحبوب من حده الأدنى إلى ما نراه عليه اليوم ، إنما كان بفعل العقل الإنسانى من وراء العلم ، وهذا الفعل ليس طبيعة ، وإنما هو تطبع . فيستطيع الإنسان أن يثبت على حال ، أو أن يتبدل بها حالا أخرى ، فالتطور الذى نطلق عليه التلوين أحيانا ، والتصرف بالجوهر تحويرا وتحريرا أحيانا أخرى،هو من صنعنا وخاضع لإرادتنا ، ولهذا كانت الإرادة مناط الأعمال فى حدود الإمكان ، وليس لهذه الإرادة أن تعدم أو توجد .

بعد هذا نرجع إلى اللغة ، فهى فى جوهرها الأول وهو العناصر التى تتركب منها والمعبر عنها بالحروف الهجائية ، لايمكن أن يعتريها تغير بزيادة أو نقصان ، وفى جوهرها الثانى وهو وضعها الأول للمعانى مركبة من هذه الحروف لا يمكن أن يعتريها أيضا تغيير أو تبديل بزيادة أو نقصان ، فلفظ الحجر مثلا وضع لهذا المعنى الذى نفهمه ، وكذلك القول فى غيره كالرجل والمرأة وأسماء أفعالها ، لا نستطيع أن نغير هذا الجوهر أو نبدله إلا بأن ننقض الجوهر من أساسه ونتواطأ على وضع غيره فتصبح لدينا لغة أخرى تتميز عن الأولى بجوهرها .

وهناك جوهر ثالث وهو الوضع الأول للروابط التى تصل الكلمة بالكلمة ، حتى تنشأ الجمل كالأدوات فى اللغة التى تواطأنا على توسطها بين الأسماء والأفعال لأداء معان لايتوفر التفاهم إلا بها ، وهذا الوضع هوأيضا جوهر لايعتريه تغير ولا تبدل ، فلايسوغ للقائل أو الكاتب أن يستعيض بحرف الجر عن الحرف الناصب أو الجازم ولا بالعكس ، كما لا يسوغ له أن يرفع المفعول وينصب الفاعل ، ثم يزعم أن هذا سنة من سنن الطبيعة التى لا تتبدل .

أين ينشأ التطور إذن فى اللغة ؟ ؟ ينشأ فى الاشتقاق والتجوز والتعريب ، ولهذه الثلاثة وضع فقهاء اللغة أصولا وقواعد تحفظها من العبث المفضى بالجاهل إلى تحكم يفضى باللغة إلى الانحلال ، فالتقيد بهذا العلم المهيمن على اللغة ، كالتقيد بالعلوم المهيمنة على غيرها من جواهر الأشياء ، ليس فيه استحالة ولاجمود ، فكما نستطيع تلقين الطفل لغة العامة

الجاهلة نستطيع تلقينه لغة الخاصة المتعلمة ، وكما كان ينشأ فى الجزيرة العربية فصيحا يمكنه أن ينشأ فى أى قطر آخر فصيحا .

فإذا سادت الثقافة فى العالم العربى ، واحتفظت بلغتها الفصحى ، واعتنت الأم بتلقينها للطفل كما تلقنه العامية ، نشأت الأمة كلها فصيحة كما تنشأ كلها عامية إذ تواطأت على تلقينه لغة العامة ، وأما العسر الذى أصاب العرب بعد الفتح الإسلامى فى رد الأمة إلى الفصحى فقد نشأ من تمازج اللغات فى أمة واحدة هى الأمة الإسلامية ، إذ أصبح العربى والعجمى ينضويان تحت لواء واحد ، فكان من الطبيعى أن يتفاهما بلغة هى خليط من عربية وعجمية .

لذلك عمد الفقهاء إلى وضع العلوم البيانية ليصونوا اللغة العربية من الانحلال ، فوضعوا قواعد للتجوز والتشبيه والتعريب والاشتقاق حفلت بها كتب اللغة التى بين أيدينا ، وعم استعمالها فى المربدين البصرة والكوفة وشاعت فى الأندية والمحافل وأوشكت اللغة الفصحى أن تستهلك العامية فى زمن هيمنت أمة العرب معه على الأرض ، فلو عنينا بالثقافة وعممناها حتى تنال الرجل والمرأة ، ثم فرضنا على الأم تلقين الطفل لغته الفصحى ، لأمكن أن نعود إلى العصر الجاهلى الذى احتفظ بفصحاه ، إلا النادر ممن تأثر بجواره من الأمم المحدقة به ، ثم لم يكن لديه من العلوم مايعصمه عن العجمة فى لسانه .

وليس فى اتساع الرقعة العربية وتعدد شعوبها ما يحول دون الاحتفاظ باللغة على أصولها ، فإن الولايات المتحدة أوسع رقعة من بلاد العرب وأكثر شعوبا منها ، ومع ذلك لانجد تفاوتا يذكر بين لغة الأميركى فى نيويورك وأخيه فى سان فرنسيسكو ، ذلك لأن تعميم الثقافة وتلقين الأم طفلها لغة المدرسة ، يحتم على الأمة أن تنشأ فصيحة فى لغتها غير متعددة اللهجات فيها ، فلم ألاحظ وأنا أطوف تلك الأقطار إلا تغيرا لايكاد يذكر فى اختزال بعض الحروف وإمالتها ، فقط وأما فى جوهرها فقد وجدت الأفراد والجماعات خاصة وعامة متحدين فى التفاهم بها .

ولقد هم الغربيون أن يضللونا بتأثيرهم على الناشئة العربية التى وكلنا إليهم تثقيفها ، فعملوا على استهوائهم بالبهارج وشوهوا اللغة العربية فى نفوسهم ، فانقادوا لهم فى الرأى

وظاهروهم على الانتقاص من لغة القرآن ، لأنها لغة القرآن الذى أعجزهم بروعة أسلوبه وسمو بيانه ، وقد جد المبشرون عندنا فى لبنان أولا ، ثم فى الأقطار التى بسط المستعمر ظله عليها كمصر والسودان والمغرب الأقصى ، لقد جدوا فى تعزيز اللغات العامية ، حتى ألفوا الكتب فيها وأجازوا المؤلفين بها من العرب ، ولا تزال ظلالهم هذه تخيم على بعض الصحف والإذاعات التى ترى رأيهم فى أن لغة العامة ، أقرب إلى تفاهم الأمة من اللغة الفصحى .العقيمة بزعمهم

ولا تزال حكومة لبنان التى هى وليدة الاستعمار ، تغذى الصحف التى تكتب بلغة العامة ، وتمد الزجالين بها فى الصحف والإذاعة بقسط وافر من المال الذى فرضت جبايته على الأمة لتثقيفها وتهذيبها ، ولكن الحق الذى يرعى الحكمة والخير والجمال فى العالم ، زعيم بأن يدحض هذه المفتريات ، ويحط من قيمتها فى النفوس الحية الخالدة .

فانا مع الباحث فى تمنيه أن تسود اللغة الفصحى ألسنة الشعوب العربية ، ولكنى أخالفه فى استحالة كونها تملك هذه السيادة ، إذ لا أفهم كيف نستطيع أن نلقن الطفل لغة الشارع ، ثم لا نستطيع تلقينه لغة المنبر ؟ ؟ ولا أوافقه آخر الأمر أن تطور اللغة العامية سنة من سنن الطبيعة ، وإنما هو من تواطؤ المجتمع ، ومن الجهل الحائل دون تهذيب اللغة ، كما يحول دون تهذيب النفوس .

فى سياق التعليق

من جميل مايضحك ، نزاع اللغويين المحدثين حول تعليل اللغة العربية فى نشوئها وارتقائها ، إذ يذهب بعضهم إلى أنها تطورت من أصل ثلاثى ثم زيد عليه ، وبعض آخر يذهب إلى أنها من أصل ثنائى ثم زيد عليه ، فقد رأيت أبحاثا للأب مرمرجى فى مجلة الأديب ، ومثله لغيره فى صحف أخرى ، وقام نزاع كبير بين هذا وبين الشيخ عبد الله العلايلى فى أصل اللغة ومشتقاتها ، وكل ذلك قائم على التخرص والتهجس .

وعلى سبيل الفكاهة ننقل للقارئ مثلا من قول الأب المحترم فى كلمة « عرب » إنها بجميع حركاتها ومعانيها مردها إلى الثنائى « عر » أو « عب » فمن تمثيله قوله : عرب التى هى مكسورة الوسط بمعنى : فسدت معدته فامتلأت من التخمة ، مأخوذة

من « عب » التى تفيد شرب الماء ، حتى تمتلىء بطنه « وقوله : عرب » التى هى مضمومة الوسط بمعنى تكلم بفصاحة ، أى أزال الإبهام ، فهى مأخوذة من الثنائى «عر» التى إذا مددناها فقلنا : «عرى» أفادت التعرية التى هى بمعنى «تجرد» ، أى أزال الثوب عن جسده .

وهكذا يمضى الأب فى الخلط حتى يأكل سبعة وجوه من مجلة الأديب يزدردها القارىء ، ولا يكاد يسيغ حرفا واحدا منها ، كما كان زميله الأب «انستاس الكرملى» يأكل أعدادا من مجلته « الضاد » معللا تعليله هذا أو أشد إسفافا منه كقوله فى تعليل « جرسون » العجمية بمعنى خادم المطعم ، إنها من أصل عربى هو « جرصحون » وقس على هذا كثيراً من أقوالهم فى اللغة ومع ذلك تجدهم أعضاء فى المجامع العلمية كمجمع الشام والعراق ، ثم لا يخجل مجلس المجمع من انتساب هؤلاء وأمثالهم إليه .

والغموض الذى حال دون التفكير الصحيح فى رؤوس هؤلاء واضرابهم من المتنطعين ناشىء عن عدم فهمهم ، بأن اللغة القائمة فى أصولها وقواعدها على حكمة ، إنما هى تراث حكيم خلق العقل وخص به الإنسان ، فألهمه وسيلة التفاهم التى هى اللغة كما ألهمه فقه الحياة الذى هو الدين .

إن هذه الفئة المتزلزلة بعقيدتها فى خلق العقل عن طريق الالهام ، يتشبثون بنظرية النشوء والارتقاء وأن الإنسان حيوان ترقى فيضطرون إلى تعليل لغاته بالنظرية نفسها وأنها همس أو إيماء تطورت بتطور الإنسان .

فإذا آمنا بالشذوذ والعبقرية فى أفراد كل نوع من موجودات الكون ، وأن المعجزات وليدة هذه العبقرية ، فلم لا نعد اللغة واحدة من هذه المعجزات فجر الخالق الأول بها دماغا عبقريا فجاءت مثلا أعلى لتحريك اللسان كما فجر هذا الخالق دماغا عبقريا بعلم أوفن أودين فجاءت هذه مثلا عليا لتحريك الفكر ؟ ؟

لم لا تكون اللغة مخلوقا أول مع الإنسان كالفكر والعقل روحا أو كالعين والأذن مادة ؟ ؟ ، لم نكل خلق العقل الذى هو اسمى من اللغة إلى خالق أعلى من الإنسان ثم نحار فى خلق اللغة التى هى دون أى شىء فى عالم الإنسان المخلوق ؟ ولم نعود

فى تعليل العقل أو الروح إذ نخفق فى اكتناه سرها إلى خالق ليس فى طوقنا ادراك سره ثم نتمحل فى تعليل اللغة القائمة على نظام يحار العقل فى اكتناه سره ! !

وماذا يكون لو اسندنا خلق اللغة إلى مصدر خلق الإنسان بطريق الوحى بعد نفخ الروح فيه ؟ ؟ أفلم يقل بهذا كثير من مفكرينا الأول الذين يبنون على هذه النظرية تفسير الآية القائلة : « وعلم آدم الأسماء » ؛ ؛

أيها الناس : لقد شبعنا من الأوهام والتخرصات فى تحليل وتعليل كل شىء ثم لا نصل إلى الحقيقة فى إدراك سر أى شىء ، فاللغة كائن حى هو كالإنسان مخلوق متطور تطوره وصادر عن مصدره ، كما أن روحه وبدنه وحتى العرض الصادر عن جوهره مخلوق خلقه وصادر عن مصدره ، هكذا ينبغى أن نربى عقائدنا فى هذا ثم ننصرف إلى استغلال هذه العقائد فى كشف الحقائق المكنوزة فوق السماء وتحت الأرض ، مما نعمى عنه ونحن غرقى فى التفكير بهذه السفاسيف التى حالت بين اجدادنا وبين ما بهرنا اليوم من معجزات الوجود .

حياة المحاضر

نشأته ودراسته

ولد حوالى سنة (١٩٠٠) ، فى قريته « حاروف » من قضاء صيدا أحد ألوية لبنان الجنوبى ، وهو المسمى «بجبل عامل» ، وكانت دراسته الابتدائية فى النبطية حاضرة هذا الجبل ، ثم هاجر إلى العراق تلبية لوالده الذى شاء له دراسة الفقه والعلوم البيانية فى جامعة النجف ، وبعد عوده أحرز شهادة ثانوية من مدرسة الجامعة العلمية بالشام ، وبفضل هذه الشهادة هاجر إلى لندن واعتزم الدراسة فيها ، ولكن الجو الذى لم يلائم مزاجه اضطره للعودة ، بعد أشهر من دخوله إحدى كلياتها .



عمله

عاد إلى وطنه فامتهن التدريس الثانوى فى شرق الأردن ، ثم فى الشام ، ثم فى كلية التربية والتعليم بطرابلس ، ثم هاجر إلى أمريكا بضع سنين ، وعاد يحمل فكرة الصحافة ، فأسس فى بيروت مجلة «العروبة» وجمعية الإصلاح ، ونادى الحسين بن على ، ومدرسة الإصلاح ، واستمر يعمل حتى السنة السادسة والأربعين ، فتوقف عمله بسبب خلاف نشأ بينه وبين رئيس حكومة لبنان أدى إلى هجرته ثانية لأمريكا .

ثم عاد بعد سنوات يحمل مشروع تأسيس معاهد ثقافية لأبناء المهاجرة العرب عن طريق الجامعة العربية ، ولا يزال يقطن مصر لهذه الغاية ، وفى سبيل تحقيقها .

مؤلفاته

أصدر ثمانية عشر مؤلفا ، منها ثمانية داوين شعرية ، والباقى فى الأدب والاجتماع ، هـذا مضاف إلى مجلته التى استمرت سنين تكافح فى سبيل العروبة ، وهو يعمل بجهد لإعادة إصدارها فى القاهرة .

شخصيته بقلمه

يمتاز بكثرة رحلاته فى الشرق والغرب ، حتى أصبح التنقل جزءا من حياته ، وأصبح يخشى المرض فى وقف هـذه الرحلات ، وقد أقر الأطباء أن استقراره فى بيئة ما ، قد يفضى به إلى تضخم فى الكبد ، فهو مضطر إلى التقلب فى العالم ، إبقاء على كيانه سليما من العلل التى تنشأ عن الاستقرار لمن قطع الشطر الأكبر من حياته فى التنقل .

ويمتاز فى آثاره الأدبية بأنه لا يرى خيالا فى الفكر العالمى ، وإنما هناك حقيقة واحدة ، ظاهرة للحس يطلقون عليها لفظ الحقيقة ، ومستورة ينفذ إليها الفكر العبقرى فيشير بها ، ويطلقون عليها لفظ الخيال ، وحجته فى ذلك : أن الفكر الإنسانى محجور عليه أن يتصل بغير عالمه ، فكل ما يصدر عنه هو رهن بهذا العالم ، وقد أوضح ذلك فى فصول مسهبة من كتابه « بلاسم » .

المحاضرة الثانية

الأدب

ما هو الأدب ؟ ما الغاية منه ؟ من هو الأديب ؟
ما هى رسالته ؟ ما الفرق بين الأدب والفن ؟
و بين الأدب والعلم ؟ كيف نعالج المجتمع بالأدب ؟ ؟

الأدب فى أصل اللغة الظرف ، والأديب الظريف ، ولهذا اختص بمجالسته الملوك والأمراء وأعيان الأمة فى كل عصر ، فكان نديما تارة ، ومستشارا طورا ، ووزيرا تارة أخرى ، وقد يصل إلى الملك بأدبه . والأدب فى الشخص الذى هو ظرفه المفضى به إلى مجالسة الملوك والإدلال عليهم والإغراء بهم إلى حد الجنون ، أقول : هذا الأدب يتعلل بأن يكون صاحبه جامعاً لكل ما يدنيه من قلب جليسه،ويخف به على روحه من صفات ومواهب يختص بها دون غيره .

أما هذه الصفات وتلك المواهب فهى فى الأديب من صميم الفن والعلم ، فالأدب علم بذاته ، وقوامه تمازج العلوم والفنون فى نفس الأديب واختمار هذا التمازج حتى يصبح لوناً جديدا فيه لا هو علم ولا فن ولكنه علم وفن معا ، فليكون الرجل أديباً أى ظريفا يجب أن يكون موهوبا ملهما قبل كل شىء ، فهو بهذا فنان ، وإلى هذا الإلهام يجب أن يكون عالما لا علامة ، بل ملما بطرائف العلوم التى تصقل روحه وتذكى فكره وتثقف عقله وتهذب خلقه ، فالتاريخ والقصص والنسب والرواية والفراسة والعرافة والكهانة ثم الشعر والخطابة والكهانة ، كل ذلك مما يتقوم به الأدب جزئيا لا كليا ، وبهذا يصبح الرجل أديبا يعوز كل ذى إمرة أن يدنو منه ، ويخلص له ، ويدل عليه .

والأديب إنما كان عالما لا علامة ، وأدبه يتقوم بما ذكرنا جزئيا لا كليا ؛ إنما كان ذلك كذلك إذ يستحيل على الإنسان وهو محدود العمر ومحدود الفكر أن ينضج فى العلوم جمعاء ، لذلك كان على المثقف ليكون أديبا أن يلم بالعلوم إلماما لتتوفر لديه نواة الأدب الذى هو مجموعة من الفنون والعلوم تتقوم بها روحه ليكون بها محظيا عند الخاصة من الناس مقبلين على المتعة بأدبه ، وفى هذا ما فيه من طبع الأرواح بطابعه الذى هو رسالة الأديب كما سيجىء .

على أن الأديب إذا أمعن فى درس علم ما واستهواه الخوض فى أعماقه خرج على الأدب وامتاز عن صنف الأدباء ودخل فى حظيرة الحكماء الذين هم أصدقاء العزلة ، وهواة الوحدة ، وأعداء المجتمع الصاخب ، لأن الوحشة كل الوحشة عند هؤلاء أن يفرغوا إلى الهرج والمرج من تفكيرهم الذى يلصقهم بالطبيعة الحافلة بأسرار الحياة .

على أنهم إذا شاءوا تدوين أفكارهم فى العلوم ، أعوزهم شىء من الأدب ، لأن التدوين فن يستلزم فى ذيه ملكة الكتابة التى هى واحد من فنون الأدب ، فعلى كل عالم يجب أن يكون متأدبا لا أديبا فى سبيل تدوين علمه ؛ ليستهوى قراءه ، ويكاد يكون الاستهواء قاصرا على الفنون ، فكل عالم يجب أن يكون ملما بالأدب كما أن كل أديب يجب عليه أن يلم بالعلوم ، على أن الإلمام بالعلوم والفنون هو كل مهنة الأديب وأما العالم فإلمامه بالأدب من كمالياته .

الفنان يرسم خطوط الحياة للأمة ، والعالم يبنى الأمة أو يطبعها وفق هذه الخطوط أو النظم ، وأما الأديب فيعمد إلى تصوير هذا البناء ثم يعرض صوره على مسرح الحياة الخالدة من وراء العين والأذن ، فالفنان مؤسس للحياة ، والعالم هو البانى لها على تلك الأسس ، وأما الأديب فهو المشرف على التأسيس والبناء إشرافا يشترك فيه مع الفنان فى توطيد الأسس ، ومع العالم فى تلوين البناء وتكوينه ، ولعله يحتل منهما مكانة المساعد فى الهيمنة والتحضير .

والأدب أنواع : منه ما هو عالمى ، ومنه ما هو إقليمى ، ومنه ما هو فردى ، ثم منه ماهو جديد ومنه ما هو قديم ، أما الأديب العالمى فهو من أشرف بطبعه وتطبعه

أى بروحه وفكره على العالم ، وخبر أدواءه وشخصها ثم عمد إلى معالجتها بلسانه وقلمه ، وأما الأديب الإقليمى فهو القاصر بإشرافه على قومه والمحيط الذى ترعرع فيه ، فترى نتاجه من نظم أو نثر وقفا على معالجة ما يشعر فى قومه من داء ، وأما الأديب الفردى فهو نديم الملك أو سمير الأمير ، تجد هذا مسيرا بأدبه وفق هوى سيده الذى يخلد إليه فى كل ما يقول ويكتب ، فإذا كان سيده يطرب لأخبار الأقدمين وأشعارهم ، كان الأديب معه أسطورة يستحيل معها قديما بروحه وبدنه ، وإن كان السيد عصريا كان المسود إلى جنبه ذلك الأديب المجدد الذى يستطرف له أروع ما ينتجه العصر ، فهو نسخة عن سيده الذى يجالس ، أليس هو ولى نعمته ؟ ؟ أو ليس الأدب فى هـذا النوع من الناس وسيلة للعيش ؟ ؟

على أن هذا التحديد فى أنواع الأدب أو أصناف الأدباء غير جامع ، وإنما هو على وجه التقريب ، لأن التداخل فى أنواع الأدب كائن حتما ، إذ ربما كان بعض مايمتاز به الأديب جديدا ثم هو يشارك مجموعة من الناس تأصل فيهم القدم بدافع التعصب له ، فكان من الضرورى أن يتأثر ذلك الأديب بمحيطه هذا على ضيقه ؛ لأنه يعيش فيه ، وربما كان هذا الأديب قديما بطبعه لأن روح الأدب والفن وراثياً أكثر منه كسبياً ، بخلاف الروح الفكرى فى الأدب أو الفن فإنه كسبياً أكثر منه وراثياً ، أقول : ربما كان هذا الأديب قديما فيما يرث من أصلاب جدوده ، ثم ينشأ فى مجموعة من الناس تنكروا للقديم بدافع التجديد فيما ينبهون له أو يقلدون فيه ، فيخرج أدب هذا أو ذاك خليطاً من القديم والجديد.

وبين هذه الأنواع من الأدب مراحل وضروب شتى ، فقد تجد فى أدب الأديب فكرة قديمة فى أسلوب طريف ، أو تجد فكرة حديثة فى أسلوب عتيق ، وقد تجد الإلهام نفسه قديماً فيه فيدعو قومه للبناء عليه ، ثم تجد الفكرة التى يستلهمها من محيطه تناقض عتيقه هذا فيقع فريسة اضطراب نفسى ينعكس هذا الاضطراب على مرآة فنه فيخرجه حائر اللون متناقض البدع مفكك الأوصال ، وكم ضل الدارس لهؤلاء فى أدبهم وهو يحاول تحليله فيعيى عليه ، وكثير من هؤلاء ينشأ فى المحيط الحائر بين المحافظة والتجديد .

والأديب المجدد يجتاز فى الأدب مراحل ليكون أديبا عبقريا ، فالمجدد فى مفهوم الناس اليوم هو الأديب العصرى شاعراً كان أو ناثراً ، والأديب العصرى هو من يعنى بتصوير الحياة الحافلة به تصويرا فنياً ليبعث بها إلى الأجيال المقبلة صورة عن حياة قومه أو عالمه ، على أنى لا أرى فى نسبة التجديد إلى هذا النوع من الأدباء حقا ، لأن مصور الحياة التى تحدق به لم يأتنا بجديد إلا فى مقابل الأديب العتيق الذى يعنى بتصوير الماضى من حياة الأمم ، وتسمية هذا الأديب بالعصرى أصدق عليه من كلمة مجدد ، لأن المجدد يؤخذ فى مفهومه تجديد الحياة وهذا كاشف لا مجدد ، فهو إذن عصرى فقط لا جديد معه .

أما المجدد فيجب أن يكون نوعا آخر من الأدباء ، وهو من تنبأ فيما يتنزل عليه من وحى بحياة جديدة لم تكن فى عهده ، ولا فيما تخلف عنه من عهود ، ثم عمل بفكره الجبار على خلق نظام جديد لحياته هذه التى يدعو إليها العالم ، وفى صميم هذا النظام تخير البنود السامية من نظام حاضره وأنظمة ماضيه ، ثم إضافة ما يعوزها من بنود تصلح للمستقبل إلى هذه الراهنة بين يديه ، وإخراج ذلك كله ناموسا حيويا يضمن فيه للعالم خلود إنسانيته المهددة بالفناء من فساد النظم السائدة فيها .

وهذا الخلط أو التلفيق فى النظام العالمى ضرورى ، ولعله من الضرورة بمكان ، لأن الإنسان نفسه ليس جديدا محضا ولا قديما محضا ، وإنما هو خليط من القديم العريق فيه ، ومن الجديد العارض عليه ، ثم من المستقبل الذى ينزع إليه بدافع التطور الذى هو سنة الخلق فى عالم الأزل ، وعلى الطبيعة فرض أزلى هو إعداد أبنائها لما يستقبلون من حياة ، فالإنسان إذن هو مفروض فى حياته على ماضيه وحاضره ومستقبله ، فإذا فكر وهو أديب — والأديب مشرع — إذا فكر فى إبداع سنة أو نظام لأبناء جلدته ، كان عليه أن يربط ماضى الإنسان بمستقبله ، ولعله لا يستطيع أن يسن شيئا لم يكن ألبته ، وإنما يسن ما هو فى صميم نفسه مكونا ، ثم يعرض عليه التلوين ، فالأصول عريقة فيه لكل نظام ، ولكن التطور يدفعه إلى شىء من التخطيط والتلوين العارضين على الكائن بين يديه .

فالإنسانية منذ كانت وإلى منتهى ما ستكون ، هى سلسلة مفرغة الحلق يتصل أولها بآخرها ، ويشترك آخرها مع أولها فى كنه السلسلة ، أو الغاية التى من أجلها كانت ، ولعل هذه الإنسانية حلقة من سلسلة الكون الذى نجهل سره ونحن فى صميمه ، وهذه الحلقة مستديرة يشيع فى كيانها نظامان : أولهما ذاتى تتقوم به ، والثانى خارجى يربطها من طرفها بسلسلة الوجود ، وهذا الرباط يضفى عليها شيئا من الروح القدسى المهيمن على الكون .

أقول : مهيمنا على الكون لا أنه الكون ذاته ، لأن المخلوق لا يمكن أن يهيمن على نفسه ، حتى يكون مستقلا فى حياته ، وهل نجد فيما نخلق من آلات ، ما يهيمن على نفسه فيعصمها من الفساد إذا لم نساعده فى الهيمنة عليه ؟ ؟ فكيف ندعى الهيمنة على نفوسنا ونحن نجهل كيف جئنا وإلى أين نصير ؟ ؟ ثم نجهل الغاية التى من أجلها كنا ، فلابد إذن لهذا الكون الذى نعتبره مخلوقا ، من مهيمن عليه يمسكه خشية الفساد المفضى به إلى العدم .

أما أن المشكل فى كون المهيمن يجب أن يحيط بأسرار هذا الكون ويشعر بكل ما يختلج فيه من نبض وهو غيره ومنفصل عنه ، أما هذا المشكل الذى لا يطيق تصوره بعض من فكر أو يفكر فى كنه الكون وتحليل عظمته والتدليل على مصدره ومآله ، أما هذا فيدفعه شىء من الحكمة فى التفكير واستنتاج ما لم يقع تحت حسنا مما وقع ثم قياس الأول على الثانى تعزية للنفس الحائرة القلقة فى هذا الكون حتى لا تغور فيه وهى فى حاجة للبعث إليه ثانية فى سبيل الكمال والتهذيب ، بينما نحاول لهذه النفس بنشدانها الكمال أن تغور فى الكون ثم لا تعود إليه إلا وهى اسمى مما كانت فيه .

أعرف خبيراً آليا « ميكانيكيا » كانت تعرض عليه السيارة إذا اختل فيها شىء فيركبها ثم يدفعها إلى السير بشدة بضع دقائق ثم يقف فيعرف موطن الخلل من أجزائها دون أن يفككها ، وأعرف خبيراً آليا آخر كانت تعرض عليه « آلة سنجر » للخياطة وهى مختلة فكان يعرف مناط الخلل منها إذ يسمع حركتها وهى تعمل ، وأعرف تاجراً بزازاً كان يعرف جودة الصوف من لمس قماشه وأعرف صيرفيا كان يصب من يده اليمنى

فى يده اليسرى فيعرف الزائف من الصرف والخفيف من الثقيل دون أن يزنه أو أن يعرضه على المحك ، وأعرف بعـــد ذلك طبيبا كان يعرف العلة أين هى من المريض إذ ينظر فى وجهه أو يجس نبضه .

فإذا أدت مزاولة السيارة وامتهان قيادتها بالخبير إلى تحسس الخلل فيها من مباشرة السير عليها فإلى ماذا يصل «هنرى فورد» من تشخيص العلة وهو مخترعها ؟ ؟ وإذا عرف الخياط الماهر علة الآلة التى يتقوم بها فنه لمجرد لمسها وتحريكها ، فماذا يدرك هذا الخلل «سنجر» وهو مركب آلتها الأول ؟ ؟ ثم إذا كان التاجر البزاز يعرف جودة الصوف والقطن والحرير من وراء لمسه فمن وراء ماذا يعرف هـذه الجودة أو عدمها حائك الصوف والقطن والحرير ؟ ؟ وإذا كان الطبيب يشخص العلة فى باطن المريض إذ ينظر فى وجهه أو يجس نبضه فماذا يشخص هذه العلة خالق الطبيب والمريض ؟ ؟

أفلا نخجل من أنفسنا إذ نصل إلى هذا الحد من البرهان ثم نقف دون أن نذعن للمنطق ؟ ؟ وإذا كان الإنسان قد أوجد اليوم آلة تحصى على المرء ما يخرج من فمه حتى النفس كالحاكى وما يتفرع منه ، وإذا كان قد اكتشف شعاعا يكشف عما يكنه المرء بين جنبيه من قلب وكبد حتى يريه حركات هذين وتصفية الدم وجريانه فى العروق ، وإذا كان قد اخترع المجهر فرأى به مالا ترى العين من دقائق الحياة فى الجسم ، أفلا نصل من ذلك كله إلى احتمال أن يكون فى مقدور خالق الإنسان فوق ما فى مقدور الإنسان وهو مخلوق له ؟ ؟ فنؤمن باللوح المحفوظ الذى يحيط بالكون وهو يلتقط كل حركة فيه فيحفظها قبل أن تكون ، ونؤمن بشعاع خفى عنا يكشف للحق عن ضمائرنا حتى يتحقق لديه ما يجول به الفكر من خواطر ، وما توسوس به النفس الأمارة بالسوء من آثام ؟ ؟

لم نرى هذا سهلا علينا ولا نراه أسهل على من هو فوقنا من عالم خفى عنا ، فضلا عن خالق العوالم كلها وبارىء هذا الكون مما نجهل ، والباعث به إلى حيث نجهل ؟ أفليس فى إمكان هذه القوة العليا التى نشعر بها فى نفوسنا ، ونحس بالضرورة الماسة إلى الاحتفاظ بها حقيقة راهنة نتعزى بها عما نجهل فى مصائرنا ، أقول : أليس فى إمكان هذه القوة التى ابتدعتنا ثم أحاطتنا بكون لا نهاية له فى العظمة ، أن تشرف عليه إشراف

الصيرفى على الذهب، والطبيب على المريض، والسائق على السيارة ، فيدرك الخلل فينا وهو منفصل عنا .

إن النبات يتقوم فيما يتقوم بالنور والهواء ، والنور من الشمس وأين الشمس من النبات ؟؟ والقول بأن النور مادة تنفصل عن الجرم المنير غير ثابت كليا : إذن فى استطاعة الشىء أن يهيمن على شىء آخر وهو منفصل عنه أى لا تجمعهما حقيقة واحدة وإنما يجمعهما تبادل الحياة فى الكائنات سلبا وإيجابا ، وكم نجهل — الجهل التام — كثيرا من تعليل وتحليل عناصر ما هو تحت السمع والبصر منا ، فكيف ندرك العلة التى يتقوم بها هذا المجهول ، فالإيمان بعظمة الكون من لوازم المنطق الذى بفضله نتلمس الحياة من وراء العلم والفن والأخلاق ، وهذه العظمة التى تفرض على عقولنا الخضوع لها جديرة بأن تكون مظهرا من مظاهر القوة التى يستقيم بها الكون بين يدى نظام لو تأثرناه بأنظمتنا لضمنت لنا الخلود .

إن من صميم الأدب أن نصير إلى هذا البحث فى سبيل ما يعترض الأدب من عبث فى توجيه الفكر ، والعقيدة الراسخة فى كل شىء هى قوام الأدب الحق فيه ، أما الزلزلة فى العقيدة ، فينشأ عنها الأدب الهدام ، إذ يكون وليد فكر حائر قلق ، واهتزاز المرآة تريك شخصك — وأنت تنظر فيها — غريبا عنك ، فكيف ترجو منها أن تريك الحقيقة التى لا غرابة معها فى شخص غيرك ؟ ؟ ليعمد الأديب قبل كل شىء يأتيه إلى تثبيت العقيدة فى نفسه أنه على حق بكل مايقول ويفعل ، ثم إلى إحكام الفكر فى التوجيه إلى حيث يصلح أسرته أو شعبه أو عالمه ، ثم ليضع بعد ذلك رسالته القدسية فى تقويم البشر من وراء ثقته بما يضع ، واطمئنانه إلى ما يبدع .

وإذا فات الحكيم اطمئنانه إلى عقيدته فيما وراء الكون فاته كل اطمئنان إلى هذه العقيدة فيما هو ضمن الكون ، فإن أحقر ذرة بين أيدينا تتصل اتصالا وثيقا بأعظم جرم يتقوم به الكون ، ولقلق وتزلزل هذه العقيدة الأولى فينا ، نرانا قلقين متزلزلين فى كل ما نحاول الوصول إليه من أسرار الحياة ، كما أن لثبات هذه العقيدة فى أقطاب الروح منا = أنبياء وحكماء = أثراً بينا فيما يسنون لنا من نواميس ونظم لا نعيش أو لا نستطيع العيش إلا من وراء التمسك بها فى هذه الحياة .

فإن الحكيم المصلح إذ قال لنا : « اعرف نفسك أولا » أشار لنا عن ثقة وبصيرة وإيمان ، إلى أن معرفتك الخارج عنك هو رهن بمعرفتك الداخل فيك ، فعلى قدر معرفتك نفسك يقاس عرفانك غيرك ، وفى هذا يشير الحكيم إلى أن تفكيرك فى دقائق ما تتقوم به حياتك من بصر العين إلى بصيرة الفكر ، يشعرك بعظمة الخالق فى نفسك فتطمئن إلى وجوده ثم تطمئن من وراء ذلك إلى ضرورة الخشوع له والعمل على قربك منه ، وإنما يكون ذلك منك بأن تحذو حذوه فى دقة النظام الذى تسنه لإصلاح غيرك فى تطبيقه على نفسك قبل أن تحمل غيرك عليه .

والنبى المرسل إذ يوحى إليه فيبلغنا قوله : « فورب السماء والأرض إنه لحق مثلما أنكم تنطقون » ويعنى بذلك عقيدته الثابتة فى أن لهذا الكون ربا يكلأه ، وأن هذا الرب مسئول عن كل ما يشتمل عليه هذا الكون حتى أحقر ذرة فيه ، وأنه لم يدع مخلوقا إلا وقد أبلغه الحجة عليه من نفسه بالعقل ومن غيره بالهدى والإرشاد ، ولرسوخ هذه العقيدة فى قلب هذا الرسول ملك بناموسه ناصية الخلق وهو يقول : لقد أدبنى ربى فأحسن تأديبى ، فأذعن لناموسه هذا ملأ أخلص فى إذعانه فهيمن على العالم يوما ما ، ثم لم يفقد هذه الهيمنة إلا بعد فقده هذا الإذعان .

فماذا يرجوه المفكر منا اليوم ، حكيما أو شاعرا أو أديبا ، فوق ما حققته العقيدة فيمن تقدمنا من أنبياء وحكماء ؟ ؟ وهل أحرزنا شيئا باسم الأدب أو الفن أو العلم يحفظ لنا إنسانيتنا التى بها نحيا ونخلد آمنين مطمئنين إلى الحياة والخلود ، أقول : هل أحرزنا شيئاً على تقدمنا فى الثقافة والعلوم يقاس بما أحرزه أولئك من رعاية أنفسنا والحرص عليها من الدمار ؟ ؟ ، والعلم أو الأدب أو الفن إذا لم نضمن به الحياة لأنفسنا فأية حكمة ننشدها من ورائه وهو إنما انبثق عنا لحكمة واحدة هى الحياة .

أفلم نوجه علومنا وآدابنا وفنوننا إلى كل مايشل الأدمغة النابغة بالعلم والقلوب النابضة بالفن والألسن الزاخرة بالأدب ؟ ؟ أو ليس هذا كله فينا وليد العقيدة المعدومة منا أو المتزلزلة فينا بسوء التفكير فى الحياة من وراء المادة التى تهلكنا ونحن نقدم ضحايانا قربانا لها ؟ ؟ من أجل ذلك لا يثبت لنا نظام نسنه ولا يثبت فينا ناموس نبتدعه ،

لأنه وليد الزلزلة والقلق فى عقيدة يتقوم بها كياننا الذى تتقوم به نواميسنا ، وهكذا لا يثبت المعلول إلا بثبوت العلة ، ولا يستقيم العمل إلا من وراء الاستقامة فى العامل قبل أن يعمل .

فالمرآة ترتعش فى اليد المشلولة فتنعكس المرئيات عليها مضطربة مشلولة ، وذلك لأن اليد وإن لم تكن علة وجود المرآة ، فهى علة بعثها وتوجيهها للانعكاس ، وهكذا نجد كل رسالة تنبعث عن فكر مشلول أو عقيدة مضطربة ، تحمل إلى العالم شللا واضطرابا لأنها علة بعث هذه الرسالة وتوجيهها ، وإن لم تكن علة كاملة لخلقها ؟ ولهذا نجد الفوضى فى العالم سائدة كل ضرورى تستلزمه الحياة فينا ، فهى فى العلم والفن والأدب والخلق ، حتى كاد الإصلاح يصبح مستحيلا ، حيث استحال وجود المصلح الموجه من وراء عقيدة راسخة لا تتزلزل ، وعقل حكيم لا يؤخذ بالزخارف والأباطيل .

وإذا كانت رسالة الأديب العبقرى ، أو المجدد هى توجيه الناس إلى حياة أسمى مما يحيون ، فهى رسالة الأنبياء والحكماء ، فكم نال هؤلاء فى سبيل الرسالة التى أؤتمنوا على تبليغها من وراء الغيب ، والتى تنزلت على قلوبهم بلسان الروح القدس ، أقول : كم نال هؤلاء من أجيالهم بين يدى تلك الرسائل ظلم وتعذيب ، وهم صابرون محتسبون يستعذبون العذاب فى سبيل مثلهم العليا التى آمنوا بصلاحها من وراء العقيدة الراسخة فى نفوسهم أنهم على حق فى الدعوة إلى ما آمنوا به وأخلصوا له .

وهكذا تجد عباقرة الأدب والعلم والفن من أصحاب الرسائل المثلى فى كل جيل ، يتلقون الظلم والهضم على أيدى الطواغيت فى سبيل الدعوة إلى الإيمان بما يتنبأون لهم من حياة تنشط بهم من حضيض الركود والجهل إلى قمة يشرفون منها على حركة الكون والإحاطة بما يطالعهم وهم فى الذروة من أسرار الحياة ، فالأدب والعلم والفن هى مثل عليا تتلقاها القلوب الزكية وحيا يتنزل بها ملكوت السماء المهيمن على الأرض ، ثم يحتضنها العقل الذى هو الصلة الوثقى بين المادة والروح .

وفى الأدب سعادة وشقاء ، فالسعيد من كان مخلوقا للعالم أو الشعب أو الفرد الذى تأدب هو له ، وهذا النوع من الأدب يكاد يستهلك الأدب كله ، فالأديب منه يحاول

بما ينتج مس الشعور العام فى العالم أو الأمة أو الفرد على جهة الإيجاب ، فإذا منيت أمته بالبلاء ، كان هو الدمعة فى كل محجر ، وإذا نالها رخاء كان هو الابتسامة على كل فم ، يبكى إذ تبكى أمته ويفرح حين تفرح ، يصعد بصعودها وينحدر بانحدارها ، فهو هى وهى هو ، لا يخرج عن كونه واحدا منها ، إلا أنه يمتهن الرسم والتصوير فى تشخيص هذه المسرات وتلك الآلام ، فهو هو الأديب الإمعة لا خيرة له فى كل ما ينتج وإنما هو مجبر على ما يقول أو يكتب أو يخطب أو يشعر أو يعزف أو يرسم .

هذا هو الأديب السعيد ، وقد يكون أديبا حقا فيما يصور ويصوغ ويستلهم ، ولكنه أياً كان هو مخلوق لشعبه ، يتكيف به ويتلون بما يزدهى أمته من ألوان الحياة ، هو مستعبد لأمته أو عالمه أو مليكه ، لا استقلال عنده ولا ثورة فى نفسه ولا جذوة بين جنبيه ، ولكنه مفكر صالح لحياته المحدقة به ، حكيم فى توجيه فكره لاستلهام هذه الألوان التى تلقى عليه ظلا من محبة شعبه أو عالمه أو مليكه ، وترفعه إلى المكانة المرموقة فيهم أديبا مجاملا لا يخرج فيهم على عادة ولا يسفه لهم رأيا ولا يثور فيهم على مألوف .

وأما الأديب الشقى فهو الأديب الخالق لا المخلوق ، وهو الأديب الملهم لا المستلهم ، هو صاحب القلب الكبير الذى يسع أمته أو عالمه ويفيض عنه ، هو الأديب المستقل بذاته المكيف لعالمه والباعث فيه من روحه الوثابة المجددة ، ألوانا من حياة جديدة لم يألفوها ولكنهم فى حاجة ماسة لأن يحيوها ، يعمد فى أمته أو عالمه إلى تحطيم القيود التى سربل التقليد بها الروح فوقفت جامدة راكدة ، ثائر على الأباطيل فى نظمهم وعلى العوج فى أخلاقهم وعلى السيء مما يعتادون ، هو أبدا ثائر على الحكم الجائر فى قادتهم وعلى الصلف والخشونة فى كبرائهم ثم على الذل والاستكانة فى ضعفائهم .

فهو فى كل هذا يلقى العنت الذى ما بعده عنت ، ومن كل هذا يجنى الشقاء الذى ما بعده شقاء ، فهو مسئول عن تحمل ما يكيدون له من وراء تسفيههم فيما يحيون ، لا يرضى عنه الكبير لأنه يحاول هدم كيانه وتقويض عرشه ، ولا يرضى عنه الصغير لأنه يخشى الحرمان من فتات الموائد التى يحدق بها الأسياد ، وهو مسؤل بعد هذا كله عن توجيه العالم أو الأمة إلى المثل العليا التى تفضى بهم إلى أوفر عزا وأرقى مدنية وأسمى حياة ،

هو مسؤل عن الحق الذى ألهمه الإصلاح ، كيف يشق طريقه إليه ويحمل الناس عليه ؟؟ ولعله مسؤول عن تعبيد تلك الطريق التى يدعو أمته للسير قدما على نهجها القويم . هذا هو الأديب الشقى البائس المظلوم ، وهو هو الأديب العبقرى المجدد أو الأديب الخالق ، وكم هو نادر فى العالم ؟ ؟

ثم الأديب الملهم نراه أبعد الناس عن الضوضاء فى المجتمع الصاخب لأنه يعمل بقلبه والقلب يحتاج إلى الهدوء ، ولذلك كان هذا الأديب أقرب الناس إلى الطبيعة التى تلهم روحه وتصقل إحساسه وتغذى شعوره بما وراءها من روح يهيمن على الكون .

وأما الأديب المستلهم فهو أبعد الناس عن الطبيعة الخرساء لأنه يعمل بعقله والعقل يحتاج إلى المجتمع الذى نشأ عنه وتقوم به ، لذلك كان هذا الأديب المفكر أقرب الناس إلى الناس ليفكر ويستلهم ثم يدون .

والأديب الملهم هو الشرارة الأولى التى انفصلت عن حركة الروح الجبار الذى يمسك الكون ، تضطرم هذه الشرارة فى المجتمع فتذكى العواطف وتثيرها على كل شذوذ يفضى بالإنسانية إلى الركود والجمود ، ولهذا تجده وهو يعالج المجتمع بالدفع والتوجيه أشغف الناس بالمرأة التى تذكى ناره فتمد خزانه المضطرم بالقوة لئلا ينفد مما يحرك ويدفع فيبرد عن أداء رسالته . فالمرأة التى هى أقوى مخلوق على تغذية الروح وإلهاب العاطفة بين جنبى الأديب ، هذه المرأة قد تكون العنصر الهام فى بعثه خالقا لا مخلوقا .

أما الأديب المستلهم الذى يعمل على تنمية فكره وتغذية عقله ليضع النظم ويسن القوانين ، أو ليعالج العلل ويركب العقاقير أو ليبحث الأرض ويكتشف المعادن أو ليمتهن الصناعة فيما يحتاج إليه من طعام وشراب ، هذا الأديب يفوته أن يعبد الجمال فى المرأة لأنه مفتون بجمال الحياة المسبغ على ما يحدق به من نواميس ثابتة ونظم تبلى وتتجدد ، وعبر فى الحياة يشغله تحليلها وتعليلها عن أن يفتتن بجمال المرأة كيلا تحيله فيها وتعميه عن كل ما يدعوه للإمعان ، ذلك لأنه يفعل فى المجتمع فتقف المرأة فى وجهه فهو إلى الحكمة أقرب منه إلى الأدب ، وأما الأديب الملهم فينفعل بما تذكيه الطبيعة فى نفسه ثم تلقى المرأة حطبها على هذه الشعلة فيلتهب فينير ما حوله .

ولهذا نجد المرأة عندما تخبو شعلة الفن فى الأمة تصبح سلعة تباع وتشرى من أجل العمل ، ولهذا أيضا نجد الرجل المعنى بها وهو عالم أو تاجر أو صانع أو زارع إنما يعنى بها لأنها شريكته فى الحياة على اعتبار هذه الشركة مادية لا روحية ، لأن كلا من هؤلاء لا يفكر فى أن يطلب المرأة ليحيلها فى روحه فتذكى عواطفه ، وإنما يطلبها لتربى ولدا أو لتغسل ثوبا أو لتطهى طعاما أو ليقضى منها وطرا وراثيا فيه ، دون أن يفكر فى الرعشة التى تهز كيانه وهى تتحدث إليه أو تلوذ بين يديه .

فالمرأة بلا شك ، هى شريكة الأديب الملهم فى حياته ، ولكنها شركة روحية قبل أن تكون مادية ، وأنانية قبل أن تكون غيرية ، من أجل ذلك يتطلب فيها جمال الروح قبل جمال الجسم ؛ لتكون أقوى على إذكاء الروح فيه ، وإلهاب العاطفة بين يدى رسالته العالمية التى يضطلع بعبئها من وراء الإلهام ، وهو يتنزل على قلبه شعلة تنير العالم ، هذه الشركة بين المرأة والإنسان من هذا النوع هى شركة بناء تتقوم به المثل العليا ، لا شركة بناء يقوم عليه سقف يظل رجلا وامرأة وطفلا ، لا يتجاوز الروح القائم فيهم جدر هذا البناء .

وقد لا يكون الفرق الذى رسمناه بين الإلهام والاستلهام فى هذه الرسالة عند الفن أو الأدب ، أقول : قد لا يكون الفرق بينهما جليا واضحا ، من أجل ذلك أعود إلى القول عليه : إن الإلهام يطرق القلب ولو لم يتنبه القلب له ، وأما الاستلهام فعمل يقوم به الفكر من وراء ما يعوزه من حياة فى سبيل تنزل ذلك الإلهام عليه ، وفرق بين من يؤتى ولو لم يطلب وبين من يطلب فيؤتى وقد لا يؤتى ولو طلب ، من هنا نصل إلى تحديد الوحى الفكرى فى صياغة الفن بأنه تنزل على الفكر وهو يستنزله ، وإلى تحديد الوحى القلبى فى إبداع الفكرة الفنية بأنه تنزل على القلب وهو غافل عنه .

ففى الأثر الفنى كالشعر مثلا فكرتان ملهمتان : إحداهما تغلغلت فيه عن طريق القلب وهى ما نطلق عليه اسم الروح ، والثانية تغلغلت فيه عن طريق العقل وهى ما نطلق عليه لفظ الصياغة أو التصوير أو الأسلوب أو علم الفن ، وقد يطلق على هذه وحدها لفظ الفن ، وقد لا نبعد إن قلنا : إن فى الأثر الفنى روحين : إحداهما : تتغلغل فى اللفظ وهى روح الفنان المكتسبة مما يزاول الفكر فى اكتناه الحقائق وتلوينها . والثانية : تشرف على اللفظ

إشرافا مشعاً وهى روح الفنان الموهوبة — فاللفظ إذ ذاك يحتضن الروح الأولى احتضانا بينما هو يرمز إلى الثانية رمزا ، وما أشبه ذلك بالجسم الذى يحتضن فكرة الفن المادى ولكنه يرمز إلى الروح المنبثة فيه عن طريق الإشعاع المحسوس بالعقل والروح .

لذلك نجد التفاوت بين الشعراء فى الإلهام والاستلهام ، ففيهم من هو عبقرى فيما يستلهم؛ إذ يأتيك بأروع ديباجة حافلة بالفن الصناعى الأخاذ بين يدى عكس الحقائق باسم المجاز ، وهو محبوب للنفس النزاعة أبدا إلى الجديد ولو عن طريق الخيال ، وبين يدى جمال الذوق وجلاله فى تخير اللفظ وفصاحة التركيب وروعة الموسيقى ، إلى غير ذلك من علوم الفن التى هى قوام الهيكل المعد لشيوع الروح فيه ، بينما نجد هذا العبقرى فقيرا فى الإلهام الذى يتنزل على القلب فتشرق الديباجة عنه إشراقا يشعر السامع بما يهتز له ولا يطيق الكشف عنه مهما أمعن فى محاولة الكشف .

وعلى العكس نجد عبقريا آخر فيما يلهم ، يأتينا بأروع فكرة مخلوقة له قد تسبغ لونها على أمة أو على عالم فتبدله أو تغير منه ، بينما نجد هذا العبقرى فقيرا فى تفصيل الثوب الذى تظهر به تلك الفكرة رائعة أخاذة ، والعظمة كل العظمة فى عبقرية الشاعر يوم يجمع فى أثره الخالد روعة المثل الأعلى فى الفن موزعة على الفكرة والديباجة معا ، ذلك هو الفن المعجز فى ذوى الإلهام ، على أنا لا نحرم العبقرى المستلهم من الفكرة فإن الشعر لا يكون لفظا مجردا عن المعنى ، ولكن فكرته مستلهمة مما يحدق به من حياة مجتمعه ، فهى فكرة مبتذلة ومخلوقة لغيره يتناولها من الشارع فيلبسها هذا الثوب الزاهى الأنيق ، ويسبغ عليها لون حياته فتوهم الساذج أنها له ، أو أنها جديدة ، ولكنها فى الحقيقة روح مستعارة كروح الفتاة المقلدة فيما تتكلف من عمل تستهوى به الساذج ، بينما تجد نفسها أثقل من الصخر على قلب الشاعر الهائم بالروح .

والأديب أو الشاعر أو الموسيقى أو الرسام ، كل من هؤلاء مصور ، ومناط تصويره الفكر والروح على جهتى الإلهام أو الاستلهام كما قدمنا ، ويجتاز هذا التصوير حدود العالم النفسى إلى الخارج الذى نطلق عليه اسم الواقع بواسطة الجسم ، فاليد واللسان هى أفصح ما يعبر به الجسم عن الروح بالقول والكتابة والرسم والعزف ، وهناك تأثرات فنية

قد يعجز اللسان أو القلم عن الإفصاح بها ، فيتولى الفم بابتسامه ،والعين بدموعها ،وسائر الوجه بتلونه وانبساط أساريره أو انقباضها ، أو غير ذلك مما يشعر الناظر إليه بأن فى نفسه صوراً روحية لم يقو اللسان ولا القلم على الادلاء بها فأدلى بها الوجه وهو صامت .

والذى يخول الإنسان لقب أديب أو شاعر إنما هو إحكام هذا التصوير بإعلان دقائقه الخفية فى الرمز إلى الفكرة الحائرة فى عالم النفس من وراء الإلهام أو الاستلهام ، وليست الجدة أو العتق فى هذا التصوير مناط عبقرية المصور ، وإنما تناط هذه العبقرية بالحكمة الصارخة فى إبراز تلك الفكرة ، فقد نطلق لفظ العبقرى على من يعنى لنا بتصوير الأدب الجاهلى تصويرا نشعر معه بأنا جاهليون ، كما قد نطلق هذا اللقب على من يتنبأ لنا بحياة لم تكن فى ماضينا ولا هى تحت سمعنا وبصرنا ، فيصورها لنا تصويرا ينزع بنا إليها .

فالعبقرى إذن هو من يجيد التصوير بحكمة وإحسان ، ثم هو بعد ذلك إما قديم: وهو من عنى بتصوير الحياة الحاضرة ، وإما جديد أو خالق أو مجدد :وهو من عنى بتصوير حياة لم تكن ولكنه تخيلها من وراء الإلهام أو التنبؤ ورشح لها أمته أو عالمه ،

وفى يقينى أن الخيال فى لغة الأدب أو لغة الفن كله على الأصح هو من نوع الأدب الجديد الذى يشير إلى حياة لم تكن ، ويهيب بالعقول لتدبر هذه الأخيلة والعمل بفضل العقل على تحجيرها وإحالتها حقائق تتقوم بها الحياة المطردة فى الكون .

ولعل من مر به آنفا إطلاق لقب العبقرى على المجدد يحسب أنه وقف عليه ، لا ، إن العبقرى هو الحكيم فيما يصور للعالم من حياة سواء أكان هذا باعثا للحياة أم كاشفا عنها ، والحياة ليست ملكا لواحد منا وإنما هى صورة من إبداع الله فى عالم نحن منه ونجهل كنهه ؛لأنه يهيمن علينا ، فنسبة خلق الحياة أو الكشف عنها لنا ، هى نسبة قائمة على التجوز وبعيدة عن الحقيقة . فالفكر الذى يستلهم العالم المادى ، والقلب الذى يتلقى إلهام الروح ، كلا هذين مظهر من مظاهر ذلك العالم الخاضع للحق الأزلى فى الكون .

فللأدب نواح عدة نلحظ بها فنحكم على الأديب من وراء اتصال هذه النواحى بحياته وانفصاله عنها ، فقد يكون فى تصويره حياة مرت صلة هى أوثق بعصره من حياة

تلبسه أو يستقبلها فيما بعد ، أفليس فى ماضينا من روائع الحياة ما يصلح لنا أكثر مما نزاول بين أيدينا من حياة ؟ ؟

وكم ينزع بنا حنين قاتل تعقبه ثورات نفسية عنيفة إلى روائع ينقلها لنا الأدب عن حياة عبرت ونود لو أنها تهيمن علينا ، ذلك لأنا لم نحى الحياة التى نطمئن إليها ونتخذ منها مثلا أعلى يشبع نهمنا إلى الخلود ويحد من نزوعنا إلى حياة هى أسمى من حياتنا .

بلى . إن من عمد إلى تصوير التافه من حياة خلت هو أحط فى الأدب ممن يصور لنا التافه من حياتنا ، ويكون أكثر إسفافا من يتخيل لنا حياة أتفه من كلتا هاتين الحياتين ؛ لأن كل طريف مجهول هو خير من سخيف معلوم ، ولعل الطريف بعد أن تألفه الحواس ويأكل العقل المتطور عليه أجيالا من الناس ، لعله يصبح سخيفا ؛ لأن النفس بطبعها نزاعة إلى اكتشاف المجهول ، وكثرة السأم والضجر مما هو قيد البصر والسمع ، وليس الشاعر عابثا حين يقول :

سئمت كل قديم عرفته فى حياتى
إن كان عندك شىء من الجديد فهات

انتهى ملخصاً عن فصل من كتابه « بلاسم » وقد ألقاه على إخوانه فى مصر يوم : ٢١ / ١ / ١٩٥٥ فى ندوة عبد الله عبد الجبار .

محمد على الحومانى

المناقشة

لقد كان نقاش الدكتور عبد الواحد شفهيا ، تناول فيه العقيدة التى جعلها المحاضر سببا أول فى بناء الأدب الحق ، قال المناقش :

أعتقد أن لا صلة بين الأدب والدين ، ونحن نتكلم فى الأدب ، والعقيدة من صميم الدين ، فكم من ملحد وكافر وزنديق له فى الأدب يد مشكورة بارعة فى تصوير الحياة تصويرا لا يزال أثره عميقا فى نفوسنا منذ أجيال ، فهل نبخل على صاحب هذه الرسالة بلقب الأديب وهو الخالد بأدبه ؟؟

فمن الخطأ أن نقحم الدين فى الأدب ، فنخرج من صف الأدباء من فقد العقيدة بالله أو بالدين ، وإذا لم يرد الأستاذ الحومانى بالعقيدة إقحام الدين فماذا يريد بها ، وأية عقيدة ينشد لتكون عاملا فى أدب الأديب ؟ ؟

إنما نتكلم فى مقومات الأدب ، وهناك بون شاسع بين العقيدة وبين هذه المقومات ، ثم إن الأستاذ المحاضر نفى صفة الأدب عمن يصور لنا الحياة الواقعية ، وجعل هذه الصفة قاصرة على الخيالات التى عليها يقوم بناء المستقبل كما يزعم ، وهذا ما أراه بعيدا عن الحق فى الأدب .

تعليق

قال الأستاذ علاء الدين خروفة : لست أدرى كيف أبدأ التعليق على هذا البحث القيم ، لقد كان بحثا شيقا تكلم فيه الأستاذ الحومانى عن لفظة الأدب ، وهل هى الظرف أو أنها مشتقة من مأدبة . . ثم انتقل إلى صلة الأديب بالعلم ، وهل يشترط أن يكون الأديب عالما ، أو أن العلم كمالى بالنسبة إلى الأديب ، وهل الأدب لازم للعالم ، أو أنه كمالى بالنسبة إليه أيضا . . .

ولا شك أن الأديب فى حاجة إلى العلم وفى حاجة إلى الثقافة ، يجدر به أن يعرف شيئا عن كل شىء ، وحبذا لو عرف كل شىء عن شىء . . . إنه يكون حينئذ الأديب المتخصص . .

وقد تطرق الأستاذ فى بحثه إلى صلة الأديب بالكون وبخالق الكون ، ثم انتقل إلى الأديب والمجتمع ، وقد أجاد فى هذا أيضا فقسم الأديب إلى شقى وسعيد ، فالأديب الصادق هو الذى يؤثر فى المجتمع ولا يتأثر به ، يفعل فيه ولا ينفعل به . يحاول أن يرقى بأمته ويسمو بها إلى عالم الكمال ، وسماء النضج والرقى ، إن مثل هذا الأديب يشقى بمجتمعه الذى ينبذه ويقسو عليه ولا يقدره حق قدره . ولكنه حين تفارق روحه جسده ، ويلحق بالملأ الأعلى ، يكون مرتاح الضمير مطمئن البال ، فقد أدى رسالته ما استطاع إلى ذلك سبيلا . . أما مجتمعه فحين يفهم رسالته يعض أنامل الندم على أنه لم يضع ذلك الأديب الموضع اللائق به ، ولم ينصفه من نفسه .

أما الآخر الذى يسير فى ركاب الأمة ويتأثر بالسواد ، يثنى على هذا وذاك ، ويبيع بضاعته بثمن بخس ، دراهم معدودات ، فهذا هو الأديب السعيد ، ولكن عمره قصير ، وذكره دفين .

ولقد تطرق الأستاذ فى بحثه إلى صلة الأديب بالعقيدة . . ويرى بعض الأفاضل أنه لا صلة بين الأدب والعقائد ، وعندى أن الصلة وثيقة ، والعلاقة متينة والارتباط على أتمه وأحسنه .

ذلك أن الأدب توسع فيه وأطلق لفظ الأديب على كل من يحبر المقالات ، وينظم المهلهل من الشعر ، سرى إليه هذا من الصحافة بحكم صلة الاحتكاك والاحتياج . . . فالصحفى المثالى فى عرفهم ، هو الذى يعتنق فكرة ويدافع عنها مهما كانت تلك الفكرة مبتذلة أو خاطئة . . إلا أن هذا يجب أن يبقى بعيدا عن الأدب . . وإنه لكثير أن نطلق لفظ الأديب على كل من يحبر المقالات التافهة ، والكلمات الرخيصة ، وإن طابقت بحور العروض ، وقوافى الشعر .

إن للأديب رسالة لن يستطيع أن يؤديها إلا إذا كان يحمل بين جنبيه عقيدة راسخة ، قوية صادقة تدفعه إلى الأمام وإلى الأمام أبدا . . ولن تكون هذه العقيدة غير الإيمان بالله خالق الكون ، ومدبر هذا الوجود ، ومن الخير لهذه العقيدة أن تسلك سبيل الإسلام . وسوف لا يضيق الأدب العالمى ذرعا بهذه العقيدة ، لأنها هى الأخرى

عالمية (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) . ومن هنا كانت الصلة قريبة جدا بين رسالة الأنبياء ورسالة الأدباء ، بل إنى لأكاد أحس تجاورهما ، وما بينهما من قرب واتفاق وود وارتباط وسمو . . وإن أديبا بلا رسالة كنبى بلا عقيدة ، إن صح أن يكون النبى متجردا عن العقيدة . .

ولذلك كله أعجبنى كثيرا ربط الأستاذ الباحث بين الأدب والعقائد . .

ولعل سائلا يسأل فيقول : وماذا نصنع بكل أولئك الذين نظموا الشعر وقالوا النثر وأبدعوا فيهما ؟ ولا عقيدة لهم .

والجواب سهل وهو أن ذلك الإطلاق وتلك التسمية كانت من باب التجوز لا الحقيقة ؛ والخير كل الخير فيما أرى — أن نجرد هذا اللقب من كل إنسان لا يستأهله ، حتى نصونه من الابتذال والإسفاف ، ونحتفظ به لمن هو أهل له ، جدير به . .

وبحث الأستاذ الحومانى — بعد ذلك — قد تخلله تشبيهات رائقة وعبارات رائعة حفظت منها (بين يدى عكس الحقيقة باسم المجاز) ، وهو تعبير لمست فيه من الجمال والابتكار الشىء الكثير . على أن البحث كله كان متسما بسمات الروعة والقوة والإبداع . . .

وكان بودى أن أسجل على الباحث السرعة التى كتب بحثه بها ، لولا أن تعليقى على بحثه شابه شائبة السرعة الفائقة ، كما يرى منه واضحا ، فليس لى إذن أن آخذ عليه ما وقعت فيه أزيد منه .

تعليق ثانٍ

للشاعر إبراهيم الفلالى قال : لقد تكلم الأستاذ الحومانى عن الأدب والعقيدة ، وأراد بالعقيدة أن يعتقد الأديب ما يقول ويخلص فيما يفكر . لأن العقيدة أياً كان لونها هى نقطة ارتكاز عند الأديب يبنى عليها نتاجه الفكرى ، وأن الأديب الذى لا عقيدة له ، لا يكون لأدبه أثر فى مجتمعه إلا إذا حسب تخلخل العقائد وتسرب البلبلة إلى الأذهان أثرا من آثار الأديب فى مجتمعه . والأستاذ الحومانى يربأ بالأدب وبالأديب أن يكونا موصلين

إلى هذه النتيجة . وكانت مناقشة الدكتور وافى له بناء على المفهوم الصحيح للأدب وللأديب . وهذا المفهوم التقليدى على صحته وصوابه لايلزم الأديب بشىء من العقائد والمبادىء . لأن الأدب إنما هو تصوير للحياة بكل ما تزخر به الحياة من وجوه وألوان . وتعبير عن آمال وآلام ومشاعر وأحاسيس . وكل ما يلزمنا لتقدير الأديب هو ما فى نتاجه الفنى من سحر وروعة وصدق وبساطة . دون ما نظر إلى أثر هـذا النتاج فى المجتمع الإنسانى هدما أو بناء إصلاحا أو إفسادا سمواً أو هبوطا .

ولـكن لا أظن أن الأستاذ الحومانى ، يريد أن نترك هذه النظرة السائدة إلى الأدب والأدباء . فإن هذه النظرة التقليدية لم تعد صالحة لنا ، لأن أمتنا العربية أصبحت فى حالة مزرية من التأخر المادى والروحى . وأصبح طغيان المادة يهيمن على كثير من أصحاب الصحف والمجلات العربية . وأصبح كثير من الأقلام مأجورة يخدم الشهوات والمطامع والأهواء والأغراض ، والأدباء والـكتاب هم ألسنة الأمة القادرة على البيان الفنى المؤثر . وعليهم تقع المسئولية الـكبرى فيما حل بأمتنا .

وإنقاذ الأمة مما هى فيه رهين بأقلامهم ، فهى التى تستطيع — لو أرادت — أن تصلح ما فسد وتقوم ما اعوج .

ولما كانت ندواتنا هذه تتيح خدمة لبلادنا وأمتنا ، يحسن بنا أن نطلع على الناس برأى جديد يدعو إلى ترك المفهوم السائد للأدب وللأديب ، لأن هـذه النظرة طوت فى رحابتها غشا وخداعا وتغريرا وتلاعبا ، ووسمت كثيراً من الأشياء بغير معانيها ، فـكم من ضلال سماه الأدب رشادا ، وكم من فوضى سميت فى الأدب حرية وانطلاقا .

وكم عكس الأدب معانى سامية ، وسماها بنقائضها لربح عاجل ، أو شهرة زائفة . ومن هنا تسربت عناصر البلبلة والتخلخل إلى العقائد والأفـكار . وانهار كثير من التقاليد والمثل الشريفة النافعة باسم التجديد والمجددين ، وروح العصر ومنطق الحياة وتطور الأحياء ، وغير ذلك من الأسماء التى يضفى عليها بيان الأديب روعة وخلابة ، ودب فى وعى الأمة العربية خدر هذه المسميات ، حتى أصبحت تلتهم كل ما يقدمه لها الأدب التهاما دون تدبر أو تفكير أو مناقشة .

ولا أظن أن هذه الحالة ترضى المخلصين لبلادهم . والعاملين على إنقاذ أمتهم ، لذلك يحسن بنا — أن نطرح المفهوم السائد للأدب وندعو — بكل ما أوتينا من قوة — الأدباء ، وحملة الأقلام فى كافة أقطار العروبة ، لأن يجعلوا من ملكاتهم الأدبية أدوات صالحة للتوجيه . لا تغش ولا تخدع ولا تضلل . وأن يسموا الأشياء بمسمياتها فى صراحة لا مواربة فيها . وأن لا يحتفلوا بكل أديب لا يسير فى موكب الإصلاح . ولا يستجيب لدعوة الحق ولا يجند ملكته البيانية فى معركة الخلاص من الوحدة التى تردت فيها الأمة العربية . وإن جماعتنا إذ تدعو بهذه الدعوة ، وتنظر إلى الأدب بهذه النظرة . لم تكن بدعا فى تاريخ الأدب العربى ، وإنما هى تسير متأسية بالاتجاه الذى اتجهه الأدب فى صدر الإسلام ، إبان الدعوة الإسلامية . فقد جندت الملكات الأدبية كلها لخدمة الدعوة ، وكان هذا التجنيد من أكبر العوامل فى بناء الأمة العربية ، واتساع رقعتها حتى عمت العالم .

هذا قديما . أما حديثا فإن «إقبال» شاعر الهند استطاع بإصراره ، وصبره ومصابرته أن يقف قلمه لخدمة فكرة واحدة ، فإذا بالفكرة تستحيل إلى دولة تلك هى دولة الباكستان .

هذه هى الأفكار والخواطر التى أثارتها محاضرة الأستاذ الحومانى ومناقشة الدكتور وافى لها فى نفسى . فأرجو أن نتابع مناقشة هذه الخواطر والأفكار فلعل الله يجرى على يد هذه الجماعة خيراً لأمتنا وبلادنا .

التعليق

فى دفع الشبهات العالقة من البحث فى ذهن المناقش :

المحاضرة بين يدى القارىء لم أزد فيها ولا نقصت منها شيئا ، من تدبرها يعلم القارىء أن المناقش الأول كان بعيدا عن الهدف الذى تشير إليه العقيدة فى الأدب ، وهذا الاشتباه إنما نشأ من امتداد الزمن الذى استغرقته تلاوة المحاضرة ومن السرعة فى هذه التلاوة ، والجواب على هذه الشبهة فى تلخيص الأهداف التى يرمى إليها المحاضر :

إن الأدب يتقوم بدوافع وأدوات ، فالدوافع هى العقيدة : والواجب ، والإخلاص ، وأما الأدوات فهى : العلم ، والفن ، والثقافة ، فليكون الإنسان أديبا يجب أن يلم بالعلوم ، وخاصة اللسانية منها كاللغة والإعراب ، وأن يلم بالفنون وخاصة الشعر والخطابة والحديث ، ومن وراء هذا كله يجب أن يكون مدفوعا إلى الأدب بالعقيدة التى هى إيمانه بأن مايصوره فى الحياة هو فى صميم الحق للدعوة الإنسانية ، وبالواجب الذى هو شعوره بالمسئولية بين يدى إصلاح مجتمعه ، وبالإخلاص الذى هو أداء رسالته على أتم وجه ، فيما يبنى عليه أدبه .

هذه هى خلاصة ماأردت أن أقوله فى الأديب والأدب ، وواضح فيما قلت أنى لم أخلط الأدب فى الدين ، وإنما جعلت صحة العقيدة مبنية على الإيمان بوجود خالق مهيمن يرعى القائل والفاعل ، وهذا ليس مختصا بالدين ، أفليس فى العالم من يوقن بهذا الخالق ، ولا يعترف بدين ؟ ؟

ثم لم أنف عن الملحد صحة أدبه فيما إذا توفرت لديه أدوات الأدب ودوافعه ، وإنما قلت : إن العقيدة إذا انحرفت عن مركزها المنطق أحدثت أدبا هداما لا أدبا بانيا ، فإن عقيدة الملحد : كالبوذى والكنفوشى والطبيعى وأمثالهم ، لم تخرج عن كونها عقيدة ولم يخرج صاحبها عن أن يفهم واجبه ، ويخلص فى أداء رسالته ، فهو أديب ، ولكن أدبه متزلزل لا يصلح للبناء ، ونحن فى أمس الحاجة إلى البنائين من أدبائنا .

وواضح أيضا فى المحاضرة أنى لم أرد حصر الأديب فى كونه متخيلا ، وأن من يصور لنا الحياة التى تحدق به لا يكون أديبا ، فليس فى المحاضرة ما يشير إلى هذا أبدا ، وإنما اشتبه على المناقش تقسيمى الأديب إلى رجعى وعصرى ومجدد ، وقد حصرت الأدب الذى يعوزنا بالأخير وقلت : أن الأديب الذى يصور لنا حياة عبرت ، أو الذى يصور لنا ما حوله من حياة هو أديب لا مراء فيه ولكنه لا يكون مجددا حتى يتخيل لنا حياة لم تكن قبلا ولا هى كائنة بين أيدينا ، وأن العالم يحتاج أبدا فى تطوره إلى من يخلق حياة أكثر من حاجته إلى من يصور حياة مخلوقة .

ولدى إمعان القارىء فى تدبر المحاضرة يفهم هذا جيدا ، ولعلى أثق من أن المناقش عندما يحيط علما بالمحاضرة وهو يعيدها على بصره بالقراءة ، يرجع عن رأيه الذى أدلى به عندما تلقاها بسمعه .

وبعد فإنه مما يحز فى نفس الأديب الفاهم أن يرى أدباءنا المحدثين من شعراء وكتاب يشخنون فى جرح اللغة والأدب العربيين ، فيتنقصون نهج السابقين من أدباء العرب وشعرائهم وينعتونهم بالجمود تارة وبالرجعية تارة أخرى وليس لهم حجة فى ذلك إلا أن هؤلاء الرجعيين بزعمهم قد جمدوا فى الشعر على نظم المطولات من قصيده ، وجمدوا على وزن واحد وقافية واحدة فى كل قصيدة منه ، كما جمدوا فى النثر على نهج القدامى من أمثال الجاحظ وابن المقفع وغيرهما من أدبائنا الماضين .

هؤلاء الشباب نسمعهم فى كل مجلس يفيضون فى القول على الشعر حديثه وقديمه ، فيسبغون خير الصفات على الأول ، ويجردون الثانى من أى صفة تضعه فى مصاف الدعائم التى يقوم عليها بناء الحياة ، فإذا استمعوا إلى الشاعر ينشدهم قصيدة متعددة الأوزان والقوافى . ومشوشة المعانى الخيالية والمجازية ، أخذتهم هزة من الطرب شديدة الأسر ، وهتفوا بحياة الجديد من الأدب ، ثم إذا سمعوا قصيدة ذات بحر واحد وقافية واحدة ، متزنة الفكرة فى مجازها وحقيقتها ، ينتظمها الأسلوب الشعرى ، أخذوا يتغامزون ويسخرون من منشد تلك القصيدة .

هؤلاء هم أولادنا لا نحب الإساءة إليهم وهم فى أول الطريق إلى الأدب ، ولكنا نمهلهم ريثما يصلون إلى العقل الذى يمسك العاطفة فى تحرير الإنتاج وتأهيل الأديب للاضطلاع بعبء الحياة ، والذى جنى على هؤلاء نحن الآباء الذين أهملناهم فى دور التثقيف وأحلنا إعدادهم إلى أعداء ثقافتنا من الأجانب الذين إنما أسسوا معاهدهم الثقافية تحت سمائنا لإفساد العقيدة العربية فى نفوس النشء العربى ومن وراء هذا الإفساد تبدأ النقمة القاسية على تراث الآباء فى صدور الأبناء ، فيتنكر هؤلاء للماضى بكل ما فيه ، ويتعصب للحاضر بكل ما فيه .

وعبثا نحاول إقناعهم بأن الأدب ليس قديما وجديدا وإنما هو جيد ورديء . ورسالة الأديب أن يأخذ بالجيد ولو كان قديما وأن يتحامى الرديء ولو كان جديدا ، وعبثا نحاول أن نقنعهم بأن الإنسان الذى يحمل طابع القدم فى روحه وبدنه يستحيل عليه أن يخلص منه إلى جديد محض ، وأن الإنسان فى أى عصر هو خليط من ماض جرى فى كيانه وحاضر يجرى فيه ، ومستقبل يتأهب للصعود إليه .

فإذا سألتهم : هل يستطيعون زيادة حرف أو نقص حرف من حروف الهجاء التى هى عناصر اللغة الأولى ، يصمتون ، وإذا سألتهم : هل يستطيعون أن يزيدوا وزنا أو ينقصوا وزنا من بحور الشعر القديمة ، يصمتون ، ثم إذا سألتهم : هل يستطيعون أن يضعوا قواعد وأصولا للغتهم أسمى من القواعد والأصول الموضوعة لها ، يخرسون ولا يجيبونك إلا مغمغمين ، ولكنهم يستمرون فى حملتهم على آبائهم لأنهم لم يلتمسوا الأدب عن طريق الاختزال والمسخ والتبتير .

وعلة هذه النقمة فى تنكرهم للأدب الذى درج عليه فحول الشعراء والأدباء هى : أنهم لم يتعمقوا فى درس اللغة ويلتمسوا الثروة منها فاضطروا إلى تعداد القوافى فى القصيدة الواحدة ثم إلى استعمال الألفاظ العامية أو المائعة منها ليستقيم لهم الوزن ويستجيب لهم التقصيد .

وأنهم لم يحرزوا الثروة الواسعة فى الاطلاع على الأدب العربى العريق اطلاعاً يوفر عليهم مشقة المسخ والبتر والاختزال فى التركيب ، حتى رأينا أدبهم نظما ونثرا ممسوخ الفكرة لم يحسنوا فيه التشبيه ولا التخيل لشدة جهلهم بأساليب البيان العربى وتعصبهم للبيان الأجنبى المخلوق لغير الفكرة المطبوعة على تراث العرب روحا ومادة ، وقديما قيل : المرء عدو ما جهل .

فالفكر فى الإنسان مخلوق لعدة عوامل ذاتية وخارجية ، أولها قائم على التراث ، فإن صورة اللفظ وتركيبه وموسيقاه واتساق معانيه فى هذا التركيب وهذه الموسيقى كل ذلك يعمل فى تكوين الفكر ، وثانيها وهو الخارجى قائم على تلوين تراثه بما يكسب من أدب عالمى لا على تكوينه ، فإنك إذا كسبت فكرة خارجة عن تراثك ليس لك

أن تضعها محل تراثك وتعزله عن جوهرك لأن هـذا التراث جزء من حياتك ، وإنما عليك أن تجعل هـذه الفـكرة الغربية لونا تسبغه على ذلك التراث وإلا كنت غيرك ، أى أنك إن عمدت إلى إحلال كل فـكرة تـكسبها محل فـكرتك القائمة فى نفسك جزءاً من حياتك ، تصبح آخر الأمر مغايرا لذاتك ، فإن كانت الفـكرة سكسونية أصبحت سكسونيا وإن كانت لاتينية عدت لاتينيا لأنك فقدت مقومات شخصيتك التى تحيلك فى عنصرك القومى .

أرجو أن أكون وفيت حق الإيضاح فى إسداء النصح لأبنائنا ، وأنا لا نريد أن يخرجوا عن قومياتهم بتعصبهم لجديد موهوم ، وتنـكرهم لقديم عريق فيهم لا يقوون على الانسلاخ منه ، فليمعنوا فى درس اللغة العربية كما أمعنوا فى درس غيرها ، وليمعنوا فى الاطلاع على الأدب العربى القديم ثم ليتجردوا فى الحـكم على تراثهم إن كان حريا باحترامهم وتقديرهم ، أو كان عند هذا الهزء والتنـكر فى نفوسهم ؟ ؟

لقد كان الشاعر قديما يعمد إلى أعضل مشـكل فى حياة أمته فيعالجه ، من الإشادة بأمجاد الأمة والدفاع بقوة المنطق عن تلك الأمجاد ، وكان الشـاعر إذا أحب أو كره يحيل عواطفه كلاما موزونا مقفى يجرى فى التاريخ مجرى الدم فى عروق الحياة ، أما اليوم فنرى أبناءنا يحبسون شاعريتهم فى أضيق نطاق من حياتهم كوصف بستان أو زهرة أو كوخ أو امرأة أو طفل بينما لا تقع أعينهم فى الأمة إلا على ما يأسر العواطف المتحجرة ، من ظلم يغل الأفواه أن تقول والأيدى أن تفعل ، والعقول أن تفـكر ، كان لم يكن فى هذه العوامل مصدر للشاعرية ، ولم يكن فيها ما يلهب العواطف فيصرف النفر المفـكر عن علاجها إلى مثل تلك السفاسف .

المحاضرة الثالثة :

حياة المحاضر



نشأته

ولد الشاعر محمد مصطفى الماحى بمدينة دمياط ، فى سبتمبر سنة ١٨٩٥ ، وتلقى علومه بمدرستها الأميرية ، وكان خلال دراسته متفوقا فى اللغة العربية ، حتى اختصه أساتذته بالعديد من الجوائز الأدبية .

عمله

وانتقلت أسرته إلى مصر سنة ١٩١١ ، وشاءت له إرادة الله ، أن يختصر طريقه فى معترك الحياة ، فعين فى حداثة سنه — بعد اجتياز مسابقة — فى وظيفة بديوان الأوقاف . وظل يرقى بجده ومثابرته حتى عهد إليه بأعمال ذات تبعات ، وحمل عبء الإصلاح فى نواح عديدة ، وتقلب فى عدة وظائف رئيسية ، إلى أن عين مراقبا عاما بوزارة الأوقاف .

منزلته الاجتماعية

ومن خير ما وفقه الله إليه من صالح العمل ، ما قام به عندما اختارته الحكومة المصرية — بناء على رغبة الحكومة العراقية — بوصفه خبيرا بشئون الأوقاف ، لتنظيم أوقاف العراق . فتوفر على مهمته ، وسهر لها ، وجال فى كافة أنحاء العراق ، وشاهد جميع

أملاك الأوقاف بنفسه ، وخبر كل شأن من شئونها ، وبذل جهودا كبيرة حتى وضع تقريرا شاملا فى أكثر من ثلثمائة صفحة ، طبعته حكومة العراق ، وقدرته أحسن التقدير ، وأمرت بإيداعه مكاتب المعارف العامة بجميع مناطقها ، وأكدت الأوساط المطلعة ، أن حكومة العراق لم تستفد من تقرير خبير من الخبراء كما استفادت من هذا التقرير ، ومنحه الملك غازى وسام الرافدين من طبقة راقية ، ولعله أول مصرى منح هذا الوسام .

شخصيته

كان أول الأمر فى إدارة يرأسها السيد محمد المويلحى ، صاحب كتاب عيسى بن هشام . كما كان يعمل فيها طائفة من كبار الكتاب والشعراء ، بينهم الأساتذة عبد العزيز البشرى ، وأحمد الكاشف ، وعبد الحليم المصرى ، وعباس محمود العقاد . فصحبهم بضع سنين ، وتأدب بأدبهم ، وأفاد منهم ، واشتغل منذ ذلك العهد بالأدب العربى ، فشغف به ، وتوفر على دراسته ، وبدأ ينشر قصائده فى صحيفة المؤيد ، وفى غيرها من الصحف والمجلات ، وهو فى سن السابعة عشرة ، ثم نزل ميدان الأدب وغشى محافله ، وأنشد القصائد فى مختلف الأغراض ، واختير وكيلا لرابطة الأدب العربى سنة ١٩٣٤ ، وأصدر ديوان الماحى الذى قدمه الشاعران خليل مطران ، ومحمود عماد . والكاتب عبدالله عفيفى .

ويتميز أدب الأستاذ الماحى بالاعتدال ، فلا إسراف فى الخيال ، ولا إغراب فى القول ، ولا إغلاق فى المعنى ، وهو يصدر فى شعره عن أدب نفسه التى أشربت حب الخير ، والاعتدال فى كل الأمور . وبعد فالأستاذ الماحى مثل أعلى فى الشخوص إلى الحق بكل ما يقول ويفعل ، وقد طبع الإيمان وجهه بطابع الحياء ، وأسبغ على عينيه ويديه كرم العنصر وسخاء النفس العربى ، وزان لسانه بالمنطق السديد الذى لا يشوبه رياء ولا تضليل ، ولو كشفت عن قلوب عارفيه لرأيت حبه وتقديره يحتلان المنزلة الأولى منها .

ولا يزال الشاعر بعد أن انطلق من قيد الوظيفة يسهم بقسط موفور فى مجال الأدب والشعر ، وقد أتاح له هذا الانطلاق أن يجول فى ميدان السياسة جولات صادقة عاملا فى أدبه وشعره على استقرار النهضة الحديثة والتقدم الملحوظ فى مختلف الشئون .

المحاضرة الثالثة

محنة الثقافة العربية

ألقاها على الندوة المنعقدة فى منزله الأستاذ محمد مصطفى الماحى
وذلك فى مساء الأحد الواقع فى ٦ / ٢ / ١٩٥٥

دارت معركة منذ زمن غير بعيد بين بعض الأدباء ، وكان ميدان هذه المعركة محنة الأدب ، وقامت على أثر احتجاب بعض المجلات الأدبية بسبب تعرضها لأزمة مالية ترتبت على انقطاع عدد كبير من المشتركين ، فعجزت مواردها عن مواجهة هذه الأزمة ، وانقطع بانقطاعها ذلك الغذاء الروحى ، الذى كانت تمد به قراء العربية ، وعلى الأخص شبابهم المتذوق للأدب العربى .

وقد لا يصلح هذا السند أساسا لوصف ما يسمونه محنة الأدب ، فقد يكون لاحتجاب هذه المجلات ، وانصراف القراء عنها أسباب أقوى أثرا ، كتخلفها عن مجاراة العصر الحديث فيما يعرضه من مشوقات للقارئين ، كإبراز الآراء فى صور حقيقية أو رمزية ، وكتحسين وسائل العرض بإعداد المطابع الحديثة . مع التمسك بعرض الآراء والموضوعات الأدبية فى طرز عتيقة ، لا تتمشى مع تطور الأذواق فتنبو عنها الأنظار والأسماع ، ولا يصح أن يحسب هذا كله على الأدب وأهله .

وإذا كان قريبا من الصحيح ما علل به كثير ممن أسهموا فى هذه المعركة الأدبية ، من أن أكثر القراء أصبحوا أميل إلى السطحية ، فهم يكتفون بالصحف والمجلات التى توافيهم بالأخبار المنوعة عن شئون الحياة الاجتماعية والاقتصادية والأدبية فى صورها المبسطة ، والتى تدس خلال صفحاتها طرفا من المسائل العلمية التى تهضمها عقول القراء ،

وتستريح إليها نفوسهم دون حاجة إلى استغراق فى التفكير أو كد فى البحث والتنقير . فكان من أثر ذلك أن انصرفت الكثرة من كبار الكتاب والمؤلفين عن كد أذهانهم ، وشغل أوقاتهم بالتعمق فى البحث واستكناه حقائق الأشياء ، وتعرف نزعات النفوس ، حتى يوالوا مطالعهم بثمار ناضجة من فيض قرائحهم ونتاج عقولهم . مكتفين ببحوث تاريخية أو أعمال أدبية ، وخلاصات لتراجم مبسطة لا تستغرق وقتا ولا تحمل نصبا ، اللهم إلا القليل مما يصدر الفينة بعد الفينة من كتب ذات قيم علمية أو أدبية عالية ، قد لا تجد من يقدرها حق قدرها ، فيحسبها أصحابها من تضحياتهم التى يبذلونها فى سبيل اللغة والعلم .

وما زال يتراءى خلل رماد هذه المعركة وميض يتقد من وقت لآخر بين ناع على الناشرين إحجامهم عن نشر المؤلفات ، وعلى المؤلفين نكوصهم عن الإنتاج ، وعلى القراء تهاونهم فى الاقتناء ، وفى تخصيص بعض أوقاتهم للاطلاع .

وبين ناقد لانصراف معظم الناس إلى الاشتغال بالمادة ووضعها فى المحل الأول من شئون الحياة ، وابتعادهم عن التفكير فيما يسمو بروحهم المعنوية إلى أجواء تنأى بهم عن حقارات المادة وتفاهاتها .

ولا يستطيع أى مفكر أن يبعد شبح المادة عن كل تصرف ، وبخاصة بعد أن استفحل أمرها وتغلغلت بواعثها فى كل النفوس ، بحكم حاجيات الحياة وأسباب المعيشة ، وبعد أن دفعت الناس هذه المطالب إلى شدة الحرص على ما بأيديهم لينفقوه فيما يقيم أودهم ، ولم يعد من السائغ أن ينفق الإنسان جزءا كبيرا من موارده فى سبيل هذا الغذاء الروحى الذى تنافسه مطالب الحياة المعيشية ، فبعد أن انخفضت قيمة النقد ، وأصبحت الدخول ضعيفة عن مواجهة هذه المطالب ، ندر أن يجد المرء — وخصوصا ذوى الدخول المحدودة من الموظفين والعمال ومن إليهم من الطلاب ، وهم الكثرة من المتعلمين — ما يفيض عن حاجته لينفقه فى سبيل الاطلاع واقتناء الكتب ، فأصبح همه أن يقتنى أيسر الكتب وأقلها ثمنا ، بل إنه ليكتفى فى معظم أحواله بالاطلاع على الصحف والمجلات كما قدمنا .

وقد يضاف إلى ذلك ما سببته الحروب المتوالية من تدهور فى الأخلاق ، ومن إزاحة للأستار التى كانت تحجب المباذل وتغطى المعايب ، وأصبح ما كان يستعاذ منه من القبائح وألوان المفاسد ذريعة إلى التفكه ، ومن أسباب التسلى وإزجاء الوقت ، بل وسيلة إلى الكسب الرخيص وذيوع كثير من الصحف والقصص بحكم تعلق النفوس والغرائز بحب الكشف عما خفى من الشئون الخاصة ، والرغبة فى اعلان ما استتر من أسرار الناس .

فضيق الموارد ونقص الإمكانيات المادية وارتفاع أثمان المطبوعات على اختلاف موادها ، وتحلل الأخلاق بحكم تقليد الغرب والتأثر بأسوأ ما فيه من طباع وعادات ، كل ذلك كان من الأسباب الهامة التى حجبت كثيرا من المعارف عن الراغبين وحرمتهم من الثقافة العالية ، ومن الاطلاع على ثمرات العقول الناضجة .

ولا نستطيع أن نلوم المؤلف الذى يطلب ثمنا مرتفعا ، لأنه يواجه فى الحقيقة عاملين هامين : أحدهما زيادة التكاليف لارتفاع ثمن الورق ومعدات الطبع وأجور العمال ، وقلة عدد ما يطبع ، تبعا لقلة عدد الراغبين . والثانى : حاجته إلى ما يكفل له حياة ميسرة حتى يسهل عليه التعمق فى البحث ، وتكريس أوقاته لهذه الحياة العلمية والأدبية ، بعيدا عن مشاغل المادة ومطالب العيش .

وإنى وأنا بسبيل تقرير هذا الأمر لا أرى مندوحة عن أن أعود بكم إلى عهد النهضة العلمية والأدبية فى العصر العباسى الذهبى .

يرجع الفضل فى تلك النهضة إلى عوامل نتناولها بالبحث :

العامل الأول : تفتح أذهان العرب بعد أن اتسعت فتوحاتهم ، وتعمق اتصالهم بالثقافات المنوعة من فارسية ويونانية وغيرها ، لتلقى علومهم وفنونهم وهضمها والانتفاع بها واستثمارها فى نشر سلطانهم بجميع الوسائل ، وساعدهم على ذلك ما وجدوه فى هذه العلوم من آفاق واسعة وتنوع فى المعارف ، مما يسر لهم الوقوف على كثير من أسرار الكون ، وحبب إليهم اكتساب هذه المعارف ، بل والإسهام فى زيادتها وخلق أبواب

وفنون لم تكن موجودة ، واتسعت اللغة العربية لذلك كله ، فلم تعجز فى أى طور من أطوار حياتها عن أى تقدم فى كل علم أو فن .

والعامل الثانى : إن ولاة الأمور من الخلفاء والوزراء والكتاب والعمال والولاة كانوا يتنافسون فى تكريم العلماء والأدباء ، ويحبونهم بالعطاء الجزيل والمثوبة الوافية ، وكان يساعدهم على ذلك اتساع موارد الدولة وانثيال الأموال كالسيل المتدفق فى خزاناتها.

وحسبى أن أذكر لكم طرفا من نوادر الصلات والجوائز ، فهذا أبو تمام مدح أحمد بن المعتصم بالله بقصيدته التى مطلعها :

ما فى وقوفك ساعة من باس تقضى ذمام الأربع الأدراس

فلما قال يصف الأمير :

إقدام عمرو فى سماحة حاتم فى حلم أحنف فى ذكاء إياس

قال له أبو يوسف يعقوب بن الصباح الكندى الفيلسوف ، وأراد الطعن على أبى تمام ، قال له : إن الأمير فوق من وصفت ، كيف تشبه ولد أمير المؤمنين بأعراب أجلاف ، وهو أشرف منزلة وأعظم محلة ؟ فأطرق أبو تمام قليلا ، ثم رفع رأسه وأنشد :

لا تنكروا ضربى له من دونه مثلا شرودا فى الندى والباس
فالله قد ضرب الأقل لنوره مثلا من المشكاة والنبراس

واستمر فى إنشاده حتى أتم القصيدة ، ولما أخذت من يده لم يجدوا البيتين فيها ، فعجبوا من سرعة فطنته ، واهتز ابن المعتصم لذلك طربا وبهت له متعجبا ووقع له بالموصل .

أما المعز لدين الله الفاطمى ، فقد سمع شعر الحسن بن هانىء المغربى الأندلسى ، فأنفذ إليه وأوفده عليه ، فلما اتصل بخدمته مدحه بقصائد عدة ، فكان كلما مدحه بقصيدة أعطاه ضيعة ، فلما خرج جوهر وأخذ مصر خرج المعز ، فلما جلس للهناء دخل عليه ابن هانىء واستأذن فى الإنشاد فأذن له ، فأنشده قصيدته التى يقول فيها :

ألا إنما الأيام أيامك التى لك الشطر من نعمائها ولنا الشطر

فالتفت إلى وزيره وقال : اكتب له بالإسكندرية وسلموها إليه فهى شطر ، وقد خصصناه به ، ولم يمتع ابن هانىء بهذه المنحة ، لأنه استأذنه فى الرجوع إلى المغرب لأخذ عياله واللحاق بالمعز ، فلما قصد مصر نزل فى طريقه ببرقة ، وقتل بها سنة ٣٦٢ هجرية .

وهذا أبو الحسن التهامى يدخل على صاحب الشام حسان بن جراح الطائى ، فينشده قصيدة يقول فيها :

هل الوجد الا أن تلوح خيامها فيقضى باهداء السلام ذمامها

فلما بلغ إلى قوله :

ألا أن طيفا للمكارم كعبة وحسان فيها ركنها ومقامها
تقل لك الأرضون ملكا وأهلها عبيد فهل مستكثر لك شامها

وهب له مدينة حماة وأعمالها .

ونجتزىء بهذه الجوائز والصلات لأنها أعلى قدرا وأعظم أثرا ، ودعوا القدر المادى وخذوا مثلا على القدر الأدبى فهذا أبو تمام يستنشده الحسن بن رجاء فينشده قصيدته التى يقول فيها يصف نفسه :

عادت له أيامه مسودة حتى توهم أنهن ليال

فقال له الحسن : والله لا تسود عليك بعد اليوم فلما قال :

لا تنكرى عطل الكريم من الغنى فالسيل حرب للمكان العالى
وتنظرى خبب الركاب ينصها محي القريض إلى مميت المال

قام الحسن بن رجاء وقال والله لا أتممتها إلا وأنا قائم فقام أبو تمام لقيامه وقال :

لما بلغنا ساحة الحسن انقضى عنا تملك دولة الأمحال
بسط الرجاء لنا برغم نوائب كثرت بهن مصارع الآمال
أغلى عذارى الشعر أن مهورها عند الكرام إذا رخصن غوال
ترد الظنون به على تصديقها ويحكم الآمال فى الأموال

إلى أن يقول :

ورأيتنى فسألت نفسك سيبها لى ثم جدت وما انتظرت سؤالى
كالغيم ليس له — أريد غياثه أولم يرد — بد من التهطال

فتعانقا وجلسا ، فقال له الحسن : ما أحسن ما جليت هذه العروس ! فقال : والله لو كانت من الحور العين لكان قيامك أوفى مهورها ، وأقام شهرين فأخذ عشرة آلاف درهم على بخل كان فى الحسن بن رجاء .

ولا أريد أن أقول إن هذا التصرف من الملوك والحكام كان يمثل الادارة الحسنة فى أكمل صورها فليس من الحكمة أن تعطى الولايات ليحتكرها الأدباء مقابل مدح قد يكون الملق أو الإستجداء العامل الأول فيه ، ولا أن تسلم هذه المنح لمن لا يحسنون تصريف شئونها وبسط العدالة فى جميع الأحوال ، وقد يكون هؤلاء المانحون استوثقوا من استكمال هذه النواحى فيمن قدموها إليهم ، ولعلهم قدروا أن الأدب فى هؤلاء دليل على قدرة الأديب واكتمال عناصر القوة وحسن الإدارة فيه ، كل ذلك ممكن ، وإنما الذى نريد أن نفيده أن الأدب كان مقدورا عند أولى الأمر وأنهم كانوا لا يضنون على محسنيه بأى جزاء مهما عظم قدره ، وإنهم كانوا يعظمون الأدباء حتى يأبوا أن يسمعوا شعر الشاعر وهم جالسون فكانوا يقفون إجلالا للشعر وقائله .

فهل هناك ما يشحذ العزائم ويشد القوى ويبعث الهمم مثل هذا العون المادى والقدر الأدبى ؟

أما العامل الثالث : فهو انفاق الدولة الأموال الطائلة فى سبيل نشر العلوم والمعارف وإغداق الأموال الوفيرة على المشتغلين بها .

تعالوا بنا لنجول جولة قصيرة :

لقد تناول هذا البحث كثير من المؤرخين والكتاب وفصلوا فيه ما وسعهم التفصيل ولعل فى الخلاصة التى نوردها من بحث الدكتور فريد رفاعى فى كتابه عصر المأمون ما يشفى الغليل .

كان فى بغداد بيت الحكمة الذى أنشىء على أرجح الآراء فى أيام الرشيد ، حيث جمع له فيه البرامكة ما وفقوا إليه من الكتب الهندية والفارسية واليونانية :

ومن اليسير أن نفهم أنه كان هناك أكثر من بيت واحد فمن الطبيعى أن يكون للبرامكة بيت وأن يكون للمأمون نفسه بيت آخر وهو الذى تفتحت عيناه على إجلال العلم واشرأبت نفسه وهو فى سن الصبا والشباب إلى حب العلوم والعلماء .

فالمأمون هو الذى جمع بعض حكماء عصره على صنع الصورة المأمونية التى تصور العالم بأفلاكه ونجومه وبره وبحره وعامره وغامره ومدنه وهى أحسن مما تقدمها

من جغرافية بطليموس ومارينوس وعنى بالطبيعة والرياضيات فوق عنايته بالطب ومعرفه العقاقير والنبات والحيوان إلى ما شاكل ذلك مما كان له الأثر المحسوس فى إدخال المدنية على دول العرب وفتح به المأمون باب العقل على مصراعيه فى كل مطلب وشأن كما أوفد بعض العلماء فزاروا ملك الروم واختاروا ما اختاروا وندب المأمون من نقل كتب الحكماء اليونانيين إلى العربية وكان يعطى من الذهب زنة ما ينقله المترجم إلى العربية .

ولو شئنا أن نحصى ما أفاده العرب من الكتب المترجمة منذ خلافة أبى جعفر المنصور إلى وفاة الرشيد ومنذ ولاية المأمون إلى نهاية القرن الرابع الهجرى وهى الفترة التى تعد نهاية عهد الاهتمام بالترجمة والنقل لأطلنا القول ، ويكفى أن نأتى على إحصاء موجز فقد نقل إلى العربية ثمانية كتب لأفلاطون وتسعة عشر كتابا لأرسطا طاليس وكلها فى مختلف العلوم والحكمة والفلسفة والاجتماع ، وعشرة كتب فى الطب وستة وستون كتابا لجالينوس وعدد آخر لغيره من العلماء كاقليدس وأرشميدس وبطليموس وغيرهم ، وهذا عدا كتب الرياضيات والنجوم ، وكل ما تقدم من العلوم اليونانية . أما الكتب المنقولة عن الفارسية وعن الهندية وعن اللغات الأخرى كالنبطية والعبرانية واللاتينية والقبطية فكثير يعد بالعشرات بل وبالمئات .

وكل هذا كان برأى ولاة الأمور وحثهم عليه وإجزالهم المكافأة عنه .

فلننظر الآن فيما يقابل هذه العوامل الرئيسية فى عصرنا الحاضر الذى يعد عصر النهضة منذ النصف الآخر من القرن التاسع عشر إلى منتصف القرن العشرين ومع تيسر فن الطباعة وتقدمه وسهولة المواصلات بين الممالك والبلدان .

أما عن العامل الأول — فلا شك أن تيسر فن الطباعة ، وسهولة المواصلات ، وتقدم العلوم ، واتساع نطاق التعليم ، وازدياد طبقة القادرين والكاتبين تبعا لنشر العلوم وللجهود المبذولة فى محو الأمية يعادل بل لعله يزيد على ما للفتوح الحربية من أثر فى نشر العلوم وامتزاج المعارف ونقل ثمار العقول بين الشعوب .

فنحن الآن ولا شك أحسن حالا وأعظم قدرة على الاستفادة من علوم الأمم الأخرى وقد أصبح بيننا كثير من العلماء الذين تزودوا من العربية ومن اللغات الأجنبية قدرا كبيرا يمكنهم من نقل آثار تلك الأمم .

أما العامل الثانى ، وهو إجازة العلماء والأدباء : فهذا ما لم يعد حتى مجرد الأمل فيه ممكنا ، فقد تمر العشرات من السنين دون أن نجد أميرا أو ثريا يقدر الأديب حق قدره أو يجزيه بعض ما يستحق من حسن الجزاء ، بل إنه ليحزننى القول بأن هؤلاء العظماء يشعرون بهوان قدر كثير من المشتغلين بالأدب وقد يترفعون عن مصاحبتهم بل إنهم لينظرون إليهم نظرة المتكسب ، ولعل هذا راجع إلى ضآلة قدر معظم هؤلاء ، وفقدانهم الشعور بما تقتضيه كرامتهم من ترفع وإباء ، أو إلى اندساس كثير من الفاشلين فى زمرة الأدباء .

غير أن ذلك كله لا يصلح عـذرا لانصراف العظماء عن الاتصال بالأدباء والأخذ بناصرهم واحلالهم ما يستحقونه من مكانة والشعور بالسمو فى مصاحبتهم ومعاونتهم على ابراز ما كمن من خواطرهم وأخفته قلة الامكان من دلائل عبقريتهم .

تصوروا معى لو أن هناك هيئات أدبية أو رجالا من الأثرياء خصصوا هبات مالية منوعة المقادير ، وجعلوها وقفا على المبرزين فى الأدب من نثر وشعر وجعلوا ذلك بصفة دورية منتظمة وألفوا لجانا للتحـكيم من الموثوق بهم علما وخلقا واستمر ذلك سنوات متوالية ألا يكون لهذا أكبر الأثر فى ابراز الـكفايات المعمورة بل وفى خلق عبقريات توجد نواتها فى أعماق النفوس وليست تحتاج إلا إلى رشاش من الماء تحيى به فتخرج حبا ونباتا ، بل تخرج به وردا وأزهارا تنعش النفوس وتحيى ميت الخـواطر وتبعث الحياة قوية دافقة ؟؟

ولست أقول هذا لأتمثل به خيالا من أخيلة الشعراء ، أو حلما من الأحلام ، ولـكنى أقوله عن تجربة واختبار فمنذ سنوات قليلة قام واحد من الأثرياء هو المغفور له عشوى زايد بتوجيه من جريدة الزمان فى وقت كان محررها الأدبى الشاعر الـكبير محمد الأسمر فأعلن تبرعه بجوائز ثلاث للمتفوقين من شباب الشعراء وألفت لجنة تحـكيم كان يشرفنى أن كنت واحدا بين أعضائها وأخذت المسابقة أدوارها فى جلال ودقة وضمان حتى انتهت إلى نهايتها المرموقة فوزعت الجوائز على الشعراء الفائزين ، وكان لهذه المسـابقة دوى فى ميادين الأدب واشترك فيها عشرات من شباب الأدباء فى مختلف البلدان العربية ، ولمـا نجحت

المسابقة كررها الثرى نفسه فكان لعمله أجمل الوقع فى النفوس وأسفرت المسابقة الثانية عن نجاح لا يقل عما أسفرت عنه الأولى . ويسعدنى أن أسجل ما كان لهـذا العمل الأدبى من أثر فى حفز همم الشباب وتشجيع المبرزين منهم ممن تزدان بهم الآن الندوات والروابط الأدبية المتعذرة فى مصر .

وقد يجر هذا الحديث إلى أن أخص الشعر وهومن أهم أبواب الأدب بنظرة خاصة فإن أثر المادية كان أشد طغيانا عليه وتأثيرا فيه ، فطالما رأينا من يصدفون عنه وعن أهله ويعدونهم قوما خياليين لا يصلحون للحياة الواقعية . وقد يكون هذا الظن الآثم راجعا إلى النعرة التى دوت باسم الخلق فى الشـعر الحديث حتى لقد فشت العداوة بين القديم والحديث فأوشك أن تتمسك كل من المدرستين بموقفها ، وكاد يقف القديم عن الامتزاج بجديد الأفـكار ومبتكر الأساليب ، وكاد يترفع الحديث عن الانتفاع بالثروة المذخورة فى القديم من كريم الألفاظ وجميل المعانى وسليم التركيب . ونبت فى أذهان كثير من الناس أن الشعر ختم بالأفذاذ الذين تخرمتهم المنية فى العصر الأخير وأن الأيام لن تنجب أمثالهم . وهذا رأى فاشل ، فإن عقول الأمم وبخاصة ابان تجددها وانطلاقها لا تجدب ، بل إن هذا التجدد والانطلاق يجعلها أكثر قدرة على الإخصاب والإنتاج ، وأعظم سند لذلك هو تعاون القوى وتساند الأفـكار والاستفادة بما فى كل من القديم والحديث من مزايا وخصائص .

وهذا رأى بسطته قبل الآن حين قلت :

كم فى القديم جديد الحسن مؤتلق ... يوليك من قسمات الحسن الوانا
إما بعثنا على الأيام جـــدته ... أوفى على جـــدد الآداب ميزانا
وكم جديد نعمنا من غضارته ... فى أبهج الروض أطيارا وأفنانا
كلاهما تملأ الدنيا محاســـنه ... وتستجد به الآداب إحســـانا

ولا يسع المتكلم عن الشعر وما يعانيه إلا أن يذكر مع الأسف الشديد من جفوة الصحف والمجلات فهى لا تشجع الشعراء على نشر ما تنتجه قرائحهم وربما اقتصرت بين الحين والحين على نشر مقطوعات قليلة الأثر والتشجيع وهى تفعل ذلك منانة متأبية ضجرة .

وما كان العهد بالصحف كذلك من قبل فإنها كانت تفتح صدور صفحاتها لكثير من الشعراء حتى الناشئين منهم وكان ذلك من أكبر أسباب تقدم من تقدم منهم وبانقطاعه انقطع عامل من أكبر عوامل التشجيع والتأييد .

فإذا انتقلنا إلى العامل الثالث وهو تيسير إذاعة المعارف وبخاصة بعد أن تقدمت الطباعة وذلك بوجود من يحمل عن الأدباء والعلماء مؤونة الطبع والنشر رأينا العجب العاجب ، فقد تسمع مرة بعد مرة أن ثريا خصص آلافا من الجنيهات لإنشاء حوض للسباحة فى أحد الأندية أو لغير هذا الغرض مما شاكله أو قصد به التملق للحكام وحب التظاهر ولكنا لم نسمع أن أحدا من هؤلاء الأثرياء خصص مثل ما خصصه للأغراض السابقة ولا جزأ منه لنشر شىء من ثمرات العقول فى سالف الأزمان مما شحنت به مخازن دور الكتب فى عواصم البلدان العربية والغربية . وإنه ليحز فى نفس كل عربى أن يسمع أن فى تلك الدور عشرات الألوف من هذه الآثار الخالدة التى أسدل الدهر عليها ثوب النسيان اللهم إلا لفتات بعض المستشرقين أو المشتغلين بالعربية ليخرجوا بعض هذا التراث الثمين إلى النور وأنكم لتعجبون مثلا حين تعلمون أن الأستاذ فيليب حتى الأستاذ بجامعة برستول بأمريكا هو الذى نشر كتاب الاعتبار للأمير اسامة ابن منقذ المتوفى سنة ٥٨٤ كما طبع فى المانيا مرة أخرى ولم يلتفت أحد حتى الآن إلى طبعه بالبلاد العربية ليسيروا للناس الإطلاع عليه مع ما تضمنه من معلومات وفيرة عن عصر الحروب الصليبية جعلته مرجعا لهذه الحقبة من التاريخ يشرف به العرب والمسلمون ويفيد منه الأدب والمؤرخون ، وأمثال هذا كثير .

وإذا كان هذا الجهد مستكثرا على الأفراد فى زمن استذلت فيه المادة أعناق الرجال ، فهل تعجز الأمم العربية عن تأليف الجمعيات والمؤسسات ؟ وهل تعجز الحكومات عن تشجيع القائم منها وتقديم المعونات لنشر هذه الذخائر النفيسة ، وتقديمها للناس فى أبسط صور الطباعة ، وبأقل التكاليف ، حتى يسهل اقتناؤها على أكبر عدد من المطالعين والدارسين ؟ إذ لا يخفى أنه كلما كثر عدد المطبوع ، قلت نفقاته ، ولا خوف من بواره ما دامت تكاليفه سهلة مقدورا عليها ؟

لا أنكر أن هناك مجهودات فى هذا السبيل داخل البلاد وخارجها ، فهاهى ذى مؤسسة فرانكلين أخذت نفسها بنشر الثقافة الغربية بنقلها إلى اللغة العربية ، وعهدت إلى بعض كبار الأدباء بنشر ألوان منوعة من هذه الثقافة ، ولم تغلب العامل التجارى فيما تقدمه من آثار علمية ، إلا أننا يجب أن لاننسى ما عودنا الغرب من خلطه السم بالدسم ، ومن نظره إلى ما يقدمه نظرة تغليب المصلحة الشخصية قبل كل شىء وتغليب مبادئه على غيرها فوق أن كل مجهود للمؤسسة فى هذا السبيل مصروف إلى العلوم الحديثة ولا يدخله شىء من إحياء التراث العربى القديم .

أما بالنسبة إلى مايبذل من جهد داخل البلاد فلا ينكر ما تبذله مطبعة دار الكتب أو ادارة الثقافة العامة فى وزارة المعارف من وجهة النظر الحكومية ولا ما تبذله دار المعارف ودار الهلال وما ما ثلهما من وجهة النظر الأهلية .

وفيما يتعلق بالقسم الأول: فالبطء فى انتاجه ظاهر إذ تمضى السنة ولا يخرج إلا كتاب أو أجزاء من كتاب ،فضلا عن ارتفاع أثمان ما يخرج بسبب قلة عدد ما يطبع فالانتفاع بإنتاجه يقع فى أضيق دائرة .

وفيما يتعلق بالقسم الثانى فأكثر ما يطبع فيه للمؤلفين العصريين ،سواء أكان ما يطبع بالعربية أصلا أو مترجما عن اللغات الأجنبية إلا فى أحوال نادرة . على أننا نستطيع أن نلمح الروح التجارية متغلبة على ماينشر من ذلك ، ولهذه الدور عذرها الواضح ، فلانستطيع أن نحملها وحدها التضحية بمواردها فى هذا السبيل، والا عجزت هى الأخرى عن مدنا بما تمدنا به الآن .

ولعل أوضح مثل على ما أشرنا إليه من أن لتيسير النشر وتخفيف نفقاته شديد الأثر فى حسن الإقبال على اقتناء المطبوعات ما نلاحظه فى مطبوعات دار الهلال ودار المعارف فهذه كتبها الشهرية ومجلتها يطبع منها عشرات الألوف كل شهر ويتنافس الناس فى اقتنائها وهذا ما لم يسبق له نظير ولولا تواخر العوامل التى ذكرناها من ازدياد عدد القارئين ومن حشد العلماء لنقل المعارف الغربية ومن تيسير الطبع بإخراج طبعات شعبية تجمع بين جمال المنظر ودقة العمل وبين قلة الثمن لما سهل الأمر على تلك الدار بالإكثار من

عدد ما يطبع تبعا لقانون العرض والطلب ولقواعد الاقتصاد التى تقرر أن كثرة الإنتاج وسهولة تصريفه من أسس تقليل نفقاته .

هذا رأى فى محنة الأدب العـــربى أطرحه للمناقشة وأستطيع أن ألخص وسائل العلاج فى الأمور الآتية :

(أولا) أن يكون مما تهتم به الحـكومات العربية وتوجه إليه قسطاً كبيراً من عنايتها ، العمل على نشر المكنوز من المخطوطات العربية فى المكتبات العامة والخاصة وعلى الأخص دار الـكتب المصرية وما تبعها من المـكتبات التيمورية والزكية ومكتبات الجامعات المدنية والجامعـة الأزهرية ومكتبة قصر عابدين واستنساخ الموجود من ذلك بالمـكتبات الأجنبية شرقية وغربية . ولا تضن الحـكومة بالبذل فى هذا السبيل وفى تأليف اللجان العلمية لضمان صحة ما ينشر وسلامته مع وضع رقابة دقيقة للتحقق من سلامة الإنتاج حتى لا يفهم القائمون بالعمل أنهم بمنجاة من الحساب وانهم إنما يرزقون من هذا الباب .

(ثانيا) أن يكون مما تهتم به الحـكومات العربية أيضا وكذلك العلماء ترجمة أمهات الـكتب فى مختلف العـلوم والفنون والآداب فى الأمم على اختلاف لغاتها وثقافتها فإننا نلاحظ الآن أن موجة الترجمة بعد أن كانت فى الغالب موجهة إلى الترجمة عن اللغة الفرنسية تحولت إلى الترجمة عن اللغة الإنجليزية فلا بدع إذا طالبنا أن تشمل الترجمة ثمار العقول فى فرنسا وألمانيا وإيطاليا وغيرها فليس للعـلم والمعرفة وطن ولـكل بلد ولغة مقوماتها وخصائصها .

(ثالثاً) أن تنشأ مؤسسات أهلية على مثال مؤسسة فرنكلين وتنشر الدعوة لإنشائها من المقتدرين القادرين لهذه الأغراض النبيلة حتى تضم جهودها إلى جهود الحـكومات فى إبراز أعمال المؤلفين والمترجمين ، وتيسير مهامهم بحمل مؤونة الطبع والنشر عنهم حتى يفرغوا لعملهم ، على أن يكون هناك اتصال وثيق بين الحـكومات والمؤسسات لتنسيق الجهود ، حتى لا يتكرر العمل الواحد ، وحتى تتحقق المصلحة بتبادل الآراء والأفكار ، كما تتحقق الفائدة بحسن الانتقاء والاختيار .

وكخطوة أولى فى هذا السبيل يمكن الاتفاق مع المؤسسات الكبرى الموجودة فعلا بمصر للطبع والنشر كدار الهلال ودار المعارف على أن تتولى نشر ما يجب نشره من الذخائر والنفائس الأدبية والعلمية قديمها وحديثها بشرط أن تشترك الحكومات العربية إما بوساطة الجامعة أو بغير وساطتها لمكتباتها العامة ومؤسساتها العلمية والتعليمية بعدد له أثره فى ضمان التوزيع ولا شك أن نفقات الطبع والنشر فى هذه الحالة ستخف كثيرا لأنها ستوزع على مختلف الأعمال والمطبوعات التى تقوم بها تلك الدور وخاصة فى أبواب المصروفات العمومية .

(رابعاً) أن يكون من وسائل النشر استعمال طريقة (الفوتوأوفست) للطباعة الدقيقة وهى التى اتبعت أخيراً فى طبع كتاب أساس البلاغة للزمخشرى ، أخذا عن النسخة التى أخرجتها مطبعة دار الكتب ، وذلك بالنسبة لما طبع أيام الرخاء، مما يتعذر إعادة طبعه لتوزيعه بالأثمان الملائمة ، وقد عرفت من صاحب هذه الطريقة فى مصر مدير مطبعة دار الكتب السابق ، أنه أخذ فى طبع لسان العرب وسيسفر اتباع هذه الوسيلة عن عرض نفائس الكتب المطولة التى يدخل فى حكم المستحيل إعادة طبعها بأثمان رخيصة تسهل اقتناءها .

(خامساً) أن تتعاون الحكومات العربية مع المؤسسات الأهلية ومع أثرياء المصلحين الموفقين فى تخصيص مكافآت للمبرزين من العلماء والأدباء الذين رسخت أقدامهم ليعهد إليهم بالتأليف فى أغراض معينة ومقاصد محددة . كما يتعاونون فى تقرير جوائز منوعة القدر للفائزين فى مسابقات عامة تعد مرة أو مرتين فى العام ، ومن يفوز فيها يمنح الجائزة وتطبع كتبه بوساطة المؤسسات التى أشرنا إليها على الوجه المتقدم .

وقد أخذت الحكومة المصرية بهذا النظام ، فأعد مجمع اللغة العربية جوائز للمبرزين فى العلوم والآداب ، كما أنها قررت تخصيص قدر كبير من المال لمكافأة المتفوقين فى الامتحانات العمومية .

ومتى تقرر هذا المبدأ ، كان من الأنفع أن تقرر الجوائز المشجعة لمن نالوا إجازاتهم ودخلوا معركة الحياة تشجيعاً لهم على الاستزادة من العلم والبحث ، وعلى نفع الناس

بما حصلوه وهذا إلى جانب تشجيع ذوى الملكات والمواهب من غير الحائزين لتلك الإجازات والدرجات العلمية ، وبين ظهرانينا العدد العديد من هؤلاء الذين نبغوا بكسبهم الذاتى نبوغا أصبحوا به بين الأعلام ، وكم بين هؤلاء من وقفت المادة بينهم وبين إبراز أعمالهم الأدبية إلى حيز الوجود .

(سادسا) أن يكون مما يتفق عليه فى جميع الأحوال إبعاد العنصر التجارى والاقتصار على نفقات الإنتاج وحدها ، مع الحرص على الاقتصاد فى أبعد حدوده ، وعلى أن لا يصرف لأى مسهم فى هذا العمل إلا الأجر المعقول . وأن يكون الطبع مبسطا مع الاتقان وحسن المنظر ، وتيسير التوزيع ولو فى صورة اشتراكات شهرية مع تجزئة الكتب المطولة إلى أجزاء عدة بأثمان سهلة مقبولة ، وأمامنا جهد دار الهلال فى كتبها الشهرية أعظم برهان . فإذا ضوعف حجم الكتاب وزاد ثمنه بنسبة معقولة لتيسر طبع نفائس الكتب القديمة والحديثة ونشرها فى أوسع نطاق .

(سابعا) أن تعنى وزارات المعارف فى البلاد العربية بإنشاء المكتبات العامة والفرعية وتضع لها من النظم ما ييسر الإطلاع ، ويمكن الراغب فى ذلك من بلوغ حاجته فى أقرب وقت ، كما تعد المكتبات المنظمة فى جميع المدارس وتخصص لها الموظفين الفنيين الذين يحسنون تبويبها وترتيبها وعرضها وتديم إمدادها بأحدث الكتب وأقربها إلى عقول التلاميذ وأحبها إلى نفوسهم حتى تخلق فيهم الرغبة المستمرة فى حب الإطلاع .

وكذلك تعنى بتوجيه إدارات المدارس والمعلمين إلى العناية بهذه الناحية وإلى حث التلاميذ على الإطلاع وتشجيع من يسبقون زملاءهم فى القراءة والفهم والتلخيص بمكافآت أدبية أو مادية ، وتخصص لهم من أوقات فراغهم فى وقت الدراسة ومن أيام عطلاتهم السنوية ما يشتغلون فيه بالإطلاع والقراءة .

وأن تخصص مكافآت قيمة للمؤلفين الذين يدأبون على وضع المؤلفات المشوقة للتلاميذ ويضمنونها بسائط العلوم والآداب ومختلف الوسائل والأخبار والصور التى تطبعهم على حب بلادهم ومعرفة أمجادها وتحفزهم على العمل لتقدمها ورفعة شأنها .

وبذلك نكون قد أعددنا القارئ الشغوف بالقراءة كما نكون قد أعددنا له ما يستمتع به من القديم والحديث .

هذه آراء أبسطها لقومى ولست أدعى لنفسى الكمال فيما انطوت عليه من أفكار ومقترحات ، وإنما جهد متواضع أعانت عليه التجارب والمشاهدات ، فإن أكن قد وفقت فيه ، فحسبى أننى أسهمت فى خدمة المجتمع وإلا فآراء المعلمين كفيلة بالتمام « إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت ، وما توفيقى إلا بالله » .

محمد مصطفى الماضى

التعليق

ليست المحنة فى هذه النكبة محنة أدب وإنما هى محنة أدباء ، وليست العلة فى هذه المحنة علة فقر وبؤس فى الأدباء ولا هى علة بخل وصلف فى الأثرياء ، ولا هى علة جهل وتقصير فى القادة والحكام ، وإنما هى علة جبن وتخاذل فى الأدباء والشعراء أنفسهم .

إن مهمة الأديب ، شاعرا كان أو كاتبا ، هى توجيه الأمة والتضحية فى سبيل هذا التوجيه ، فمن هو هذا الموجه المضحى منا ، نحن أسرة الأدب والفن ، لم يصل إلى مكان احترام وتقدير الأمة شعوبا وحكومات ؟ ؟ يفرض هذا الاحترام وذلك التقدير على الحاكم والمحكوم ؟ ؟ .

إن أبا الطيب فى القدماء فرض شخصيته على الأمة حتى وقفت الملوك بين يديه تسأله ما يريد ، ولم ينل هذه المنزلة إلا بعد إخلاصه لفنه وتضحيتهِ فى سبيل هذا الإخلاص حتى ناله الشىء الكثير فى إبان عروجه ، من السجن والتعذيب بله الفقر والبؤس والحرمان .

ولكنه عمد فى آخر عهده إلى العبث برسالته السامية حتى انتهى به الأمر إلى الامتهان فالتشريد فالقتل .

وإن الرصافى شاعر العراق من المحدثين أكرم فنه وضحى فى سبيل رسالته أيام الأتراك حتى نفى وهدد وعذب وانتهى ذلك به إلى الكرامة الموفورة فى عهد فيصل حتى أدخله البرلمان ، وعهد إليه بتربية النشء فى دار المعلمين ، ووصله بالمال الوفير ، ولكنه عاد فى آخر عهده بالحياة إلى نقض رسالته فهوى عن عرشه ومات ميتة الرعاع .

هذان مثلان لكل أديب وشاعر فى كل عصر ، فلم تقصر الحكومات فى تقدير الأدب وأهله ، وإن ابن الزيات وابن زيدون فى القدماء تقلدوا الوزارات ، وأن الشبيبى والشرقى وأبا ريشة وبدوى الجبل وخليل مردم وأمين نخلة وخليل تقى الدين ، والعقاد ، وهيكل وأباظة وكثيراً غيرهم من أدباء وشعراء اليوم قد وصلوا إلى الوزارات ومجالس التشريع فى الحكم .

وأن الجوائز على الآداب والفنون والعلوم كانت فى العهود السالفة ولا تزال فى عهودنا الحاضرة تترى على الأدباء والشعراء والعلماء من الشعوب والحكومات ، ففى القديم

من ذلك مالا نستطيع حصره ، وفى الحديث نرى أعمال الملك فيصل بن الحسين فى العراق مع الرصافى والشبيبى والشرقى والجواهرى ، ثم أعمال الملك عبد العزيز السعودى وخليفته مع العقاد ورشيد رضا والزركلى وفؤاد الخطيب .

أقول : نرى أعمال هؤلاء الملوك وأولئك برهانا قويا على أن الأدب والفن كانا ولا يزالان يفرضان قوتهما على الأمم شعوباً وحكومات ، وهكذا نرى أعمال الشعوب مع هذه الفئة الحية من الناس ، ففى العراق الشيخ بلاسم من آل يس بنى من ماله الخاص للإشادة بالعلوم والآداب معهداً بلغت تكاليفه مائة ألف من الدنانير وكان ينفح الشعراء ألوفاً منها جوائز على قصائدهم ، ومن هؤلاء الشعراء الجواهرى وكاتب هذه السطور وغيرهما كثير .

وفى الحجاز المحسن الشيخ حسن الشربتلى أنشأ وغذى معاهد للعلوم من ماله الخاص حتى أفاض على الدكتور طه حسين عشرة آلاف من الدنانير فى سبيل إحياء التراث العلمى العربى وحتى وضع تحت تصرف أحمد عبد الغفور العطار فى القاهرة مثل ذلك لإحياء هذا التراث .

فماذا كان من الشعراء والأدباء لقاء هذه البوادر الطيبة من قادرى العلم والأدب والفن ؟ ؟ كان أن كفر أكثرهم هذه النعم وعبثوا بهذا التقدير فطووا رسالاتهم القدسية وأكلوا عليها ثم شربوا أجيالا من الناس بين يدى شهواتهم القائمة على الأنانية والتضليل .

فلنضرب الأمثال على تهافت هذا النوع من الناس : إن لكل طائفة من خلق الله حتى الحلاقين والحذائين والجزارين ، نقابة تحميهم من العبث فى أنفسهم والطغيان عليهم ، ولكن أدباء مصر وشعراءها إلى هذا اليوم لم يتحدث واحد منهم إلى نفسه بضرورة هذه النقابة لحفظ كيانهم وتعزيز دولتهم وفرض رسالتهم على عالمهم العربى والإسلامى .

ولعلهم الآن سواء كانوا مصريين أو عراقيين أو سوريين بله اليمنيين والسعوديين ، وما أكثر الأدباء والشعراء فى هذه الممالك الواسعة الرقع ، أقول : لعلهم جميعاً إلى الآن لم يفكروا فى ناد يضم شتاتهم ويلم شعثهم إذا حزبهم الأمر ليفكروا فى الخروج من سوء أو الدخول فى خير .

فلقد زرت أكثر هذه الأقطار وفى نفسى قبل كل عمل هم حثيث لأن أجلس إلى شعرائها وأدبائها بما فطرت عليه من حب الجبلة التى فطروا عليها ، وللأسف لم يجرنى الحظ من الإخفاق فيما أملت إلا أن أقطع وقتى فى البحث والتنقيب عنهم فرادى بين مقاه يتسكعون فى زاوياها وأجحار يأرزون إلى غياباتها .

لم كان ذلك منهم ؟ ؟ أكان الحدادون والسماكرة والحمالون والسماسرة أقوى منهم على التفكير فى الغيرة على مهنهم والنجاة بها من تحقير الأمة واستخفاف السلطان بأهلها بينما نجد هذه الأمة وذلك السلطان يحفلون بتعزيز الفنون الدنيئة والمهن المسفة بأهلها ؟؟

ماذا على الملك العباسى فى عهد الإسـلام الذهبى أن يستخف بأدب أبى نؤاس ويلقى به فى غيابة السجن إذا كان أبو نؤاس صاحب الرسالة القائمة على الدعوة إلى الفسق والفجور ، وهو لو عزز هذه الرسالة بالدعوة إلى الحق لقاد الأمة قيادة اياس بن معاوية وهو فى سن العشرين من حياته ؟ ؟

وماذا على فيصل بن الحسين فى عهد العروبة الأخير أن يهمل الرصافى حتى يأكل التراب ويموت بين الخمارة والماخور وهو لو استمر فى رسالته الأولى الحافلة بالدعوة إلى النهوض من أسر العبودية والاعتصام بالعروبة والإسلام ؟ لـكان القائد الأول فى الأمة يدفع بها إلى حيث تسمو وتعز .

وهذا بشارة الخورى الذى أطلق على نفسه لقب الأخطل الصغير وقطع حياته فى شعره الماجن إذ يقول :

ولد الهوى والخمر ليـلة مولدى

هذا هو يقطع تلك الحياة الغالية على الأدب دون أن يتبلغ العيش المعصوم بالـكرامة كما يقول ، يلتجىء فى أواخر أيامه إلى الملك السعودى فيعطف عليه ويحقق أمله فى الحياة بعد أن ودع الشطر الأكبر منها ، فماذا عليه لو أدى رسالته داعيا إلى الحق فى قومه وإنسانيته ، ومهيبا بأبناء جلدته إلى التظاهر على باطل حياة حطت من رسالتهم وأشلت عليهم كلاب الزمن ؟ ؟

ثم ماذا على حكومة العراق أن تغض من قيمة الشاعر الجواهرى أخيرا وقد عمدت قبل ذلك إلى تعزيزه بجعله شاعر البلاط الهاشمى واغدقت عليه من النعم مالو حفظها

ودعا إلى الحق معها لتعززت به فئة الشعر والأدب تحت سماء الرافدين ولكنه أبى هذه الكرامة إذ صرف مواهبه إلى الإشادة بمدح ستالين تارة ومدح مونتغومرى تارة أخرى بينما لو نقبت فى دواوينه لم تجد أثرا للاشادة بمدح محمد منقذ العالم من الجهالة والدمار .

وهذا فؤاد الخطيب وخير الدين الزركلى ومحمد سليمان الأحمد الملقب ببدوى الجبل وكلهم من شعراء سوريا، قد أقاموا الدنياوأقعدوها أيام حرمانهم من الحياة الدافئة العارمة بشعرهم الداعى إلى الوثبة فى العالم حتى إذا شملتهم السعادة من حياتهم الفانية بأن أصبح الزركلى يملك القصور والحدائق والسيارات ، ويتقاضى مئات الدنانير مرتبه الشهرى من عاهل الجزيرة السعودى .

وأصبح الشيخ الخطيب يملك كذلك الدور والقصور ، ويتقاضى كزميله مئات الدنانير على رأس كل شهر من السعوديين العرب الأقحاح ، وقد بلغ إحسانهم إليه أن الملك السعودى الراحل رحمه الله ، أناله جائزة واحدة عشرة آلاف دينار ، وذلك لم يتسن لشاعر عربى قبله ولن يتسنى لشاعر بعده .

ثم أصبح بدوى الجبل الذى كان يتقلب فى مساربه أيام شبابه بين بيروت ودمشق ويرفع عقيرته بين قومه داعيا إلى الحرية تارة وإلى العبودية تارة أخرى ، أصبح الآن فى عداد القائمين على تشريع القوانين فى مجلس التمثيل ، فضلا عن الوزارات التى يتقلدها حينا بعد حين .

فماذا فعل هؤلاء بعد أن خف محملهم من البؤس ، وغرقوا إلى آذانهم فى نعيم الحياة ؟ ؟ هل عززوا رسالة الأدب الحق فى نفوسهم أو نفوس إخوانهم الذين رافقوهم فى أخشن المنازل ؟ ؟ إنهم صمتوا ، ثم خرسوا فلا نحس لهم صوتا ، حتى لا نكاد نشعر لهم بوجود .

فأين محنة الأدب عند هؤلاء ؟ بل أين محنة الأدب عند أمثال طه حسين وعباس العقاد وتوفيق الحكيم ومحمد التابعى ومحمود تيمور وكامل الشناوى وشفيق المعلوف وإيليا أبو ماضى وعمر أبو ريشة ومهدى الجواهرى ورضا الشبيبى وعلى الشرقى وكل هؤلاء أصبحوا

فى طليعة الأحياء البالغين فى نعيم الحياة ، فطه حسين يكاد ينفق مئات الدنانير على الترفيه عن أسرته فى كل شهر ، والعقاد متربع على منصة الجبروت بين علومه وفنونه ، وتوفيق الحكيم يكاد يحك السماء بقرنيه فى نعيمه السابغ وحرصه الجبار على المادة .

وهذا التابعى والشناوى يرزحان تحت عبء الصحافة ذات الجلالة دعامتين يقوم عليهما أفخم بناء يهز العالم ، وشفيق المعلوف يحار كيف يثبت ركائز خزائنه تحت سماء البرازيل ، وإيليا أبو ماضى لا يفرغ من إدارة مطابعه وصحفه اليومية إلى حك أذنيه ، وعمر أبو ريشة يتقلب فى الوزارات بين الشرق والغرب ، والجواهرى ملك فى العراق على عهد نورى السعيد الأخير عشرات الآلاف من الدنانير ، وعمد إلى تجديد حياته ، واللحاق بالزركلى والخطيب فى بناء القصور .

وهذا الشيبى والشرقى يملون أحكامهم الرشيدة من على منابر التمثيل والتشريع فى الوزارات العراقية ، فهل نحسب من المحنة فى الأدب حياة هؤلاء أم نحسبهم هم المحنة فى عالمهم الحافل ببؤس إخوانهم وأبناء مهنتهم ؟ ؟

إن طه حسين يقصر أدبه على الإشادة بالإفرنسيس تارة والإشادة بالعرب تارة أخرى ، ويلهج بالدعوة إلى الفرعونية تارة والدعوة إلى الإسلام تارة أخرى ، ثم هو يسبغ ألقاب الإمارات فى الشعر والأدب على أناس ، وينزعها عن آخرين ، ففى رأيه يوما ما أن يكون العقاد أمير الشعراء ، وفى رأيه يوما آخر أن يكون الزهاوى أو المهندس هما الأميرين معا فى هذا الفن .

والتابعى إلى جانب زميله الشناوى ، ويكاد يقرؤهما مئات الألوف من شباب العرب كل يوم ، يمعن الأول فى مغامراته مع أسمهان ، ويمعن الثانى فى الكشف عن حياة أبى نواس الداعرة ، حتى كأن أمتهم أصبحت وارفة الظل من كل نعيم فى حياتها السامية ولم ينقصها فى عزها وكرامتها إلا الفجور والفسق .

هؤلاء هم أدباؤنا جميعا ، يرفلون فى أثوابهم الفضفاضة من نعيم الحياة ، فأية محنة للأدب فى نفوسهم ؟ ؟ وأى نقص من تقدير الشعوب والحكومات فى منازلهم وأبهائهم ؟ ؟

إنهم وهم المثل الأعلى للأدب فى عصرنا الحاضر ، سابغون فى العيش ، بالغون فى نعيم الحياة ، فهل أدوا رسالتهم كاملة غير منقوصة فى عالمهم القائم على رعاية الحق فى العالم ؟ ؟

ليست مهمة الأدب فى الحياة كثرة القول والإفاضة فى النظم والنثر ، ولكن مهمة الأدب فى توجيه الأمة نحو النور بالقول وإن قل ، والنظم أو النثر مهما تضاءل ، إن أول واجب على الأديب تعزيز مهنته فى نفوس الأمة تعزيزا يملك معها قلوبهم ، ويدفع بها إلى احتكار العز والاعتصام بالقوة والخلود .

فإذا كان هذا هو الغرض الأول من الأدب ، تحامى ذوو السلطان السياسى فى الأمة من أن يعبثوا بكرامة الأمة ، حذرا من قلم الأديب ولسانه ، أن يؤلبا عليهم الأمة فتعصف بسلطانهم ، والأمة هى مصدر السلطان الأعلى ، ولن يقوى الأديب على هذا التحريض ما لم يعتصم بالحق فى رسالته ويخلص فى أدائها ، ولن يتوفر لديه ذلك ما لم يعمد إلى التضامن مع زملائه والاعتزاز بهم والحرص عليهم ، فأين هذا من أدبائنا هؤلاء ؟ ؟

إن كل أدب لم يحرك الأمة نحو الحق والجمال والخير ، ليس بأدب مهما طنطن له الرعاع من الناس ، ومهما أمعن السلطان فى التملق إلى ذويه ، لقضاء مأرب أو تحقيق رغبة ، وإن أثر الأدب الصالح فى الأمة يبدو واضحا جليا ، عندما نلحظ سلطان الأمة كيف يسير وبماذا يتقوم ؟ ؟

فلنلحظ هذا السلطان الذى نسميه اليوم عربيا ، هل يسير إلى العزة والكرامة ويتقوم بالحق الإنسانى ؟ ؟ هذه جامعة الدول العربية بين أيدينا ، ماذا فعلت وماذا ستفعل ؟ ؟ وهذه حكومات العرب ماذا تصنع ومن هو العربى الحكيم المخلص القائم على تدعيمها وتوطيد أركان العز تحت سمائها ؟ ؟ إن المسئول عن ذلك كله هو الأدب والمسئول عن الأدب هو الأديب فالأديب نراه عزيزا فى أعيان الأدباء والشعراء فما بال الأمة لا تعتصم بالعز والكرامة ؟ ؟ أذلك عن محنة فى الأدب ؟ ؟ لا ، وإنما هى محنة فى الأدباء أنفسهم إذ لم يحفظوا أدبهم من التهافت ولم يعصموا أمتهم من الانهيار .

لا شك فى أن مقالا ينشر أو رأيا يذاع أو كتابا يصدر ، لا يخلو من فائدة تعود على الأمة بخير ، ولكنه خير محدود لا يتقوم به أود فى الأمة ولا تعتصم به من عبودية

واستخذاء ، وإذا ساد الأمة جهل من ورائه فقر ومرض من ورائهما استعمار ، كان هذا الخير المحدود الذى نحاول به إصلاح الفرد جاريا مجرى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر حيث لا يجدى الأمر ولا النهى ، وحيث يكونان عبثا .

فالمسئولية الملقاة على عاتق الأديب اليوم كالعقاد وطه حسين هى فوق عظة الفرد بالأمر والزجر عن طريق اللسان أو القلم ، إنها فى التفكير العميق والنظر البعيد والعمل المضنى على تعزيز دولة الأدب فى تجنيد أهله وحشدهم تحت لواء العز والكرامة لتتكون بهم قوة تهيمن فى الأمة وتفرض سلطانها على الولاة والقادة فلا يعبثون بها من وراء الشهوات الطاغية ونفوسهم الجياشة إلى التكالب على السلطان .

أما أن يحتكر الأديب رسالة الأدب فى شخصه ويحاول النهوض بالأمة وهو فرد ، والمفروض أن يد الله مع الجماعة ، فذلك عين ما ننقمه على الأنانية فى الزعيم الفرد الذى يحاول إصلاح أمته بنفسه وهو فى أمس الحاجات إلى الإصلاح ، فالأنانية فى الأديب وهو زعيم أول ، أسرع للفتك بأمته ، من الأنانية فى الحاكم وهو زعيم الأمة الأخير ، إذ المفروض أن الحق إنما ينزل أول ما يهبط به الروح القدس على فكر الأديب ويراعه لا على سيف الحاكم وصولجانه ، والنبى إذ ينزل عليه الوحى يعمد أول ما يعمد إلى إشراك المخلصين من معتنقى رسالته فى تعزيز قوته وفرض نفوذه على العالم ليتسنى له تحقيق ما ينشد من إصلاح يهدف به إلى الإنسانية الشاملة لا الإنسان الفرد .

فأين مكانة البارزين من أعيان الأدب وهم فى أبراجهم العاجية وعلى عروشهم السامقة وتحت قبابهم الناطحة للسحاب ، أقول : أين مكانة هؤلاء من مكانة إخوانهم وزملائهم القابعين فى زوايا البؤس وليسوا فى جوهرهم المغمور أقل منهم قيمة لو عنوا بهم وأخذوا بأيديهم كما يفعل رسل الإنسانية إلى العالم .

إن طه حسين والعقاد والزيات وتوفيق الحكيم ومحمود تيمور ومحمد التابعى وأمثالهم ممن ملكوا ناصية الحكم أو التحكم بالمهن الفكرية يقرؤن ويسمعون فيدركون أن فى ظلال قصورهم وأبراجهم تلامذة يتأثرون الحق الذى تأثروه ولكن سنة الله فى خلقه التى قضت بأن ينبه عامل ويخمل آخر زوت أولئك عنهم فانحدروا إلى الحضيض بينما ثبتوا هم

على القمة لا ليحتكروا هذه القمة ولكن ليأخذوا بأيدى زملائهم فيرفعوهم إليهم ويشيروا جميعا إلى الأمة بالنهوض فى أفق الحياة .

فقد رأينا أن الشاعر الراحل أحمد شوقى كان فى مقدوره بما أوتى من حظ فى المال أن ينقذ حافظا وأمام العبد والكاظمى وعبد الحميد الديب وغيرهم من البؤساء الحاذقين فى الفن الذى حذقه هو ، ولكنه استمر فى علوه وعتوه يناضل بيد واحدة واستمروا هم فى ضعتهم واستكانتهم يحثون على وجوههم التراب ، فلا أفادوا هم منه بتغذيته ما أرسلوا به ولا أفاد هو منهم بما يعزز رسالته العرجاء .

وهكذا نرى اليوم أن التخمة المادية فى طه حسين والعقاد وتوفيق الحكيم والتابعى وعزيز أباظة ومحمود تيمور وشفيق معلوف وخليل ثقى الدين وأخيه السعيد وعمر أبى ريشة ، لم تفض قطرة أو قطرات على من هم أعلم منى بهم من أدباء وشعراء يتضورون من البؤس ويتوارون خلف المراقع . فالمحنة فى ثقافتنا العربية ليست قاصرة على الأدب بل لعلها ليست قائمة فيه وانما هى فى صميم الأدباء أنفسهم أى أنهم هم المحنة التى تنال الأدب منذ شاركوا قادة الأمة فى الأنانية والجبروت .

المحاضرة الرابعة :

حياة المحاضر



سيرة حياته

ولد فى قرية والده التابعة لبلدة « كفرصقر » من مديرية الشرقية فى مصر ، حوالى سنة ١٩٠٠ ودرس القرآن الكريم ، فى كتاب هذه القرية ، ثم حمله أبوه إلى القاهرة وأدخله الأزهر ، وفى سنة ١٩٢٤ ، نال الشهادة العالمية منه ، وتخصص فى شعبة الأخلاق والتاريخ أربع سنوات ، قدم فى نهايتها رسالة عن هارون الرشيد ، نوقشت من كبار العلماء فأحرزت الرضى عن نبوغه .

أعماله

امتهن التدريس فى معهد الإسكندرية ، ثم انتقل إلى معهد الزقازيق ، ثم إلى معهد القاهرة ، ثم إلى كلية أصول الدين ، التى لا يزال مدرسا فيها إلى الآن .

آثاره :

أخرج للمكتبة العربية الإسلامية كتابين : أولهما « الأزهر بين الماضى والحاضر » . والثانى « تأملات فى فلسفة الأخلاق » . ويعد للطبع ثلاثة كتب من تأليفه أولها :

١ — «الروافض وأثرهم فى مصر» ويعنى بهم غلاة الشيعة : كالاسماعيلية والنصيرية .

٢ — « أحاديث الصباح » وهى مجموعة أقواله التى أذاعها فى الأثير من مصر ، والشرق والأدنى ، فى أوقات مختلفة .

٣ — « خواطر وأفكار » وهى سلسلة من أحاديث نشرت فى صحف مصر : « الزمان » ، « الأهرام » ، « الجمهورية » .

شخصيته

للشيخ منصور رجب شخصية فذة فى حرصه على خدمة الحق دينا وأدبا ، فهو لاينفك ، مضافا إلى عمله المهنى « يحبر ويحرر المقالات » ، فى صميم المشاكل الدينية والاجتماعية ، لتذاع فى الأثير ، أو تنشر فى الصحف . وله إلى ذلك ، مواقف مشهورة فى المحافل يلقى عليها الكثير من نتاج أفكاره ، والأستاذ رجب لين العريكة ، سهل الانقياد للحق ، متواضع لإخوانه ، يتأثر بإحسانهم إليه ويفيض إحسانه عليهم ، كثير الهواية فى تعزيز المؤسسات الاجتماعية والدينية ، حتى ليندر أن تصدر مؤسسة لم يكن عضوا عاملا فيها ، وهو إلى ذلك كله شديد الطموح إلى كل علياء من رتب الحياة ، وسريع الإجابة إلى كل مهيب به فى سبيل الدين والعلم والأدب .

المحاضرة الرابعة

ألقاها المحاضر بنفسه فى الندوة المنعقدة يوم الأحد العشرين من شهر آذار سنة ١٩٥٥
فى منزل مؤلف هذا الكتاب الأستاذ محمد على الحومانى بمصر الجديدة

تطور الفكر الإسلامى

نعنى هنا بتطور الفكر الإسلامى تقدمه مع الزمن بالتحلل من معتقدات فى مسائل لم يرد لله تعالى فيها حكم على التعيين .

ولو قارنا الفكر الإسلامى اليوم بما كان عليه فى أى وقت مضى ، لوجدنا أن السلوك الإنسانى ينتقل من حال إلى حال مما يدل على أن التطور لا غالب له ، وأن عجلة الزمن دوما إلى الأمام تسير ، وأنها إذا وقفت خطوة فإنها باثنتين تعوضها ، سنة الله فى خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلا .

والأمثلة على ذلك كثيرة بين الخاصة والعامة ، وفى كل زمان ومكان :

فأذكر ، وأنا ناشئ أن والدى دعا بعض رجال الجاليات الأجنبية « الخواجات » لأن يتناولوا طعام الغداء عنده فى قريته بريف الشرقية ، وكانت عادة القوم وقتئذ أن يجلس الرجال وحدهم فيما يسمونه « المضيفة » أو « الدوار » ، أو كما يسميه بعض أهالى صعيد مصر « الديوان » . وكان لهذه المضيفة من فتيان القرية من يقومون على خدمتها ومن فيها ، وبخاصة يوم تحتاج إلى مزيد من عناية .

تناول الأضياف طعام الغداء ، وانتقلوا يتحدثون فيما لهم يومئذ من حديث .

وكانت عادة هؤلاء الفتيان أن يأكلوا بعد مستكملين ما يحتاجون إليه من طعام .

ولا أدرى لماذا كنت يومئذ مولعا بأن أترك أترابى إلى حيث أستطلع ما يجرى فى

هذه المضيفة من أحوال ، وسمر . وما أشد دهشتى عندما رأيت الفتيان يمتنعون عن أن يمسوا ما تبقى على المائدة من طعام ، على ما هم عليه فى مثل هذا الوقت من مخمصة ، بحجة أنه قد تنجس بهؤلاء « المبرنطين » ، وما كان منهم إلا أن رموه لـكلاب القرية وغربان الحى .

ودخلت الأزهر بعد هذا المنظر الذى لا يزال يعلق بذهنى حتى الساعة . دخلته أطلب العلم فى « حلقاته » على شيوخه ، فخطر لى بعد سنوات قضيتها فى دراسة الفقه على مذهب الإمام محمد بن إدريس الشافعى ، خطر لى أن أدرس الفقه على مذهب الإمام أبى حنيفة النعمان . حيث يكون لمتخرجيه نصيب فى تولى وظائف القضاء فى المحاكم الشرعية . فذهبت إلى أستاذى يومئذ فى مادة الفقه ، أستطلع رأيه فى هذا الخاطر ، فزجرنى ، ومنع أن أفكر فى هذا على الإطلاق .

فقلت له : لماذا ؟ أهو حرام ؟

فقال : نعم . هو حرام ، ولا يجوز أن تنتقل من مذهب إلى مذهب .

وأذكر ، وأنا طالب فى قسم التخصص ، بعد أن نلت شهادة العالمية ، أذكر أن أستاذا أخذ يشرح لنا حديثا نبويا شريفا فى كتاب اسمه « رياض الصالحين » من باب عنوانه « احترام العلماء » ، فأخذ رحمه الله يخرج الألف واللام فى كلمة « العلماء » وهل هى للجنس ؟ فيكون مدخولها الحقيقة من حيث هى .

أو هل هى للعهد الخارجى ؟ فيكون مدخولها فردا معينا من أفراد الحقيقة .

أو للعهد الذهنى ؟ فيكون مدخولها فردا مبهما من أفراد الحقيقة .

أو للاستغراق ؟ ومدخولها كل أفراد الحقيقة .

وانتهى به المطاف إلى أن الألف واللام للعهد والمعهود هنا هم علماء . . . فسألته : ألا يحترم فلان . . . القانونى الضليع ؟ ! ! وفلان . . . المهندس الـكبير ؟ ! ! وخشيت أن أذكر له من علماء الأجانب ، ممن لهم على الإنسانية فضل لا ينكر ، فثارت ثائرته على ، وأخذ يسب الزمان الذى جعل مثلى طالبا فى الأزهر .

هذه من حوادث شاهدتها بنفسى بين العامة فى الريف ، وبين الخاصة فى أكبر دار تشرف على الفكر الإسلامى على الأقل فى ذلك الوقت .

ولو رجعت الآن تفتش عن مثل هذه الجزئيات لما وجدت لها أثرا . فلم يعد بين علماء الأزهر من يقصر الاحترام على علماء الشريعة وحسب . ولم يعد بينهم من يتعصب هذا التعصب المذهبى البغيض ، ولم يعد فى ريف مصر من يعتقد بأن بقايا طعام الكتابيين نجس .

والأمثلة على ذلك كثيرة ، أشهر من أن تذكر ، ولكن لا بأس مع ذلك أيضا من أن أدعم كلمتى هذه بأقوال أولى الرأى والحجى من علماء المسلمين أزهريين ومدنيين .

يقول أستاذنا الشيخ مصطفى عبد الرازق ، شيخ الجامع الأزهر الأسبق ، فى كلمة له تحت عنوان « تطور الجو العلمى فى الأزهر » يقول :

« منذ أكثر من عشرين عاما كنت سكرتير مجلس الأزهر الأعلى والسكرتير العام للمعاهد الدينية ، وكنت بحكم منصبى متصلا بمناهج التعليم فى الأزهر ، وما يقرر تدريسه من الكتب ، وأذكر أنه فى ذلك العهد كان قد قرر تدريس كتاب « تهذيب الأخلاق » لابن مسكويه فى بعض السنين الدراسية ، وسرنى ذلك لأنى كنت أحب أن تجد كتب الفلاسفة الإسلاميين منفذا إلى المعهد الإسلامى الأكبر ، ولم يمض زمن طويل حتى علمت أن المدرسين والطلاب شكوا من تدريس رسالة ابن مسكويه ، بحجة أنها تتضمن من الآراء والمذاهب ما يعتبر فلسفة ينبغى أن ينزه عنها الأزهر الشريف ، وحل محل كتاب « تهذيب الأخلاق » رسالة صنعها بعض مدرسى الأزهر تتضمن آثارا ، وحكما ، ومواعظ تحث على مكارم الأخلاق ، وتنهى عن مساويها ، وحاولت جهدى أن أدافع عن ابن مسكويه ، وعن كتابه ، فلم يجد مسعاى شيئا .

وإذا كنت تسمع فى هذه الكلمة ما يصور لك الفكر الإسلامى من زاوية من زواياه فى أكبر معقل للفكر الإسلامى ، فاسمع شهادة أستاذنا أحمد لطفى السيد عن تطور الفكر الإسلامى من هذه الزاوية نفسها ، بعد ربع قرن من الزمان :

كان الأستاذ فى سنة ١٩٤٦ رئيسا للجنة امتحان الفلسفة لطلبة تخصص المادة فى كلية صول الدين بالأزهر ، وقد عينت اللجنة لكل طالب موضوعا يحاضر فيه لمدة ساعة

تقريبا ، وكان من بين الموضوعات التى حاضر فيها الطلاب « الإله عند أرسطو وتأثر فلاسفة الإسلام بذلك » ، وبعد أن انتهت هذه المحاضرة ، قام خطيبا فى جمع حاشد من شيوخ الأزهر وطلابه ، فقال : أحمد هذه الفرصة التى هيأها لى صديقى الأستاذ الإمام الشيخ المراغى لأغتبط بلقياكم ، وأرى عن كثب تقدم الأزهر هذا التقدم الباهر ، الذى لمسته فى هذه الجلسات الست[1] ، وأسارع إلى تهنئتكم ، وأساتذتكم ، وتهنئة صديقى الإمام بهذا التقدم الكبير ، فقد كان الأزهر فيما مضى تغشاه غاشية من سلطان قاعدة « من تمنطق فقد تزندق » ، أما اليوم فإنا نتكلم عن « إله أرسطو » وهو كما كان يرى فكرة لم يخلق شيئا ، ولا يعلم شيئا أصلا إلا ذاته . إلى أن قال :

فما معنى هذا ؟ معناه أن الأزهر انتقل من حال إلى حال كبقية كائنات العالم ، ولكم أن تسموا هذا استحالة ، أو نموا كما تريدون ، ولكنه ليس فسادا طبعا ، فأكرر تهنئتى بتقدمكم الذى جعلنا نتكلم اليوم فى « إله أرسطو » .

وهذا التطور الذى تراه يغمر الفكر الإسلامى لم ينبت من لا شىء ، بل جاء نتيجة لعوامل عدة . منها تلك الجهود الجبارة التى قام بها أولئكم الأعلام من العلماء الأحرار أمثال السيد جمال الدين الأفغانى ، والأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ، وأمير البيان شكيب أرسلان ، وشاعر الإسلام الدكتور محمد إقبال ذلك الذى رسم للفكر الإسلامى صورة تخيلها فى ذلك الذى يمتاز بين أهل الشك والظن بإيمانه ويقينه ، وبين عباد الرجال ، والأموال ، والأصنام ، والملوك بتوحيده الخالص . وبين عباد الأوطان ، والألوان ، والشعوب بانسانيته . وبين عباد الشهوات ، والأهواء ، والمنافع بتجرده من الشهوات ، وتمرده على موازين المجتمع الزائفة .

---

(١) كانت الجلسة الأولى عن أصول المعتزلة ، وأثرها فى تطور علم الكلام ، والثانية عن الغزالى بين الفلسفة والتصوف ، والثالثة عن وحدة الوجود بين الفلسفة والتصوف ، ، والرابعة عن فلاسفة الإسكندرية وأثرهم فى توجيه التفكير الإسلامى ، والخامسة عن القياس بين المناطقة والفقهاء ، والسادسة عن الإله عند أرسطو .

وإننى أنتهز هذه الفرصة الطيبة التى كان أول من عرض فكرتها على صديقى الأستاذ الحومانى . لأدعو المسلمين جميعهم فى بقاع الأرض كلها إلى أن يتحللوا من آراء بعض فقهاء السلف فى المسائل التى لم يرد لله تعالى فيها حكم على التعيين ، والتى أصبحت لا تلائم روح العصر ، ويكفى ما أصاب المسلمين من آثار ذلك الجمود الذى حرموا به علينا أن نتعلم علوما مما توصف به الآن أنها تستخرج « البترول » أو الذهب الأسود من بلاد المسلمين على أيدى غير المسلمين . والذى حرموا به علينا أن نعلم الفتاة تعليما تكون به فقيهة النفس فى الوقت الذى يقرأون فيه قول عروة : « مارأيت أحداً أعلم بفقه ، ولا بطب ، ولا بشعر من عائشة رضى الله عنها » والذى حرموا به علينا أن نفتح عقولنا لنفهم الأحكام من كتاب الله وسنة رسوله مباشرة كما فهم من قبلنا، بل أوجبوا علينا أن نكون لهم مقلدين ولا شىء الا أن نكون أبدا مقلدين . ونسوا أن فى هذا شلا للفكر ، وغلقا للعقل ، وإن تعجب فعجب قولهم هذا فى الوقت الذى يأمرنا فيه كتابنا العزيز بأن نكون من أولى الألباب .

وختاما أرفع يدى إلى السماء وأبتهل إلى الله العلى القدير قائلا : يارب :

ما أنت بالسبب الضعيف وإنما نجح الأمور بقوة الأسباب
فاليوم حاجتنا إليك وإنما يدعى الطبيب لساعة الأوصاب

فهل لنا أن نفتح عقولنا على أسباب القوة ؟ ! ! !

أرجو .

منصور رجب
الأستاذ بكلية أصول الدين

المناقشة

بدأ النقاش الأستاذ أحمد حلمى رئيس حكومة فلسطين ، وقائد الحامية فيها ، أيام حرب العرب مع اليهود .

تناول المحاضر من ناحية « تنجيس أهل الكتاب » ، منكرا عليه أن يكون هذا خاصا بأهل الريف المصرى ، وإنما هو حكم شائع فى أكثر من خمسين مليونا من الشيعة المسلمين ، ولا يزال قائما فى مذهبهم ، فادعاء المحاضر أنه من بدعة أهل الريف ، وأنه زال بتطور الفكر الإسلامى إدعاء لا يدعمه دليل .

ثم انبرى الدكتور على عبد الواحد للنقاش ، أقسى ما يفيض الناقد فى قوله :

« إن بحث المحاضر لا يمت إلى تطور الفكر الإسلامى بصلة ما ، وإنما هو على هامش الفكر الإسلامى ، إذ تناول العقائد والعادات ، وهذه ليست من الفكر فى شىء ، فإن العقيدة تكاد تكون نقيضا للفكر .

ولقد حسبنا الأستاذ المحاضر يتناول بالبحث مقارنة الفكر الإسلامى بالفكر الغربى الحديث ، فيسير على ضوء التفكير الجديد ، أو أنه يلحظ تطور المسيحية ، فيبنى على نهجه تطور الإسلام . حسبنا أنه يبحث الجوهر فى الدين ، وكيف تطور إذا به يأتينا بالتوافه من أبحاث الفكر .

فالعقيدة القائلة بحكم التنجيس للكافر ، كالعقيدة القائمة على تنجيس الكلب والخنزير ، لا توجب تأخر الدين الإسلامى ، ولا تقدم غيره من الأديان ، لأنها عقيدة . فالهنود لا يحط من دينهم ما يعتقدونه من تنجيس المنبوذين ، لأنها فكرة قائمة على مبدأ ، كما أنه لا يوجب تقدمهم أن يقلعوا عن هذه العقيدة .

فالتطور المشار إليه يجب أن ينال جوهر الدين ، حتى يصدق عليه لفظ التطور ، وإلا فالعادات والتقاليد لا قيمة لبحثها سلبا وإيجابا فى مجال التطور .

والأمر الثانى الذى آخذ المحاضر به ، هو حملاته المتكررة على الأزهر وأعلامه الماضين الذين كانوا يحكمون الملوك فيخضعونهم لحكمهم ، حتى أن بعضهم حكم على ملوك

مصر الماضين بأنهم عبيد آبقون يجب أن يباعوا ، وتوضع أثمانهم فى بيت مال المسلمين ، واستطاع بنفوذ الأزهر أن ينفذ حكمه هذا .

فهل لنا أن نقيس الأزهر اليوم الذى يمدحه المحاضر بأزهر الأمس الذى يذمه ؟ إن هذا من مهازل القول الذى لا يصدر عن معقول سليم ، ولقد نجد المحاضر يطرى النكرات من علماء الأزهر المجددين بزعمه ، بينما نجده يذم أعلامه الأولين .

فالندوة يجب أن تتسامى بأبحاثها عن مثل هذه السفاسيف ، والمحاضر فيها يجب أن يتناول موضوعات تكون من القيمة ، بحيث تضمن لأعضائها الخلود من وراء العلوم الحية ، والفنون الحافلة بسمو الروح الجبار .

ويتناول النقاش أخيرا العلامة السيد أمين الحسينى المجاهد المعروف ، فيهدىء بها من روع الدكتور على عبد الواحد الثائر على المحاضر من وراء غيرته على الأزهر ، بأن تناول الكشف عن تمسك الفرق المسيحية بتقاليدها فى بريطانيا وإيطاليا ، وأن المسيحيين لا يتنازلون ، حتى عن السفاسيف القائم عليها كثير من طقوسهم ، بينما يرى الكثير من مفكريهم أنها عبث ، كل ذلك فى سبيل الإبقاء على نواة دينهم الأولى ، وضرب لذلك أمثالا كثيرة لا مجال لذكرها هنا .

ثم يستطرد السيد إلى قوله : إن الغرب يغزونا فى كثير من نواحى الحياة التى شاء لنا التاريخ بمكانه وزمانه أن نحياها ، إذ عمد هذا المستعمر إلى أفكارنا فغزاها بالثقافة القائمة على التضليل فى النشء باحتقار دينه ووطنه ، حتى بلغ من تشويهه حياتنا أن جر إليه كثيرا من علمائنا البسطاء ، فاقتنعوا بضرورة استبدال لغتنا الفصحى بالعامية والاستعاضة عن حروفها العربية بالحرف اللاتينى .

وغنى عن البيان أن الصحافة اليوم هى أبرز عامل فى الدعوة إلى عقيدة أو مبدأ ، وفى توجيه الأمة إلى الحق أو الباطل إذ نرى كثيرا منها يشغل ملايين الناس صباحهم ومساءهم ، لأن الصحافة هى الوسيلة الأولى إلى الثقافة العامة فى الأمة .

وغنى عن البيان أيضا أن أكثر هذه الصحافة كانت ربيبة الاستعمار يوجهها أنى شاء

فيوجه بها أنى شاء ، ولقد حملت هذه الصحافة أيام الشيخ محمد عبده حملات عنيفة على المحافظين من علماء الأزهر ، باسم التعصب الدينى الذميم ، مما اضطر الإمام محمد عبده آنذاك أن يكتب فصولا فى العروة الوثقى ، يبحث فيها التعصب ذميما وغير ذميم .

ولا نزال حتى اليوم نكابد من مخلفات الاستعمار فى نفوس الخونة والضعفاء من أعداء الإسلام فى كل صحيفة يتربصون بدعاة الحق الدوائر ، ويتقاضون أجورا سرية باهظة من إرساليات المبشرين ، العاملين على تعزيز السياسة الاستعمارية ، باسم الدعوة إلى الله » .

تلك هى مضامين بحث المناقشة الموجهة إلى المحاضر الشيخ منصور رجب من وراء حملته على الجمود فى رجال الأزهر وتعنت كثير من أعلامه فيما غبر ، والثناء على بعض المجددين فيه .

التعليق

لقد أكثرت من التلميح للدكتور على عبد الواحد فى مناقشته إخوانه المحاضرين فيما مر ، وعلقت على مناقشته إياى فى محاضرتى عن مشكلات الأدب العربى ، فلم يأبه لتلميحى ولم يحمل هذا التلميح على الإشارة إلى الحكمة التى يقوم عليها الحوار الحق فى بحث الحقائق .

ان المناقش إذا لم يتوخ الإصلاح فيما يعالج لا يكون مخلصا فى سبيله إلى الحق ، ثم إذا لم يكن حكيما فى نقاشه لا يتسنى له أداء الرسالة التى ينشدها من وراء ذلك النقاش ، فأول نعى على النقاش كونه عاريا عن الحكمة والموعظة الحسنة ، فإذا سلك المجادل سبيلا وعرة بين يدى نقاشه ، فاته الغرض الذى يرمى إليه من وراء خدمة الحق .

والذى أراه مضافاً إلى ثقتى بذكاء الدكتور الوافى ، أنه يحاول عبثاً اقناع مناجزه بوجهة ما يرمى إليه إذا استمر فى سلوكه الوعر بين يدى نقاشه ، فليكون مطمئنا إلى خدمة الحق وأداء الأمانة فى البحث يجب أن يتلطف فى نصيحة اخوانه وتوجيههم إلى الصواب الذى يعتقده فيما يرى ويوجه .

المناقش الأول مصيب فى أن الحكم بتنجيس الكتابيين غير قاصر على أهل الريف المصرى وأن عشرات الملايين من بعض الفرق الإسلامية تدين بهذا الحكم حتى اليوم .

وعلة هذا الحكم فيما أرى ، أنه موجه إلى حمل غير المسلم على اعتناق الإسلام يوم كان الإسلام فى مستواه العالى إذ رأى المسلمون فى عهد تعاليهم على العالم أن الكتابيين يتمتعون بخيراتهم دون أن يتحملوا عبء الحياة معهم ، إذ كان مفروضا على المسلم ضرائب الخمس والزكاة والصدقات ، كما كان مفروضا عليه الجهاد فى الدفاع عن الوطن ، بينما لم يتحمل الكتابى غير الجزية التى هى لا تعدل شيئاً من الضرائب المفروضة على المسلم .

ولما رأى المشرع الإسلامى أن حمل الكتابى على الإسلام بالإكراه غير مشروع دينا ، عمد إلى المقاطعة العرفية ، ولما كانت الدعاية إلى كل فكرة اجتماعية فى ذلك العهد قاصرة على الدين تلمس لها علة فى صميم الشريعة من الآية الكريمة : «إنما المشركون نجس » ووصم الكتابى بالشرك ليطبق عليه حكم الآية ، ثم تحلل من الآية القائلة : «طعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم» بأن الغرض من الطعام البر كما هو جار على ألسنة أهل الحجاز حتى اليوم ، إذ لا يزالون يطلقون على الحنطة لفظ الطعام .

وعلى هذا حكم الشارع بمقاطعة أهل الكتاب لأنهم نجس ، فلا يجوز للمسلم أن يؤاكلهم أو يشاربهم حتى يدخلوا فى الإسلام ، ولو سار المسلمون على هذا الحكم فى ذلك العهد لاضطر الكتابيون إلى الدخول فى دينهم أو لدخل أكثرهم ، ولكنهم اختلفوا فى الحكم ، فساءت عاقبته فيهم كما ساءت عاقبة كل حكم اختلفوا فيه .

ففرقة الشيعة إلى الآن أبغض الفرق الإسلامية إلى الكتابيين ، وقد كان الشيعة فى لبنان هدف الجيش الافرنسى أيام ثورتهم عليه سنة ١٩١٩ ، وقد انضم إلى الجيش فرق المسيحية اللبنانية تطوعا ولم نجد الصحف المسيحية تشن حملاتها على غير الشيعة من الثائرين بعد هذه على الافرنسيين من بقية الفرق الإسلامية ، فقد طوع الجيش الافرنسى جبل الدروز بعد ثورته وجبال النصيرية « العلويين » ولكن هذا الجيش لم يفعل فى هاتين الطائفتين فعله فى الطائفة الأولى .

أذكر أنى كنت فى جبل عامل « بلاد الشيعة فى لبنان » ، أيام ثورته على الاستعمار الفرنسى ، وشهدت انكساره بين يدى الجيش الإفرنسى ، والفظائع التى أحدثها فى هذا الشعب المسكين ، إذ دمر أربع عشرة قرية منها أم القرى ، مدينة « بنت جبيل » دمرها

على أهلها ، حتى جافت الجثث ، وأصبحت مرعى للوحش والطير ، وحتى بقى من بقى من آلاف السكان سنين يقطنون الكهوف والمغاور ، ولم يتصل بالعالم المدنى شىء عن هذه الفظائع .

وعلى العكس فقد قرأت فى مجلة الهلال لتلك السنة مقالا مطولا لأحد المسيحيين اللبنانيين ، يتحامل فيه على هذه الفرقة الثائرة لكرامتها ووطنها ، فينعتها بأقبح النعوت ، ويصمها بالوحشية التى ليس تحتها تحت ، ثم لا تقبل صحيفة ما أن تدفع الوصم الجائر عن هذه البقعة .

ويحلو لى أن أستطرد فى سبيل الحق هنا أن « جبل عامل » ، هذا أول من ثأر لكرامته من اليهود الذين هم فى جواره ، فكان أن هاجمت فصيلة من الصهيونيين إحدى قرى هذا الجبل ، وتدعى « حولا » فاجأت أهل القرية بغتة فأخذتهم بالنار والحديد ، وأسرتهم جميعا وحصرتهم فى مسجد القرية ، ثم نسفته بالمتفجرات ، حتى لم يبق فى القرية غير الايم واليتيم ، ثم لم يشعر بهذه الفظائع أحد فى العالم ، لأن مسيحيي لبنان لا يعنون فى لبنان بغير مردة لبنان ، ولأن سيدهم المطران مبارك يقول :

إذا لم تقم دولة يهودية فى فلسطين تعضدنا فى وجه العرب ، لا نستطيع الحياة معهم» .

هذه المظالم جرها على الشيعة تمسكهم بالحكم الشرعى على تنجيس أهل الكتاب ، لأن بقية الفرق الأخرى من المسلمين ، لم تظاهرهم على تنفيذ هذا الحكم .

ولنعد إلى التعليق : يقول الدكتور الوافى ، إن العقيدة شىء والفكر شىء آخر ، وكذلك العادة والتقاليد ، وأقول : إن العقيدة والعادة من ولائد الفكر فكيف يكونان مغايرين للفكر ؟ ؟ بلى له أن يقول : إن العقيدة والعادة قد تتحولان فى الوراثة إلى شبه غريزة تصبح جزءا من حياة الإنسان ، لا طوق له على تحكيم الفكر بنقضه أو إبرامه ، ولكن الإسلام نقم علينا الخضوع للعقيدة أو العادة الفاسدتين ، والقرآن حافل بتقريع المقفين على آثار أسلافهم دونما وعى أو تفكير .

فلم لا يكون المقلع عن العقيدة الفاسدة أو العادة السيئة متطورا ؟ ؟ كيف ينكر

المناقش على المحاضر جعله الإقلاع عن ذلك تطورا ؟ وما هو التطور إذن ؟ ؟ أفيريد الدكتور أن نقر الحكمة القائلة : من تمنطق فقد تزندق ، على اعتبار أن نبذها وعدمه ليس من التطور فى شىء ؟ ؟

فالعقائد الفاسدة والعادات السيئة ، التى نشأت فى القرون الوسطى من عهد الإسلام ، بدافع الجهل والدس الأجنبى والأهواء القائمة فى رءوس الأنانيين من الفقهاء ، أصبحت جزءا من حياتنا ، وإذا كانت هذه جزءا من الحياة كانت بالطبع جزءاً من التفكير ، لأن الإنسان لا يعدم التفكير فى كل ما يقول ويفعل .

فتمحيصها إذن بإثبات الحسن منها والقضاء على السيء ، هو من صميم التطور فى الفكر ، لأن غير الفكر فى الإنسان الراقى لايدعو إلى طرح شىء والتماس شىء آخر ، فإذا أثبت المحاضر الشيخ رجب أن أمثال السيد جمال الأفغانى والشيخ محمد عبده والأمير شكيب أرسلان والسيد محمد إقبال ، أنهم حوروا تفكير الأمة من الخضوع لتقاليد أو عقائد فاسدة ، إلى الاعتصام بعقائد وتقاليد تتمشى وروح الإسلام الحق ، كان محقا فى دعواه من التطور فى الفكر الإسلامى ، وكان مناقشه الأستاذ الوافى جائرا فى حكمه على سفاهة المحاضر ووصم من استشهد بهم أنهم نكرات .

على أن المحاضر لم يدع الإحاطة والشمول بكلمته عن تطور الفكر الإسلامى ، ولو حاول كل منا الشمول لما كان للنقاش أو التعليق مجال فسيح فى التسجيل ، وإنما على المحاضر أن يتكلم بما يشير أو يكشف ولو شيئا ما عن مشكلاتنا فى عالمنا العربى أو الإسلامى ، ليشق لإخوانه طريقا إلى البحث الشامل ، فيكون من النقاش والتعليق تتميم لقوله ، وبسط للمشاكل بين يدى عالمنا الخارج عنا .

ولا بد أن اختم هذا التعليق بكلمة تحمل فى طيها العتاب للأخ المناقش وعلى قسوته فى مطارحة إخوانه النقاش والجدل ، وتذكيره بأنا إخوان صفاء ليس من الحرص على هذه الأخوة أن نتنابز ونحن سائرون إلى التوجيه المرجو منا لأبنائنا فى المستقبل ، فكل ما أرجو ممن يناقش أو يجادل أن يعمد إلى إشباع روحه بالحب لأخيه قبل تسديد فكره بالمنطق القائم على القسوة والجفاء .

فليحتمل الدكتور هذه منى قبل أن تتحول ندوتنا إلى مهاترات وهى لم تنشأ إلا على أساس الرحمة والمحبة والصفاء ، والتعزية عن حياة فقدناها ونحن لا نبصر ولا نعى إلا البدع المضلة من أمة أحدق الخطر بها من جميع جوانبها فى زمان لاحول للمخلصين من أبنائه فى انقاذها ولا طول .

وبعد ، فقد يكفى لمعالجة المشكلة فى الأمة ، المشكلة التى تعالجها الندوة فى عدادمشاكلنا الراهنة أقول : قد يجزى فى معالجة هذه المشكلة أن يشير إليها المحاضر إشارة ما تصلح لأن تكون مفتاحا للخوض فى بحث شامل نخرج منه أصحاء فيما نعالج ونحن إخوة .

وهذا ما كان من محاضرنا الأستاذ رجب إذ رمز إلى تطور الفكر الإسلامى ببضع أحداث تأصلت فى نفوس المسلمين منذ قرون ، حتى أصبحت عقائد وعادات نحتاج فى استئصالها إلى إعمال الفكر واللسان والقلم جاهدين مخلصين ، لنضع حجرا فى أساس البناء الجديد الذى يؤوى الأمة عائدة إلى تراثها الحى المرموق .

فالفكر الإسلامى تغشاه منذ زمن غير قريب ، أيام أعادت نفوس القادة المسلمين إلى جاهليتها باحتكار السيطرة والملك من وراء الأنانية وضعف العقيدة الإسلامية ، تغشى هذا الفكر كثير من الجور عن الحق فيما شرع لنا هذا الحق على لسان محمد ، فتضاءل كثير من الأخلاق التى أثبتها الإسلام فى نفوس أهله ، واحتل مكانها كثير من الأخلاق التى نسخها وحمى جوهره منها ، ولهذا أشار النبى المشرع بقوله : « يبعث الله على رأس كل مائة عام من يجدد أمر أمتى فى دينها » .

فليس التجديد خلقا كما أن الدين لم يكن إذ كان خلقا ، وإنما هو تهذيب لعقائد وتقاليد وعادات فى كل منها نواة صالحة للإنسان ، ثم تغشاها ما عفى على جوهرها وتحولت معه من إنسانية سامية إلى إنسانية ليس بينها وبين الوحشية أى فارق .

ولهذا قال مشرعنا الأعظم : إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق ، فليس معنى تطور الفكر الإسلامى خلق جديد فى الإسلام ، وإنما هو عود إلى الإسلام الصحيح الذى نزل به الروح الأمين على رسوله صلى الله عليه وسلم .

فمن هذا التطور ، فضلا عما ذكره المحاضر من الخلل ، إدخال الأزياء فى جوهر

الدين ، إذ بلغ من تمسك المسلمين بها حدا أصبح الحالق لحيته معه كالزانى بأمه ، مع أن الزى لا يلحظه الشرع السليم إلا فى مفهوم الكمال الإنسانى ، والكمال فى الزى يتصل بالحياة القائمة فى عرف الإنسان ، والنبى يقول : إن الله لا ينظر إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم .

ومن هذا التطور التحرر من إهمال المرأة واعتبارها أداة أو متعة فحسب ، إذ بلغ المسلمون فى إهمالها واحتقارها حدا أصبح تعليمها معه إثما لا تحلل منه ، ولا نزال حتى اليوم نرى بعض الحكومات الإسلامية لاتجيز تعليمها التعليم الذى تجيزه لأخيها الإنسان ، مع أن رسول الله ، لم يحرمها ذلك بقوله : « طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة » ، ثم لم يحصر هذا العلم فى كم ولا كيف ، إذ قال : « اطلبوا العلم ولو فى الصين » .

ومن تطور الفكر الإسلامى الخروج من العبودية فى كل ما روى لنا عنه صلى الله عليه وسلم ، من حديث لا يتلاءم وروح الإسلام الذى جاء به ، إذ عمد المسلمون إلى تعليل هذا المروى دون أن يأخذه على علاته ، إذ تحلل هذا الفكر من إهمال الطلاق ، حتى أصبح رهنا بحكم القاضى ، بعد أن كان ألعوبة بيد الزوج الجاهل يصم به دينه كيف شاء وأنى شاء .

ومن هذا التطور تعدد الزوجات الذى كان يجرى مجرى الأهواء فى النفوس ، فأصبح مرعيا بعين العقل الإسلامى الناضج ، لا يجيزه إلا للضرورة وفى حدود العدالة والإمكان ، ويكفى فى إثبات هذا التطور أن يقول به مذهب إسلامى ، أو إمام مذهب جديد من أعيان الإسلام الذين وضعوا كتبا أقروا فيها حكما كان مهملا ، أو أبدعوا بدعة حسنة لم يخرجوا بها عن جوهر الإسلام .

ومن هذا التطور فى فكرنا الإسلامى الرجوع عن التقليد إلى الاجتهاد فى كثير من الأحكام الدينية ، التى كانت وقفا على الأئمة الأربعة ، بدافع تطور الحياة الذى لا يتلاءم وبعض الأحكام القائمة على التقليد ، ولذلك عمد كثير من المفسرين والمحدثين إلى

التصرف بكثير من آى الذكر الحكيم ، والسنة الكريمة ، على الشكل الذى لايتعارض والعلوم الكاشفة عن جوهر الحياة ، فقد قرأت فى بعض التفاسير للسلف الصالح من يقول : بأن الرعد ملك فى السماء يزجر السحاب . . .

وهكذا لو تقصينا لوجدنا كثيرا من العقائد أو العادات فى متون الشرع وعلى هوامشه ، قد أعمل فيها الفكر الإسلامى تحويرا وتبديلا لصالح الإسلام ، وهكذا نرى الدين الصحيح القائم على الكتاب والسنة الصادقة ، يماشى الفكر الإسلامى الحق فى تلمسه الحياة ، وتطبيقها على الإنسانية الثابتة فى دين محمد صلى الله عليه وسلم .

المحاضرة الخامسة :

حياة المحاضر

ولد فى مدينة نابلس على أرض فلسطين حوالى سنة ١٨٩٥ ، وتعلم فى مدارسها الابتدائية والثانوية ثم هاجر إلى مصر لدراسة الفقه فى الأزهر ، فلبث فيه ثمانى سنوات عاد بعدها إلى وطنه يمتهن التدريس ، فأسس مع نخبة من الشباب المثقف مدرسة « النجاح » التى أصبحت بعد سنين « كلية النجاح الوطنية » وقد كانت وما زالت محط آمال العروبة فى فلسطين .



ثم هاجر مرة أخرى إلى شرق الأردن فنزل عاصمة « عمان » على عهد الأمير عبد الله بن الحسين ، وعمل مدرسا ثم قاضيا شرعيا ، ثم كان مديرا للشريعة ثم ارتقى إلى منصب قاضى قضاة الشرع الإسلامى فى هذا القطر .

وأسندت إليه وزارة المعارف والعدل فى حكومتى سمير الرفاعى وإبراهيم هاشم ، وكان يعمل أحيانا نائبا لرئيس الوزراء ، وأخيرا تقلد منصب وزير مفوض للمملكة العربية الهاشمية فى المملكة العربية السعودية ، وكان يحمل معها لقب مندوب فوق العادة للحكومة الهاشمية .

وأثناء حرب فلسطين شجر خلاف بينه وبين الملك عبد الله ، فتنازل عن وظيفته ، وهاجر إلى مصر مرة أخرى ، فاعتبرته لاجئا سياسيا ، ولا يزال حتى الآن مقيما فيها ، ويحمل وسام الاستقلال الأردنى من الدرجة الأولى ، ووسام الرافدين من ملك العراق .

شخصيته

للشيخ فهمى شخصية فذة فى الوفاء والذكاء ، وقد لمست ذلك فيه طوال عامين قطعتهما فى جواره بمصر ، وكانت مجالسنا حافلة بالأدب والعلم ، أما وفاؤه فلا يدخر معه وسعا فى سبيل الإحسان إلى إخوانه ، فهو وفى لدينه ، ووفى لقوميته ، ووفى لعمله السياسى ، ووفى لوطنه . ثم هو أوفى ما يكون لإخوانه الذين يحس فيهم الخدمة الصالحة لإنسانيتهم .

وأما ذكاؤه فأكبر برهان عليه أنه كثير الصمت وكثير التفكير ، فلا يقول إلا حيث يجد للقول ضرورة ، وإذا قال كانت كلماته فصلا فيما نخوض فيه ، هذا فى مجالسنا العامة ، وأما مجالسنا الخاصة فهو كثير القول لا عن تهافت ، ولكنه المتحدث اللبق الفيكهان ، يقوم عليه صفاء المجلس وجمال التندر ولطف المعاشرة بين إخوانه الأدنين .

هذا هو أبو صالح الشيخ فهمى هاشم كما عرفته وأعرفه وسأعرفه ، لا يتحول ولا يتبدل ، فإذا ساءه شىء من إخوانه ، فلا يلوم إلا نفسه أن كان منالا لهذا السوء ، ثم لا يلبث أن يزول الأثر السيىء بينه وبين أخيه ، وتلك لعمرى صفة المؤمن الخالص من شوائب التدجيل والرياء ، هذا إلى أنه أبعد الناس عن مواطن الشبه التى تزرى بالطائشين ، وأسرع الناس إلى العزلة والانكماش إيان يرى الاختلاط بالناس مجازا إلى سوء الظن .

المحاضرة الخامسة

العروبة فى الباكستان

ملخص المحاضرة :

ما من شك فى أن الدول العربية أضاعت فرصاً كثيرة سنحت لها ، فلم تستطع أن تستغلها وأعرضت عنها غير آبهة بها . من هـذه الفرص فرصة إنقاذ فلسطين ، والقضاء على الصهيونية فى مهدها ، يوم دخلت الجيوش العربية فلسطين لإنقاذها ، فلو استمرت فى حربها لليهود ، وجهادها فى سبيل حقها دون أن تقبل بالهدنة الأولى ، لبقيت فلسطين عربية ،ولقضى نهائيا على اليهود ، ولما استهدفت دول العرب لخطر هذا العدو المتربص لها والذى يقض مضجعها فى كل حين .

وهناك فرصة ذهبية سانحة الآن تعرضها حكومة الباكستان الدولة الإسلامية الكبرى فقد قرر برلمانها نشر اللغة العربية فى بلاده ، ليتسنى جعلها آخر الأمر لغة رسمية للدولة الباكستانية ، وتوشك الحكومات العربية أن تضيع هذه الفرصة بإغضائها عن تنفيذها ، فلقد طلبت دولة الباكستان من الحكومات العربية مساعدتها بإيفاد المدرسين الذين يضطلعون بتعليم اللغة العربية فى مدارسها وجامعاتها ، فلم تجد تجاوبا حقيقيا من هـذه الحكومات . عجيب جدا أن لا يلقى طلب دولة الباكستان ما يستحقه من الاهتمام اللائق به ! إن الفائدة التى تعود من تعلم ثمانين مليونا من المسلمين اللغة العربية ، واضحة وضوح الشمس فى رابعة النهار ، اى والله إنه لعجيب أن يقابل هذا الطلب بفتور وعدم اكتراث . إن دولة إسلامية كالباكستان لها وزنها فى الميدان الدولى ومكانتها بين الأمم ، وإمكانياتها الهائلة ، وقوتها التى نشاهدها بأعيننا ، ومركزها الممتاز بين دول الشرق ، والتى يرجى منها الخير الكثير للإسلام والعروبة معا ، هذه الدولة تقرر أنها ستتخذ اللغة

العربية ، لغة رسمية لها ، وتعلن ذلك على العالم ، فلا تجد من الدول العربية صدى لهذا القرار الصادق ، الذى هو فى مصلحة العالم العربى أكثر منه فى مصلحة الشعب الباكستانى ، أى خير شامل ينتظره العالم العربى أكثر من أن ينضم إليه شعب إسلامى يفوقه فى عدده وعدده وموقعه ومركزه الدولى ، فيقبل عن رغبة وتقدير أن يتعلم لغته ، ويصبح شعبا عربيا فى مدى ربع قرن . يفهم الدين الإسلامى على حقيقته ، ويعتنق لغة القرآن الكريم ويتأدب بآدابها ، ويحمل الفكرة العربية بحذافيرها ، ويضحى هو والشعب العربى شعباً واحدا فى اللغة والآمال والآلام والعواطف والأهداف .

إن دولة الباكستان لا تطلب من الدول العربية غير من يساعد أبناءها على تعلم اللغة العربية ، من المدرسين الذين ضاقت بهم الأقطار العربية ، وهى تتعهد برواتبهم ونفقات انتقالهم ، وتهيئة وسائل الراحة لهم ، الترفيه عنهم ، بحيث يعيشون ، وكأنهم فى بلادهم ، معززين مكرمين هانئين وادعين . فهل تعجز الدول العربية عن إيفاد خمسمائة مدرس مثلا إلى الباكستان ، لهذه الغاية النبيلة التى فيها كل الخير للعالم العربى والشعب الباكستانى ؟ إنها لا تعجز عن ذلك وإن ذلك لمتيسر ، وفى مقدور مصر وحدها بله الدول العربية الأخرى ، أن تضطلع بهذا العبء وتنفذ هذا المطلب المحبب إلى قلب كل عربى وباكستانى .

لقد خلفت لنا الكارثة الفلسطينية مئات من المدرسين الفلسطينيين الذين يجيدون اللغتين العربية والإنجليزية ، وهم مشردون فى الأقطار العربية ، ومن السهل جدا أن تعمد كل دولة عربية لديها عشرات الألوف من اللاجئين الفلسطينيين إلى انتقاء طائفة من هؤلاء المدرسين ، توفدهم إلى دولة الباكستان . ولا أشك فى أن هؤلاء المدرسين سيكونون الطليعة العاملة المنتجة التى تؤتى أطيب الثمرات ، وتحقق لدولة الباكستان الحلم الذهبى الذى تسعى إليه حثيثا وتعمل على تحقيقه . فهل تعمل هذه الدول العربية من جانبها على تحقيق هذه الأمنية ، لهذه الدولة الإسلامية الكبرى ، وهى أمنية سهلة التحقيق ، لا تحتاج إلا إلى قليل من بذل الجهد والاهتمام ؟ وقبل ذلك قام العلامة الأستاذ محمد على علوبة ، يوم كان سفيرا لمصر فى الباكستان ، بمجهود كبير لتحقيق هذه

الغاية النبيلة ، فلقى صعوبات كثيرة من الحكومات البائدة . ولقد جاء بعده الأستاذ العلامة عبد الوهاب عزام ، السفير المصرى فى الباكستان سابقا ، فترسم خطاه وبذل الجهد المضنى حتى وفق بعض التوفيق ، ولكنه نجح لايشفى غليل العربى المخلص لعروبته ، ولاغليل الباكستانى المخلص لإسلامه ، ولقد آزره فى مسعاه سيادة الوزير السورى المفوض فى الباكستان سابقا ، عمر بهاء الدين الأميرى ، وسعى لدى حكومته كثيرا فلقى بعض النجاح .

لا أدرى سببا يبرر عدم اكتراث الدول العربية بهذا الأمر الهام ، والإسراع إلى اهتبال هذه الفرصة الذهبية السانحة . يخيل إلى أن أصابع المستعمر تمتد من وراء ستار إلى هذا الأمر الحيوى من وراء مأجوريه فى البلاد العربية وسفاراته بيننا ، فيعمل على إقامة العقبات فى طريق تنفيذ هذا المطلب الرفيع النافع ، ومن البدهى أن يتخوف المستعمر من تحقيق هذه الفكرة إذ لا يرضيه أن تتحد الدول العربية فى الشرق الأوسط ، ويعتبر اتحادها خطرا عليه ماسا بمصلحته كل المساس ، فكيف يرضى أن يتعلم الشعب الباكستانى اللغة العربية وينقلب إلى شعب عربى قوى ناهض يكون هو والدول العربية كتلة قوية كبيرة يحسب حسابها فى المعترك الدولى ؟ أدعو الله أن ينير بصائر الحكومات العربية فتنظر إلى هذه الرغبة من دولة الباكستان النظر الصحيح الصائب الذى يستحقه ، وتعمل على تنفيذه بما أوتيت من قوة فتسدى بذلك الخير الكثير للعالم العربى والشعب الباكستانى ، وماذلك بعزيز على همة الرجال المخلصين فى الحكومات والشعوب العربية .

النقاش

يستوضح الأستاذ حمزة شحاتة عن السبب المفضى بالباكستان إلى التوانى فى هذه السبيل . وهل اتصلت الندوة لهذا الغرض بوزير الباكستان فى مصر ؟ ؟ ويعزز الأستاذ الفلالى تساؤل السيد شحاته عن السبب فى تقاعس الباكستان ولم لم تطلب وزاراتها فى العالم العربى معلمين عربا لنشر لغتهم فى بلادها ؟ ؟ ولماذا لا نرى الصحف تحمل هذه الطلبات كما تحمل طلبات العراق والكويت والبحرين للغرض نفسه ؟ ؟

ويتساءل الأستاذ عبد الله التل عن حقيقة ما أقرته حكومة الباكستان بشأن اللغة العربية ؟ وهل هو إقرار اللغة رسميا أم التصميم على إقرارها بعد نشرها فى الباكستان ؟ إذ المفروض بلغة الحكومة القانونية أن تكون سارية فى الأمة وإلا لكان إقرارها فى دوائر الحكم عبثا .

ثم يناقش الأستاذ محمد مقيد الشوباشى محاضرنا فى أن الفائدة التى تنشأ عن إقرار اللغة العربية فى دولة الباكستان ليست قاصرة على تعزيز العروبة دينا وقومية وإنما تتجاوز ذلك إلى اتساع أفق الثقافة العربية كما توفر لها فى العهد العباسى من وراء انتشار لغة العرب فى الشرق والغرب .

ويستطرد الأستاذ عبد الله زكريا فى نقاشه المحاضر إلى أن حكومة الكويت قد استجابت لنداء العروبة فى ضرورة نشرها خارج البلاد العربية فأسست منذ سنين معاهد لدراستها فى بمباى وكراتشى ولا تزال هذه المعاهد قائمة معززة بأموال حكومة الكويت إلى الآن .

التعليق

كنت أيام زيارتى للهند قبل انقسامها إلى دولتين إسلامية ووثنية أجد فى كل مدينة بناء فخما كتب على مدخله : «الكلية المحمدية» أو : «الكلية الاسلامية» أو الحميدية أو «العثمانية» أو نحو ذلك ، وكنت أزور هذه المعاهد فأقف على عزة اللغة العربية وكبريائها فى نفوس الهندوسيين مسلمين وغير مسلمين .

ولقد دعيت فى حيدر أباد دكن إلى الجامعة العثمانية التى أسسها عثمان على خان ملك هذا القطر الملقب بنظام حيدر آباد ، وألقيت محاضرة باللغة العربية فى ندوة الفرع الأدبى منها ، وكان يدير هذا الفرع عالم جليل مستعرب يدعى الدكتور « عبد الحق » وكان يرافقنى إلى الجامعة الأستاذ محمد الياس برنى رئيس قسم الترجمة فيها فكان كلما تحدث إلى يتحامى اللغة السكسونية التى كانت وسيلة تفاهمى وإياهم آنذاك ، فلا يخاطبنى أو يجيبنى بغير العربية مهما أمعن فى لكنتها .

ودخلت الكلية الحميدية فى العاصمة نفسها وألقيت محاضرة باللغة العربية فى التقريب الروحى بين الجامعتين العثمانية الجديدة والحميدية القديمة لما شهدته من تنافس وتناحر بين طلاب الجامعتين هذا ينتصر للجديد وذلك يمعن فى العصبية للقديم .

ودخلت الكلية المحمدية فى مدينة مدراس احدى ولايات الهند الكبرى ، وطيف بى على فروع اللغة والفقه العربى الاسلامى فيها فكنت معجبا بحرص الطلاب على درس اللغة العربية واعتزازهم بالاخلاص لها ، وهكذا رأيت فى الكلية الاسلامية فى مدينة « كولمب » عاصمة سيلان حينما تكلمت بالعربية فيها عارضا سيرة الخلفاء الراشدين ماعدا الخليفة عثمان ، وكم كنت دهشا عندما ناقشنى الطلاب بعد المحاضرة باللغة العربية الفصحى .

أسوق هذه المقدمة تمهيداً للقول على احترام لغة القرآن وتقديسها فى نفوس الأعاجم من معتنقى رسالة محمدصلى الله عليه وسلم ، واستطيع أن أقول بثقة : إن مجالسنا وتندرنا وادكارنا تاريخ الإسلام طوال شهرين لبثتهما تحت سماء الهند العظمى أيام اجتيازى إياها إلى العالم الجديد « أميركا » عن طريق البحر الهادى أقول : إن تلك المجالس كانت حافلة باعتزاز القوم واحترامهم لغة العرب ، والإخلاص للبقعة التى أفاضت بدين العرب ولغتهم على العالم .

من أجل ذلك أرانى شريكا للمحاضر الجليل فى النقمة على حكومات الدول العربية التى لم تستجب لسفرائها فى الباكستان بمساندة حكومتها فى نشر اللغة العربية وتعزيزها تحت سمائهم ، وليست هذه الزلة من حكوماتنا قاصرة على التفريط بلغتنا ودينا فى محيط

عجمى مسلم ، ولـكنها تجاوزته إلى محيط عجمى مسيحى ذلك هو العالم الجديد «أمريكا» .

فقد حملت نداآت صاخبة من جمعيات العرب المسلمين فى نويورك شمالا وبونس أيرس جنوباً ، إلى حكومات العرب وجامعاتهم الدينية فى مصر والعراق ، ولا أزال منذ عشر سنوات أبلغ هذه الرسالة وأعمل على توطيدها فى نفوس القادة القابضين على زمام الحكم ، وقد رفعت إلى الجامعة العربية أكثر من مذكرة ثم عززت هذه المذكرات بأمثالها إلى أعيان الأمة وهيآتها الدينية فى مصر وسوريا والعراق ، فـكنت فى كل ذلك مطمئنا إلى اقتناعهم بضرورة تأسيس معاهد ثقافية عربية لأبناء المهاجرين العرب فى أمريكا وقد بلغوا عشرات الألوف لا يفقهون من تراثهم إلا أنهم من نسل عربى مسلم .

أقول : لقد كنت مطمئنا إلى اقتناعهم بوجاهة الرسالة التى حملتها إليهم وضرورة العناية بتنفيذها ولـكنى لم أقف على همة رجل واحد ممن دعوت وندبت للاضطلاع بعبء هذه الرسالة تبشرنى بأن أرى فى أمريكا كلها معهدا واحدا يحمل اسم جامعة عربية أو اسم حاكم عربى أو اسم هيأة إسلامية من الهيآت التى هى ملء سمعنا وبصرنا بين جمعيات وأحزاب قامت باسم الإسلام ثم لم تعمل للاسلام إلا فى التوافه .

ويؤسفنى أن أقول : إن رجلا واحدا من أمراء الـكويت قد استجاب لندائى وأنا بعيد عن مصر فتبرع بألف دينار نواة لهذا المشروع وائتمن له بضعة نفر منهم ، الشيخ عبد اللطيف دراز أحد فقهاء الأزهر ، ومنهم السيد عبد العزيز على والدكتور محمود شواربى وهم أعضاء فى جمعية التعريف بالإسلام .

ولما عدت إلى مصر لأعمل على إضافة شىء من تبرع ذوى الإحسان إلى تلك النواة فإذا بها قد طارت ، وأتقدم بالشكوى إلى الجـامعة العربية فيجمعنى القائمون على إدارة الثقافة فيها بمن اؤتمنوا على المال وأذكر أن الاجتماع قد كان فى أواخر سنة ١٩٥٤ بدائرة الثقافة للجامعة العربية فى الجيزة ، وأن شهود المجتمع كانوا مؤلفين من : الأستاذ سعيد فهيم مدير الدائرة ، ومن الدكتور مدحت فتفت أحد مستشاريها ، ثم من الشيخ عبد اللطيف دراز والسـيد عبد العزيز على والدكتور البهى يمثلون جمعية التعريف بالإسلام ، وكنت أنا صاحب الدعوى .

ولما سئل ممثلو الجمعية عن المال الذى تسلموه باسم تأسيس معاهد ثقافية عربية فى أمريكا وأنه تطوع له أمير الكويت عبدالله الجابر الصباح استجابة لندائى فى هذه السبيل، أجابوا أنهم أنفقوه فى سبيل قريبة من هذه السبيل ثم لم يزيدوا على ذلك ولم يسألوا أكثر من ذلك ، وعلمت بعد هذا أن سكرتير الجمعية سافر لأمريكا منتدبا من قبل الجامعة المصرية وأقنع رئيس الجمعية وأعضاءها باصطحاب المال لينفقه فى سبيل الله ، وقد كان ذلك منهم بأن وكلوا إليه أمر انفاقه كما يحب . . .

أما المهاجرون العرب المسلمون فى أمريكا فقد لبثوا حتى هذه اللحظة ينتظرون مافعل الله بالنداء الذى أعلنته لهم فى جامعة الدول العربية ، وبالمال الذى جمع من أجل تبصيرهم وتثقيف أبنائهم الذين بلغوا عشرات الألوف وهم يجهلون تراثهم الدينى والقومى بين أقوام يوشك هذا العنصر العربى أن يستحيل فيهم .

هذه لمحة من أعمال العرب المسلمين وحكوماتهم فى سبيل العروبة والإسلام ، وتلك التى صدرت بها تعليقى هذا لمحة عن تاريخ الإسلام والعروبة فى بلاد الأعاجم ، فالإسلام والعروبة مشفوعة به لا يزال ولن يزال يتقوم بغير العرب مما يدلنا على أن سيد العالم محمدا إنما نشأ من العرب نشأة الماس من الفحم وأن هذه إحدى المعاجز التى يتقوم بها الإسلام لا أن العرب أمة تفوق غيرها من الأمم فى اشعاع النور للعالم .

وبين أيدينا ، برهانا على ذلك ، ثورة العرب على الدين ولما يزل جسد محمد غضا فى ضريحه ، بينما نجد مسلمى الهند والسند والصين لا يزالون بعد أربعة عشر قرنا مرت على اعتناقهم دين محمد يتشوقون إلى البقعة التى أنبتت محمدا ليقتبسوا منها النور الذى يسلكون على ضوئه سبل الحياة ، اما نحن العرب فليسأل السائل بنا فلسطين اليوم والأندلس بالأمس وعما فعلنا تحت سمائهما باسم العروبة والإسلام ؟ ؟ .

أن محاضرة الأستاذ فهمى هاشم ، على صغرها ، كبيرة جداً لأن فيها روح التألم للحق والاعتصام به والغيرة عليه ، فقد أشار إلى تهاون العرب برسالة محمد سيد العرب وباعثهم من الظلمة إلى النور ، انهم لم ينصفوا سيدهم محمدا يوم فاجأ برسالته القائمة على

الحق ، فكيف ينصفونه وقد مر برسالته ألف وأربعمائة عام ومعاول الشرك تمعن فيها تحطيما وهدماً ؟ ؟

إن العصبية الجاهلية التى قام الإسلام إذ قام ، على تطهير العرب من جراثيمها ، قد عاد العرب إلى الاعتصام بها بعد أربعة عشر عاما مرت على وفاة محمد الذى كان همه الأول فى تثبيت دعائم الإسلام على نبذها والتنكر لها والعقاب عليها . ان من ينسب الفتوح والغلبة فى أمة محمد بعد خلفائه الراشدين إلى العرب باسم العروبة إنما يمعن فى جهله بالتاريخ وسفاهته فى تعليل أحداث الزمن وتحليلها .

إن القوة التى كانت تكمن فى رسالة محمد والتى لا تزال إلى اليوم تمد العالم باشعاعه إن تلك القوة هى التى استمرت فى نفوس العالم الإسلامى تساير العرب وتماشيهم فى الظهور على الشرك وأما العروبة التى كان يجأر ويتشدق المتحللون من الدين الإسلامى بها وبالإنتصار لها فقد كانت طريق من لم يهبهم الله نعمة الإسلام إلى جاهليتهم التى تشفى نفوسهم من التنكيل بالدين الحائل بينهم وبين الشهوات .

فليس للعرب أية فضيلة فى نشر الدين وتعزيزه منذ قام هذا الدين حتى اليوم ، وان محمدا لم يخرج على العالم باسم عروبته أو الدعوة لها وإنما بعث فيهم باسم الإسلام الذى عمد به إلى تطهير العروبة قبل أى عنصر من عناصر الإنسان فى عالم الأرض الطاغى على إنسانيته ، فكل من قام باسم عنصره منذ فجر التاريخ حتى اليوم ليرشد العالم أو يتعهده بإصلاح فقد ضل الطريق الذى يفضى به إلى تحقيق ما ينشد .

إن الأنانية القومية قائمة فى كل فرد من العالم تدفعه إلى اغتصاب غيره عزة السيطرة فى الحكم والهيمنة على غيره فإذا اتصف الفرد بانسانيته وتلاشت فى نفسه عصبية العنصر قام على تأييده الحق القائم على اعتبار الإنسان عضوا عاملا فى مجموعة الإنسان لا فرق فيها بين أبيض وأسود ولا بين إقليم وإقليم .

ولقد كانت حزازات قريش العريقة فى نفوس العتاة من بنى أمية ضد محمد ورسالته عاملا أول فى الخروج بالمسلمين من الدعوة باسم الانسانية إلى الدعوة باسم العروبة ،

لذلك عملت على تغذية العناصر وتعزيزها فى نفوس الطامحين إلى السيطرة والعز من غير العرب ، فانتصروا لجاهليتهم وقاموا باسم الاسلام ، سترا لها ، يهدمون الاسلام بالفرقة والتجزئة والتمزيق حتى بلغت فرق الاسلام قبل مضى قرنين على نشوئه عشرات المذاهب والأهواء والبدع .

كل ذلك نشأ فى الاسلام ولما يزل فى ريعانه ، من عصبية الأنانيين الذين أحدقوا بمحمد يدعون الاسلام وليسوا منه فى شىء حتى إذا أغمض راعى الاسلام عينيه تحت التراب عمدوا إلى الغض من كرامة الاسلام والعبث بمقدساته دون أن يفكروا بأن الحق الذى ضمن للإسلام الخلود لم تغمض له عين ولم يغفل لحظة واحدة عن رعاية ما ألهم .

فلا يعجب الأستاذ المحاضر ولا مناقشو رسالته ، من تقاعس العرب وتقهقرهم ، فى عضد الباكستان وأندنوسيا وغيرهما ممن اعتنق الإسلام ، وأحب العرب لنشوء الإسلام فيهم ، إذا شاءوا أو حاولوا القربى من العرب باعتناق دينهم والتفاهم بلغتهم ، أقول : لا يعجب إخوانى من إحجام العرب عن مساعدة العجم بتحقيق رغبات هؤلاء فى تعلم لغة أولئك لأن فى ذلك تعزيزا لدين محمد وكرامة الاسلام ، والعرب أو بالحرى ، قادة العرب وعتاتهم ، كانوا ولا يزالون أعداء للإسلام ألداء فى خصومته بما كان منهم منذ معاوية ابن أبى سفيان المنتصر للعروبة على الاسلام حتى نورى السعيد المنتصر لليهود على العرب .

ممن يطلب الباكستان العون على عروبته وإسلامه ، أمن أعداء العروبة والإسلام ؟ فإن حدث الأندلس بالأمس إذ كان بعض قادة العرب يظاهر فرديناند على قومه ، حتى انهاروا ، وكانت الوصمة التى لا تزال تلوح على جبين كل عربى إلى الآن ، وان حدث فلسطين اليوم ، إذ عمد أحفاد أولئك العرب المتخاذلين إلى مظاهرة صهيون على قومه حتى انهاروا ، وكانت الوصمة الثانية التى لن تزال تلوح على جبين كل عربى ، حتى يلقى محمدا يوم الحشر الأكبر ؟

ممن يطلب الباكستان هذا ؟ ؟ أما والله لقد حز فى نفسى عمل العربى فى أحداث فلسطين ، حتى لم أكد أسيغ ما أتجرع من نقمة على العرب واحتقار للعرب وارجاف بالعروبة يحملنى أن أنشد فى كل مجلس مخاطبا سيد العالم :

يا أبا المرسلين حسبك أنا قد ضرعنا للسامرى خدودا
لا تفاخر بنا فما نحن إلا خول يعبدون حتى العبيدا
لو أعيد الحسين فينا لما كا ن سليل الحسين الا يزيدا
قومك المسلمون والعرب الأقحاح بذوا بما أتوه عمودا
خذلوا ربهم وكانوا مع الحق أناسى فاستحالوا قرودا

تلك هى النفثة التى أثارها فى نفسى عامل الغضب على العرب ، وأنا أستمع ثم أقرأ كلمة الأستاذ فهمى هاشم فى دعوة العرب إلى التعاون مع الباكستان وأندنوسيا على نشر اللغة العربية فيها ، عصم الله الحق فى العروبة والإسلام من أبنائهم الذين لم تخلص نفوسهم باعتناق الإسلام .

المحاضرة السادسة :

حياة المحاضر

ولد فى مدينة الكويت سنة ١٣٤٠هـ — ١٩٢١م وهو من أسرة حجازية عربية هاجرت إلى الكويت منذ أيامها الأولى . وعند نشأته درس على أبيه الذى كان يمتهن التدريس علومه الأولية البدائية ، ثم انتقل من كتاب أبيه إلى المدرسة المباركية فى نفس المدينة .

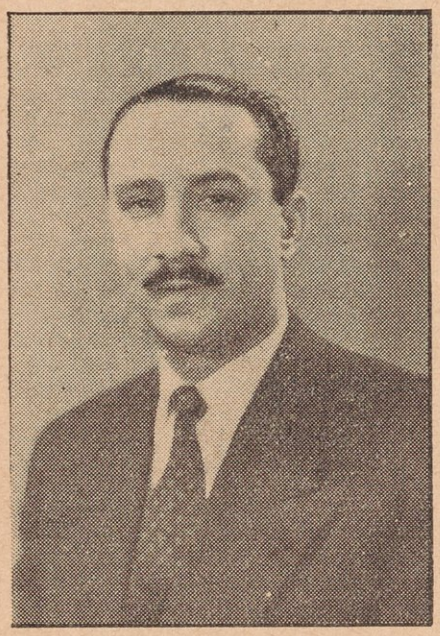

وقفت دراسته النظامية عند هذا الحد ولكنه توصل بالقراءة والمطالعة إلى ثقافة عامة تضمن له سعة الأفق والإحاطة بشؤن الحياة حتى أهله ذلك لأن يكون مدرساً فى مدرسة أبيه التى تطورت إلى نظامية فى منهجها آخر الأمر .

ثم تعين مدرسا رسميا فى المدرسة الشرقية التابعة لمعارف حكومة الكويت ثم اعتزل مهنة التدريس إلى العمل الحر فكان محاسبا لبعض الشركات التجارية فى نفس المدينة ثم ترقى إلى رئيس كتاب لشركة تموين الأقمشة التى تأسست بالكويت أثناء الحرب الأخيرة مدة أربع سنوات . .

أحرز بذلك مهارة فى علم الحساب فانتدبته الحكومة الصباحية محاسبا لإدارة بعثات الكويت بمصر منذ عام ١٩٥١ إلى الوقت الحاضر .

شخصيته

من مواهبه الفطرية قرض الشعر وتحبير المقالات الاجتماعية والسياسية مما أدى به إلى امتهان الصحافة فأصدر مجلة « البعثة » فى مصر لحساب معارف الكويت وفى شعره

العربى لمحات تشير إلى نبوغه فى فن الشعر من قابل ، ولعروبته العريقة فى نفسه أثر بالغ السيطرة على حياته الفنية ، فقلما تجد له شعرا غير مشبع بروح العصبية لعنصره العربى والغيرة عليه .

وفى كلمته التى ألقاها على إخوانه والتى هى بين يدى القراء ، دليل على أسلوبه القيم فى الأدب وعلى خدمة فن التاريخ وتفصيل إجماله ، وفى هذه الكلمة إلى مامر ، دهاء سياسى عريق البطانة فى الكشف عن أعمال المستعمر فى بلاده .

وبعد : فالسيد زكريا بالمنظر الأعلى من وداعة الروح ورقة الطبع وتواضع النفس وكرم الخلق العربى ، فلا يتصل به ذو فضيلة إلا كان صديقا له وودد لو يتخذه القرين الملازم لما فطر عليه من طهارة الوجدان ونبل الضمير وصراحة القلم واللسان .

المحاضرة السادسة

الكويت العربية

ألقاها فى منزله على إخوانه المجتمعين عنده من أعضاء الندوة

مساء يوم الأحد ٤ / ٤ / ٤٥

إخوانى :

أشكر لكم أن شرفتمونى بإلقاء هذه المحاضرة عن بلدى « الكويت » تعريفا بهذه الإمارة العربية ، ودراسة لجوانب متعددة من أحوالها ، فى ماضيها وحاضرها ، فقد أصبحت اليوم مثار اهتمام العالم ولافتة لأنظاره ، وكان سبب ذلك كله ما انبثق فى أرضها من زيت البترول ، حتى ليقال إن ما ينتج من أراضى الكويت يوازى خمس ما ينتج فى العالم ، كما يقال إن هذه الإمارة تكاد تصبح رابع دولة فى إنتاج هذا الزيت .

وأود قبل الاسترسال فى الحديث أن أعتذر إلى المستمعين إذا ما وجدوا إيجازا فى المحاضرة ، فهو إيجاز مقصود به التحدث عن نواح عدة ، حتى يمكننا الخروج بخلاصة طيبة ، أرجو أن تكون قريبة من الكمال ، وسأحاول قدر المستطاع التحدث فى النقاط التالية :

١ — الكويت فى التاريخ .

٢ — وضع الكويت السياسى الراهن .

٣ — النهضة الاجتماعية والثقافية فيها .

٤ — الحياة الاقتصادية فيها .

٥ — قصة « بترول » الكويت .

٦ — بعض مشروعات المستقبل للاصلاح فى هذه الامارة العربية .

تاريخ الكويت :

قبل أن نخوض فى الحديث عن تاريخ الكويت ، نقول : إن الكويت جزء لا يتجزأ من الوطن العربى الكبير ، ومن ضياع الوقت أن نقول ذلك ونثبته ، فالكويت بطبيعة الحال عربية وأهلها عرب ، وإن كان يوجد فيها الآن قلة من الأجانب هاجروا إليها من مختلف البلاد لاسيما « ايران » طلبا للرزق .

وتقع الكويت فى الزاوية الشمالية الغربية من خليج العرب ، الذى يسميه الغربيون بالخليج الفارسى — جهلا — أو تعمدا ولغرض فى نفوسهم ، وأين فارس من هذا الخليج العربى العريق فى العروبة . فهذا الخليج تحيط به معظم بلاد العرب ، وقد عرفه أجدادنا منذ أقدم العصور فى التاريخ ، وقد كان يسمى حينذاك « بحر العرب » وتزيد مساحة الكويت على ستة آلاف ميل تقريباً ، وهى صحراوية قارية المناخ ، تنزل عليها بعض الأمطار فى الشتاء فتنبت الحشائش والأعشاب التى تظهر فى الربيع ، وتحفظ بعض مياه الأمطار فى خزانات صغيرة ، ليستقى منها الناس فى فصل الصيف ، ويستحضر إليها الماء بالسفن الشراعية من شط العرب ، وقد أحسنت الحكومة حين نفذت فى العام الماضى مشروعا كبيرا لتقطير مياه البحر المالحة ، وتحويلها إلى مياه صالحة للشرب ، حيث ساعدت على حل هذه المشكلة المستعصية فى الكويت ، وأحسب أن هذا المشروع على ضخامته وما صرف عليه من مال لا يخلو من خطورة لأنه عرضة للخلل والخراب ، وقد يأتى يوم نفجأ فيه بتوقف هذه الآلات لخراب قد يصيبها على حين غرة ، فيؤدى بنا إلى خطر عظيم ، كما أن هذا الماء المستقطر تنقصه العناصر الكاملة للماء الطبيعى ، وهذا المشروع يمد الكويت فى الوقت الحاضر كل يوم بنحو نصف مليون « جالون » من الماء العذب ، وقد أقيم هذا المشروع فى منطقة الشويخ ، كل ذلك أوحى إلى الحكومة بالبحث الجدى فى حل هذا الإشكال ، وانتهى الأمر إلى الاتفاق بين حكومتى العراق والكويت على إسالة الماء مباشرة من شط العرب إلا أن الأمر لا يعدو أن يكون دراسة فنية بواسطة الخبراء فى الوسيلة المستعملة لذلك ، فهل تتبع طريقة الأنابيب عبر الصحراء بين العراق والكويت ، أم تشق ترعة بين البلدين على أن تقوم وسائل التصفية فى إمارة

الكويت ؟ وسنشير إلى ذلك بإيضاح عند التحدث عن مشروعات الكويت المستقبلة .

والكويت لا تخلو من الزراعة الانتاجية البسيطة اعتمادا على الآبار المتناثرة فى القرى المجاورة لمدينة الكويت ، فتزرع فيها الطماطم والبرسيم والشمام ، إلا أن هذه الزراعة الإنتاجية لا تسد حاجة الكويت فى الوقت الحاضر لتزايد السكان وازدياد الهجرة إليها من الخارج طلبا للعمل ، مما دعا إلى استيراد المزيد من هذه المواد من البلاد المجاورة .

ومناخ الكويت قارى بحيث تشتد الحرارة فى الصيف حتى لتبلغ درجتها ٤٨ سنتغراد ، فتضطر كثيراً من السكان للنزوح إلى المصايف ، وتنخفض فى الشتاء حتى تصل أحيانا إلى الصفر ، ويتحسن جوها فى أواخر الشتاء والربيع حيث يساعد امتداد سواحلها البحرية على تحسن الجو واعتداله . وهواء الكويت جاف على وجه العموم سوى ما يهب فيه من رياح رطبة فى بعض أيام الصيف .

وينحدر معظم الكويتيين من أصل عربى ، إذ هاجروا من جزيرة العرب ، واستوطنوا هذه البقعة ، وكان على رأس الذين هاجروا إليها جماعة من قبيلة عنزة ، هم آل صباح أمراء الكويت الحاليون ، وقبيلة (عنزة) مشهورة فى نجد ، وينتمى إليها أيضا آل سعود أمراء المملكة العربية السعودية ، وآل خليفة أمراء البحرين . . لكن تدفق الذهب الأسود من باطن الأرض أخيراً دعا إلى كثرة الهجرة إليها ، من شتى أنحاء العالم ، لاسيما الوطن العربى ، ويتراوح سكانها اليوم من ٢٥٠ إلى ٣٠٠ ألف نسمة ، بما فى ذلك سكان القرى والجزر الكويتية ، ولهجة الكويتيين عربية أقرب إلى الفصحى ، ودينهم الإسلام ، وفى أخلاقهم كرم العربى وبأسه ونجدته ومروءته ، والكويتيون تجار بطبيعتهم فطروا على التجارة وتشربت نفوسهم وتغلغلت فيهم حتى أصبحت أو كادت كلمة « كويتى » تصبح مرادفة لكلمة « تاجر » ، لأنهم شبوا على الأعمال التجارية وحب المغامرة ، وهم كثيرو السفر ، يحبون ركوب السفن والتنقل فيها برحلات تجارية إلى الهند وإيران والعراق وسواحل الخليج العربى واليمن ، وإلى سواحل البحر الأحمر وإفريقيا الشرقية ، وللكويت جالية عربية كبيرة فى الهند وأخرى فى الباكستان .

وهذه الامارة العربية يحكمها أمراء آل الصباح منذ نشأتها إلى اليوم ، ويطلق عليها

جميعها اسم «الكويت» وعاصمتها تسمى «مدينة الكويت» وهى مدينة حديثة النشأة ، يرجع تاريخها إلى نحو ثلاثمائة عام ، ولهذا لم يرد ذكرها فى مصادر التاريخ العربى . . وكلمة « كويت » تصغير (كوت) وهى كلمة مشهورة فى العراق وفى بعض البلاد المجاورة للكويت ، وتطلق عادة على جملة من البيوت الصغيرة المتجاورة التى تستعمل لخزن الزاد والمتاع والوقود ، وعلى البيت المربع الذى يبنى كالقلعة أو الحصن ، ومن حوله بيوت صغيرة على شاطئ البحر لرسو السفن . . ويقص علينا التاريخ الحديث للكويت أنه كان فى مطلع القرن الثامن عشر فى هذه البقعة من الجزيرة وعلى شاطئ البحر حصن بناه محمد بن عريعر زعيم بنى خالد ، وجعله مستودعا للزاد والذخيرة ، ولما قدم آل صباح ونزلوا هذا المكان ، وهبهم زعيم بنى خالد هذا الحصن ، فأطلقوا عليه وعلى ما أقيم حوله من خيام اسم « الكويت » واتخذوه نقطة ابتداء لإنشاء مدينة الكويت ، والراجح أنها تأسست عام ١١٠٠ هجرية ، ويقول المرحوم الشيخ عبد العزيز الرشيد المؤرخ الكويتى ومؤلف تاريخ الكويت : إن الشيخ مبارك الصباح جد الأمير الحالى ذكر فى إحدى رسائله لبعض ولاة البصرة أن الكويت تأسست عام ١٠٢٢ هجرية ، وكان ذلك فى عهد الحاكم الأول للكويت صباح الأول ، الذى انتخبه آل صباح ومن هاجر معهم ، بعد أن ظلوا مدة لا رئيس لهم ، وهو زعيم عائلة الصباح ، وبدأ بناؤها بعد ذلك يزداد يوما بعد يوم ، وقد ذكر السائح الدنمركى (يتبور) أن الكويت كانت مدينة تجارية عامرة فى منتصف القرن الثامن عشر ، وكان لها نحو ٨٠٠ مركب شراعى ، وأن سكانها كانوا حينذاك حوالى عشرة آلاف .

وفى نفس المكان الذى توجد فيه الكويت ، كانت توجد فى العصر الجاهلى وبعده بعض القرى والمواقع العربية ، كـكاظمة والمقر والرحية والروضة ، وغيرها مما يتردد فى الشعر الجاهلى كثيرا .

وورد ذكر كاظمة فى أحداث الفتح الإسلامى ، وعندها وقعت موقعة كبيرة فى عهد الخليفة الثانى عمر بن الخطاب سنة ١٢ هـ — ٦٣٤ م ، بين الجيش الإسلامى بقيادة خالد بن الوليد ، وبين الجيش الفارسى بقيادة هرمز . . وتضم إمارة الكويت : مدينة الكويت ونحو خمس عشرة قرية صغيرة متناثرة ، وأغلبها على شاطئ الخليج ، ومن هذه

القرى : الجهراء والفنطاس وحولى والسالمية ، وتتبعها بعض الجزر الصغيرة الواقعة فى الخليج ، ومنها : فيلكا وبوميان . . وقد أنشأت شركة بترول الكويت عام ١٩٤٦ مدينة حديثة فى صحراء الكويت ، زودتها بأحدث وسائل الراحة وأوفر سبل العيش ، واسمها (الأحمدى) نسبة إلى الأمير السابق الشيخ أحمد الجابر الصباح ، الذى تولى إمارة الكويت ما يزيد على (٣٠ عاما) ، وهذه المدينة هى مركز شركة النفط ، وقد أنشأت الشركة فيها ميناء ضخما سمى باسمها (ميناء الأحمدى) وذلك عام ١٩٤٩ ، ويتسع هذا الميناء لرسو عدد كبير من السفن الناقلة للبترول فى عصرنا الحاضر .

والتاريخ المعروف للكويت يبدأ من القرن السادس عشر ، حين وصل البرتغاليون إلى ساحلها ، ولم يكن آنذاك يطلق عليها هذا الاسم «الكويت» ، ولما خلف الإنجليز البرتغال فى السيطرة على الهند والسيادة البحرية ، بدأت أساطيلهم تطوف سواحل هذا الإقليم ، وأخذت الكويت تظهر أهميتها كميناء تجارى لبواخرهم .

وفى أوائل القرن الثامن عشر : كان ابن عريعر زعيم بنى خالد يشرف على هذا الإقليم ويحميه . . وحين هاجر آل صباح إليه من نجد تولوا مقاليد الأمور فيه وخلفوا زعيم بنى خالد فى حمايته ، وأول أمير من آل صباح هو صباح الأول كما ذكرنا أنفاً ، وهو الذى أنشأ مدينة الكويت ، ثم خلفه عبد الله الأول بن صباح الأول ، وفى عهده نشطت التجارة مع الهند وإيران والعراق ، وحاول الإنجليز بسط حمايتهم على الكويت لمقاومة التجارة الفرنساوية فى الشرق الأوسط : ولأهمية موقع الكويت ولتقدمها واتساع تجارتها ولموقعها الممتاز على الطريق البحرى إلى الهند ، لكنهم فشلوا فى محاولاتهم .

وتولى بعده على الإمارة جابر الأول ابن عبد الله الصباح الذى لقب بجابر العيش لكثرة صدقاته على الفقراء والمحتاجين ، ولحبه الشديد للخير (والعيش فى عرف الكويتيين هو : الرز) ، ولقد عرف بكرمه وارتفاع قدره فى السخاء ولشجاعته ودهائه ، وحاول الإنجليز إقناعه بحمل رايتهم فلم يقنع ، وطلبوا منه أن يأذن لهم بالبناء فى الكويت فلم يأذن لهم أيضا ، فقالوا : أتأذن للحكومة العثمانية فى نزول بلدك والبناء فيها أم تمنعها كما منعتنا ؟ فقال : نمنعها من ذلك إذا رأينا ضررا علينا ، فباءت محاولاتهم بالفشل .

وكان هذا الأمير على صلة بالحكومة العثمانية وممثليها السياسيين فى العراق ، وصارت الكويت فى عهده تابعة كالشرق كله للخلافة العثمانية ويرفرف عليها العلم التركى .

وخلفه صباح الثانى بن جابر (١٢٧٦ — ١٢٨٣ هـ) (١٨٥٩ — ١٨٦٦ م)

ثم عبد الله الثانى بن صباح الثانى (١٢٨٣ — ١٣٠٩ هـ) (١٨٦٦ — ١٨٩٢م)

ثم محمد بن صباح الثانى (١٣٠٩ — ١٣١٣ هـ) (١٨٩٢ — ١٨٩٦ م)

ثم مبارك الصباح (١٣١٣ — ١٣٣٤ هـ) (١٨٩٦ — ١٩١٦ م) وكان يلقب بأسد الكويت ، وكان مبارك ذا بأس شديد ، وهيبة بالغة ودهاء كبير ، وقد طار صيت الكويت فى عهده وأخذ أسمها يجوب العواصم والمدن ، ويتخلل الأندية والمحافل ، وازدهرت الكويت به وأصبحت ذات قوة وهيبة ، وعم فيها الأمن ورفرف عليها علم الدعة والاستقرار ، وصارت درة فى تاج الخليج العربى ، وامتدت سطوتها إلى كثير من البلاد ، ولا يعنى ذلك أن مباركا منزه من الأخطاء ، وإنما كان ذا شخصية بارزة ، وحفظ حقوق الكويتيين خارج الكويت وعقد ثلاث اتفاقيات مع انجلترا مناوأة منه للحكومة العثمانية وأصدقائها من خصومه ، فوقع فى ٢٣ يناير ١٨٩٩ — ١٠ رمضان ١٣٣٦ هـ معاهدة بينه وبين الكولونيل ميد (MESDE) المقيم البريطانى فى (أبوشهر) باعتباره ممثلا لبريطانيا ، وتتلخص شروط هذه المعاهدة الخطيرة التى ألجأته إليها الحكومة العثمانية فيما يلى :

١ — بقاء الحكم فى أسرة آل صباح .

٢ — ليس لإنجلترا أى حق فى التدخل بشئون الكويت الداخلية ، لافى الحكم ، ولافى غيره مع اعتراف انجلترا باستقلال الكويت التام .

٣ — ليس لأمير الكويت الحق فى بيع أو تأجير شىء من أراضى الكويت لأية دولة أجنبية أو لرعاياها إلا بعد مراجعة بريطانيا وموافقتها .

٤ — تمنع انجلترا عن أمر الكويت وعن بلده أى اعتداء تقوم به إحدى الدول الأجنبية أو غيرها .

٥ — يصبح الأمير عدوا لأعداء انجلترا وصديقا لأصدقائها .

٦ - لا يقبل أمير الكويت ممثلين سياسيين فى إمارته لأى دولة أجنبية إلا بعد مراجعة إنجلترا .

أما الاتفاقيتان الآخريان فهما اتفاقية ١٩٠١م (محرم١٣١٨هـ) واتفاقية عام ١٩٠٤م (ذى الحجة ١٣٣١ هـ) وهما مكملتان للاتفاقية السابقة .

وفى سنة ١٩٠١ و ١٩٠٢ حمت بريطانيا الكويت من محاولات تركيا وإيران التدخل فى شئونها ، وفى سنة ١٩٠٤ عين أول وكيل سياسى بريطانى فى الكويت ، وقد زار اللورد كيرزون نائب الملك فى الهند فى أسطول انجليزى ضخم الكويت . واحتفى به الشيخ مبارك الصباح احتفاء كبيرا .

وفى سنة ١٩١١ وقع الشيخ مبارك مع المعتمد البريطانى تعهدا يقضى بأن لا يوقع أى اتفاق مع دولة أجنبية لصيد اللؤلؤ والأسماك إلا بموافقة المعتمد البريطانى فى الكويت.

وفى سنة ١٩١٣ اعترفت تركيا بالمعاهدات والاتفاقيات المعقودة بين انجلترا وأمير الكويت ، وبأن الكويت إمارة مستقلة فى شئونها الداخلية استقلالا تاما ، وهى تابعة للخلافة العثمانية ، وتحت حماية انجلترا ،وعلى أن يكون لتركيا ممثل سياسى لدى أمير الكويت.

وفى عام ١٩١٥ تم اعتراف الأمير عبد العزيز آل سعود بالوضع الراهن فى الكويت ، وذلك بموجب معاهدة عقدت بينه وبين الشيخ مبارك .

ثم خلف الشيخ مبارك ابنه الشيخ جابر الثانى ابن مبارك (١٣٣٤ - ١٣٣٥هـ) (١٩١٦ - ١٩١٧ م).

ثم خلفه الشيخ سالم بن مبارك الصباح (١٣٣٥ - ١٣٣٩هـ) (١٩١٧ - ١٩٢١م) وهو والد سمو الأمير الحالى الشيخ عبد الله السالم الصباح ، وفى عهد الشيخ سالم أنشأت انجلترا خطا تلغرافيا من العراق إلى الكويت .

ثم خلفه الشيخ أحمد الجابر الصباح (١٣٣٩ - ١٣٧٠ هـ) (١٩٢١ - ١٩٥٠م) الذى تولى الإمارة ما يزيد على الثلاثين عاما ، وفى عهده تم اعطاء امتياز التنقيب عن البترول فى الكويت لشركة النفط الانجليزية ، وعقدت معاهدة صداقة مع المملكة العربية السعودية ، ولما توفى الأمير خلفه الشيخ عبدالله السالم الصباح أمير الكويت الحالى .

ذلك أيها السادة هو مجمل تاريخ الكويت ، ولننتقل بعد ذلك إلى الحديث عن الوضع السياسى الراهن للكويت :

الوضع السياسى الراهن للكويت :

تربط الكويت كما أشرنا سابقا ببريطانيا معاهدة الحماية المبرمة عام ١٨٩٩ ، وقد قضت هذه المعاهدة على أن الكويت تتمتع فى إدارة شئونها الداخلية دون أن يكون لإحدى الدول حق التدخل فى شأن من شئونها ، وإلا أصبح ذلك تعدياً على تلك المعاهدة وخرقا لأهم بند من بنودها .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى : فإن استنباط البترول والاتفاقية ، أو الاتفاقيات المعقودة بشأنه صارت رباطا آخر يقصد به المحافظة على هذا المورد الضخم من الزيت ، ولذلك فإن بريطانيا صارت تنظر إلى هذه البقعة باعتبارها موردا اقتصاديا ضخما نظرة اليقظ ، راغبة فى أن يسودها الهدوء التام حتى تضمن استمرار الانتفاع بخيرها الجزل المتدفق دون منازع ، فاتحة عينها على كل خطر سواء كان خارجيا أو داخليا مما جعل ذلك الشرط ، وهو الحماية الخارجية ، يمتد بأصابعه إلى الداخل قليلا تدليلا على أن المصلحة المشتركة تقتضى ذلك ، وأن الكويت وحدها لا تستطيع أن تضمن المحافظة على أراضيها فى ظرف تكتنفه مخاطر وقوع حرب ثالثة .

على أنه بالرغم من ذلك فإن الكويت تتمتع بإدارة أمورها الداخلية بحرية تامة دون أى مؤثر ، ولهذا فالحكومة الكويتية تنفق عن سعة فى مختلف مرافقها من تعليم وإنشاء وتعمير ، بل إن التعليم إذا قيست خطواته فى أى بلد عربى شقيق ، فإنه قد يوازيه بل قد يفوقه نسبياً بالرغم من قصر عمر نظامه الحديث ، الذى لم يتجاوز سبعة عشر عاما على وجه التقريب .

وأن رابطة الإخوة العربية فى الدم واللغة والتاريخ بل وفى العادات والتقاليد قد ربطت الكويت مع شقيقاتها العربيات بأواصر المحبة والتعاون فى مجالات الخير العام لمصلحة العروبة . وأن الكويت لتراها تبرز فى كل مجال خيرى عام يصيب مصلحة عربية ، وتسهم فيه بنصيب كبير ، مما جعل الكويت اليوم على كل لسان . والكويت كما نعلم

ليست عضواً فى جامعة الدول العربية ، إلا أن ذلك لم يمنعها من الاسهام فى نشاط الجامعة العربية غير ذى الصبغة السياسية ، فهى تدعى إلى المؤتمرات الثقافية والاجتماعية والعلمية ، تدليلا من الجامعة على نشاط الإمارة ورغبتها فى التقدم والنهوض .

أما نظام الحكم فى الكويت ، فإننا لا نستطيع القول بأنه مؤسس على نظام معين أو قانون ثابت ، ولكننا نقول بأنه النظام الذى سارت عليه الكويت منذ أن تأسست ، وإن اتسعت مسؤلياته باتساع حاجات الكويت والكويتيين .

وليست هناك قوانين مسنونة تحل بمقتضاها منازعات الأفراد وخصوماتهم ، وإنما سارت الكويت منذ النشأة على تطبيق قواعد الشريعة الإسلامية فيما يتعلق بالمسائل الدينية ، بل وجانب من المسائل الجنائية . أما مايتعلق بمنازعات الأفراد المترتبة على المعاملات وصلاتهم ببعض ، فإن العرف الراسخ والتقاليد الموروثة والعادات هو القانون السائد فى حل مثل هذه المنازعات .

ولذلك فقد نشأ فى هذه الامارة كما هى القاعدة نوعان من المحاكم ، أحدهما شرعى والآخر مدنى ، تطبق الأولى قواعد الشرع ، وتطبق الثانية مقتضيات العرف والعادات والتقاليد . وقد استعانت حكومة الكويت منذ أكثر من خمس سنوات بعدد من القضاة الشرعيين المصريين للمعاونة مع زملائهم القضاة الشرعيين الكويتيين فى تولى القضاء الشرعى هناك .

ومن مقتضيات سير أى نظام معين أن تتوافر فيه عوامل الهدوء والاستقرار والنظام ، ولذلك فإن هذا الأمر يكفله إلى جانب المحاكم دوائر الأمن العام والشرطة والدفاع .

ولما كانت حاجات الكويت فى تزايد مستمر ، ورغبات الكويتيين لا تفتأ تطلب المزيد من تحقيق أكبر قسط من الرفاه ، فقد أوجب ذلك أن تنشأ مرافق أخرى متعددة تسهم بنصيبها الكبير فى التنظيم العام . من أجل ذلك أنشئت دوائر البلدية والمعارف والصحة منذ أكثر من سبعة عشر عاما ، وتلتها من وقت قريب دوائر الأشغال والكهرباء والأوقاف ، تقوم بحكم تنظيمها فى إدارة شئون البلاد الداخلية ، وتشبه فى نظامها إلى حد ما النظام الوزارى ، سوى أن إدارة هذه الدوائر موكولة إلى مجالس تنتخب من الشعب ، ويرأس كل مجلس أمير من الأمراء .

النهضة الاجتماعية والثقافية :

لقد أخذت الكويت تتقدم بخطوات واسعة ، وعلى الأخص فى ميدان التعليم ، مما كان له أثره الظاهر فى تطور الحياة الاجتماعية والثقافية ، يضاف إلى ذلك ما انبثق من روح جديد ووعى قومى متزايد ، يدعو إلى نشر الثقافة وتيسير العلم لكل راغب وما جبل عليه الكويتى من حب الاتصال الدائم بإخوانه فى الوطن العربى من ناحية ، وتتبعه للأحداث والتطورات العالمية من ناحية أخرى .

ونتيجة لذلك فإن الأثر الذى نلمسه هو الإقبال على إنشاء النوادى المختلفة من ثقافية ورياضية ، فقد نشأت منذ عهد قريب عدة نواد ثقافية تتعاون كلها فى اصدار مجلات تنطق بلسانها ، وتسهم فى مجال الثقافة . فمن هذه النوادى : النادى الثقافى القومى ويصدر مجلة (الإيمان) ، ونادى المعلمين ويصدر مجلة (الرائد) ، وجمعية الإرشاد الإسلامية وتصدر مجلة (الإرشاد) ، وتقوم إلى جوارها نواد رياضية يبدو نشاطها الكبير فى تشجيع وإنشاء جيل من الرياضيين كالنادى الأهلى ونادى الجزيرة .

أما التعليم فى الكويت اليوم ، إذا نظرنا إليه نظرة فاحصة ، وتتبعنا خطواته السريعة فى وقته القصير ، أدركنا ما أحرزه من تقدم ، وقبل التحدث عن هذا الجانب نقول : إن مصر ساهمت فيه بعونها الأدبى منذ عام ١٩٤٢ حتى بلغ عدد من أوفدتهم وزارة المعارف المصرية إلى الكويت هذا العام بلغ ١٤٤ مدرسا بجانب زملائهم من المدرسين من الكويت ومن مختلف الأقطار العربية كالعراق وسورية ولبنان وفلسطين ، حتى بلغ عددهم الآن ٧٢٣ مدرسا ومدرسة .

والتعليم فى الكويت كان منذ نشأته يهدف إلى تعليم الجنسين معا ، وهذه هى الظاهرة الغريبة ، فإنه بالرغم مما يحيط بالكويت من تقاليد وعادات لم تمنع الكويتى من أن يعلم ابنته ما دام التعليم لا يمس تلك التقاليد بحرج أو خدش .

فقد بدأ التعليم الحديث منذ عام ٣٦ / ١٩٣٧ بافتتاح أربع مدارس ابتدائية ومدرسة واحدة للبنات ، بلغ عدد التلاميذ والتلميذات فى ذلك الوقت ٧٦٠ تقريبا ، وبلغ عدد المدرسين والمدرسات ٣٥ تقريبا ، وانتهى هذا العام بأن بلغ عدد المدارس

٢٦ مدرسة ابتدائية للبنين ، و١٦ مدرسة للبنات ، وبلغ عدد المدرسين والمدرسات ٧٢٣ ، وبلغ عدد التلاميذ والتلميذات (١٢٨٢٤) . وإلى جانب نوع التعليم العام المعتاد ، تعليم تجارى ، وتعليم دينى يتولاه معهد دينى استقدمت له بعثة من الأزهر ، كما أوشك العمل أن يتم فى إنشاء كلية صناعية كبيرة للتعليم الصناعى . ويسير التعليم فى الكويت وفق مناهج وزارة المعارف المصرية ، سوى تعديل بسيط اقتضته ظروف الكويت وبيئتها وقد تم الاتفاق أخيراً بين معارف الكويت ووزارة المعارف المصرية على قبول شهادتى الثقافة والتوجيهية تسهيلا لقبول طلبة الكويت فى الجامعات المصرية .

ولم تقتصر رغبة الكويت فى التعليم عند هذا الحد ، بل أوفدت بعثاتها إلى الخارج ولمصر نصيب كبير من أبنائها حيث بلغ عددهم فى مصر حتى الآن ١٢٥ طالبا ، موزعين على الجامعات المصرية الثلاث بجانب زملاء لهم فى العراق ولبنان وانجلترا وأمريكا وفرنسا ، وقد تخرج بعضهم وعاد يعمل فى الكويت .

والتعليم فى الكويت مجانى منذ أن نشأ فى جميع مراحله ، ولم يقتصر نشاط التعليم فى الكويت فحسب بل عم بلادا أخرى ، ففتحت مدرستان عربيتان فى كل من مدينتى (بومباى) فى الهند و (كراتشى) فى الباكستان تتولى الانفاق عليهما إدارة المعارف بالكويت وتبعث إليهما بالمدرسين لتعليم أبناء الجاليات العربية الموجودين هناك .

كما أنشأت فى كل بلد مجاور للكويت ومن البلاد الواقعة على الخليج العربى مدرسة قصد بها التعاون فى تثقيف أبناء هذه البلاد تتولى معارفنا الانفاق عليها وإرسال بعثات التعليم إليها .

من ذلك نرى الكويت تتحمل فى سبيل التعليم نفقات كبيرة حتى بلغت ميزانية التعليم عام ٥٢ / ١٩٥٣ ثلاثة وثلاثين مليونا من الروبيات ، بخلاف ما ينفق على انشاءات المعارف الجديدة إذ لها ميزانيتها الخاصة بها .

وفى الكويت أيضاً بعض الفنادق ، لكن ليس فيها مسارح ولا دور للسينما وإن كان كثير من البيوت تتوفر فيها السينما آت الصغيرة (١٦ م) . وقد رخص أخيراً بإنشاء

دور عامة كبيرة للسينما لمختلف أفراد الشعب . . وتهتم الحكومة بشق الطرق، وإنشاء الشوارع ورصفها ، وإقامة المساكن الصحية ، والمستوصفات ، والمستشفات والعلاج فيها مجانا للجميع .

والأمن مستتب فى الكويت لولا بعض الحوادث البسيطة كالسرقات وغيرها التى يسببها بعض الأجانب أحيانا ، والمعيشة مناسبة لارتفاع مرتبات الموظفين والمواد الغذائية والفواكه والخضروات موفورة ويرد أكثرها منها من العراق وإيران ، ومن سورية ولبنان أحياناً بالطائرة .

والكويتى أمين محافظ على سمعته وكلمته ويعتبرها قائمة مقام السند المكتوب عليه ، وقد يقترض الكويتى مبالغ طائلة ويؤديها لصاحبها دون وثيقة أو شاهد ، فالثقة التامة متبادلة ، والأمانة عامة ، والأمان شامل .

ويهتم الكويتيون بشئون الوطن العربى ، وخاصة مصر ، التى نعتبرها محط آمال العرب وقبلة أنظارهم وأرواحهم ، وخاصة بعد قيام حركة الجيش المباركة ، هذه الحركة التى زادت من ثقة العالم بمصر ، ومن إعجابه بالوطنية المصرية . . ويرى الكويتى أن كل فرد من أبناء البلاد العربية أخا له ، تربطه به أواصر كبرى من الدم واللغة والتاريخ والآمال والآلام .

ولاحتياج الكويت إلى الأيدى العاملة لكثرة مشاريع الإصلاح : أخذ كثير من إخواننا العرب يفدون إليها من العراق وسورية ولبنان ومن أبناء فلسطين العربية ومن مصر العزيزة . . . وهناك أمواج مختلفة تتدفق على الكويت بكثرة من ايران وباكستان والهند وأوروبا وأمريكا، وليس على الهجرة فى الكويت قيود حتى اليوم ، ونأمل أن يهتم المسئولون عندنا بهذه الناحية المهمة ويولوها كل عنايتهم ، لكى يضعوا حدا لهجرة غير المرغوب فيهم من الأجانب .

وفى القاهرة الآن « إدارة بعثات الكويت » وكانت تسمى (بيت الكويت) وأنشئ هذا البيت عام ١٩٤٥ لرعاية شئون الطلبة الكويتيين فى مصر وليكون صلة بين مصر والكويت ، وتصدر إدارة البعثة مجلة ثقافية شهرية أسمها (البعثة) يحررها

الطلبة وهى الآن فى عامها الثامن . . وعدد طلابنا فى مصر يبلغ (١٢٥) طالباً يدرسون فى الجامعات المصرية والأزهر والمدارس الثانوية والابتدائية .

وبعد ، فهذه صورة مصغرة عن حياة الكويت الاجتماعية والثقافية المعاصرة .

الحياة الاقتصادية فى الكويت :

سيداتى وسادتى : ليس هناك أية أهمية اقتصادية للزراعة فى بلادنا والصناعة ماتزال فى بداية نهضتها . والكويت بلد تجارى يميل أكثر سكانه إلى العمل فى التجارة وتمتد تجارتهم إلى كثير من أنحاء العالم كما ذكرنا أنفاً . . . وينابيع الثروة الاقتصادية فى الكويت ممثلة فى النفط والتجارة والنقل البحرى والحرف المحلية وبناء السفن التجارية والغوص على اللؤلؤ .

وتعتمد إيرادات الحكومة على حصتها من أرباح (البترول) وما تتقاضاه من رسوم « الجمارك » ورسوم تسجيل الأراضى والرسوم المفروضة على التجارة العابرة وقد بلغت قيمة الواردات إلى الكويت عام ١٩٥٠ (٧٣٠٢٠٣٧ ربيه) وقيمة الصادرات (٢٤٤٩٠٠٩ ربية) وفى شهر نوفمبر سنة ١٩٥٢ بلغت قيمة الواردات (٤٨٦٠٠٤٣٦ ربية) وقيمة الصادرات (٤٣٨٣٧٨٧٦ ربية)

وكان للؤلؤ منذ سنوات مضت أهمية اقتصادية كبيرة وتجارة رابحة واشتهرت الكويت باللؤلؤ شهرة واسعة فى جميع أنحاء العالم حيث أطلقوا عليها اسم (بلاد اللؤلؤ) وكانت أساطيل الصيد الكويتية التى تقارب الألف سفينة تسافر إلى مغاصات اللؤلؤ فى خليج العرب فى الصيف من كل عام ولما نجحت اليابان بصناعة اللؤلؤ الصناعى أخذت قيمة اللؤلؤ الطبيعى تضعف مما أدى إلى كساد هذه التجارة .

والتاجر الكويتى لا يقتصر عمله على نوع معين من التجارة بل يعمل فى شتى أنواع البضائع التجارية ، ولأكثر تجار الكويت سفن كبيرة تسمى (أبوام — ومفردها بوم) تنقل التمور من البصرة إلى سواحل الخليج العربى ، وإلى إفريقيا أيضا وتعود محملة بمختلف أنواع البضاعة .

ولما كشف الأوربيون عن آبار « البترول » فى الكويت وأذاعوا فى العالم أن

الكويت كانت صحراء جرداء يظلها الفقر وتخيم عليها البطالة وأن أهلها يعيشون على البداوة ورعى الأغنام وصيد الأسماك . . وقد انخدع العالم بهذه الأقوال الفارغة والدعاية المغرضة والتى تهدف إلى الدعاية وإلى نسبة الفضل فى كل تقدم وتطور فى الكويت إلى « شركات البترول » الإنجليزية ، وما كان العالم لينخدع بهذه الدعاية المقصودة لو أنه كان يعرف تاريخ الكويت التجارى وما لعبته من أدوار هامة فى مختلف أنواع التجارة حتى أن بعض الصحف العربية الكبيرة فى مصر مع الأسف رددت عن حسن نية وعن غير قصد سىء هذه الدعاية . . وهذا دأب الاستعمار والمستعمرين فهم أبدا يعملون على أيهام الناس بأنهم أصحاب الفضل فى تقدم الشعوب الصغيرة المستعمرة وتحريرها من الجهل لا سيما الشعب العربى ، ولو أن الشعب العربى تخلص من قيود الاستعمار وتحرر من ربقة المستعمرين لكان فى حال غير هذه الحال التى لا يحسد عليها . فها ان المستعمرين لا يزالون يبثون سمومهم ويعملون على تحطيم وحدة العرب ، ويقيمون العوائق والحواجز أمام تحررهم (ما إسرائيل إلا نوع من الأوبئة التى ينشرونها فى جسم الأمة العربية التى بدت طلائع الوعى القومى تنتشر بين أبنائها) لأنهم يعلمون علم اليقين أن الأمة العربية إذا ما تحررت من الاستعمار فكت عنها هذه القيود المفروضة عليها ورمت بهم فى البحر ، واستغلت جميع الإمكانيات والخيرات التى تفيض بها بلادها لصالح العرب وحدهم ولتقويتهم والسير بهم إلى الأمام نحو العز والمجد والسؤدد ثم لصالح الإنسانية عامة .

أيها السيدات والسادة . إن الكويتيين قبل اكتشاف البترول كانوا أغنياء ذوى ثروات طائلة وأملاك واسعة وكانت تجارتهم المختلفة تطوف كثيراً من أنحاء العالم .

وإيراد الكويت السنوى اليوم يبلغ نحو (٥٣ مليونا) من الجنيهات ، أما مصروفاتها فتبلغ نحو (٢٣ مليونا) والباقى ومقداره (٢٠ مليونا) يضم إلى الاحتياطى العام ويذهب رأسا إلى مصارف انجلترا .

وفى الكويت مصرفان : المصرف البريطانى للشرق الأوسط ، والمصرف الكويتى الوطنى الذى افتتح فى ١٥ / ١١ / ١٩٥٢ برأس مال وطنى صرف قدره أحد عشر مليونا من الروبيات « الروبية الهندية تساوى ٧٥ مليما مصريا » حوالى ٨ روبيات للجنيه .

وليس فى الكويت ضرائب على رؤوس الأموال ولا الأرباح أو العمل، والتصدير والتجارة حرة ، ليس عليها قيود .

قصة البترول فى الكويت :

فى عام ١٩٣٣ سعت شركة النفط الإنجليزية وشركة (جولف الأمريكية) للحصول على امتياز للتنقيب عن البترول فى أراضى الكويت من أمير الكويت حينذاك المرحوم الشيخ أحمد الجابر الصباح ، وانتهت المساعى المبذولة فى ٢٣ / ١٢ / ١٩٣٤ بمنحها امتياز استخراج البترول من جميع أراضى الكويت ما عدا المنطقة المحايدة الواقعة بين الكويت والمملكة العربية السعودية ، وكذلك استثمار هذا البترول لمدة ٧٥ عاما، وسجلت الشركة فى إنجلترا باسم شركة نفط الكويت (K. O. C.) وهى مناصفة بين شركة النفط الإنجليزية وشركة نفط الخليج الأميريكية ، وبعد ذلك بدأت الشركة أعمالها عام ١٩٣٥ وفى عام ١٩٣٧ تدفقت بئر (البرقان) بغزارة . . ولكن قيام الحرب العالمية الثانية دعا الشركة إلى إيقاف أعمالها فى جميع الآبار التى حفرت ، وفى عام ١٩٤٥ عادت الشركة إلى نشاطها فى التنقيب ، وفى عام ١٩٤٦ بدأت فى افتتاح آبار النفط وظل تدفقه يتزايد عاما بعد عام وبلغت كميات البترول المستخرجة من آبار الكويت عام ١٩٤٦ ٣٣/٤ مليونا من الأطنان ، وقفزت الكمية عام ١٩٥١ إلى ٢٨ مليونا وزادت عام ١٩٥٢ إلى ٣٧ مليونا ووصلت الكمية عام ١٩٥٣ إلى ٤٣ مليونا وبلغ عدد الآبار (١٤٠) بئرا وقد تطورت الزيادة كل هذا التطور خلال العامين التاليين نتيجة لاقفال معامل عباد ان ولا زال استخراج البترول فى الكويت فى ازدياد مستمر . . وإذا أردنا معرفة كمية المنتج من بترول الكويت ، فلنرجع إلى إحصائية عام ١٩٥٣ حيث نجد أن إنتاج الكويت بلغ (٤٣ مليونا) من الأطنان بينما بلغ إنتاج المملكة العربية السعودية (٤١ مليونا) وفى العراق (٢٨ مليونا) . . .

ويوجد فى ميناء (الأحمدى) مصنع التكرير ينتج يوميا (٢٥ألف برميل) وقد طرأ منذ ثلاث سنوات تعديل على الاتفاقية بين الكويت وشركة النفط من فرض إتاوة على كل برميل إلى المشاركة فى الربح الصافى بنسبة ٥٠٪ .

وقد سعت الشركة الأمريكية (امين أويل) لدى حكومة الكويت منذ سنوات حتى اتفقت معها على استغلال المنطقة المحايدة ولم تعثر فيها على بترول إلا أخيرا وستبدأ هذه الشركة الجديدة بتصديره إلى الخارج خلال هذا العام .

وكان دخل الكويت السنوى من « البترول » أكثر من (١٥٠ مليون من الدولارات أى نحو خمسين مليونا من الجنيهات الاسترلينية . وازداد الدخل بازدياد إنتاج البترول وقد أدى الكشف عن البترول وكثرة إنتاجه فى الكويت زيادة إيرادات الحكومة وإلى توفر المال لديها للقيام بمشاريع الإصلاح الكبيرة الواسعة ، ومن ثم قررت الغاء الضرائب البسيطة التى كانت تفرض على البيوت والمحلات التجارية وكذلك خفضت رسوم الجمارك على الواردات فجعلت ٤ ٪ بدلا ٦½ ٪ ويعفى من هذه الرسوم جميع ما يرد باسم الحكومة . كما أدى ذلك إلى قوة حركة التجارة الخارجية وكثرة الشركات الأهلية وتوفر العمل وأدى ذلك أيضا إلى ارتفاع الماهيات والمرتبات نتيجة لغلاء مستوى المعيشة وإلى كثرة المهاجرين الوافدين إلى الكويت من كل مكان .

بعض مشروعات المستقبل :

أيها السيدات والسادة : أشرنا فى أول المحاضرة إلى أن أهم مشكلة تعانيها الكويت هى مشكلة الماء لندرته فيها ولصعوبة جلبه من شط العرب فى العراق بواسطة السفن الشراعية لعدم كفاية تلك الوسيلة لسد حاجات الكويت اليوم ولما تتعرض له من أخطار ولاحتمال التلف والخراب الذى يصيب آلات تقطير مياه البحر التى أنشئت أخيرا فى الكويت وكلما قام الفنيون والمهندسون بحفر الأرض لاستخراج الماء العذب عادوا بخيبة الأمل ولم يستطيعوا العثور على الماء فى الكويت ، على الرغم من الوسائل الكثيرة التى استعملوها فى الحفر فى مختلف أراضى الكويت . . . وكلما أمعنوا فى الحفر خرج النفط بدل الماء لهذا عمد الكويتيون إلى جلب الماء من شط العرب الذى لا يبعد كثيرا عن الكويت كما أن الكويتيين اعتادوا بناء صهاريج كبيرة لخزن مياه الأمطار فيها أثناء الشتاء كذلك أقاموا بعض السدود فى الصحراء لحفظ مياه هذه الأمطار وخزنها لاستعمالها أثناء الصيف .

وعند ازدياد الهجرة إلى الكويت . . . وزيادة السكان فيها أقامت الحكومة مشروع تقطير مياه البحر الذى أشرنا إليه سابقا . . وقد تم الاتفاق أخيرا بين الكويت والعراق الشقيق على جر المياه من شط العرب إلى الكويت ، وذلك بمد الأنابيب كما يرى البعض أو بشق ترعة عبر الصحراء من شط العرب إلى الكويت دائرة حول الكويت ، تقابل النصف الدائرى تقريبا من البحر المحيط بالكويت وذلك كما يرى الكثيرون ولاشك أن الطريقة الأخرى أجدى وأنفع للكويت التى ستستفيد كثيرا من هذه الترعة برى الأراضى التى ستقع على ضفتى هذه الترعة وزراعتها بل ان السكان سيستفيدون فائدة صحية واقتصادية كبيرة ، ولا زالت الحكومة والمسئولون فى الكويت يدرسون هذا المشروع بدقة وعناية .

على أن هذا المشروع المتفق عليه أخيرا ترى الكويت أن تستفيد منه إلى أكبر مدى مستطاع فيقال إن الفنيين يقسمون المشروع إلى ثلاث مراحل .

فالمرحلة الأولى : هى البدء فى توفير مياه الشرب أولا وإعداد وسائل تخزينه وطريقة إسالته فى مدينة الكويت ، ولعل ذلك من الأسباب التى سيكون لها تأثير مباشر فى نظام بناء البيوت حتى تستطيع استقبال النظام الجديد بتوزيع المياه فيها .

والمرحلة الثانية : هى توفير المياه للزراعة الإنتاجية حتى تساعد تلك الزراعة على سد جانب من حاجات الكويت فى بعض المنتوجات الزراعية .

والمرحلة الثالثة : وهى طويلة المدى ويقصد بها توفير كمية أكبر من المياه حتى تتمكن الكويت من الزراعة على نطاق واسع وعلى الأخص فيما يتعلق بزراعة الغابات لحماية الكويت من هبوب الرياح الصحراوية المحمله بالأتربة ومالها من أثر فى تلطيف جو المدينة والمشروع كما ترونه ضخم والكويت لاتمانع فى بذل كل شىء فى سبيله إذا ما انتهت بحوث الفنيين إلى نتيجة مرضية ، والذى يهم الكويت الآن من هذه المراحل هى المرحلة الأولى وهى مرحلة توفير مياه الشرب .

ومن المشروعات الجديدة : العزم على إعادة تجديد مدينة الكويت وتنظيم بنائها بعد أن تم مسح الكويت جويا ووضعت الخرائط اللازمة لها . وقد تم ذلك المسح منذ أكثر من ثلاث سنوات .

ومن المشروعات الأخرى : البحث فى بناء حى خاص يضم دوائر الحكومة كلها فى مكان واحد اتقاء تناثرها فى مختلف أطراف المدينة متبعين فى ذلك بعض النظم الموجودة فى بعض المدن الحديثة الكبيرة .

ونرجو أن تصبح الكويت فى القريب العاجل عضوا عاملا فى الجامعة العربية ، لتستفيد وتفيد ، وأن تلغى جميع وظائف المستشارين الأجانب وأن يستثمر احتياطى الكويت فى شتى مشروعات الاصلاح فى الكويت ، بل وفى الوطن العربى ويأمل الشباب الكويتى كذلك إنشاء جامعة فى الكويت وأن تزداد العلاقات الثقافية والاقتصادية بين مصر والكويت توثقا وقوة ؟

(ألقيت على إخوان الصفاء)
فى منزل ملقيها

عبد الله زكريا الانصارى

نقاش وتعليق

لم يدر حول كلمة السيد زكريا نقاش محتدم كما يدور حول كلمات زملائه ، لأن موضوعه غير نظرى ولكن الدكتور على عبد الواحد الذى يأبى أن يفوته نقاش حول أى كلام تعرض للمحاضر فى عزله الكويت عن أى قطر عربى منذ كان « كويتا » وأشار إلى طلب الحكومة العراقية إرجاع الكويت لأمها العراق ، وفى ذلك ما يبرهن على أن هذه البقعة كانت يوما ما تابعة للعراق .

وكان جواب المحاضر أنها كانت تابعة لولاية بغداد فى العهد التركى كما كانت مناطق الجزيرة العربية كذلك يتبع بعضها بعضا لا على اعتبار العنصر أو التاريخ أو التفريع الجغرافى ، وإنما هو تقسيم تركى كـكل تقسيم استعمارى أجنبى للأماكن التى يسيطر عليها .

على أنى أحببت أن لا يفوتنى التعليق المحبب على كلمة الأستاذ زكريا ، ولعل التعليق بله النقاش فى هذه الرسالة التى يقدمها إخوان الصفاء إلى الأجيال القادمة ، لعل ذلك ملحوظ فى صميم الرسالة وقبل أن يلحظ القارئ موضوعاتها الأولى .

يقول فى كلمته : إن دخل الكويت من البترول يبلغ مائة وخمسين مليون دولار وهو ما يزيد على خمسين مليونا من الدنانير أو ينقص عن ذلك بقليل ، وهذا أمر كائن ؛ فقد رأيت لدى زيارتى هذه البقعة أول العام العابر أثر هذه الزيادة فى استخراج البترول وأثر النعمة التى أحدثتها زيادة إنتاجه إلى حد أن أجر المنام فى الفنادق لليلة واحدة ما يعادل أجر أفخم فندق فى القاهرة بينما نرى الكويت كلها لا تملأ زاوية من عاصمة مصر هذه .

على أنى بحثت عن مصرف هذا المال وإلى أين يذهب ويكاد هدم الكويت ثم بناؤها على أحدث طراز عالمى لا يستنفد هذا الإنتاج فى عام واحد ، فكيف ينفق القابضون على زمام الحكم فى الكويت هذه المبالغ ؟ ؟

إن رقعة الكويت لا تضم أكثر من مائة ألف إنسان تتبناه تلك الرقعة ، وما يزيد عن ذلك دخيل عربى أو أجنبى فى سبيل الرزق ، فلو وزعنا هذا الإنتاج على المواطنين فيها لنال الواحد منهم خمسمائة جنيه كل عام، فهل هذا كائن ؟ إن ما رأيته من ازدهار الكويت لا يعادل ازدهار أحقر بلدة فى لبنان الذى لا يتجاوز دخله من إنتاجه أكثر من مليون دينار ، وأن ما يبذله أمراء الكويت فى تعزيز العرب والعروبة خارج الكويت لا يتجاوز مئات الألوف من الدنانير فى العام ، وأن مصارف العالم بأسره إذا استثنينا بريطانيا لا تضم دينارا واحداً لأمير واحد من حكام هذه الرقعة الصغيرة بحجمها والكبيرة بأثرها، وأن معدل إنفاق أى أمير منهم فى العام على نفسه وأهله وفى رحلاته خارج الكويت لا يتجاوز عشرة آلاف دينار .

ذلك ما قدرته بفكرى من وراء التحقيق والبحث ومن وراء علمى أن أكثر الأمراء ، ولعلها أكثرية ساحقة ، لا يغريه بالإسراف عبث ولا فجور ، وإن وجد بعض منهم يستهويه بهرج المدنية بين يدى شبابه وفراغه وثرائه فلا يطلق الحاكم الأعلى منهم يد هذا البعض فيما يشوه سمعة الأسرة القائمة على حكم هذه الرقعة .

تحسست من ذلك كله ورحت ألتمس مخرجا من هذا التحسس يفضى بى إلى الوقوف على ذلك الإنتاج الجبار أين يذهب وكيف ينفق ، وفى أى مصرف يتكدس الفائض منه؟؟ فعمدت إلى دراسة المشاريع الإصلاحية والعمرانية التى تحدق بمائة ألف إنسان ينتج صادرهم خمسين مليونا من الدنانير كل عام .

يقول لى السيد على داود ، وهو المدير العام لوزارة الصحة ، وكان مرافقاً لى أكثر أيامى هناك : إن إنفاق الحكومة على وزارة الصحة لا يتجاوز سبعة عشر مليونا من الروبيات ، وذلك ما يعدل مليون دينار تقريبا . ويقول السيد عبدالله زكريا، وهو محاسب البعثات العلمية الكويتية فى مصر : إن ميزانية المعارف فى الكويت تبلغ على وجه التقريب أربعين مليونا من الروبيات ، وهذا المبلغ يناهز المليونين ونصف المليون من الدنانير .

والمعارف فى الكويت هى أضخم وزارة لما تقتضيه من بناء المدارس واستخدام المعلمين من الخارج ومساعدة الطلاب داخل القطر وخارجه ، ولقد طفت بنفسى على

المنشآت مدارس ومستشفيات ومشاريع أخرى كتقطير الماء وتعبيد الطرق وإصلاح الشوارع ومدينة العمال فلم يعدل كل ذلك فى تقديرى مائتى مليون روبية ، أى ما يعدل خمسة عشر مليوناً من الدنانير . وهذا إنفاق لا يتكرر فى بلد صغير كالكويت .

فميزانية الصرف جمعاء لا تتجاوز العشرين مليوناً ، فأين تذهب الثلاثون الباقية على رأس كل عام ؟ ؟ والزيادة فى البترول مستمرة ، والحد من السرف مستمر ؟ ؟ فسأقص على القارىء فى هذا التعليق شيئاً مما اتصل بى عن طريق ثقة ليعلم أين من العالم نحن ؟ ؟ وفى أى جو نعيش ، وأية سبيل نسلك ؟ ؟

إن البلاء الذى تتسربل به أمة العرب خاصة والمسلمون عامة مصدره جهة واحدة من العالم لا تتحول هذه الجهة ولا تتبدل عن التفكير أبداً فى الحد من نشاط العرب وانطلاق الإسلام ونموه ، تلك الجهة التى لا تزال منذ قرون تعمل على خضد شوكة العالم الإسلامى ، ووضع العقبات فى سبيل تقدم العرب ونهوض الإسلام ، لا تزال هى ولن تزال تشحن صدور الشعوب مسيحية ووثنية ويهودية بالحقد على الإسلام والعرب ، والحذر من الإسلام والعرب ، والحد من تقدم الاسلام والعرب .

تلك الجهة فى العالم التى وحدها تخشى صولة العرب والإسلام والتى وحدها تضطلع بعبء الوقوف والصمود فى وجه العرب والإسلام لأنها وحدها تتقدم العالم فى الدس والتضليل والعسف والتدجيل بين يدى جشعها العنصرى فى سبيل سيادتها العالم وسيطرتها الجائرة على العالم ، فهى دائبة تعمل على تعزيز شباك التجسس والاستخبارات العالمية ، وتعمل على تحطيم كل عنصر ينافسها فى الحياة ، وتتحرى اصالة كل عنصر يقضى عليها إذا تعزز وفى طليعة هذه العناصر التى تأبى العبودية والخضوع لغيرها ، عنصر العرب الذى يهيمن عليه الإسلام .

تلك الجهة هى رأس الاستعمار الغربى ذلك الرأس السكسونى المجبول ، فى سبيل الأثرة والأنانية ، على حب القرصنة والعسف والتضليل والدس ، تلك الرأس التى أساغت لنفسها فى سبيل سلامتها تحطيم كل رأس والتى تعالت على كل شعب يعيش بالكرامة والنبل

كالشعب الإسلامى وتستكين حتى تستحذى لكل شعب يعيش على الخسة واللؤم كالشعب اليهودى لتعزز الشر بالشر واللؤم باللؤم .

هذه الرأس التى تعمد إلى كل شعب ضعيف فتسربله بالعبودية والضعة والهون وتحول بينه وبين الحياة والحرية والنور فتقضى على كل عشرة أناسى منه أن يعيشوا بدينار واحد فى الشهر لتخول كل فرد من شعبها النعمة بعشرة دنانير فى كل يوم ، هذه الرأس هى رأس بريطانيا التى بلعت قارة أوسترالبا وطوقت قارتى آسيا وإفريقيا بسلاسل من عسف وإرهاق وتعذيب .

هذه الكابوس التى تجثم على كل صدر عربى أو مسلم ثم لا تتزحزح عنه إلا مذمومة مدحورة كما تزحزحت عن أمريكا والهند والباكستان وفلسطين ، هذا الكابوس هو الذى يجثم اليوم على صدر هذه البقعة العربية الهزيلة الضعيفة المستخذية بقعة الكويت وستبقى جاثمة إلى يوم القيامة ما دام سلاحها الدس والتفريق والتضليل وما دام القادة والسادة من العرب لاهين بالتنافس والتكالب على المناصب تحت الوطء الخانق من ذلك الكابوس .

هذه الرأس هى التى تستخف بكل رأس منا فتعلن من غير خجل ولا حياء أن حصة الكويت من البترول يناهز الخمسين مليونا من الدنانير وتبيح لهم أن يتصرفوا بعشرين مليونا ثم تقبض على الثلاثين بيد من أسر وقسر زاعمة أنها تدخر لهم ذلك فى خزائنها الأمينة على أموال العالم .

إن المال الفائض عن سهم الكويت من البترول مجمد فى خزانة بريطانيا لا يسوغ لحكومة الكويت أن تتخير لها خزانة أخرى فى العالم ، ولا أن تنفقها على شعب يؤاخى شعب الكويت باللحم والعظم والدم ، وبالعنصر والقومية والدين ، حلال لبريطانيا أن تنعم بسهم الكويت من مالها المتفجر فى أرضها ، وحرام على الكويت أن يغيث بهذا المال شعبا يأكل التراب تحت نير العبودية فى جزيرة العرب والمغرب الأقصى والهند.

بلى إنهم يبيحون لحكومة الكويت أن يتصرفوا بإنشاء مصنع لتقطير الماء من البحر يبلغ تكليفه أربعة ملايين من الدنانير على أن يكون مهندسوه ومادته الأولى

من شعب الله الخاص فى الأرض المقدسة بريطانيا العظمى ، ويبيحون لهم أن يتصرفوا بهذا المبلغ الضخم لإنشاء هـذا المصنع الجبار المهدد فى كل زمان لخطر التدمير بينما لا يبيحون لهم شق ترعة لا تـكلفهم نصف هـذا المبلغ تفيض عليهم من شط العرب المتدفق إلى البحر من رافدى دجلة والفرات .

ذلك الحجر لأن ماء الفرات عربى يخلط العراق بالـكويتى فيعزز فيهما دم العروبة وعزة الإسلام ، ذلك لأنها تحب أن تبقى على الفرقة والتمزيق بين الأخوين ، ذلك لأنها تخشى أن يؤدى توحيد الماء الذى هو الحياة لهم إلى وحدة القطرين التى هى الموت لها والقضاء عليها .

وتبيح للـكويتيين أو لزعماء الـكويت أن يتصرفوا على رأس كل عام ببضعة آلاف من الدنانير لـكل واحد منهم ينفقونها فى رحلاتهم إلى بلاد العرب أو بلاد الغال ربما نال القليل منها بعض الإغاثة لإخوانهم وعشيرتهم فى اللغة والدين ، ففى مصر بعض رجال الصحافة أو الثقافة ، وبعض الهيئات العربية أو الدينية يظفرون ببضعة آلاف من الدنانير لدى زيارة أمير من أمراء الـكويت تخرج من يده مغموسة بدم العروبة وعرق الأعراب الـكادحين تحت سماء الـكويت اللاهبة ، ومثل ذلك فى سوريا ولبنان ، أما المغربى فى مراكش وتونس والجزائر ، أما هـذا الذى يجاهد مكافحا غطرسة الاستعمار الفرنسى منذ عشرات السنين ، أما هذا الذى يترك أهله وأطفاله طعمة للجوع ويهب نفسه حطاما للحديد والنار فى سبيل عروبة الـكويت ودين الـكويت ، أما هذا فلا يستحق شيئاً من ثلاثين مليونا تتجمد فى خزائن اليهود تحت سماء بريطانيا وفى مصاريفها القائمة على العبث بالإنسانية من وراء الأثرة والاستعمار .

إن لحـكومة الـكويت عاملين فى دوائر الحـكم لها النفوذ الأول ، مفروضين عليهم فى هذه الدوائر ، وبأيديهم الصرف وهم من صميم العرب المستخذين للأجنبى الـكامن فى نفوسهم ، هؤلاء العاملون هم المسئولون لدى بريطانيا عن كل درهم يخرج من خزائنها تحت سماء الـكويت ، فإذا اطمأنوا إلى أن أمر الأمير بصرف المال يفتح لهذا المال طريق العودة إلى بريطانيا أو خدمة بريطانيا ، سهلوا السبيل إلى صرفه ، ففى أقل من ساعة تطبخ

الأوامر وتنضج ثم تخرج سهلة سائغة ، وأما إذا شعروا بأن هذا المال يخرج من تحت أيديهم لأيد عربية أو إسلامية ، أنشأت العراقيل وتازمت الأحداث التى تقف فى سبيل التنفيذ فلا يخرج من هذا المال إلا النزر الذى لا أثر له فى تعزيز قومية ولا دين .

فإذا زار الكويت اميل البستانى مثلا تفتحت له الخزائن وقام بين يديه كل عمل كويتى لخدمة أفكاره ذلك لأنه ربيب البيت السكسونى والعامل الأول له فى بيوت العرب والمسلمين ، وهكذا إذا وردت بلد الكويت كوكب لبنان الساطع « الآنسة » الفنانة صباح تحملها الطائرة الخاصة بها من الأمير العربى يستقبلها فى المطار أعيان الكويت وتتفتح بين يديها القلوب قبل الجيوب ؛ والجناجن قبل الخزائن ، ذلك لأن المال الذى تقبض عليه لا يخرج عن حدود الفن الجميل .

وأما إذا ورد الكويت ثائر عربى كرس حياته لخدمة العروبة أوالإسلام فقد يلقى الترحيب وكرم الضيافة ، ولكنه فى تعزيز مبدئه الذى من أجله زار الكويت لا يظفر إلا بما يكفيه مؤونة الذهاب والإياب ، إنى لأقول هذا وصديقى الأمير عبد الله الجابر الصباحى يعلم صدق ما أقول ، ويفهم جيداً ما قلت فى ديوانه ويتنبأ جيداً لما سأقوله فى كتاب خاص عما شاهدت فى رحلتى تلك وما سيشاهده غيرى تحت ذلك الأفق الحبيب إلى قلب كل عربى مسلم موتور .

هذه نفثة أحببت أن لا يفوتنى تخليدها بين يدى إخلاصى لعروبتى وإسلامى فى ختام تعليقى على محاضرة صديقى وأخى فى ندوة الأدباء الأحرار من موتورى الاستعمار تحت سماء مصر وعلى ضفاف النيل الجبار .

المحاضرة السابعة :

حياة المحاضر



ولد الأستاذ طاهر الطناحى فى مدينة دمياط سنة ١٩١٢ ، وتلقى دروسه الابتدائية حتى أتمها فى هذه المدينة من معهد دمياط العالى .

ثم التحق بمدرسة القضاء الشرعى بالقاهرة وهى مدرسة لتخريج القضاة الشرعيين . وقد أنشأها سعد زغلول حين كان وزيراً للحقانية . وكان من أساتذته فيها الدكتور أحمد أمين ، والدكتور عبد الوهاب عزام والأستاذ أمين الخولى .

ولما ألغيت هذه المدرسة انتقل إلى مدرسة دار العلوم (كلية دار العلوم الآن) فبقى ، إلى أن تخرج منها .

عمله

تعشق الصحافة ، ففضلها على مهنة التدريس ، واشتغل محرراً بالمصور ، وكل شىء بدار الهلال ، ثم اختير إلى عمله سكرتيراً للهلال ، ثم رئيساً لمجلة الدنيا المصورة ، ثم مديراً للهلال ، ورئيساً لكتاب الهلال وروايات الهلال ، وهو يعتبر أحد أركان دار الهلال حتى الآن .

اشتغل بالصحافة العلمية والأدبية والسياسية منذ عمل بدار الهلال ، وكانت وما زالت له مقالات فى هذه البحوث .

آثاره

أخرج للعالم العربى بضعة كتب ، منها :

كتاب (على ضفاف دجلة والفرات) نشرته دار المعارف وهو يتناول التاريخ الذهبى لحضارة الإسلام .

وكتاب (أمير قصر الذهب) نشرته دار المعارف فى سلسلة اقرأ .

وكتاب (على فراش الموت) يتناول الحياة الأخيرة لعشرين عظيما من عظماء الشرق — نشرته دار الهلال وأهدته لمشتركى مجلة الهلال .

وقد أعيد هذا الكتاب باسم (الخان الغروب) .

شخصيته

طبع الأستاذ طاهر على حبه للعلم والأدب وميله إلى مصاحبة كبار العلماء والأدباء ، ولا يميل إلى الرياضة كتسلية ، وإنما يحب أن يقضى فراغه فى القراءة . وهو مستقيم فى عمله ، مثابر عليه يشعر بمسئوليته ، ويمتهن الصحافة على أنها فن حديث وخدمة للقراء . ولذلك ابتعد عن الحزبيات والشخصيات . ويفضل الصحافة العلمية والأدبية على غيرها ، لأنها فى نظره أجدى وأنفع للأمة .

وهو قوى الإرادة. ومن الكلمات المأثورة التى يرددها : قول الرسول محمد صلى الله عليه وسلم : « لو تعلقت همة أحدكم بالثريا لنالها » . وطالما حقق الكثير من الأعمال الصحافية الصعبة بهوى هذا الحديث الشريف .

وبعد : فالأستاذ الطناحى ذكى القلب حديد الفكر ، سديد الرأى ، وفى لأخوانه ، كثير الحياء ، بالغ المنطق ، فصيح اللسان ، يحب الفكاهة ويسعى ليغذى روحه بها وقت فراغه ، وإذا تحدث فى موضوع ملأ نفسك إعجاباً بما يمعن فيه من منطق وبيان ، أما اناقته فى لباسه واعتزازه بنفسه وباخوانه الأدنين فهما من مقومات شخصيته الأولى .

المحاضرة السابعة

المدنية الحديثة

هل وفرت أسباب السعادة ؟

ألقيت فى منزل الأستاذ عبد الله زكريا فى ٤/٤/١٩٥٤

هل وفرت المدنية الراهنة كل أسباب السعادة ؟

وهل انتهينا منها إلى غاية الرفاهية والهناء ؟

وهل رضى العالم بما هو فيه وبما ابتدعه لنفسه من الأنظمة والأساليب ؟

أسئلة ليس من السهل الإجابة عنها إذا نظرنا إلى ما يعانيه العالم من متاعب وشقاء فى كل ناحية من نواحى الحياة ، فأينما استعرضت جانباً من جوانب المدنية الراهنة التى يتغنى بعضهم برقيها ، وجدت تململا من الحياة ، ووجدت ثورة أو أشبه ما يكون بالثورة على ما ظنه بعض المتشرعين أنه أحسن الأنظمة التى تلائم الشعوب ، وتتفق وآمال الإنسان . فلا النظم السياسية ولا النظم الاجتماعية سلمت فى هذا العصر من النقد الشديد والرغبة فى إصلاحها وهدم ما لا يتفق وآمال الإنسان الذى ينشد منذ القدم حياة عليا مستوفية أسباب السعادة والهناء .

فالإنسان بطبيعته خيالى يسمو ببصره إلى حياة علوية خالية من شوائب النقص . ثم هو يحلم بالجمال ويتغنى بالكمال . وقديما حلم الناس بالحياة العليا وتخيلوها بأشكال مختلفة ، وسعوا إليها بوسائل متعددة . فطلبها بعضهم فى القوة وصحة الأجسام ، ونشدها غيرهم فى اتساع الجاه وعظم السلطان ، وحار آخرون فى الوصول إليها ورأوا أنها مستحيلة فى هذه الحياة الدنيا ، فزهدوا وتصوفوا وعلقوا آمالهم وخيالهم بحياة فى الدار الآخرة

تتوفر فيها أسباب السعادة ، وفيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، وكذلك الإنسان منذ القدم — كما قلنا — ينشد السعادة ، ويحلم بالسمو والكمال ، وهذه العاطفة هى من أهم ما يدفعه إلى التقدم . وكلما صدمت الحياة الإنسان وآلمته بخطوبها وشدائدها كان لهذه العاطفة أثرها فى الثورة على الواقع ، والرغبة فى استبداله والاستعاضة عنه بغيره مما يزينه خياله ، وتمليه عليه آماله .

ومن المشاهد أنه بعد كل طور من أطوار المنازعات والحروب تجد انقلابا يتناول نواحى الحياة ، ويصبغ الحضارة بصبغة أخرى أو يجعل لها مظهراً آخر ، هو بلا شك خير مما كانت عليه قبلا ، وقد كانت تخيلات الفلاسفة وآمالهم فى الحصول على حياة سعيدة ، عقب الحروب والمنازعات والأزمات . فقد تخيل أفلاطون « جمهوريته » على أثر الحرب التى قامت بين أثينا واسبارطة . وكتب الفارابى « مدينته الفاضلة » فى عصر فسدت فيه روابط التعاون والاجتماع . وحلم « توماس مور » بالجزيرة الجديدة فى مفتتح النهضة الأوربية ، وبعد ظلام العصور الوسطى .

وكذلك غيرهم من الحالمين أمثال « فالنتين أندريا » صاحب المدينة المسيحية « كرستيانو بوليس » ولكامبا نيلا ، وبيكون ، وفوربيه ، وروبرت أوين . . بل من سبق أفلاطون ممن كتبوا فى حياة الشعوب واختطوا لها الأنظمة الاجتماعية ، وتخيلوا لتلك الأنظمة مثلا أعلى قد تحقق كله أو أكثره فيما وليهم من الزمان .

ولكن هذا المثل الأعلى الذى تخيله هؤلاء الفلاسفة وتحقق كله أو شىء منه على مر الدهور ، لم يحقق السعادة التى ينشدها الإنسان ، ولم يوفر آماله وخياله فى حياة تملأها الرفاهية والاطمئنان . وقد حسب أفلاطون أن توزيع الأعمال وتنظيم الطبقات والعناية بالفنون والتوسط بين الغنى والفاقة هى أهم شروط الجمهورية السعيدة ، ولكن سرعان ما برهنت العصور وطبائع الاجتماع على أن ذلك لم يغن شيئاً أمام ما عاناه الإنسان وما لا يزال يعانيه من المتاعب والشقاء .

وقد عرف الفارابى المدينة الفاضلة بأنها « التى يقصد الاجتماع فيها التعاون على الأشياء التى تنال بها السعادة فى الحقيقة » والاجتماع الفاضل بأنه « الذى يتعاون على نيل السعادة »

والأمة الفاضلة هى « التى تتعاون مدنها كلها على ما تنال به السعادة » وكذلك عرف المعمورة الفاضلة بأنهـا التى تحتوى على أمم يتعاونون على بلوغ السعادة . وقد شبه المدينة الفاضلة بالبدن التام الصحيح الذى تتعاون أعضاؤه كلها على تتميم حيوية الحيوان وعلى حفظها سليمة قوية . وكما أن أعضاء البدن مختلفة متفاضلة الفطرة والقوى . وفيها عضو واحد رئيسى وهو القلب ، وأعضاء تقرب مراتبها من ذلك الرئيس ثم تليها مراتب أخرى ، فإن المدينة الفاضلة لا بد لها من نظام يماثل هذا النظام — والفارابى فى مدينته الفاضلة يقرب من جمهورية أفلاطون من حيث تقسيم الطبقات وتوزيع الأعمال وإن كان أفلاطون يسند قيادة الناس وحكمهم إلى الفلاسفة لا إلى فرد من الأقوياء .

ويتحدث الفارابى عن أضداد المدينة الفاضلة فيقول : والمدينة الفاضلة تضاد المدينة الجاهلية والمدينة الفاسقة والمدينة المتبدلة والمدينة الضارة ، ويضادها أيضا من أفراد الناس نوائب المدن . . . والمدينة الجاهلية هى التى لم يعرف أهلها السعادة . ولا خطرت ببالهم أن أرشدوا إليها فلم يقيموها ولم يعتقدوها . وإنما عرفوا من الميزات بعض هذه التى هى مظنونة فى الظاهر أنها خيرات من التى تظن أنها هى الغايات فى الحياة ، وهى : سلامة الأبدان واليسار والتمتع باللذات ، وأن يكون (الإنسان) مخلى هواه ، وأن يكون مكرما ومعظما ، فكل واحد فى هذه سعادة عند أهل الجاهلية : والسعادة العظمى الكاملة هى اجتماع هذه كلها . واضدادها هى الشقاء وهى آفات الأبدان والفقر وألا يتمتع باللذات وألا يكون مخلى هواه ، وألا يكون مكرماً » .

ثم يعرف المدينة الفاسقة بأنهـا هى التى تعلم السعادة وتعلم كل ما يعمله أهل المدينة الفاضلة ، ولـكن أفعالها أفعال أهل المدن الجاهلية . أما المدينة المتبدلة ، فهى التى كانت آراؤها وأفعالها آراء المدينة الفاضلة وأفعالها ، غير أنها تبدلت فدخلت فيها آراء أخرى ، واستحالت أفعالها إلى أفعال أخرى . والمدينة الضارة هى التى فسدت آراء أهلها وفعالهم . وكان على رأسها ملك أو ملوك لا يعرفون مناحى الإصلاح ولا يستجيبون للفضيلة فى أعمالهم .

فالفارابى يرى السعادة هى الغاية من نظام المدينة الفاضلة ، ويحدد السعادة بأنها هى

مجموع سلامة الأبدان والتمتع باللذات ، وأن يكون الإنسان مخلى هواه مستكملا وسائل الحرية وأن يكون مكرما معظما .

ولكن السعادة إذا كانت هى مجموعة هذه الأشياء فإننا لا نعدم فى القديم والحديث أناسا قد تمتعوا بصحة الأبدان واللذات والحرية المطلقة ، وكانوا موضع الإكرام والتعظيم فى حين أنهم لم يرتاحوا إلى حالهم وطالما بثوا الشكاوى المرة مما يعانون من آلام .

اقترح يوماً أحد قياصرة الرومان أن تعطى هدية — عينها — للشخص السعيد فى ملكه . فقام وزيره بالبحث عن هذا الشخص ، فاستعرض العظماء والكبراء واحداً واحداً ، واستحضر الأغنياء فرداً فرداً . وكان يسأل كل شخص منهم عن حاله وهل هو سعيد به ، فكان كل واحد يجيب بالسلب . فتركهم إلى غيرهم واستعرض أفراداً أخرين وسألهم نفس السؤال ، فكانوا يجيبون بالسلب أيضا حتى ضاق ذرعه ، وحار فى أمره وخشى أن لا يحقق غرض سيده .

وفى يوم من الأيام كان يسير فى إحدى الدساكر فأبصر فلاحا من الفلاحين قد جلس على الأرض فى مزرعته الصغيرة وأمامه ماشيته ترعى . وهو يترنم بأغانيه الريفية . وتدل حاله على غبطته ورضاه ، فتقدم إليه الوزير ، وقال له : «هل أنت مسرور؟» فأجاب « نعم » فقال له « وهل أنت راض بهذه الحال ؟ » فأجاب « ولماذا لا أرضى بهذه العيشة الرغيدة ؟ » فقال له « وهل أنت سعيد ؟ » فأجاب « بلا شك ، ولماذا لا أكون سعيدا وراضيا ومسرورا ، وهذه مزرعتى وتلك ماشيتى وعندى من المؤونة ما يكفينى ؟ »

عند ذلك دعاه الوزير إلى مقابلة القيصر . . . وكان أن فاز بتلك الهدية العظيمة على الرغم من أسماله البالية ورقة حاله .

فراحة الضمير والرضا بما يكون هو السعادة حقا . أما استكمال الصحة والتمتع باللذة والحرية وما إليها فهى وسائل قد تؤدى إلى السعادة ، وقد لا يخلو استكمالها من شقاء . على أن الفارابى لم يخرج عن أنه كان يريد لمدينته حضارة تعود على أصحابها بالرقى والهناء وتريح أنفسهم من متاعب الحياة .

فلننظر نحن: هل ضمنت لنا الحضارة الراهنة السعادة وراحة الضمير والرضا عن الحياة ؟

إننا إذا استعرضنا نواحى التمدن الحديث وما أفادته من وسائل الرفاهية . وتخيلنا ما سوف يبتكره المستقبل من الوسائل الأخرى التى يزداد بها الترف ، فإننا — قياسا على المشاهدة الراهنة — لا نجد فى الحضارة الحالية جانبا قد استكمل كل شرائط السعادة . بل على العكس ، فإن هذه الحضارة التى ابتدعت الآت الدمار ومعاول الخراب ، سوف تكون نكبة على الأجيال القادمة ، وسوف يشاهد الناس حروبا بين المدن بدل ميادين القتال ، وسوف تجتاح المخترعات العلمية كل ما فى الحياة من سعادة واطمئنان .

وحضارتنا أيضاً — على ما فيها من أسباب الرفاهية — حضارة خطرة ينقصها كثير من عناصر السعادة ، ويخالطها كثير من عوامل الشقاء . وما أجدر هذا العالم أن يتخيل حضارة غير هذه الحضارة ، وأن يحلم بحياة عليا تكون خالية من الشقاء ، مستوفية أسباب الراحة والاطمئنان ، ولكن . . نعم ولكن إذا تخيل العالم أو حلم بتلك الحياة العليا ، فانما يتخيلها ويحلم بها وفق رغائبه وشهواته ، وبقدر ما يمتد إليه تفكيره فى تصوير المثل الأعلى كما فعل الأقدمون ، فانهم تخيلوا وحلموا بالجمهوريات والمدائن والجزائر الفاضلة على هذا القياس ، وقد تحقق إلى حد كبير ما كانوا يتخيلون . ومن يدرى ، فقد يحلم العالم الحاضر مثلهم بحياة خير من هذه الحياة ، وحضارة أحسن من هذه الحضارة ، ومع ذلك فقد يأتى الجيل القادم أو الأجيال المقبلة ، فترى ما كنا نحن نتخيله حياة عليا هو عين الألم الشقاء ؟

طاهر الطناحى

النقاش

يبدؤه الدكتور على عبد الواحد ، فينكر على الأستاذ المحاضر نسبة الشقاء للمدنية قبل أن يحددها لنعلم من أين جاء الشقاء ، وكيف تكون المدنية هى شقاء الإنسان وفيها تتجلى قوته وعزه وعظمته بينما ينسب السعادة إلى الجهل كما تمثل لها بالراعى الزارع فى محاضرته .

ويستدل على استحالة السعادة فى المدنية بتخيل الفلاسفة كافلاطون والفارابى مدنا فاضلة للانسان تتوفر له فيها أسباب السعادات ، وما أدراه أن المدنية فى عهود هؤلاء عارية عن السعادة ؟ ومن يقول إن ما يحدق بالحكيم المتخيل من حياة . هى عارية عن السعادة والرفاه الانسانى ؟ ؟ إن تخيلهم هذا لا يدل على خلو الحياة الحافلة بهم من السعادة ولكن الأنسان مفطور على التطلع إلى ماليس فى امكانه لضرورة التطور فيه ، وهؤلاء قصروا تنبؤهم على الخيال فى اختيار الحياة الفاضلة بينما الواقع لا الخيال هو مصدر هذه الحياة .

ويؤاخذ الدكتور صاحب المحاضرة بقياسه تخيل الفارابى على تخيل افلاطون بينما نجد هذا ماديا فى جمهوريته وذاك روحيا محضا فى تخيلاته ، إذ يعتقد ان السعادة لاتتوفر إلا فى مدن يحكم العالم بها ملاك يتصل بالعقل الفعال مباشرة ،هذا محض خيال لا واقع فيه .

وقد أنكرت على المناقش أن يكون تخيل الفارابى مغايرا للواقع ، لأن محمداً صلى الله عليه وآله جاءنا بالمدنية التى تحقق خيال الفارابى إذ كان حكمه العالم بواسطة ملاك يتصل بالله مباشرة وهو مايعبر عنه بالعقل الفعال .

ثم لماذا لا يكون التخيل ممكنا ؟ أفليس أكثر الحقائق الراهنة خيالات حجرها العلم وكانت من قبل محض خيال ؟ ؟ وإذا كان الإنسان وليد الواقع فكيف يكون مصدراً لغير الواقع .

ويتناول النقاش الأستاذ مفيد الشوباشى فينكر على المحاضر الصلة بين العنوان وبين المحاضرة إذ كان أكثرها قاصرا على أقوال الفلاسفة القدماء فى تخيلاتهم لمدنيات مر بها زمن حالت فيه ، بينما نجد العنوان قاصرا على المدنية الحديثة ، وما صلة هذه المدينة بهاتيك ؟ ؟

ثم يمعن المناقش فى النقمة على من يعتقد أن الشقاء صادر عن المدنية ، وإنما هو منبعث عن ظلم الإنسان للإنسان بالجشع والانانية والأثرة فى الحياة حيث نجد العامل الذى هو مصدر العلم والعمل فيها شقيا ، بينما نجد الثرى الكسول هو السعيد فى غطرسته وجبروته .

فالاشتراكية الصالحة هى مصدر السعادة فى الإنسان لا خيال أفلاطون ولا تخيل الفارابى ، فالسعادة لا يمكن أن تسود البشر إلا عن طريق المساواة بين السيد والمسود فى الحياة .

ويناقشه الدكتور الظواهرى فى أن السعادة أمر نسبى ، فرب رجل يسعد كل السعادة فى عيشه البسيط ، بينما نجد كثيراً من الملوك وذوى البسط فى النعم أعرق الناس فى الشقاء ، ثم إذا حللنا شقاءهم كان مصدره العيش الرغد والنعمة السابغة .

وتعزز الآنسة سلوى الحومانى قول الدكتور الظواهرى بأن السعادة متوفرة فى القرى والدساكر أكثر مما تتوفر فى المدن والحواضر ، وتنكر على السيد الشوباشى أن تكون الاشتراكية مصدراً للسعادة لأن المساواة لا تتوفر تماماً فيها إذ يبقى من هو متميز عن غيره ولو بقليل من الثراء وهذا كثيراً ما يكون مبعثاً للحسد والألم فى الناس وذلك هو عين الشقاء .

على أنها جعلت الراحة التى هى نسخة مصغرة عن السعادة ، شاملة فى الاشتراكية بينما لا أثر لها فى المدنية التى يعيش معها الإنسان بالغ البؤس إلى جنب أخيه الذى هو بالغ النعمة وذلك ما يسلب الراحة فى المجتمع فضلا عن السعادة .

التعليق

ليس للمناقشين الحق فى أن يجحدوا الصلة بين العنوان والمعنون ، لأن المحاضر إنما استطرد إلى تحرى الفلاسفة القدماء سعادة البشر بما تخيلوه من حياة للصلة الوثيقة بين تخيلهم وبين كل مدنية حديثة أو قديمة لأن الإنسان الكامل كان ولا يزال مصدر كل حضارة ، وليس لهم أيضاً حق فى أنه خلط بين أفلاطون والفارابى على اعتبار أن الأول مادى محض والثانى روحى محض لأنه قال : الفارابى يقرب من أفلاطون . ولم يقل كأفلاطون ، وإذا كان قريباً منه فمعنى ذلك أن بينهما حائلا وتغايرا مهما كان ضئيلا ، وذلك الحائل هو فى الروح لا فى المادة ، إذ المفروض أن الوجود مادة وروح لا ثالث لهما .

ذلك ما آخذ به المناقشين على قسوتهم فى نقاش المحاضر وإنكار الوحدة المتماسكة فى رأيه القائم على أن المدنية واقعية ومتخيلة من حكماء البشر لا توفر السعادة أو لم توفرها إلى الآن على الأقل للإنسان الذى ينشدها منذ عصور التاريخ البشرى حتى اليوم .

على أنى آخذ المحاضر بشىء أعمق من هذا ، هو أنه لم يفرق فى السعادة ومصدرها بين المدنية وبين الإنسان الذى هو هذا المصدر ، فلم لا نناقش المحاضر فى أن مصدر الشقاء فى العالم هو الإنسان المتمدين لا المدنية التى هى أثر من آثاره ؟ ؟ فماذا فى المدنية مما يسىء إلى الإنسان لو أحسن الإنسان اتخاذ هذه المدنية وسيلة للحياة لا للموت ؟ ؟

بين أيدينا الآن شاهد على ذلك هو اكتشاف الطاقة الذرية واستعمالها فى تدمير البشرية ، هل كان تدميرها منبثقاً عن ذاتها ، أم عن الإنسان الذى يتخذها آلة للتدمير ؟ ؟ ثم لنتساءل : هل الطاقة الذرية قاصرة فى جوهرها على التدمير ، أم هى أداة تصلح للشر والخير معا ؟ ؟ أفما يعمل معظم العلماء اليوم على تحويلها لنفع الإنسان وخيره فى سائر العلوم ؟ ؟ أو ما قال أحدهم : إن الطاقة الذرية إذا استعملت فى السلم كانت خيراً محضا للبشرية ؟ ؟ إذن فالشقاء الذى يجلبه تدميرها إنما هو صادر عن استعمال الإنسان إياها أداة للتدمير .

وهكذا نستطيع القول فى كل إنتاج علمى للعقل الإنسانى الجبار ، إنه صالح لأن يكون أداة خير وشر وكونه كذلك عائد إلى استعمال الإنسان له ، كاستعماله جوارحه ، التى هى قابلة للخير والشر ، فهل نحكم على أن شقاء الإنسان من يده ولسانه إذا كانا مصدر سوء ، بينما نجد هذا اللسان وتلك اليد خاضعين لإرادته التى هى غير اللسان واليد ؟ ؟

إن المدنية أو الحضارة جميلة بكل ما فيها من علوم وفنون وآداب ، أفما تبهج العين بمظاهرها الحافلة بجمال الألوان ، أو ما تسر النفس بآثارها الحافلة بالمتع واللذائذ ؟ ؟ أفما قربت البعيد وسهلت الصعب وجعلت لكل ناحية من نواحى الحياة سبيلا يتصل بالإنسان دونما جهد أوعناء ؟ ؟ فماذا نطلب من المدنية سعادة أكثر من أن يستطيع الإنسان بها استخدام الآلات الصماء فى كل ما يعينه على البقاء حيا خالدا بروحه وبدنه ؟ ؟

هذا الإسلام الذى هو صلة بين الخلق والخالق ، والذى هو أحد الأديان التى مرت بالإنسان لهديه إلى المدنية ابتغاء السعادة فى الحياة ، أقول : هذا الإســـلام وهذا الآتى به من خالق الإنسان رسالة إلى الإنسان ، ما هو ؟ ؟ أليس فى جوهره وأثره حضارة مابعدها حضارة ، ومدنية تسمو على كل مدنية ؟ ؟ فهل نعده شقاء للانسان أم سعادة ؟

هل الإسلام الذى ندين به يوفر لنا السعادة إذا اعتصمنا به ولجأنا إليه والتمسنا حياتنا فيه ؟ ؟ أم هو شقاء وبؤس لمعتنقه والقائم فيه ؟ ؟

إنا لنرى المسلم الحق سعيداً كل السعيد وهو يتلفع الأسمال ويأكل التراب ، ذلك لأن إسلامه اثبت فى نفسه أن الحياة جهاد شريف وعمل صالح وأن الفوز بالدنيا من وراء هذين نعيم والاخفاق فيها ذخيرة يتبلغها يوم يرد على ربه فى أخراه ، أفليس هذا الإيمان سعادة يحيا بها الإنسان كاملا غير منقوص ؟ ؟

أية سعادة أبقى على الإنسان من ايمانه بأن العمل الصالح يضمن له الخـــلود ويبلغه ما يشاء من طيب الأحدوثة وحسن المصير ، وهل الحيـاة قاصرة على الطعام والشراب وغيرهما من ضروريات الجسد الفانى ؟ ؟ أم هى هذا وأسمى منه ؟ ؟ إذن فلماذا نضحى بهذا كله فى سبيل ما نسميه كرامة وعزا وشرفا وإنسانية ؟ ؟ وأية سعادة تغمر الإنسان بالبهجة والسرور أسمى من غبطته وسروره إذ يسمع الثناء على تضحيته براحته فى سبيل الترفيه عن غيره ، وبطعامه وشرابه ولباسه يوم تصاب الإنسانية فى غيره بالجوع والعطش والعرى ؟ ؟

ثم ما هو هذا العقل الذى يحملك إذ ترى الجائع والعارى على التنازل عن طعامك ولباسك له ، أهو سفاهة أم حـكمة ؟ ؟ وما هو هذا العقل الذى يحملك على إيثار الذكر الجميل والثناء الخالد مع الشقاء ، وعلى الاستخفاف بأطائب العيش ونعيمه إذا كانت هذه طريقك إلى الفناء المظلم الذى يحيلك فى مجاهل التاريخ ؟ ؟

إذن هنالك مدنية وحضارة تضمن السعادة للانسان ، هى مدنيـة الدين وحضارته أيا كان هذا الدين ، وهى مدنية الإيمان بوجود خالق حكيم مدبر أيا كان مصدر هذا الإيمان ، وهنالك مدنية وحضارة تحمل فى ثناياها شقاء الإنسان وعناءه ، هى مدنية الـكفر بالحق والشرك بالله والإيمان بأن الحياة أنانية وجشع وأثرة واسترقاق .

فلنثق بأن الحياة خير وشر لنميز كليهما بوجود الآخر ، وأنها جمال وقبح ليمتاز الضد بضده ، وأنها عدالة وظلم لنميز بين الظلم والعدل ، وأنها سلب وإيجاب لتنشأ بينهما الحركة التي هي مصدر النور ، فإذا وثقنا بذلك وآمنا بضرورته: رأينا الشر جميلا كالخير ،والقبح حسنا كالجمال، والظلم ضروريا كالعدالة، ووثق من شق منا بأن شقاءه حكمة يرى الصبر عليه تضحية يثاب عليها فى دنياه أو فى أخراه ،وذلك منتهى السعادة فى الحياة .

ليثق كل منا بأن ما يصيبه من شر انما هو خيرا صاب غيره ليستقيم العالم فى حركته القائمة على الإيجاب والسلب فيتعزى بالقليل من الفوز فى جانب الكثير من الحرمان فيطمئن إلى أن الحياة سبيل يسلكه الإنسان إلى مقر لاحيلة معه للتفكير فى كنهه إلا أنه إنسان محدود العقل من وراء حواسه القاصرة عن أن تمعن فى ا كتناه ذرة من مقومات الحياة ، ليثق كل منا بهذا يشعر بالسعادة تدب إلى نفسه بالقناعة والرضى وإلى عقله بالراحة والاطمئنان .

من هنا نشأ التصوف بين حكماء العقل البشرى واعتنق مذاهبه كثير من عباقرة الفكر الإنسانى فالتمسوا الغبطة والراحة فى البؤس والشقاء لثقتهم بأن التضحية بنعيم الحياة فى سبيل غيرهم ضرورة فى تقويم الحياة ، وأن التمادى فى طلب الرفاه يشق على البشرية التى إنما كانت للتفكير فى الحياة أكثر من أن تكون للمتعة بها والاستحالة فيها .

فلو نهج المتصوفون آخر الأمر منهج الإمام على بن أبى طالب الذى يدعون أنه مصدر تصوفهم وصاحب المرقعة الأولى التى هى رمز المذهب الصوفى عندهم ، أقول : لو نهج هؤلاء منهجه فى أن التضحية الإنسانية التى هى رمز السعادة البشرية إنما تحمد ممن عمل فأخفق وممن قدر فعفا لا ممن قعد عن العمل ليوفر العمل لغيره ولا ممن التزم الركود والتواكل ليفسح مجال الحركة لسواه زعما منه بأن ذلك تنازل عن الخير للغير .

إن هذا التصوف سبيل معكوسة لاتفضى بسالكها إلى الحياة المثالية وإنما تركسهم إلى الموت الأبدى المذموم فليس التصوف تنازلا عن طلب الخير وإنما هو تنازل عن الخير بعد الشقة والعناء فى طلبه سواء أحرزه طالبه أو أخفق فى احرازه ، هذه هى صوفية الإمام عليه السلام

المحاضرة الثامنة :

حياة المحاضر

عبد الله التل

١ — ولد عام ١٩١٨ فى مدينة اربد مركز لواء الشمال — عجلون — فى شرق الأردن.

٢ — أتم دراسته الثانوية فى مدينة السلط ثم التحق فى خدمة الحكومة عام ١٩٣٧ .



٣ — التحق فى خدمة الجيش العربى سنة ١٩٤٢ برتبة ملازم ثان . وتدرج بالرتب العسكرية وأتم الدورات العسكرية مع الجيش البريطانى فى القنال وفلسطين .

٤ — وفى الاضطرابات التى وقعت فى فلسطين بعد قرار التقسيم وفى زمن الانتداب اشترك مع المجاهدين الفلسطينيين فى عدة معارك كان من أهمها معركة كفار عصيون التى استولى فيها على مجموعة مستعمرات كفار عصيون وأخذ منها مئات الأسرى .

٥ — وفى الحرب الفلسطينية التى بدأت فى ١٥ مايو عام ١٩٤٨ كان يقود الكتيبة السادسة التى قدر لها أن تحمى القدس العربية من الخطر الصهيونى ، واستولى فى معركة القدس على الحى اليهودى فى المدينة القديمة وأخذ مئات الأسرى ودمر الحى بما فيه

من مقدسات يهودية. وقد رقاه الملك عبدالله عدة مرات استثناء ومن غير موافقة جلوب القائد البريطانى . وآخر رتبة وصل إليها حاكم منطقة القدس بدرجة زعيم (أميرالاى) .

٦ — اختلف منذ اليوم الأول للحرب الفلسطينية مع الجنرال جلوب ، ولما كان جلوب يمثل عشرة ملايين جنيه تصرفها بريطانيا للأردن فقد كان أقوى من عبدالله التل واستطاع أن يحول دون عبد الله التل وتحقيق أهدافه البعيدة . . .

٧ — هاجر إلى مصر فى أواخر عام ١٩٤٩ ، وحينما اغتيل المغفور له الملك عبد الله فى يوليو عام ١٩٥١ ، أثبتت التحقيقات التى أجراها ضباط جلوب أن عبد الله التل كان المدبر للمؤامرة ، وحكمت عليه المحكمة التى شكلت من ضباط جلوب كذلك بالاعدام .

٨ — يعيش اليوم فى مصر لاجئاً سياسياً ، وأمنيته أن تتاح له الفرصة فى المستقبل للاستشهاد فى سبيل الدفاع عن القدس خاصة وعن أية بقعة فى العالم العربى عامة .

شخصيته

صمته أكثر من قوله،وهو دائم التفكير ، كثير الحياء ، كريم النفس ، وادعها ، رقيق الطبع ، دمث الأخلاق ، سخى اليد لا يعرف للمال قيمة حتى كأن الشاعر ينظر إليه إذ يقول :

لا يعرف الدرهم المضروب صرتنا ... لكن يمر عليها وهو منطلق

لا يرى غير التضحية بكل ما يملك طريقا إلى الحياة ، ومن عرف مبلغ حنانه ورأفته بأهله وولده عرف مبلغ الإنسانية التى أعرقت فيه فهو أبداً يفتش عن مواطن هذه الإنسانية لينفق فى سبيلها ماله ووقته ودمه ، كل ذلك مضاف إلى ذكائه ونبله وإباء نفسه .

المحاضرة الثامنة

مشكلة فلسطين

القاها على اخوانه فى منزله ٣/٥٥

أيها الأخوان :

كان حظى من الموضوعات والمشكلات التى يبحثها أعضاء الندوة الأدبية عسكرياً ، إذ أننى لست أديباً ولا شاعرا لأقدم إلى حضراتكم بحثاً عن إحدى المشكلات الأدبية فى العالم العربى . وقد طلبتم أن أتحدث إليكم لا عن مشكلة عادية ، بل عن مشكلة المشكلات ، ألا وهى كارثة فلسطين . والحقيقة أننى لا أعتبر موضوعى هذا خارجاً عن نطاق ما يدور فى الندوة الأدبية ، إنما أعتبره موضوعاً أساسياً ، يجب أن تسخر الأمة العربية أدباءها وشعراءها وقادة الفكر فيها للتوفر على دراسته وتقديمه إلى الجيل الحاضر والأجيال المقبلة ، فى إطار يحفظ عليه حيويته ، فلا تتسرب إليه عوامل النسيان والإهمال . وكارثة فلسطين كما تعلمون سببت للأمة العربية عاراً أبديا وذلا لم يسلم منهما كبير أو صغير ، عالم أو جاهل ، غنى أو فقير . وسيظل هذا الذل وذلك العار يسربلان الأمة العربية ، إلى أن يأتى اليوم الذى تغسل فيه الأمة عارها بالسيف ، بعد أن يكون أدباؤها وشعراؤها من أمثالكم قد بصروها بحقيقة الكارثة ، وأذكوا فيها روح الثأر والإقدام والتضحية .

وكارثة فلسطين — كما تعلمون — مشكلة واسعة متعددة الجوانب يحتاج المرء ليوفيها حقها إلى كتابة مجلدات عديدة . ولذا فإنى سأوجز لكم فى كلمتى هذه أهم الأدوار والمراحل التى مرت بها مشكلة فلسطين منذ الحرب العالمية الأولى حتى نهاية الحرب الفلسطينية سنة ١٩٤٩ . وسأقسم حديثى إلى قسمين الأول : وهو أهم ما وقع بين الحرب العالمية الأولى وقرار التقسيم فى الأمم المتحدة سنة ١٩٤٧ . والثانى : وهو أهم ما وقع بعد قرار التقسيم وفى أثناء الحرب الفلسطينية .

وحديثي هذا مقدمة عامة ، أرجو أن تتاح لى أو لأحدكم فرصة تقديم الأحاديث المفصلة عن بعض أجزائها بحيث تؤخذ ما فى هذه المشكلات العامة من مشكلات فرعية وتدرس دراسة استيعاب وتعمق .

القسم الأول — ١٩١٤ — ١٩٤٩:

١ — فى أثناء الحرب العالمية الأولى اتفقت بريطانيا وفرنسا سراً على اقتسام البلاد العربية . وتعرف تلك الاتفاقية السرية بمعاهدة سابكس — بيكو التى وقعت فى مايو ١٩١٦. وقد اقتسمت الدولتان المستعمرتان بموجبها البلاد العربية التى كانت خاضعة للحكم التركى . فاختصت بريطانيا بالعراق وشرق الأردن وفلسطين ، واختصت فرنسا بسوريا ولبنان . وهكذا ظهر إلى عالم الوجود دويلات سماها الإنجليز والفرنسيون ، شرق الأردن ، لبنان ، فلسطين. ولم تكن هذه الدويلات سوى مديريات أو متصرفيات تابعة لولاية الشام .

٢ — وقبل نهاية الحرب العالمية الأولى ظهرت نوايا الاستعمار سافرة ، فأصدر وزير خارجية بريطانيا — بلفور — وعده المعروف باسمه وذلك فى الثانى من نوفمبر ١٩١٧ ، والذى وعد فيه اليهود بالسماح لهم بإنشاء وطن قومى فى فلسطين . وقد فعل الإنجليز ذلك وسارعوا إلى تحقيق أهداف الصهيونية متأثرين بالنفوذ اليهودى المتغلغل فى بريطانيا وأمريكا وأوربا كلها . والغريب أن الحكومة البريطانية قد وعدت اليهود بفلسطين فى الوقت الذى كانت تفاوض فيه الشريف حسين وتبذل له الوعود الكثيرة التى تتلخص فى استقلال البلاد العربية فى دولة واحدة ثمناً لثورة العرب واشتراكهم فى الحرب ضد الأتراك .

٣ — وفى ٢٥ أبريل ١٩٢٠ عهدت عصبة الأمم لبريطانيا بالانتداب على فلسطين ، وكان هذا التكليف بناء على المساعى الكثيرة التى بذلها يهود أمريكا وبريطانيا ، وكان هدفهم من وراء ذلك إعطاء بريطانيا — وهى صاحبة وعد بلفور — الفرصة لتنفيذ وعدها . وسارعت بريطانيا الدولة المنتدبة إلى تحقيق رجاء زعيم الصهيونية ، وايزمن ، فعينت ، هربرت صموئيل ، اليهودى الصهيونى أول مندوب سام على فلسطين. وجاء صموئيل إلى فلسطين فى يوليو ١٩٢٠ وشرع من فوره فى وضع البلاد فى ظروف إدارية وسياسية

واقتصادية من شأنها أن تساعد على إنشاء الوطن القومى اليهودى فى فلسطين ، تماماً كما ورد فى صك الانتداب الذى وضع بنوده اليهود أنفسهم . فسن القوانين الجائرة التى تضيق الخناق على العرب ، وتفسح المجال لتوسع اليهود على حساب العرب أصحاب البلاد . وسمح بتدفق المهاجرين اليهود من أبناء جنسه ، فتدفق شذاذ الآفاق على الديار المقدسة فى حماية العلم البريطانى . وسن قوانين الأراضى التى سهلت انتقال الأراضى العربية إلى اليهود ، وزاد الضرائب حتى أرهق الفلاح العربى ، وسمح لرؤوس الأموال اليهودية بدخول البلاد ، فبنى اليهود فيها مصانع عديدة أنعشتهم ، فسيطروا بواسطتها على اقتصاديات البلاد .

٤ — سمح المندوب السامى للوكالة اليهودية أن تكون حكومة داخل حكومة الانتداب ، ولم يسمح بإنشاء وكالة عربية مماثلة . وأقطع المؤسسات اليهودية مساحات شاسعة من أرض الدولة — ميرى — بنى عليها اليهود المستعمرات فى طول البلاد وعرضها . ومنح اليهود امتيازات لمشروعات خطيرة ، هى امتياز تجفيف بحيرة الحولة ، وامتياز روتنبرغ للكهرباء ، وامتياز استثمار أملاح البحر الميت . فكانت هذه المشروعات الدعائم الأولى التى بنيت عليها دولة الطغيان — إسرائيل —

٥ — سهل المندوب السامى لبنى قومه شراء السلاح والتدرب عليه ، وسلمهم السلاح الحكومى بحجة المحافظة على مستعمراتهم ، فكان عمله هذا نقطة تحول فى حياة اليهود الأذلاء الضعفاء ، فأقبلوا بنهم على تلمس أسباب القوة التى هيأها لهم المندوب السامى ، وصاروا — لأول مرة منذ ألف سنة من تاريخهم فى فلسطين — يجرأون على رفع رؤوسهم أمام العربى وبالتالى إشهار السلاح فى وجهه .

٦ — ومنذ أن علم الشعب العربى الفلسطينى بوضع البلاد تحت الانتداب ، وإيفاد هربرت صموئيل مندوباً ساميا على فلسطين ، أخذ يتنبه ويتأهب لمواجهة هذا الخطر الداهم . وراح منذ سنة ١٩٢٠ يعبر عن سخطه ومعارضته للمصير الذى يدبره له الاستعمار بشتى الوسائل : فتارة بالاحتجاج والمظاهرات والاضطرابات ، وتارة أخرى بالثورات المسلحة . واضطهدت سلطات الانتداب أحرار البلاد وشردتهم وأعدمت ألوف المجاهدين ،

وحاربت الحركات التحريرية التى قام بها أبناء فلسطين مطالبين بحقوقهم ومدافعين عن أنفسهم ووطنهم . وأهم هذه الثورات ما وقع فى سنة ٩٢٩ وسنة ٩٣٦ ، و ٩٣٧ — ٩٣٨. وفى هذه الثورات التحريرية أسفر الاستعمار عن نواياه الغادرة وساعد الصهيونية وحماها بسلاحه وماله ، وفتك بالعرب أصحاب الحق بعد أن جردهم من السلاح ، ولكنه عجز عن تجريدهم من إيمانهم . ولا شك بأنكم تذكرون ثورة ١٩٣٦ والإضراب العام الذى دام ستة أشهر كاملة ، ولعله أعظم إضراب فى التاريخ أظهر قوة الشعب الفلسطينى ومقدرته على تحمل المتاعب والشدائد ؛ وفى تلك الثورة انتصر المجاهدون العرب على جيوش بريطانيا بقيادة الجنرال دل ، وأقضت الثورة مضاجع الإمبراطورية ، ولم يخلصها من تلك الورطة إلا عملاؤها من زعماء العرب وملوكهم الذين تدخلوا كوسطاء وطلبوا إلى الشعب الفلسطينى أن يخلد إلى السكينة انتظاراً للمفاوضات فى لندن . وفى تلك الثورة وما سبقها من ثورات ، أظهر الفلسطينيون بطولة وصبرا على الشدائد ، وأظهر الإنجليز كل نذالة وخسة ووحشية ، فقد كانوا يعذبون المجاهدين ويقتلونهم بمجرد أن يجدوا خرطوشة فارغة لديهم ، وكانوا يعذبون النساء والشيوخ ويقرون بطون الحبالى ويقطعون ثديهن . وكانوا ينسفون البيوت العربية والقرى الآمنة إذا لجأ إليها أحد المجاهدين ، وفى نفس الوقت كانوا يوزعون الأسلحة والذخائر على اليهود ويدربونهم لتشتد سواعدهم استعداداً ليوم معلوم .

٧ — وفى الناحية السياسية لم تأل الحكومة البريطانية جهداً فى اتباع سياسة المخادعة والتخدير والتضليل ، فقد كانت كلما اضطربت الأوضاع فى فلسطين وكاد زمام الأمر يفلت من يدها ، تسارع إلى إيفاد لجان للتحقيق . وكأن الأمر كان غامضاً يحتاج إلى تحقيق . ومن أهم تلك اللجان لجنة شو ولجنة بل . وكان من نتيجة أعمال تلك اللجان وتقاريرها أن قررت الحكومة البريطانية تقسيم فلسطين إلى دولتين عربية ويهودية . وبذلك تكون قد نقلت ما أسمته بالوطن القومى إلى دولة يهودية . وفى عام ١٩٣٩ أصدرت بريطانيا الكتاب الأبيض وفيه حددت الهجرة بـ ٧٥ ألف مهاجر يدخلون فى مدى خمس سنين ، ومنعت انتقال الأراضى إلى اليهود فى مناطق كثيرة . إلا أن النفوذ الصهيونى

استطاع إيقاف تنفيـــذ ما جاء فى الـكتاب الأبيض محققاً لوجهة النظر العربية ، مثل انتقال الأراضى . . .

وهنا يقتضى الواجب أيها السادة ، أن أسجل أن عرب فلسطين قد احتفظوا بأرض آبائهم وأجدادهم ودافعوا عنها رغم كل الظروف السيئة التى أحاطهم بها المستعمر .

ولتتأكدوا من أن عرب فلسطين لم يفرطوا فى أرضهم المقدسة فانى أذكر إليكم الإحصائية الرسمية لأرض فلسطين عند نهاية الانتداب :

لم يكن فى حوزة اليهود عند نهاية الإنتداب سنة ١٩٤٨ إلا ٥ر٧٪ من مجموع أراضى فلسطين ، أى مليونين دونم من ٢٦ مليون دونم . وحتى هـذه النسبة البسيطة فإنها لم تصل إليهم من العرب بل إن ٧٠٪ منها قد وصل إليهم بطرق شتى هى كما يلى :

٦٥٠	ألف دونم استولى عليها اليهود فى عهد الحـكومة العثمانية .
٣٠٠	« « منحتها حكومة الإنتداب للوكالة اليهودية بدون مقابل .
٢٠٠	« « « « « « « مقابل أجرة اسمية .
١٢٥	« « اشتراها اليهود من ابى على سلام اللبنانى (امتياز الحولة) .
٤٠٠	« « « « اسرة سرسق اللبنانية (مرج بن عامر) .
٠٢٢	« « « « « « « « (وادى الحوارث) .
١ر٦٩٧	مليون وستمائة وسبعة وتسعين ألفاً من الدونمات .

هكذا استولى اليهود على الأرض التى كانت فى حوزتهم ، وأن حركة البيع الفردية التى كانت تجرى فى الخفاء من قبل العرب لم يكن لهـا التأثير الفعال فى مصير فلسطين . وأنه لما يشرف عرب فلسطين أن تعلموا بأن أغلب السماسرة الذين ساعدوا على بيـع الأرض العربية إلى اليهود قد لاقوا حتفهم على أيدى محاكم الثـورة التى كانت موجودة فى البلاد .

٨ — ثم نشبت الحرب العالمية الثـانية ، فلم يشأ عرب فلسين أن يطعنوا بريطانيا من الخلف بل أخلدوا إلى السكينة وتطوع الـكثيرون منهم فى الجيش البريطانى ، وتفرق الثـوار المجاهدون على أمل أن تقدر بريطانيا صنيعهم وتعطى البلاد حقوقها المغصوبة .

وفى أثناء تلك الحرب سلمت بريطانيا أكداس الأسلحة والذخائر إلى يهود فلسطين ، ودربت عشرات الألوف منهم وأشركتهم مع جيوشها . وبعد انتهاء الحرب انقلب هؤلاء اليهود على سادتهم الذين دربوهم وسلحوهم ، وأخذوا يفتكون بجنود بريطانيا ويجلدون الضباط الإنجليز ويعلقونهم على أعواد الشجر ، وينهبون المعسكرات والمستودعات ؛ ولم تحرك الحكومة البريطانية ساكناً ولم تفكر فى يوم من الأيام فى الإنتقام كما كانت تفعل مع العرب الذين كانوا يقتلون أو يجرحون بريطانياً واحداً . وتظاهرت بريطانيا بعد الحرب أنها عاجزة عن حل مشكلة فلسطين ، فأشركت معها أمريكا ، وأمريكا كما تعلمون ، مسيرة برأس المال اليهودى الذى يمكن للصهيونية العالمية من أن تطغى على كل شىء فى أمريكا. وأرسلت الدولتان لجنة تحقيق مشتركة إلى فلسطين فى نوفمبر ١٩٤٥ ، وعادت اللجنة من فلسطين لتذيع على العالم تأييدها للطلب الذى قدمه ترومان إلى الحكومة البريطانية بأن تسمح بإدخال ١٠٠ ألف يهودى إلى فلسطين حالا. ثم أمعنت بريطانيا فى تضليلها وخداعها وقررت إحالة قضية فلسطين إلى الأمم المتحدة التى أوفدت لجنة تحقيق جديدة إلى فلسطين . وحينما رفعت هذه اللجنة قرارها القاضى بتقسيم فلسطين إلى الأمم المتحدة ، عملت كل من بريطانيا وأمريكا ما فى وسعهما من حيل وضغط حتى نال مشروع قرار التقسيم الأغلبية اللازمة ، وكان ذلك فى ٢٩ نوفمبر ١٩٤٧ .

وبريطانيا هذه التى ادعت أنها عاجزة عن حل المشكلة هى التى عملت على رفع عدد سكان اليهود فى فلسطين من ٥٠ ألفا حينما فرض الإنتداب سنة ١٩٢٠ إلى ٦٥٠ ألفا سنة ١٩٤٧ وهى التى جعلت من يهود فلسطين ، وهم أحقر أهل الأرض ، فرساناً يحاربون العرب ويعتدون على أعراضهم وأموالهم وأرواحهم .

القسم الثانى : أهم ما وقع بعد قرار التقسيم وفى أثناء الحرب الفلسطينية :

بعد أن أخذت المؤامرة العالمية ضد فلسطين شكلا مكشوفا خطيرا متمثلا فى قرار التقسيم وخلق دولة يهودية فى فلسطين ، بدأ كفاح عرب فلسطين عمليا لإحباط هذه المؤامرة . وهنا — كما كان فى جميع مراحل الكفاح — اتحدت سلطات الاستعمار

مع اليهود ضد عرب فلسطين الذين أخذوا يواجهون الأمور بشجاعة وصبر ، باذلين كل مرتخص وغال فى سبيل الذود عن حياضهم . وفى الفترة التى أعقبت قرار التقسيم قام عرب فلسطين بأعمال خالدة أذلت اليهود وسادتهم الإنجليز ، لدرجة أنها جعلت أمريكا وبريطانيا تعدلان عن مشروع التقسيم . وكان من أهم المعارك التى خاضها عرب فلسطين ، الفقراء فى السلاح والمعدات ، بالنسبة لما كان مع قوات الاحتلال ومع اليهود ، هى معارك الطرق التى شلت حركة اليهود فى فلسطين وغدوا أثناءها لا ينتقلون من مكان إلى آخر إلا بقوافل مسلحة تحرسها القوات البريطانية . وكثيرا ما فتك المجاهدون العرب بتلك القوافل وأبادوها ، فدب الذعر فى قلوب اليهود وسادتهم الإنجليز ، فلجأوا إلى حرب المتفجرات وشنوها ضد المدن والسكان الآمنين ، فرد عليهم المجاهدون الفلسطينيون ، بقيادة البطل المرحوم عبد القادر الحسينى ، بنفس السلاح ، ونسفوا أهم شوارع القدس اليهودية ومقر الوكاله اليهودية . وحينما أيقنت بريطانيا أن الدولة اليهودية لن تقوم لها قائمة ، إذا سارت الأمور فى فلسطين بشكلها آنئذ ، وما انطوى عليه من تصميم عرب فلسطين على الحيلولة دون خلق هذه الدولة ، عمدوا إلى خطة جديدة ضمنوا بنتيجتها خلق دولة إسرائيل وتوطيد أركانها . وكانت تلك الخطة تتلخص : فى إقصاء عرب فلسطين عن ميدان المعركة وتسليم القضية إلى الحكومات العربية التى كانت متأثرة بالنفوذ الاستعمارى . وتظاهرت بريطانيا بأنها ستسحب يدها من القضية ، وأعلنت أنها ستجلو عن فلسطين فى الخامس عشر من مايو ١٩٤٨ . وبنفس الوقت أوعزت لعبيدها من الحكام العرب بإرسال الجيوش العربية إلى فلسطين للوقوف على الحدود العربية المقررة فى مشروع التقسيم ، تمهيدا لضم المناطق العربية إلى شرق الأردن . وانساق الحكام جميعهم فى هذا التيار ، وخدع بعضهم بعضا ، وظهروا جميعا أمام الأمة العربية كمنقذين فاتحين ، مع أنهم لم يكونوا سوى دجالين مضللين ، منفذين لرغبة الاستعمار فى تمكين الصهيونية العالمية من قلب العالم العربى .

وحينما أعلنت الجامعة العربية رد الحكومات العربية أنها سترسل جيوشها لإنقاذ فلسطين وحماية عرب فلسطين ، نزل هذا النبأ على قلوب العرب كافة بردا وسلاما ،

وشعرت الأمة بالعزة والحمية تسرى فى أوصالها لأنها وجدت فى هذه الخطوة المقبلة إحياء لعزها ، وبعثاً لمجدها العسكرى الذى عفى عليه الزمن بعد طول انتكاس ، ونتيجة لقرون عديدة من الذل والعبودية لم تذق الأمة خلالها طعما للمجد العسكرى الذى يبعث العزة والإباء والأنفة والكرامة فى نفوس الأمم . نعم لقد طربت الشعوب العربية لنبأ الزحف على فلسطين ، وشعر كل عربى بالقوة لأن له جيوشا تحمى الديار وتمحو العار ، تؤمن الحرية وتصونها بعد أن حرم من هذا كله زمنا طويلا إلا فى مناسبتين ، الأولى : يوم ميسلون . والثانية : الثورة العراقية . وفى كلتيهما تآمر الغرب على فشل القوات العربية ليحرمنا تذوق طعم النصر المنبعث عن قوة العرب من سلالة أولئك الذين أذلوا الغرب وقهروه .

الحرب :

لا أستطيع أن أشرح المعارك التى دارت بالتفصيل ، وإنما سأكتفى بسرد موجز لأهم ما وقع أثناء الحرب التى بدأت بالفعل فى الخامس عشر من مايو ١٩٤٨ ، يوم انسحب آخر جندى بريطانى من فلسطين ما عدا حيفا .

كانت قوة الجيوش العربية على وجه التقريب كما يلى :

الجيش العراقى	ثلاث فرق	٣٠	ألف جندى
« المصرى	فرقتان	١٥	« «
« العربى	فرقة ناقصة	٧	آلاف جندى
« السورى	« «	٥	« «
« اللبنانى	لواء	٣	« «
جيش الإنقاذ	«	٣	« «
		٦٣	ألف جندى تحت السلاح .

وكانت هذه الجيوش عريقة ، مضى على تكوين بعضها أكثر من عشر سنين ، ومزودة بالطائرات والدبابات الثقيلة والمدرعات والمدفعية من مختلف الأنواع . يقابل

هذا عند اليهود نحو خمسة آلاف من جنود الدفاع (الهاجناه) بأسلحتهم الخفيفة وعدد كبير من سكان المستعمرات المدربين على استعمال السلاح للدفاع عن أنفسهم فقط . ولم يكن لدى اليهود طائرات حربية بالمرة ، ولا مدافع ميدان ، ولا دبابات ثقيلة . ولم يكن لديهم جيش بالمعنى الصحيح ، لأن الجيوش لا تبنى فى يوم وليلة .

وبعد منتصف ليلة ١٥ أيار أرسل العراق لواء واحدا إلى فلسطين لم يزد عدده على ألفين . وكانت المنطقة المعينة له هى جسر المجامع وبيسان ، وأرسل الجيش المصرى لواء واحدا ، لم يزد عدده على ثلاثة آلاف ، عينت له منطقة جنوب فلسطين . وأرسلت سوريا جيشها بأكمله وعدده حوالى خمسة آلاف ، وعينت له منطقة صفد وبحيرة طبريا وسمخ . وعهد إليه حماية جزء من الحدود اللبنانية بالاشتراك مع جيش الإنقاذ . وأرسل الأردن جميع كتائب الجيش العربى ، وعينت لها المنطقة الوسطى من فلسطين . وأرسلت المملكة العربية السعودية نحو ألف جندى اشتركوا مع القوات المصرية فى جنوب فلسطين . وأذكر أن الخطة العامة الظاهرة : كانت أن يلتقى العراقيون والسوريون واللبنانيون وقوات الإنقاذ فى حيفا ، وأن يلتقى المصريون والأردنيون فى تل أبيب .

وحاربت القوات العربية حرباً عجيبة ، لا قائد لها ولا خطة ، كل يغنى على ليلاه ، والقيادة الرمزية التى عهد بها للمغفور له الملك عبد الله لم تثبت وجودها ، لأن الذين عقدوا لواءها له ، لم يثقوا به ، بسبب وجود الجنرال جلوب على رأس قواته ، وكان الأجدر بهم أن لا يحملوا الملك عبد الله مالا طاقة له به .

وحارب السوريون فى قطاعهم بشجاعة نادرة ، واحتلوا عدة مواقع يهودية أهمها مدينة سمخ ، وصادفوا فى طريقهم استحكامات منيعة ، هى خط إيدن الغربى بناه الإنجليز فى الحرب الثانية . ودافع اللبنانيون عن حدودهم ، واحتل المصريون مع القوة السعودية مناطق واسعة فى جنوب فلسطين ، واستولوا على مستعمرتين كبيرتين ، وعزلوا عدة مستعمرات يهودية فى النقب ، ولم يحارب العراقيون فى قطاعهم ، بل انسحبوا منه إلى قطاع المثلث العربى — نابلس — جنين — طول كرم ، بحجة أن قطاع بيسان

كان حصيناً ولا يمكن التقدم فيه . والحقيقة هى أن قطاع بيسان كان مخصصاً لليهود فى مشروع التقسيم ، بينما كان قطاع نابلس من نصيب العرب .

أما الجيش العربى ، فإننى سأشرح بشىء من التفصيل أهم ما قام به ، وذلك لأننى كنت أحد ضباطه ، ويؤلمنى أن أتحدث عن نفسى وأقول بأن الله قد شرفنى وقدر لى بأن أقوم بالدور الهام ، لا فى منطقة الجيش العربى فحسب ، بل وفى الحرب الفلسطينية كلها ، كما سترون الآن :

لم يكن الجنرال جلوب إلا منفذاً لسياسة حكومته فى لندن ، تلك السياسة التى كانت تقضى بوجوب وقوف القوات العربية مع حدود التقسيم فى فلسطين ، ولذلك فقد أرسل كتائب الجيش العربى فرابطت فى قطاع رام الله على حدود العرب المقررة فى مشروع التقسيم .

وكنت أقود الكتيبة السادسة ، فأمرنى جلوب أن أعسكر فى أريحا بوادى الأردن لأحول دون نزول اليهود من القدس إلى أريحا ، كيلا يقطعوا خط الرجعة على القوات الأخرى المرابطة فى منطقة رام الله . ولم يكن فى خطة جلوب أن يرسل جندياً واحداً إلى القدس ، بحجة أنها كانت غير داخلة فى خطة الجامعة العربية لإنقاذ فلسطين ، على اعتبار أنها منطقة دولية تشرف عليها هيئة قناصل الدول التى اعترفت بها الجامعة العربية وقبلت معها الهدنة فى القدس ، قبل خروج الإنجليز منها . ولكن اليهود فى القدس لم يراعوا الهدنة ، بل انقضوا على المناطق العربية فى المدينة . وقاومهم جنود الجهاد المقدس والمناضلون الفلسطينيون ، بقيادة أحمد حلمى باشا وسرية من جيش الإنقاذ ، قاوموا حتى الرمق الأخير . واستغاث سكان المدينة بالملك عبد الله ، وشرحت لجلالته الموقف هاتفياً ، فأمرنى أن أتحرك لإنقاذ الموقف فى القدس ، والحيلولة دون سقوط المدينة القديمة بأيدى اليهود . فتحركت فى مساء ١٧ مايو ١٩٤٨ ، بدون أمر جلوب ، ووزعت سرايا الكتيبة على المواقع المهددة فى المدينة ، وساعدنى فى ذلك القوات العربية التى سبق ذكرها . فأمنا الدفاع عن المدينة المقدسة ، وأحكمنا الطوق على القطاع اليهودى فى المدينة القديمة ، وفيه نحو ألفين من اليهود المدنيين ، و ٢٠٠ من المحاربين

الفدائيين من عصابات الأرغون وشتيرن والهاجناه . وفى خلال عشرة أيام أبعدنا الخطر عن المدينة القديمة ، وجعلنا ١٠٠ ألف يهودى محاصرين فى المدينة الجديدة تحت رحمة القدر بعد أن ضيقنا عليهم الحصار ، بمساعدة القوات المصرية المرابطة فى بيت لحم جنوب القدس . وفى ٢٨ مايو ١٩٤٨ ، أى بعد عشرة أيام على وصول الكتيبة إلى القدس ، تم الاستيلاء على القطاع اليهودى فى القدس القديمة ، واستسلم اليهود بأسلحتهم ، فأخذنا منهم ثلاثمائة وخمسين أسيراً محاربا ، وسلمنا بقية السكان إلى الصليب الأحمر الدولى ، الذى نقلهم إلى القسم اليهودى فى المدينة الجديدة . ودمرنا الحى بأكمله ، بما فيه من مقدسات كانت قد دمرت أثناء المعركة ، ومن جملتها أكبر وأقدم كنيس يهودى فى العالم — قدس الأقداس — هورفا — .

وكان يوما مشهودا ، تذوقنا فيه طعم النصر ، وحلاوة الانتقام الشريف . ويحزننى أن أقرر حقيقة مرة وهى : أن معركة القدس هذه ، كانت المعركة الوحيدة التى رفعت من معنويات العرب ، وكسبت لهم مجـــدا لم ينقص من قيمته الفشل الذى لازم بقية الجبهات . وكانت تلك المعركة سببا فى المحافظة على عروبة القدس ، بما فيها من مقدسات إسلامية ومسيحية خالدة . وسببا فى بقاء بقية أجزاء فلسطين : نابلس — الخليل — بأيدى العرب حتى يومنا هذا ، ذلك لأن القدس تعتبر الدعامة التى يرتكز عليها طرفا الجبهة العربية فى لوائى نابلس والخليل ، وإذا انهارت هذه الدعامة — لا سمح الله — انهارت معها جبهة فلسطين بأسرها .

هذا ما وقع من كتيبة واحدة يقودها ضابط عربى ، أما بقية الكتائب فقد لزمت خطة الدفاع التى وضعها جلوب ، الدفاع عما بأيديها من مناطق عربية خالصة ، ولم تحاول أن تستخلص أى شبر من الأرض التى كانت بأيدى اليهود ، مع أنه كان فى مقدورها ، لو أخلص قادتها الإنجليز ، أن تحقق للعرب نصراً حاسما فى فلسطين ، ولا سيما أن هذه الكتائب لم تكن غريبة عن فلسطين ، بل كان لها الإلمام التام بجغرافية البلاد وأحوالها وأوضاعها ، وكانت محط الرجاء والأمل المرجو فى إنقاذ فلسطين ؛ ولم يكن عرب فلسطين يأملون فى أن يأتى الإنقاذ عن طريق مصر أو سوريا ، لأن الدعاية المضللة ،

ووجود الجيش العربى مع الجيش البريطانى فى فلسطين أيام الانتداب ، واختلاطه الدائم بالشعب الفلسطينى ، كل ذلك صور للفلسطينيين الأبرياء أن الخير لن يأتيهم إلا عن طريق الجيش العربى .

هذه لمحة موجزة عما قامت به القوات العربية فى مختلف الجبهات ، ورغم أن هذا الذى قامت به — إذا استثنينا القدس — كان بسيطاً قليلا ، إلا أنه كان شديد الأثر بالنسبة لليهود ، الذين أحسوا بأن دولتهم الوليدة أصبحت فى خطر إذا استمرت المعركة . وأدرك اليهود أن قلبهم النابض الذى تتركز فيه آمالهم وأحلامهم ، وأعنى به — القدس — أدركوا أنه أصبح فى خطر محقق ، فأوعزوا إلى عملائهم من الحكام الإنجليز والأمريكان ، ليضغطوا على الحكومات العربية ، ويرغموها على قبول الهدنة . ووقع الضغط فعلا ، وأذعنت الحكومات العربية المجرمة له ، وقبلت الهدنة الأولى فى ١١ يونيو ١٩٤٨ .

المعركة الثانية ٩ يوليو — ١٧ يوليو ١٩٤٨ :

وفى أثناء الهدنة التى دامت أربعة أسابيع ، استعد اليهود فى مختلف الميادين ، فاستوردوا السلاح من جميع أنحاء الدنيا ، ودربوا عدداً كبيرا من أبنائهم ، ونظموا صفوفهم فى تشكيلات عسكرية نظامية ، بعد أن كانوا يقاتلون فى مجموعات متطوعة وفدائية . وثبتوا مراكزهم وحصنوها . ونام العرب وصحوا على نهاية أيام الهدنة ، فلم يشتروا السلاح ، بحجة أن الدول لم تبعهم السلاح . ولم يغيروا من خططهم ويتعظوا بأخطاء الماضى ، ولم يوحدوا الصفوف تحت قيادة حربية واحدة ، ولم يفاتح بعضهم بعضا بحقيقة نواياهم ، بل ضللوا وخادعوا ، وأعلنوا أنهم لن يقبلوا تحديد الهدنة الأولى ، وفى نفس الوقت ظلوا على وضعهم السابق كما قلت .

وحينما أيقن الإنجليز بأن الحكومات العربية التى تصغى لضغطهم فى هذه المرة — لا عن وطنية وإخلاص ، بل لتخدير الشعوب العربية الثائرة — أوعزوا إلى أضعف نقطة فى الكيان العربى ، وهى الحكومة الأردنية ، أوعزوا إلى ممثلها فى هذه الحكومة ، الجنرال جلوب ، بأن يوجه بالاتفاق مع اليهود ، ضربة قاتلة تعيد العرب إلى رشدهم ، وترغمهم على قبول الهدنة الدائمة .

فاختار جلوب منطقة اللد والرملة ، وقبل انتهاء الهدنة الأولى بيومين ، سحب من تلك المنطقة الكتيبة الأولى التى كانت تدافع عنها ، ونقلها إلى منطقة طوباس فى لواء نابلس . وبعد يومين على سحبها انتهت الهدنة ، فتقدم اليهود وتسلموا المنطقة من السرية الأردنية التى انسحبت تحت جنح الظلام . وأقول تسلموها ، لأنه لم تجر أية معركة فى هذه المنطقة ، إلا ما قام به المناضلون الفلسطينيون من مناوشات بسيطة ! واحتل اليهود المدينتين العربيتين وقراهما . وجمع اليهود سكان المنطقة الذين زاد عددهم على ١٠٠ ألف نسمة ، وساقوهم إلى الخطوط العربية ، بعد أن فتكوا ببعضهم ، وأخذوا الشباب أسرى حرب . وانسحبت قوات جلوب من الأراضى التابعة لهاتين المدينتين ، وهى حوالى نصف مليون دونم من أجود أراضى فلسطين ، ولا تقدر بثمن . وحقق الإنجليز مبتغاهم من هذه الضربة بأن :

١ — وسعوا حدود إسرائيل من تلك المنطقة بضعة كيلومترات ، ولم يكن عرض إسرائيل ليزيد على عشرة كيلومترات فى تلك الناحية .

٢ — أظهروا للعالم أن اليهود محاربون بواسل يقهرون العرب .

٣ — رفعوا من معنويات اليهود ، وأضعفوا روح العرب الذين هزتهم هذه الضربة ، وفقدوا الثقة بحكامهم وقادتهم ، وحتى بأنفسهم .

٤ — كشفوا ميمنة الجيش المصرى ، وحرروا القوات اليهودية المرابطة فى باب الواد ، ووصلوها بالقوات المرابطة فى اللد والرملة .

٥ — أضافوا أكثر من ١٠٠ ألف لاجىء إلى اللاجئين الذين كانوا قد نزحوا عن البلاد ، بفضل الإرهاب الصهيونى والخيانة البريطانية .

وبالتالى ، توصل الإنجليز إلى هدفهم فى فرض الهدنة الثانية ، إذ أن الحكومات العربية ، بعد مأساة اللد والرملة ، انصاعت إلى طلب الوسيط فوراً وقبلت الهدنة ، ولم تدم أيام الحرب الثانية إلا تسعة أيام لم يقع خلالها ما يستحق الذكر ، إلا مأساة اللد والرملة هذه .

ولقد كان باستطاعة القوات العربية أن تسحق القوات اليهودية ، حتى بعد تزودها

بالسلاح ، وتنظيم صفوفها ، وزيادة تدريبها . لأن القوات العربية كانت قد زادت عددها وعددها فى فلسطين ، فأرسل العراق لواء آخر ، وأرسلت مصر قوات إضافية كذلك . غير أن السياسة التى كانت تدير الحرب لم تتغير ، بل ظلت كما كانت منذ دخول الجيوش العربية إلى فلسطين . . . غدر وخيانة من بعض حكام العرب ، وخداع وتضليل من بعضهم الآخر ، وإهمال خطير وجهل مطبق ممن كانوا حسنى النية . . .

ورغم هذا كله ، فقد كان من الممكن حتى ذلك التاريخ ، معالجة المشكلة ، وإصلاح الأخطاء ، ودرء الأخطار ، لو أن الحكام العرب والقادة العرب أخلصوا النية ، وطهروا نفوسهم ، وعزموا وضحوا . ولو فعلوا ذلك ، لكان من الممكن أن تظل خطوط العرب كما كانت عليه عند فرض الهدنة الثانية ، وهى خطوط فى صالح العرب ، لأنها كانت تضم النقب بأكمله ، أى ما يعادل ربع مساحة فلسطين . . .

ثالثة الأثافى :

ونام الحكام العرب من جديد ، مطمئنين إلى أعداء العرب والمسلمين ، الذين فرضوا الهدنة الثانية ، واهتبل اليهود الفرصة : وأخذوا ينظمون صفوفهم ، ويحصنون مواقعهم . ولما أيقنوا من تفرق كلمة العرب ، وخيانة بعضهم وتآمرهم ، جمعوا قواتهم من مختلف جبهات فلسطين ، وحشدوها أمام القوات المصرية فى الجنوب . وفى منتصف شهر أكتوبر ١٩٤٨ غدر اليهود ، وخرقوا الهدنة بهجوم كبير قاموا به فى جنوب فلسطين ، فكسبوا بعض المواقع ، وحاصروا بعض القوات المصرية . ثم دارت معركة النقب الكبرى فى أواخر ديسمبر ١٩٤٨ وأوائل ١٩٤٩ ، وخسر فيها المصريون بعض المواقع ، ولكنهم ظلوا متماسكين فلم يهزموا أو يستسلموا ، وبذلك حافظوا على الشرف العسكرى العربى . ولكن الذين خسروا الشرف ، هم بقية العرب من حكام وقادة وجيوش وشعوب ، ذلك لأن أبسط مبادئ الأخوة ، ولا سيما أخوة السلاح ، كانت تقضى بأن تهب الجيوش العربية لفتح جبهات أخرى ، للتخفيف عن الجيش المصرى . ولكن شيئا من ذلك لم يقع ، وظل ملوك العرب ، وقادة الجيوش ، يتفرجون على

المعركة وكأن الأمر لا يعنيهم . وكان أفضل لهم ألف مرة أن يخوضوا مع المصريين المعركة ويخسروها ، من أن يتخذوا هذا الموقف الذى جلب عليهم العار بتقاعسهم عن النجدة وقت الشدة .

وانتهت معركة النقب فى ٧ يناير ١٩٤٩ ، بناء على أوامر مجلس الأمن . وبدأت مفاوضات رودس لعقد هدنة دائمة بين مصر وإسرائيل : ثم لبت بقية الدول العربية الأمر ، وفاوضت اليهود فى رودس ، وعقدت معهم الهدنة الدائمة التى لا زالت سارية إلى يومنا هذا .

وفى أثناء مفاوضات رودس وقعت حادثة خطيرة ، تعد فى نظرى من أهم المصائب التى نزلت بالأمة العربية . وخلاصتها : أن الجنرال جلوب قد سلم لليهود ميناء المرشرش — ايلاث — على خليج العقبة . وبذلك — ولأول مرة منذ مئات السنين — فصل العالم العربى الإسلامى إلى جزئين ، لا يربط بينهما إلا البحر والجو ، والسيطرة عليهما كما تعلمون ليست للعرب .

وقد وقعت هذه الحادثة ، أو المأساة ، فى شهر مارس ١٩٤٩ فى أثناء مفاوضات رودس ، ولم تحرك الحكومة الأردنية ساكناً ، وسكتت ، ولم يكن فى وسعها إلا السكوت بعد أن أسلمت قيادها إلى عدوها . ثم وقعت مأساة المثلث التى كان نورى السعيد من أهم الأسباب فى وقوعها ، ذلك بأنه أصر على سحب الجيش العراقى من المثلث العربى وتسليمه إلى الجيش الأردنى ، فرفض اليهود أن يوافقوا على هذه العملية ، إلا إذا سلمت لهم الحكومة الأردنية ببعض المطالب الإقليمية فى منطقة المثلث . وإزاء إصرار الحكومة العراقية على سحب جيشها ، بحجة تدهور الحالة الداخلية فى العراق ، أذعنت الحكومة الأردنية لمطالب اليهود ، وتمت مأساة المثلث التى كان من نتيجتها انتقال حوالى ٤٠٠ ألف دونم ، بما فيها من مزارع وبيارات وقرى إلى اليهود ؛ ووقف الإنجليز من هذه المأساة موقف المتفرج ، ونصح مندوبهم فى الأردن جلوب ، نصح الحكومة الأردنية بقبول مطالب اليهود ، حتى لا يحاربوا الجيش العربى ويغلبوه على أمره . . .

أيها الإخوان :

هذا عرض موجز لأهم الأدوار التى مرت بها كارثة فلسطين ، وقد دخلت الجيوش العربية إلى البلاد ، وليس لليهود فيها إلا ٥ر٧٪ من مجموع الأراضى ، وخرجت منها ولليهود فيها ٧٠٪ من مجموع الأراضى ، بما فى ذلك عدة مدن كبرى ، منها : يافا وحيفا وطبريا والناصرة وصفد واللد والرملة . وما فيها من أموال منقولة ، سلم بعضها فى زمن حكومة الانتداب ، وسلم الباقى فى الحرب الفلسطينية . وسلم إلى اليهود كذلك مئات القرى العربية ، وجميع المنشآت الحكومية ، والسكك الحديدية ، والطرق المعبدة ، والبيارات ، والسهول الخصبة ، وقد قدرت هذه الثروة بما يزيد على عشرة آلاف مليون جنيه . ودخلت الجيوش العربية إلى فلسطين وسكانها العرب مرابطين فى ديارهم ، ولم يكن قد خرج من فلسطين منهم إلا سكان حيفا ويافا الذين غدرت بهم حكومة الانتداب وأخرجتهم من ديارهم ، ولم تترك الجيوش العربية فلسطين إلا وقد بلغ عدد اللاجئين الفلسطينيين ٩٠٠ ألف أو تزيد ، ناهيك عن العار الأبدى الذى لحق بالأمة العربية ، نتيجة تفريطها فى حق فلسطين ، وعدم إصاختها السمع لنداء شعب فلسطين ، الذى لم يترك فرصة تمر إلا ونبه للخطر الداهم .

أيها الإخوان :

لا أريد أن أنهى كلمتى دون أن أنبه الأمة العربية والشعوب الإسلامية من جديد ، إلى أن الخنجر الصهيونى ، الذى غرسه الغرب فى قلب العالم الإسلامى اليوم ، لا يعد خطراً على فلسطين وحدها ، ولكنه خطر يهدد جميع أقطار الوطن العربى ، ذلك لأن أهداف الصهيونية العالمية ، لا تقتصر على فلسطين ، وإنما تشمل أجزاء هامة من سوريا والعراق ومصر والأردن والمملكة السعودية . وأنه إذا لم تتكاتف الأمة ، وتعبئ جميع إمكانياتها لمواجهة هذا الخطر ، فإنه سيأتى اليوم الذى تعض فيه الأمة أصابع الندم ، ولات ساعة مندم .

وختاماً ، آمل أن تتاح لى الفرصة ، لأقدم لكم أبحاثاً مفصلة عن بعض المآسى التى ألمحت إليها فى حديثى هذا ، والسلام عليكم ورحمة الله .

عبد الله التل

النقاش

بدأ النقاش العلامة الشيخ محمد تقى القمى ، مدير جماعة التقريب بين المذاهب الإسلامية ، بالرد على المحاضر فى تبرير الفتور الذى حصل للدول الإسلامية أيام الحرب بين العرب واليهود ، وهو ما يسميه المحاضر بالتقصير ، الذى حمل المسلمين مسئوليته فى الدفاع عن فلسطين قال :

إن العرب لم تندب دول الإسلام لإنجاد فلسطين ، ولعلها لم تشأ هذه النجدة لأن المسلمين عرضوا نجدتهم على العرب فأبوا ، وأنا واحد من هؤلاء العارضين تلك النجدة آنذاك ، فقد تقدمت للجامعة العربية ولبعض سفراء العرب فى هذا البلد وعرضت عليهم تحوير القضية الفلسطينية ، من عربية إلى إسلامية ، وانى أعهد لهم بالتفاهم مع إيران ، وإيران تتوسط لدى الأفغان وباكستان ، وهذه تتولى إقناع أندونيسيا إذا اعتذرت تلك بشواغلها مع هولندا ، فكان جواب الجامعة العربية وسفراء العرب سلبا ، واعتذروا عن هذه السلبية بأن لبنان ، وهو مسيحى ، داخل فى الجامعة العربية ، ويعلن الحرب معنا على إسرائيل ، فإذا تحورت الحرب إلى إسلامية يهودية ، انسحبت لبنان ، وأدى ذلك إلى انشقاق الجامعة العربية .

ويقول الأستاذ يوسف حموده ، معززا نقاش الأستاذ القمى بأن الحرب هذه كانت دينية من الجانب الغربى ، فلم لا تكون دينية من الجانب الشرقى ؟ أفما قال الجنرال ألنبى البريطانى ، يوم دخوله القدس فاتحا سنة ١٩١٨ : الآن انتهت الحروب الصليبية ؟؟ أو ما يعنى بذلك أنهم لا يزالون على ضلالهم الدينى ؟ ؟ ؟

ثم استطرد المناقش إلى كثير من أقوال وايزمن وبن غوريون اليهوديين ، وإلى قول لورانس وعلى ماهر ، فيما يثبت أن الغربيين إنما انتصروا لليهود بدافع النصرانية المؤاخية لليهودية ، والمناهضة للاسلام .

ويقفى الأستاذ محمد مصطفى الماحى على أثر السيد حمودة : بأن المحاضر لم يجعل فى صميم

المشكلة الفلسطينية ، نية اليهود ، من أنهم لا يقفون فى طموحهم عند حد فلسطين ، وإنما يتجاوزونه إلى الفرات شرقا ، والنيل غربا ، ولعل فى صميم طموحهم العود إلى الحجاز وفتح خيبر من جديد .

وبرهانا على طموحهم هذا ، طلبهم الخبيث أيام النفوذ البريطانى فى مصر ، أن يستغلوا صحراء سينا للبترول والفلزات ، وقد أوشك تشبثهم هـذا أن يفلح ، لولا ما لطف الله بمصر على ألسنة الوطنيين المعارضين فى مجلس التمثيل يوم ذاك .

ويتناول السيد فتح الباب : بأن الخطأ فى مشكلة فلسطين لا ينبغى أن يوجه للشعوب العربية ، وإنما يجب أن يحصر فى الحـكومات ، لأن الشعوب ضعيفة ومسترقة ، ومن تغلغل فى الشعوب العربية عرف مبلغ ما وصلت إليه من الجهل والفقر والعلل ، وفى هذا ما يبرر غفلتهم عن حكوماتهم وهى تعبث بمقدرات العالم العربى من وراء قضية فلسطين .

ثم يختم النقاش المفتى الأكبر السيد أمين الحسينى : برد السيد حمودة الذى يتهم القائمين على قضية فلسطين بالتهاون والتقصير ، وأن المؤتمر الأسيوى الإفريقى الذى ينعقد هذه الأيام ، جدير بمعالجة قضية فلسطين ، ثم لا نرى اهتماما خليقا بها من جامعة الدول العربية ، ولا من أهل فلسطين أنفسهم ، وخاصة الهيأة العربية العليا المتطوعة لخدمة فلسطين .

يرد المفتى الأكبر هذه الدعوى بقوله : لقد بات فى علمنا أهمية هذا المؤتمر من حرص اليهود على الدخول فيه ، حتى وسوسوا لبورما ولسيلان بضرورة اعتبارها دولة شرقية ، ثم ضرورة دخولها المؤتمر ، وذلك ما حمل هاتين الدولتين على اقتراح دخول إسرائيل فى المؤتمر ، فرفضت الهند والباكستان والصين ذلك ، متذرعين بأن لدول العرب والإسلام شأنا فى الشرق له قيمة ليست لإسرائيل ، وأن هذه الدول لا يبعد أن تنسحب من المؤتمر إذا دخلته إسرائيل . ويقول المناقش : إن السيد نهرو أفضى إليه بذلك لدى مروره بالقاهرة هذا العام .

ثم يقول : من هذا الذى علمنا ، توفر لدينا الحرص على أن لا يفوتنا الجهاد فى سبيل فلسطين بين يدى المؤتمرين ، كما لم يفتنا ذلك بين يدى غيرهم فيما مر ، فعمدنا إلى التوسط لايفاد اثنين من رجال الهيأة العربية العليا إلى المؤتمر ، ليبسط قضية فلسطين فيه ، والأهمية التى تتعلق بها ، والنتائج التى تترتب عليها فى مستقبل إفريقيا وآسيا .

فقضية فلسطين ، كانت وما تزال ، موضع اهتمام الفلسطينيين أحزابا وهيآت ، لا يغفل عنها فلسطينى واحد مهما جار الزمن على أهلها ، وقد جهرت مرارا بأن قضية فلسطين ، لو وكلها العرب إلى الفلسطينيين أنفسهم ، لما وصلت إلى الحالة التى هى عليها الآن ، ولـكن بريطانيا التى قامت أسسها تحت سماء الغرب وفى أقطار الشرق على الـكيد للإسلام والدس على أهله ، لم تترك للعرب الأقحاح والمسلمين الغير على الإسلام ، نافذة يخلصون منها إلى خدمة العروبة والإسلام .

التعليق

يقول لى الأستاذ سلمان الصفوانى ، صاحب جريدة اليقظة العراقية ، وهو من أخلص المجاهدين للعروبة بلسانه وقلمه ، يقول لى ، ونحن ندكر الهون الذى أنزله القادة العرب بأمتهم فى حرب فلسطين ، يقول : أتعلم أنى ظفرت قبيل الحرب الفلسطينية بصورة عن تقرير بعث به السيد كلايتن البريطانى الذى ورد الشرق الأدنى سنة سبع وأربعين للعمل على حماية اليهود من الشعوب العربية ، وقد كنت حريصاً على إشعار العالم العربى بما كان يدور بين هذا الرجل وبين الساسة العرب ، ثم قال :

وفور اتصال هذا التقرير بى ، أهبت بالعمال أن يسهروا ليلهم فى سبيل إنجاز العدد قبل الفجر ، خشية أن يتصل بنا هذا التقرير بدائرة الاستخبارات البريطانية التى كانت تملك علينا السمع والبصر ، ويكاد يكون العراق بأسره يوم ذاك ، قيد هذه الاستخبارات .

« وأقسم لك أن الفجر قبل أن ينشق آذن بمآت الرجال المدججين بالسلاح من الشرطة والأمن العام يحدقون بالدائرة ، دون أن يكون لى أدنى شعور بالسبب الخفى الذى أدراهم بما نفعل ، ولقد كنت حريصاً كل الحرص ، طوال ليلى ، ألا يخرج أحد من المطبعة والمـكتب ، ولا يدخل أحد ، وإلى الآن لا أزال حائرا فى إدراك السر الذى

فاجأونى من ورائه ، قبل أن تصدر جريدتى حاملة نص التقرير ، ولم أستطع أن أحتفظ بنسخة واحدة من العدد ، فضلا عن تسرب شىء منه إلى الخارج .

وإليك النص الذى تضمنه ذلك التقرير المرفوع من هذا السياسى الداهية ، إلى وزارة الخارجية البريطانية ، يقول فى جملة فحواه :

« لقد أخفقنا فى كل سبيل سلكناه إلى الحيطة التى تحمى اليهود من شعور العرب الزاخر بالثورة التى تقضى على يهود العالم ، ثم لم نجد بعد كل أناة وتجربة أجدر بتفادى هذه الثورة من إقناع أصدقائنا القابضين على زمام أكثر الحكومات العربية بإعلان الحرب على اليهود ، وبإعلان الحرب تحدق الجيوش العربية بفلسطين فتحول دون تسرب الثائرين من الشعوب العربية إلى أعدائهم ، وإذ ذاك نستطيع بإخلاص أصدقائنا لنا من ساسة وقادة ، أن نسيطر على الموقف ، وأن نجرد المتطوعين العرب لإنقاذ فلسطين من أسلحتهم ، ليتسنى للجيوش العربية حسن التفاهم معنا ، فنحمى اليهود من جهة ، ونحقق لهم الوطن القومى آخر الأمر » .

هذه خلاصة ما سمعته من الأستاذ الصفوانى ، ونحن على مأدبة الأستاذ الشاعر أكرم أحمد فى بغداد فى خريف عام ١٩٥٣ ، أنقله للعالم العربى كى يتدبر أسرار الهدنة والغاية من إعلان حكومات العرب الحرب على اليهود ، وأن هذه الحرب إنما قامت لحماية اليهود وتحقيق الوطن اليهودى على أيدى قادة العرب وساستهم الذين لا يزالون ، حتى هذه اللحظة ، يسيطرون على الشعوب العربية المستخذية لهم من وراء الجهل والذل والعبودية .

إنا لنعلم أن بريطانيا وأمريكا وروسيا وفرنسا ، يريدون أن يحققوا حلم صهيون لأسباب لا يكاد يحيط بها حصر ، وهذه الأسباب تتوفر فى كثير من جهاد اليهود فى سبيل حلمهم هذا ، ولم يعد خفيا على أحد إعداد هذا الشعب الجبار ما يقتضيه حلمهم هذا من تضحية فى سبيل تحجيره وكونه ، فمن علم أن مجلس العموم الذى يهيمن على بريطانيا ، لا يخلو أبدا من ستين إلى سبعين عضواً يهوديا فيه .

ومن علم أن مقدرات أمريكا الشمالية المالية والاجتماعية فى المصارف والصحف والتمثيل والدعاية والإعلان والتجارة ، من علم هذا علم مبلغ ما يسيطر به اليهود على أمريكا ،

ثم من علم آخر الأمر أن لينين خالق روسيا هو منهم ، وأن الشركات العالمية وهيآت العالم السرية كالماسونية ، وأن النبوغ العالمى فى العلوم والآداب والفنون ، يكاد يكون قاصرا فى تقدمه العالم على هذا الشعب ، أقول : من علم ذلك ، عرف وأيقن أن هذه الحفنة من العالم لا تغلب بعرب ولا عجم .

يقول لى السيد هاشم الأتاسى ، رئيس جمهورية سوريا ، وأنا فى منزله بمدينة حمص سنة ١٩٤٦ . أيام كنت أحرر مجلة العروبة فى حديث أشرفنا منه على قضية فلسطين قال : لا بد لليهود أن يسيطروا على جزء من فلسطين ، رضينا أم أبينا ، لأنهم يعملون لذلك منذ قرون ونحن غافلون ، وقد نشرت هذه الفكرة فى مجلة العروبة لذلك العام .

والسيد الأتاسى من رجال العرب المخلصين الذين تلحق بهم رحمة فى سياستهم الأمة.

وليس الأتاسى وحده تقوم هذه الفكرة فى رأسه ، ولكن أكثر الساسة العرب كانوا يعتقدون ذلك ، ولكن واحدا منهم لم يفكر فى أن اليهود كانوا ولا يزالون فى كل عهد يتمتعون بهذه الميزات فى العالم ثم لم يسيطروا على العالم إلا فى العهود التى يفسد فيها العالم ، فلقد كانت الجزيرة العربية فى العهد الجاهلى ، وقبيل بعث محمد منقذا للعالم . لقد كانت بأسرها مدينة لليهود فى سيطرتهم المالية والعلمية ، فما الذى هدم كيانهم وانهارت معه تلك السيطرة حتى ضربت عليهم الذلة والمسكنة وباؤا بغضب من الله ؟ ؟

وهل كان العرب الذين دكوا حصون اليهود وقضوا على عزهم ودسائسهم ، وحالوا بين مكرهم وبين العالم ، هل كان أولئك العرب أسمى فكرا وأشد بأسا من شعبى أمريكا وأوربا اليوم ، وهم يرزحون تحت النير الذى أحكمت الصهيونية شده على رقابهم ؟ ؟

لا . . . ولكن الدواء الذى عالج به محمد هذا السرطان من قبل ، لم يعالج به اليوم حتى قوم محمد بعث هذا السرطان من جديد فى جسم العالم ، فما الذى أحكم فى نفس الأتاسى ضرورة سيطرة اليهود على فلسطين ، وأحكم فى نفس نورى السعيد ضرورة الاستخذاء لبريطانيا وأمريكا فى التخلى لليهود عن أرض فلسطين ، ثم أحكم فى نفس توفيق السويدى ضرورة التعاون مع اليهود ؟ ؟ ؟

لقد قال لى هذا الأخير ، أواخر الحرب الأخيرة ، إذ فرضت الجامعة العربية مقاطعة العرب لإسرائيل ، قال لى وأنا فى بيته ومعى الدكتور أحمد سوسه : إن من الخطأ مقاطعتنا لليهود ونحن فى أمس الحاجات إلى إنتاجهم فى ميدان الصناعة والتجارة والعلوم ، وقد ذكرت رأيه هذا فى كتابى « وحى الرافدين » الصادر ذلك العام .

أقول : ما الذى أحكم فى نفوس هؤلاء وفى نفس الملك عبد الله ضرورة الصلح مع إسرائيل سوى أنا لم نعالج أمراضنا بما ضربه لنا محمد مثـــلا فى تشخيص الداء وتركيب الدواء ؟ ؟

إن اليهود رأوا ، فى سبيل السيطرة على العالم ، أن أمضى سلاح هو العلم والمال ، وهذا حق ، ولـكنهم نسوا أن الأخلاق التى هى عصمة ذلك السلاح من أن يرتد إلى نحر صاحبه فيمضى فيه ، لقـد رأوا أن المال والعلم سلاح القوة ، ولم يروا أن القوة كامنة فى الغاية التى من أجلها كان المال والعلم حصنا يقى صاحبهما شر الجهل والفقر العدوين للعلم والمال ، إذ عمدوا إلى أخس الوسائل التى تفضى بهم لـكسب المال والعلم ، ثم عمدوا إلى أخس الغايات التى يرمون إليها من وراء العلم والمال ، فـكانوا أبعد الناس عن السيطرة على العالم الصالح فى عهـد محمد ، وأقرب الناس إلى السيطرة على العالم الفاسد فى عهدنا الحاضر .

ولو أن العرب تذرعوا وهم يحدقون بفلسطين عشرات الملايين شعوبا ، وعشرات الآلاف جنودا أيام حربهم مع اليهود ، أقول : لو أنهم تذرعوا بالسلاح الذى دك به محمد حصون اليهود وحطم قواهم ، لما انقلبوا أذلاء مدحورين بين يدى حفنة من الناس ، لا يملـكون من وسائل الهيمنة والسيطرة إلا الدس والمـكر والخديعة والتضليل ، لو غلا آنذاك فى شرايينهم دم الحفاظ العربى ، وثارت فى نفوسهم حمية الإسلام ، لاعتصموا بالجنون يوما واحدا ، ولـكان الأمر الواقع ، وقضى الأمر ، وشفوا نفوس العالم بأسره .

ولـكن اليهود كانوا يومذاك غزاة الليل والنهار على أخلاق العـرب ودين العرب وأمجاد العرب ، وكان العرب يومذاك غزاة الليل والنهار على مال إسرائيل وجمال إسرائيل وفسق إسرائيل ، كان اليهود يمدون أيديهم إلى قلوب العرب لينزعوا منها تراث محمد ،

وكان العرب يمدون أيديهم إلى جيوب اليهود ليظفروا منها بذل إسرائيل ، نعم لقد كان اليهود أيام حربهم مع العرب يعملون أفكارهم فى الوسائل التى يشرون بها عز العرب ، وكان العرب ينامون مطمئنين إلى الشهوات التى تشبع أنانيتهم فتطغى بها على مجد ورثوه ، وتراث أضاعوه ، وكرامة هيمن بها سيدهم الأول محمد على العالم ، فاستخفوا بها ، وتنكروا لها ، وشاركوا أعداءهم فى النيل منها ، والكيد لها ، والقضاء عليها .

إن الجامعة العربية لم تستجب لنداء الشيخ القمى إذ دعاها للاعتصام بالإسلام فى وجه اليهودية ، حرصا على دخول لبنان فيها ، فهى تؤثر التضحية بمئات الملايين فى سبيل مائة ألف مارونى مسيحى ، يرئسهم فى الفكرة والعقيدة مطران يدعى أغناطيوس مبارك ، يقول فى كتاب أخرجه للعالم العربى سنة ١٩٤٦ بالنص الذى لا يشوبه نقص فى الأداء ، والشاهد على ذلك رجل من ملته وعلى مذهبه ، هو رفيقى إلى أمريكا ذلك العام الصحفى ألفريد أبى سمرة ، وقد اطلعنا معا على ذلك الكتاب فى الباخرة التى تقلنا إلى العالم الجديد ، يقول المطران فيه بالنص :

« إذا لم تقم دولة يهودية فى فلسطين ، فلا نستطيع أن نحيا مع العرب على صعيد واحد » .

ثم يمضى خليفة المسيح فى إشلائه أبناء كنيسته المهاجرين إلى أميركا على العرب ، ودفعهم إلى العصبية الذميمة بأن يلتمسوا من مجلس الأمن مساعدته لهم على إنشاء وطن مسيحى فى لبنان ، للتعاون مع اليهود على قمع العرب وتأديبهم ، والأنكى من ذلك والأخس ، أنى لم أجد صحيفة عربية واحدة فى أمريكا ، وكلها نصرانية ، تستجيب لندائى فى الرد على الراهب الكهنوتى ، مما أشعرنى بأنهم جميعا يتواطأون مع اليهود على الكيد لجيرانهم من معتنقى العروبة والإسلام .

تستنكف الجامعة العربية أن تمد يدها لمسلمى العالم فى سبيل فلسطين ، ولكنها تمد هذه اليد الشلاء وهى صاغرة للمطران مبارك ، مستجدية حقها القائم فى صميم التاريخ ، مهيمنا على فلسطين منذ فجر ذلك التاريخ ، يا للعار لمائة مليون عربى يحتاجون فى التماس حقوقهم إلى مائة ألف مارونى ، يسيطر عليهم المطران أغناطيوس مبارك ، وهم ينعمون

بأموالنا وأوطاننا ، فهل الخسة التى تنالنا من تصاغرنا أمام اليهود ، أقسى على تاريخنا من الخسة التى نعنو لها بين يدى هؤلاء ؟ ؟

لقد كان أبناء مارون أحرص منا على العروبة ، يوم ناهضنا الترك ، إذ كان الترك يعتصمون بالدين الإسلامى ، أما اليوم ، وقد خلع الأتراك ثوب الإسلام ، واعتصموا بمدنية روزفلت وتشرشل ووايزمن ، فقد أصبحوا خيرا من العرب عند جيراننا المردة من معتنق مذهب السيد أغناطيوس مبارك ، لقد كنا فى نظرهم يوم ذاك أحرارا ، وكان الترك عبيدا ، وأما اليوم فالأحرار هم الأتراك ، وأما نحن ففى عداد العبيد .

أين إخلاص لبنان المارونى عضو الجامعة العربية لفلسطين العربية ، وهى تجاور إسرائيل ، ولم تتقدم هذه بشكوى واحدة ضد لبنان إلى مجلس الأمن ، بينما نجد عدوان إسرائيل وشكاواها تتوالى كل يوم إلى مجلس الأمن على مصر وسوريا والأردن المتاخمات لإسرائيل ؟ ؟ فهل هنالك صداقة وسلام بين لبنان وإسرائيل يضيق بهما علم الأرض ويتسع لهما حتى المريخ ؟ ؟

يقول الأستاذ سعيد فهيم ، وهو عراقى ومن رجال الجامعة العربية : لقد ألقى السيد عبد الرحمن عزام . أمين الجامعة العربية ، كلمة قال فيها : « إن بريطانيا كانت السبب فى بلاء العرب باليهود ، وهى السبب أخيرا فى ابقاء العرب عليهم ، لأنى أومن بقوة العرب وأنها جديرة باستئصال يهود العالم ، لولا أن بريطانيا ومن ورائها أميركا ودول أوروبا يريدون بقاء اليهود ، وأن يكونوا شوكة فى عين العروبة ، تفتح السبل أمام الغرب لاستعباد الشرق أو لاستمرار هذه العبودية لهم فيه » .

هذا علم السيد عزام بأسرار الجلاء الذى جرته علينا نكبة فلسطين ، فلماذا لم يعمل بهذا العلم فيكشف الحقائق للأمة أيام حرب فلسطين ، فيعلن أن العرب يريدون الإبقاء على اليهود استخذاء لبريطانيا .

ويقول لى السيد توفيق السويدى فى دار المفوضية العراقية بالقاهرة : « لقد خلوت إلى مندوب بولندا فى مجلس الأمن أيام وجودى فى أوروبا قبل أشهر ، وأمعنت فى تقريعه باسم الإنسانية على استرساله فى عضد اليهود » ، فقال : « أرجو أن تعذرونا على ذلك ،

لأن خمسة ملايين يهودى طارئين على بولندا قد ابتلعوا أربعين مليونا من أهلها ، فكل فرد منا يعمل على زحزحة هذا الكابوس ، ولا سبيل إلى ذلك غير فلسطين ، ولو كانت لهم رغبة فى موسكو المهيمنة علينا ، لساعدناهم على ذلك ، ولو أن موسكو أحرص الناس على رفضهم هذه السكنى » .

يعلم ذلك الأستاذ السويدى ثم هو يعارض فى مقاطعة إسرائيل لأننا ، كما يقول سابقا ، فى أمس الحاجات إليها علما وصناعة ، فمن ذا يسمع ؟ ؟

ويقول السيد رشيد الحاج إبراهيم ، وقد كان رحمه الله من رجال فلسطين العاملين أوائل الحرب بين اليهود والعرب ، يقول : « عندما حاصرتنا اليهود فى القدس ، وشعرنا بالخطر لقلة العتاد والمؤن عندنا ، وكان أهم ما يعوزنا إذ ذاك المدفعية ، ذهبت بنفسى إلى الملك عبد الله ، وقد كان القائد العام للجيوش العربية بإقرار جامعة العرب ، فلما عرضت ذلك عليه ، أمسك بالهاتف نصف ساعة يخاطب ضابط المدفعية ، وقد كان سكسونيا ، ثم التفت إلى وقال : (الانكليز لا يريدون ما نريد . . .) » .

فإذا كان القائد العربى الأعلى يعلم هذا ، وجامعة العرب تعلمه ، فلماذا بقى الملك قائدا والجامعة تقره على القيادة ، ثم لماذا لم يعلنوا ذلك على الشعوب العربية لتتدبر أمرها مع حكوماتها ؟ ؟

ويقول السيد محمد الصدر ، رئيس البرلمان العراقى أيام كان رئيسا لحكومته ، وكنا آنئذ فى منزل السيد محمد صادق ، رئيس التمييز الشرعى فى بغداد ، وكان الحديث يتناول إخفاق العرب فى فلسطين ، يقول : « الغريب فى أمر الحكومة الحاضرة ، أن رئيسها السيد مزاحم الباججى يفيض فى القول ، مدلا على الأمة بأنه لم يوافق على الهدنة الأولى التى كانت السبب فى اندحار العرب ، بينما هو يعلم أن المجلسين ، بحضور الوصى على العرش ، قد أحضروا أركان الحرب ، فأقر هؤلاء بأن لا سلاح عندهم وأن الهدنة لا مفر منها » .

« فهل استدعى رئيس الوزراء أركان الحرب يوم رفضه للهدنة ، واشترشدهم فى الرفض وعدمه ؟ ؟ فإن كان قد فعل ، وأجابوه جوابهم للوصى بحضور المجلسين ،

فقد كان رفض الهدنة خطأ فاضحا ، وإن كان لم يفعل ذلك ، فكيف يرفض الهدنة دون أن يحيط علما بما عنده من قوة يدفع بها قوة العدو ، الآخذة علينا أسباب السماء والأرض ؟ ؟ »

هذا هو قول السيد الصدر ، ويكاد يكون قول أول واحد فى رجالات العراق الذين أبلوا بلاء حسنا فى جهاد السكسون وإعلان الثورات عليهم بعد انتداب بريطانيا على العراق ، ولكن . . ألا يسمح لنا صاحب السماحة بأن نسأله : لماذا لم يسأل أركان الحرب ، عندما جمعهم المجلسان ، عن السبب فى إعلانهم الحرب على إسرائيل ولا سلاح عندهم ؟ ؟

فلم أقدموا على حرب يضطرون معها لطلب الهدنة ، بحجة عدم وجود السلاح ، وهل تعلن حكومة الحرب على أخرى وهى عزلاء ؟ فإن كان عندهم سلاح يوم إعلانهم الحرب ، فلماذا طلبوا الهدنة ولم يحاربوا قط ؟ بل على العكس ، قد انسحبوا من أماكن كانت الأمة مطمئنة إلى سلامتها مع وجودهم فيها ، ثم لم يمدوا أى يد لعضد إخوانهم المصريين يوم انفردوا فى الميدان ، ولم ينكروا على الجيش الأردنى حينما انسحب من مدينتى اللد والرملة ، دونما سبب ، إلا استجابة من قائده البريطانى لأوامر صهيون ؟ ؟

وإن لم يكن عندهم سلاح ، فلماذا أعلنوا الحرب على إسرائيل ؟ ؟ هل كان ذلك إلا إثباتا لما قررنا فى أول هذا التعليق من أن قول « كلايتن » الداهية البريطانى فى الشرق الأدنى يومذاك ، هو قول حق ، وأن العراق والأردن ولبنان ، إنما أعلنوا الحرب لحماية إسرائيل ؟ ؟ لأنهم وحدهم الذين انسحبوا دون أدنى مبرر لانسحابهم ، وأن سوريا ومصر وحدهما تحملتا عبء هذه الحرب ، وأن الجيش الوحيد الذى فى استطاعته أن يحفظ فلسطين من الانهيار ، ويحول دون العار الذى لبس الأمة إلى يوم القيامة ، هو الجيش العراقى والأردنى فقط ؟ ؟

ويقول السيد عبد الوهاب مرجان ، وهو يرئس برلمان العراق آنذاك ، ونحن فى منزل الوزير عبد المجيد محمود يوم ١٧ — ١٢ — ٤٨ ، يقول : « هل بلغكم من جديد ، وفى الوقت الذى رأت فيه تركيا دول العرب مشتبكين مع الصهيونيين ، ومرتبكة

باقناع دول الغرب فى أن العرب مظلومون ، وأن اليهود يتعمدون العدوان إذ يطلبون وطنا لهم فى فلسطين ، فى هذا الوقت تطلب تركيا لواء حلب من سوريا ، ويغمز رجالها فى البرلمان بطلب الموصل من العراق ، ويرى السيد مرجان أن ذلك موحى به من اليهود ليصرفوا العرب عن اهتمامهم بقضية فلسطين » .

هذا هو قول السيد عبد الوهاب مرجان بالأمس ، وهو ظاهر فى أنه يرى تركيا عدوة للعرب ، فماذا يقول : السيد مرجان اليوم ، وهو فى جانب السيد نورى السعيد الذى أقرت حكومته التضامن مع تركيا ، دون أن تراعى حرمة الضمان الجماعى فى جامعة الدول العربية ، ودون أن تستشير أخواتها فى الاتفاق مع الدولة التى برهنت منذ نشأت عن عدائها للعروبة والإسلام ؟ ؟

وبعد ، فإن الأحداث إلى تتصل بحدث فلسطين لا يحصرها عد ، وإن من الابتذال فى القول أن نستمر فى التعليق على قضية يتعلق بها هوان العالم العربى ، بل العالم الإسلامى بأسره ، لذلك نبعث هذه الزفرة موجزة للتاريخ الذى ينصف الحق من العرب الذين يدعون تراث محمد ، وليسوا منه فى شىء ، حتى يردوا على محمد ، ويحاسبهم عما اقترفوه فى ادعائهم هذا .

المحاضرة التاسعة :

حياة المحاضر



مولده ونشأته ولد فى الإسكندرية سنة ١٩٠٠ ، ونشأ فيها النشأة الأولى حتى نهاية دراسته الابتدائية ، ثم هاجر إلى القاهرة فى سبيل العلم ، فدخل مدرسة الحقوق السلطانية ، التى أصبحت فيما بعد كلية الحقوق ، ونال شهادتها بتفوق .

عمله اشتغل عشرين عاما فى المحاماة ، ثم آثر الوظيفة على العمل الحر ، فكان مديرا للتأليف بوزارة التربية والتعليم ، ثم عين مراقبا للثقافة العامة فى نفس الوزارة ، ولا يزال كذلك إلى الآن . وهو موضع احترام زملائه والمشرفين على عمله فى العهدين الملكى والجمهورى ، رغم أنه عامل حر وناقد مر .

آثاره له ديوان شعر نال به جائزة المجمع اللغوى العربى فى مصر ، ولم يطبع حتى الآن . . . ومن كتبه القيمة : « ألمع ساعات الحرج فى التاريخ » طبع مرتين إحداهما سنة ١٩٤٢ ، والثانى طبع سنة ١٩٤٨ . وكتاب « قطوف نادرة من القصص » طبع سنة ١٩٤٩ . وكتاب قصصى « عاصفة فى الصحراء » طبع سنة ١٩٤٩ . وكتاب « الصحوة الأخيرة » طبع

سنة ١٩٤٢ . وكتاب « أرمياء » مترجم عن استيفان زفايج طبع سنة ١٩٤٦ . وكتاب « طلائع الأحرار » طبع سنة ١٩٥٤ .

وقد أصدر مجلة « الأديب المصرى » سنة ١٩٥٠ ، فكانت اشتراكية حرة لاذعة ، فلم يمهلها قلم الرقابة فى العهد البائد أكثر من عام واحد ، ثم انطوت إلى أجل . وله فضلا عن ذلك بحوث قيمة فى الأدب والفلسفة والنقد ، نشرت فى مجلتى الكاتب المصرى والثقافة ، وهو يعد الآن للإخراج كتابين ، أولهما : « الفلسفة والسياسة » ، والثانى « الأدب والفن بين الوهم والواقع » ، وهو يقول : إن كتابه « الفلسفة والسياسة » ، أحظى ما أنتج عنده وأعز آثاره عليه .

شخصيته

أبرز ما يمتاز به الأستاذ الشوباشى مرحه وتفاؤله فى الحياة ، بالرغم عن أن حديثه مشبع بالنقمة على العالم شعوبا وحكومات . ويكاد البشر والأنس بجلسائه يطبع شخصه على كرم النفس وسخاء اليد ، أما ذكاؤه وأما جدته وعمقه فى العلوم والفنون ، فيكاد يجعل منه الطريف النادر بين زملائه فى هذا البلد ، لقد عرفته منذ ثمانى سنوات ، فلم أخرج من مكتبه أو من أى مكان ضمنى إليه ، إلا وأنا مبتهج بصداقته مطمئن إلى خلوص نفسه وطيب ذاته ، وهذا لعمرى نادر فى النادر من الناس ، أمتع الله به الأدب وأخلصه للنفع به فى عالمه العربى الفقير إلى مثل ذلك .

المحاضرة التاسعة

الفلسفة والأدب

ألقيت فى دار الدكتور الظواهرى أحد أعضاء الندوة
مساء يوم الأربعاء فى ٧٤/٨/٢٦ هـ الموافق ٥٥/٤/٢٢ م

حاول بعض الأدباء والشعراء البحث فى العلاقة بين الفلسفة والأدب . فرأى فريق أن قيام تلك العلاقة طبيعى ، وأن الأدب يسمو عن مستوى السطحية والعامية بمقدار اشتماله على النظرات الفلسفية المتغلغلة إلى جوهر الأشياء . ورأى فريق آخر أن خصائص الأدب وأهدافه تخالف خصائص الفلسفة وأهدافها . فالأدب فى نظر هذا الفريق نابع من المشاعر الفياضة والذوق الجميل ، وهدفه إبراز الجمال فى أرق إهاب ، بينما الفلسفة وليدة التفكير العميق ، والتنقيب والتدقيق ، وهدفها الوصول إلى الحقائق . ولذلك يرى هذا الفريق وجوب الابتعاد بالأدب عن الفلسفة حتى يصفو جماله ، ويبرأ من شوائب التحليل العقلى المناقض للتحليق الفنى .

ويبدو أن الفريق الأول يميل إلى المذهب الواقعى فى الأدب ، ويرى أن رسالة الأديب تقوم على التعبير الصادق عن حقائق الوجود ، فى حين أن الفريق الثانى يميل إلى المذهب المثالى ، أى مذهب الفن للفن ، ويتخذ عبارة : «أجمل الشعر أكذبه» شعارا له.

ولكن البحوث التى دارت بين الأدباء حول هذين المذهبين لم تتسم بالشمول والعمق ، بل اقتصرت على تناول الموضوع من نواح جزئية سطحية . فلا فهم للعلاقة بين الفلسفة والأدب إلا بفهم رسالة كل منهما على الوجه الصحيح ، وتبين مقدار ما يشتملان عليه ، رغم تباينهما الظاهر ، من خصائص مشتركة .

من الحقائق المقررة فى هذا العصر أن كل شىء فى الوجود ، سواء أكان ماديا أم معنويا ، مرتبط بغيره . ويرجع ذلك إلى أن الموجودات جميعها ، يتولد بعضها من

بعض ، وينمو بعضها على حساب بعض ، فكل شيء يتداخل فى غيره ، ويتأثر بغيره ، ويؤثر فيه على التوالى . ولا اختلاف إلا فى درجات تلك العلاقات ، وذلك التأثير المتبادل . وشرح ذلك يحتاج إلى إفاضة لا يتسع لها مجال هذا البحث .

وعلى ضوء هذه الحقيقة المقررة نستطيع أن نتبين خطأ الذين يحاولون وضع حاجز بين الفلسفة والأدب . وسنرى خلال هـذا البحث مدى ارتباط كل منهما بالآخر ، وسنبدأ بتعريف كل منهما حتى نستطيع أن نتبين سلسلة ذلك الارتباط من أولها :

فالفلسفة تتوخى تفسير الوجود المـادى والمعنوى من الناحية العامة مسترشدة بالـكشوف العلمية التى يفسر كل منها جانب الوجود الواقع فى اختصاص بحوثه .

والأدب يتوخى التعبير الفنى عن الوجود المادى والمعنوى من زاوية اتجاه المؤلف الفـكرى والشعورى .

وإذا حللنا هـذين التعريفين اللذين أقرتهما أغلبية أهل الفكر انتهينا إلى أن الفلسفة والأدب يتفقان فى محاولة إلقاء الضوء على معنويات الوجود وماديّاته ، ويختلفان فى أن الفلسفة تتجه إلى تفسير الوجود موضوعيا ، بينما يحاول الأدب أن يعكس أثر الماديات والمعنويات فى نفس الأديب الحساسة الواعية . وقد أسفر الاختلاف المذكور عن انقسام أهل الرأى إلى فريقين : فريق يصر على أن الأدب عمل فردى ذاتى يعكس مشاعر الأديب وأراءه الخاصة دون مانظر إلى مطابقتها للواقع . وفريق آخر يرى قياس قيمة الأدب بمدى صدق تعبيره عن الواقع .

وقد شجع مذهب الفريق الأول الأدباء والشعراء على التحلل من فروض الحياة والتزاماتها ، فاستخفوا بالواقع المحيط بهم ، وتعالوا على مجتمعهم ، مستغرقين فى أثرتهم ، غير محتفلين إلا بميولهم الخاصة المتولدة عن تلك الأثرة ، وانتهى بهم مسلـكهم الذاتى إلى غمر السوق الأدبية بأدب يعبر عن نفوسهم المنبتة عن ركب الحيـــاة ، الموغلة فى سراديب الأوهام الغامضة ، المرتعشة فى دياجى الظلام ، المتهدجة للملذات الحسية الوضيعة ، أو الخواطر الهمجية الشوهاء . . . إن دعاة هذا المذهب هم الذين يحاولون بت الصلة بين الفلسفة والأدب على أساس إنكار الصلة بين الأدب وحقائق الوجود .

أما مذهب الفريق الثانى فيؤكد الصلة بين الفلسفة والأدب ، لأنه يرى ، رغم اعترافه بأن الأدب عمل ذاتى ، ضرورة احتفال الأدباء بالواقع ، وتحرى الصدق والدقة فى تصويره . فالأديب الحق يتميز بالضمير الحى المؤمن بالحق والخير . والمتفانى فى سبيل تحقيقهما . ومثل هذا الأديب لايستطيع الإلمام بالحق والخير على وجههما الأشمل إلا إذا ألم بحقائق الوجود المعنوية والمادية الإلمام الصحيح ، وهذا لايتأتى إلا إذا كانت له فلسفة فى الحياة تقوم على أساس مدروس سليم . وإلمام الأديب بالفلسفة لايعنى اقتصاره على طرق المواضيع الفلسفية ، وصبغها بالصبغة الأدبية ، أو تغليب البحث الفكرى العميق فى كتاباته الأدبية على التصوير القائم على اللمحات الموفقة ، واللمسات الفنية ، ولكن المقصود أن يفيد الأديب من فهم الحياة على أساس دراسى سليم . فيصبح أقدر على احتضان حقائق الوجود وهو يحاول تصويرها فى آياته الفنية .

ولزيادة المقصود شرحا نقيمه على وضع آخر فنقول : إنه ما دام الأديب يعتمد فى ابتداع أدبه على الفكر ، إلى جانب اعتماده على الصياغة الفنية ، وما دام فكره يحاول التغلغل إلى الحقائق ، فلابد من استعانته فى الوصول إلى هذا المأرب ، بالعلم الذى يمكنه من إدراك الوجود على حقيقته . أى ما دامت لكل إنسان فلسفته فى الحياة ، فلا يجوز للأديب ، وهو فى طليعة الباحثين عن الحق ، والمنتصرين له ، أن تكون له فلسفة عامية لا تقوم على الدراسة الكفيلة بتبصير الحق . ومن ثم تتضح العلاقة الوثيقة بين الأدب والفلسفة .

على أننا نستطيع تبين تلك العلاقة على نحو أوضح إذا لاحظنا أن أغلبية الفلاسفة سبقوا الأدباء ، منذ ازدهار الفلسفة اليونانية ، إلى وضع المذاهب الأدبية المختلفة . فقد فطنوا إلى واجب الفلسفة حيال الأدب ، فطنوا إلى أن تحديد رسالة الأدب والفن من مهام الفلسفة الأساسية . وقبل أن نلم إلماما سريعا ببعض المذاهب التى وضعتها الفلسفة للأدب نقول : إن الأوضاع السياسية والاجتماعية فى مختلف العصور ، هى التى كانت تحدد فى الواقع اتجاهات كل منهما . ولكن الفلسفة التى كانت تحاول تفسير الوجود على

أساس عقلى أو تجريبى ، حاولت أن تنير الطريق للأدب الذى يحاول التعبير عن أثر الوجود فى الفكر والنفس على أساس فنى جمالى .

كان المجتمع فى اليونان القديمة ينقسم إلى سادة يضطلعون بأعباء الحكم ، ويمارسون السياسة والفلسفة والأدب ، وغير ذلك من المشاغل الفكرية والفنية ، وإلى عبيد يخدمون السادة ، ويضطلعون بالأعمال التى توفر لأولئك السادة رغد العيش . أى انقسمت الأعمال إلى فكرية نظرية ، ويدوية مادية . وعظم السادة المتحكمون فى الرقاب ، المبتدعون للمثل والمعتقدات التى تلائمهم ، شأن الأعمال الأولى ، واحتقروا شأن الأعمال الأخرى . ووقع الفلاسفة حينذاك ، وهم من طبقة السادة ، تحت تأثير هذا الوضع الاجتماعى ، وتشبعوا بتلك المثل والمعتقدات المتولدة منه ، بل نفخوا فيها ، وفلسفوها ، وتجاوزوا احتقار العمل اليدوى ، وكل ممارسة عملية مادية ، إلى احتقار الواقع المادى نفسه ، وقصر التمجيد على البحث النظرى والفكر المجرد . ومن ثم اتجهت الفلسفة هناك اتجاها نظريا مجردا ما زال بعض الفلاسفة الغربيين واقعين فى إساره إلى اليوم ، مدفوعين إلى ذلك بتيار السياسة الغربية الاستعمارية المهتمة بتحقير الواقع المادى ، حتى تأمن بقاء سيادتها المادية ، واحتفاظها بما انتهبته من أسلاب ، دون أن يهب أصحاب الحق لاستخلاصه من أيدى مغتصبيه .

والذى يعنينا فى هذا البحث من الفلسفة اليونانية القديمة واتجاهها النظرى ، فهمها للفن والجمال ، والمذاهب التى شرعتها لهما . وليس معنى هذا أننا سنتقصى تلك المذاهب ، ونتناول تفاصيلها بالدرس والتمحيص لندلل على صحة ما نذهب إليه . ولكننا سنتناول اتجاهها العام ، فإن فيه الدليل المطلوب ، وفيه الغناء عن كل إسهاب .

مما اشتهر به أفلاطون مذهبه فى الجمال ، وإذا علمنا أن الفنون كافة فى عصر ذلك الفيلسوف ، كانت تستهدف ابتداع مثل جمالية ، فإننا نستطيع أن نقول إن مذهبه المذكور ينسحب على الأعمال الأدبية ، كما ينسحب على الأعمال الفنية سواء بسواء .

أهم ما يقوم عليه ذلك المذهب الأفلاطونى ، هو التفرقة بين الجمال الدنيوى البادى فى أجسام الطبيعة وصورها المشاهدة ، وبين الجمال المثالى ، أو الجمال المطلق الذى لا يدركه

إلا الفلاسفة الذين استطاعوا التحرر من الماديات الأرضية ، والتحليق على جناح الخيال الموفق إلى سماوات المعنويات المطلقة ! ! . .

يقول أفلاطون ما معناه : « رجل الفن الذى يمثل حسنا مشاهدا ملتقطا من عالم الواقع ، لا يبتدع أثرا فنيا ذا قيمة ، لأن أنواع الحسن المشاهد وألوانه لا تحصى ، فيكون أثره الفنى بذلك قطرة ضئيلة فى محيط الجمال ، أى يكون تافها غير جدير بأى احتفال . أما رجل الفن الذى يحاول تسجيل الجمال المطلق فى آياته الفنية ، فإن مدى نجاح عمله الفنى يتوقف على توفيقه فى تصور ذلك الجمال المطلق وتصويره . . . »

وقد حاول أفلاطون أن يعطى للناس فكرة عن ذلك الجمال المطلق ، فجاء له بصفات مجردة تستثير الوهم وتستحث الخيال دون أن تعين أحدا على تحديد ذلك الجمال ، أو حتى تعريفه من الناحية العامة . وقد سار الفيلسوف أفلوطين على نهج أفلاطون ، وبشر بالجمال المطلق ، ولكنه عجز كذلك عن تعريفه ، واقتصر على خلع صفات عليه مستمدة من عالم الواقع المشاهد . . . وكرر بعض الفلاسفة مثل هذه المحاولة على مر الدهور ، فشبهوا الجمال المطلق بصفاء ضوء الفجر ، ونقاء قطر الندى ، وخفة الفراشة ، وطهارة العذراء . . . وواضح من عجز أولئك الفلاسفة عن الظفر بصفة واحدة يخلعونها على جمالهم المطلق غير مستمدة من عالم الواقع ، أن مثل هذا الجمال غير موجود ، ولا يمكن حتى ابتداعه فى عالم الخيال ، فكل صورة نتخيلها عنه هى مستمدة من المحاسن التى نشاهدها . . .

ظل الفلاسفة ينسجون فلسفاتهم من خيوط التفكير المجرد ، فلا يحاولون تفسير الواقع عن طريق الدراسة التجريبية ، ولكنهم يلتمسونه عن طريق التخريج المنطقى . ولم تتحول الفلسفة عن هذا النهج إلا بعد ازدهار العلوم فى أوربا ، وتعارض كشوفها مع ما رسخ فى الأذهان من نظريات فلسفية عتيقة . ومن ثم ظهر فلاسفة ينادون بضرورة تحول الفلسفة من ميدان الفكر المجرد المستمد من تجارب الحواس إلى الميدان العلمى ، وعدم اعترافها بأية حقيقة يتصورها العقل إلا إذا أمكن إثباتها علميا .

وليس هنا مجال دراسة كل من الفلسفة النظرية المجردة ، والفلسفة الواقعية العلمية ، والإلمام بخصائص كل منهما ، ولكننا سنقتصر على شرح الاتجاه العام لكل منهما ، إذ أن الأدب انقسم بدوره كالفلسفة إلى أدب خيالى مجرد ، وأدب واقعى ، والوقوف على كنه ذلك الانقسام الفلسفى يلقى الضوء على كنه الانقسام الأدبى .

بعد أن تأثرت الفلسفة النظرية بالتطور الاقتصادى والاجتماعى ، وبالازدهار العلمى ، وبكشوف الفلسفة الواقعية ، تحولت إلى فلسفة متناقضة مائعة ، تخفى حقيقتها المثالية فى إهاب واقعية مزيفة ، ونحن نشير فيما يلى إلى المبادئ التى استقرت عليها فى العصر الحديث ، بعد أن كانت تنكر الواقع المادى ، أو تشك فى وجوده :

١ — الاعتراف بأهمية الواقع المادى ، وبضرورة دراسته موضوعيا .

٢ — الفكرة سابقة على ذلك الواقع المادى ، وذهن الإنسان الممتاز هو الذى يبتدعها . وتطبيقها يؤدى إلى تطوير الواقع .

٣ — كل تطور اقتصادى واجتماعى يرجع إلى تطبيق الأفكار التى خلقها ذهن الأفراد الملهمين .

٤ — فكر الإنسان المبدع موهبة مستقلة قائمة بذاتها .

٥ — الأعمال الأدبية والفنية وليدة الإلهام الهابط على مبدعها .

ونقف من اتجاهات الفلسفة المثالية عند هذا الحد حتى لا يتشعب البحث .

أما الفلسفة الواقعية فقد انتهت بعد ما طرأ عليها من تطور إلى تقرير المبادئ التالية :

١ — أفكار الإنسان ومثله ومعنوياته كافة وليدة الواقع المادى السابق على الفكر البشرى ، وإن كانت تعود فتؤثر فى ذلك الواقع وتطوره تطويرا متبادلا .

٢ — علوم الإنسان ومعارفه وليدة نشاطه العملى فى ميدان الإنتاج ، وخبرته المطردة النماء ، وتطوره الاقتصادى والاجتماعى .

٣ — تطور البشرية يخضع لنظم موضوعية خارجة عن إرادة الإنسان ، وهذه النظم تعمل على غرار سائر النواميس الطبيعية .

٤ — الأعمال الأدبية والفنية وليدة نشاط اجتماعى ، وهى تتطور متأثرة بالتطور التاريخى ، والازدهار المادى .

وقد ارتسم الأدب كما قلنا طريق الفلسفة متأثرا بها ، وبالظروف التى أثرت فيها ، فانقسم إلى مذهبين رئيسيين يقع كل منهما تحت تأثير المذهب الفلسفى الذى يتبعه ، ويرتكز أولهما ، وهو المثالى ، على القواعد التالية :

١ — ليس الأدب وليد الواقع المادى ، ولا هو نشاط اجتماعى . ولكنه أثر فردى يبتدعه الأديب مستلهما وحى عبقريته .

٢ — ليس على الأديب تحرى الحق والخير فى أعماله الأدبية ، ولكن عليه أن يعبر تعبيرا فنيا دقيقا عن مشاعره وخواطره أيا كان بعد هذه الخواطر والمشاعر عن الصدق والخير والأمانة .

٣ — كلما كانت خواطر الأديب أشد تجريدا ، وأبعد عن وقائع الحياة ، استحقت احتفال النقاد المثاليين بها . فالفن تجريد . والواقع نقيض الفن .

٤ — لا يجوز أن يكون للأدب غاية . فهو الوسيلة والغاية مندمجين ، فإذا استهدف غاية تحول من عمل فنى إلى دعاية .

التزم الأدباء والشعراء المثاليون هذه القواعد فى إنتاجهم ، فانتهوا إلى الانحلال والإفلاس . لأن المعنويات لا تتولد كما قلنا إلا من الواقع . وقد انتهى بهم عزوفهم عن الواقع إلى التماس خواطرهم ومشاعرهم مما قرأوه فى مطالعاتهم ، أو مما علق بأذهانهم من ذكريات قديمة ، أو مما يزخرفه ذهنهم من أوهام شائهة شبيهة بأضغاث الأحلام .

أما القواعد التى يقوم عليها المذهب الواقعى فى الأدب فتتلخص فيما يلى :

١ — يستمد الأديب الواقعى موضوعاته ونماذجه البشرية من واقع الحياة مباشرة ، ولا يحاول تصويرها أو التعبير عنها إلا بعد محاولة سبر أغوارها ، والإلمام بما يلابسها من ظروف وملابسات .

٢ — الأديب الأصيل حى الضمير ، شديد الشعور بالحق والعدل الاجتماعيين ، غير غافل عن واجبه حيالهما .

٣ — يدرك الأديب الأصيل أن الأدب رسالة لا يجوز أن تلهيه أثرته عنها . وهو يدرك فحوى هذه الرسالة على قدر إدراكه للحقيقة التى ذكرناها . وهى أن الأدب نشاط اجتماعى ، ومشاركة اجتماعية فى الخواطر والمشاعر .

٤ — ويدرك الأديب الأصيل كذلك طبيعة الصراع القائم حوله بين المستغلين وبين من يستغلونهم ، كما يدرك الصراع القائم بين الجديد وبين القديم . إن مثل هذا الأديب يستطيع أن يلمح ذلك الصراع فى أى موضع يتناوله بقلمه ، وهو يعرف كيف يقف قلمه على نصرة اليقظات الواعية الثائرة على المستبدين بها . إن مثل هذا الأديب هو الذى يستطيع أن يحول أدبه من أداة لهو وإمتاع خسيس ، إلى قوة فعالة تخدم المجتمع ، وتهديه إلى سبيل النصر ؟

محمد مفيد الشوباشى

النقاش

بدأه الشيخ منصور رجب بإنكاره على المحاضر كون الفلسفة سابقة للأدب ، فيقول : «لعل الأمر على العكس ، وأن الأدب سابق للفلسفة ، لأن الفلسفة تتعلق أولا بالواقع ، ثم تجوزه إلى غيره ، وأما الأدب فأول ما يتعلق بالخيال ثم يجوزه الى غيره ، ومعلوم أن الإلهام أو الخيال سابقان على الواقع لتعلقهما بالروح . وأما الفلسفة أو الواقع فيتعلق بالعقل ، والروح سابقة على العقل ، لأنها وليدة الطبيعة الأولى ، وأما العقل فوليد المجتمع » .

إن توجيه نقاش السيد رجب على هذا الشكل كأن ، وإن لم يفصله بعد إجماله ، أما رد الأستاذ المحاضر فكان جملة واحدة ، هى : إن سبق الفلسفة للأدب يعنى وضع قواعده وتكوين مذهب له يشتمل على تلك القواعد .

وينكر الأستاذ محمد مصطفى الماحى على المحاضر أن الأدب يتصف بالخسة ما دام أدبا سواء كان ماديا أو معنويا ، ثم ينكر عليه أيضا كون الأدب الذاتى تافها لأن مدح الرجل العظيم وتأبينه ليس أدبا فرديا كما يتوهم أيضا أنصار الجديد وإنما هو تمجيد للفضيلة والفضيلة أدب عام ، وإنما تعصب أنصار الجديد أو همهم أن الأسلوب القديم أيا كان هو أدب ممقوت ، ولو أدى إلى نصرة الفضيلة ، وهذا عين قلة الأدب فى الأدب .

ويقول الأستاذ منصور رجب : « لماذا نسمى الأدب المعبر عن أحاسيس صاحبه فرديا أو ذاتيا ، طالما نرى أن هذه الأحاسيس إنما هى وليدة عالم تكونت فيه أو منه ، وهل الإنسان مستقل عن عالمه ؟ ؟ فالتعبير عن الأحاسيس أدب فنى ، لا من حيث الفردية أو الذاتية ، وإنما هو كذلك من حيث العموم أيضا » .

ويقول الأستاذ قنديل : « لم نستمسك بالنقاش حول أدب ذاتى وأدب مثالى بينما المحاضرة أرحب من ذلك ، فهى فى حيز الفلسفة وصلتها بالأدب ، وهذه الصلة أبعد مما حصرنا النقاش فيه وقصرناه عليه » .

الحومانى : يقر نظرية الأستاذ الماحى فى أن الأدب الذى يعبر عن أحاسيس تجاه ممدوح أو مذموم ، ليس أدبا ذاتيا لأنه شركة بين الذات المعبرة والذوات المعبر عنها ، وهل العالمية أو العمومية أكثر من هذا .

فإذا أقيم مهرجان لذكرى أبى العلاء المعرى أو لأبى الطيب المتنبى ، وتبارى الشعراء فى التعبير عن أحاسيسهم تجاه ذينك العلمين ، نعتبر تعبيرهم هـذا فرديا أو ذاتيا ، أى أنه خاص بذات المعبر وفرديته ؟ ؟ ولماذا إذن تهتز الجماهير التى تسمع هذا المعبر إذا لم يكن بين أحاسيسها وأحاسيس المعبرين صلة عالمية ؟ ؟ أعتقد أن من السفاهة القول بأن الأديب إذا توفرت لديه رسالة الأدب الفنية يكون تارة فردا وطورا عالما ، إن الفردية لا تتميز عن العالمية بالأدب ، وإنما تتميز بالشخصية التى تسم الفرد بفرديته ، ولا تعنى شيئا من مميزاته فى غيره من أفراد مجتمعه .

التعليق

فى المحاضرة التى ألقاها صاحب هذا التعليق على أعضاء الندوة فى منزل الأستاذ عبد الله عبد الجبار ، كثير من البحث حول الأدب والتحليل المسمى بالفلسفة عند القدماء ، ولعل البحث هناك يغنى عن كل بحث يتناوله القلم بالتعليق هنا ، ولـكنى أحببت أن أشير هنا إلى أمور هامة لعلها لم تتوضح هناك ، منها : علاقة الفلسفة بالأدب .

إنى لأعجب من كل قول يميز بين هذه العلاقة وبين العلاقة الفلسفية مع أى نوع من أنواع الثقافة والعلوم ، فالفلسفة مرادفة للحكمة ، والحـكمة هى الوصول إلى كنه الأشياء من وراء الإحاطة بأسبابها وغاياتها ، فإذا كانت الفلسفة هى أداة التحليل والتعليـل ، أو كانت أياهما ، صح معنا القول بأن علاقتها مع كل شىء على السـواء ، فالأدب شىء ، والعلم شىء ، والجهل شىء ، والصناعة شىء ، وهكذا نجد أن كل مايقع الحس عليه شىء يتناوله عقل الحـكيم «الفيلسوف» بالتحليل والتعليل ، وعلاقة الحـكمة التى هى الفلسفة بكل شىء واحدة من حيث الوظيفة التى تتقوم بها الحـكمة .

الفلسفة كالمسبر يبحث الطبيب الحاذق به عن العلة فيما يسبر من الجسم ، وهكذا نجد الفيلسوف كهذا الطبيب ، يرسل أشعة حكمته على كل محسوس له ، فيتبين من وراء هذا الإشعاع مصدر هذا المحسوس ومآله الذى هو السر فى وجوده ، فعلاقة هذه الحـكمة التى نسميها فلسفة ، بالأدب كعلاقتها بكل محسـوس للفيلسوف من حيث التعليل والتحليل ، فلا فرق بين تحليل الأدب وتحليل العلم ، ولا بين تحليل المادة أو تحليل الروح ، فليست

هـذه سوى إدراك الـكنه مما يقع تحت الحس ، ثم إدراك الغاية التى يرمى إليها ذلك الواقع بوجوده .

(ثانيا) أرانى على النقيض من كل من يعدد الأدب بكونه ذاتيا وخارجيا ، أو فرديا وعالميا ، فليس فى الأدب شىء من ذلك ، وإنما فيه أدب محلق وأدب مسف ، أدب رائع وأدب تافه ، فى الأدب سمو وانحدار ، فعلى مقـدار سمو الأدب فى الحياة ، يكون جمالا وخيرا يتناول العالمية والفردية معا ، وعلى مقـدار ما ينحدر الأدب ، يكون عبثا تتعالى عنه العوالم والأفراد .

فأنا ماذا لأكون فردا ، والواقع الذى أنا فيـه ومنه ماذا ليكون عالما ؟ ؟ أنا من هذا العالم الذى يتقوم بى وبغيرى من أجزائه أو جزئياته ، فـكيف أكون غيره ويكون غيرى ؟ ؟ وكيف أتعداه إن نظرت إلى ذاتى وأتجاوز ذاتى إن نظرت إليه وأمعنت فيه ؟ ؟ أنا من عالم هذا الإنسان الذى هو أنا .

أنا الـكون فاهتزى دما فى وانبضى فؤادا يمد الـكون بالخفقان

أإذا عبرت عن أحاسيسى أكون أديبا ذاتيا أو فرديا ؟ ؟ وما هى هذه الأحاسيس ؟؟ وماذا أحسست ؟ ؟ ومم تـكون هـذا الإحساس ؟ ؟ إن القلب الذى بين جنبى هو غير القلب الذى بين جنبى قارئى وسامعى ، والعقل الذى بين فودى هو العقل الذى بين فوديهما ، ثم إن التيار المادى والروحى الذى تـكونت منه القلوب والعقول ، هو مصدر خفقانها فى الحياة ، والتقاطها أسرار الـكون وعلل الوجود فيه .

أإذا فـكرت فى إحساسى بالحياة كنت مفكرا فى غير الحياة ؟ ؟ وإذا فـكرت فى الحياة كنت مفكرا فى غير إحساسى بها ؟ ؟ ما هى إذن هـذه الحياة المنفصلة عنى ، وما هو هذا الإحساس البعيد عنها ؟ ؟ إن أعلام البحث الذرى اليوم يثبتون أن مادة كل شىء واحدة ، وأن كل تغاير بين حركات هـذه الـكوائن إنما هو نتيجة التركيب كما وكيفا ، فإذا شئنا بحث أى كائن عمدنا إلى تعليل كمه وكيفه ، ثم إلى الإحاطة بكنه مصدره والغاية من وجوده ، فإذن نرى أن التغاير ناشئ فى تركيب الشىء لا فى المادة التى تركب منها ، وإذن فالبحث فى ذاتى إنماهو بحث فى ذاتك ، وبحث ذاتك هو عين

البحث فى ذاتى من حيث السر الذى كنا منه ثم عدنا إليه ، فليس الأدب إذن موضوع الصفة عالمية أو ذاتية ، وإنما هو موضوع لبحث الذات أو العالم الذى يتقوم بالذات .

(ثالثا) يرمى الأستاذ المحاضر من وراء كلمته إلى الواقعية فى الأدب ، لأنه يرى الحياة واقعية كل اشتراكى حر ، وهذا ما نقره عليه ، لأن الإنسانية تأبى أن تكون إلا اشتراكية موزعة على أبنائها الأحياء ، ولكن الذى نخالفه فيه ، ونأبى أن نقره عليه ، هو أن لا تكون مشاعر الأديب وآراؤه مطابقة للواقع فيما إذا تخيل أو كان أدبه ذاتيا ، لاعتقادنا أن الإنسان إذا تشرف بلقب الأديب ، لا يبعد عن الواقع فى أدبه ، بل لا يتخلى عنه ، لأن الخيال العارى عن الحقيقة الكامنة وراءه ، مفقود فى كيان الأديب ، وتوضيح هذا البحث قائم فى المحاضرة الثانية من هذا الكتاب .

(رابعا) مؤاخذة المحاضر بنسبة العجز للحكماء الأولين الذين شبهوا الجمال المطلق بصفاء ضوء الفجر ونقاء قطر الندى ونحو ذلك من الجمال البديهى فى الأشياء ، ويبرر نسبة العجز لهم بأنهم لم يظفروا بصفة يخلعونها على جمالهم المطلق غير مستمدة من عالم الواقع ، ثم ينكر وجود مثل هذا الجمال المطلق .

أواخذ الأستاذ المحاضر بلهجته الساخرة التى يضفيها على الحكماء السابقين ، بأنهم لم يكونوا بهذا التشبيه موضع السخرية ، لأن تشبيههم الجمال المطلق الذى يتعالى عن إدراك الحس بصورة من الواقع تحت الحس ، ليس ناشئاً فيهم عن عجز ، وإنما هو تقريب لفهم العامة كما يجرى فى كثير من مواطن البيان . فإن الله تعالى شبه نوره المتعالى عن إدراك الحس بالمصباح الذى هو واقع تحت الحس ، لتقريب حقيقة النور من فهم الإنسان المحدود فى فهمه .

فالجمال المطلق ، ولعل كل شىء مطلق ، لا يستجيب للعقل المحدود بالفهم ، ولكن الإحساس الباطنى ، أو ما نسميه بالوجدان المتعلق بإلهام الطبيعة ، يدرك هذا الجمال ويعجز عن تحديده .

(خامساً) لست مع المحاضر فى أن الواقع هو كل شىء فى الحياة ، وإنما أرى أن الحياة هى كل شىء فى هذا الواقع ، فإذا كان الإنسان وليد الحياة التى هى كل الواقع فمن أين يتسنى له أن يفكر أو يتصور غير الواقع ؟ ؟

فإذا كان الواقع صمما لنا . وكان ما وراء الواقع بعيدا عنا ومغايرا لنا ، فكيف ننسب للفكر الحكيم أنه غير واقعى ؟ ؟ وما معنى غير واقع ؟ ؟ وهل أدركنا كل شىء فى الواقع حتى نحدد هذا الواقع ؟ ؟ أفما نرى العقل فى كل عصر يكشف لنا من الواقع ما كنا نحسبه غير واقع ، فنسميه بالخيال تارة ، وبالمثال تارة أخرى ؟ ؟ وما هو هذا الخيال وذلك المثال ؟ هل هما إلا واقع لم تكشفه بعد أشعة العقل الحكيم فى الحياة ؟ ؟

(سادسا وأخيرا) أرى المحاضر قد أفرط فى تهشيم زملائه الشعراء والأدباء ، بنسبة الانحلال والإفلاس لهم ، لأن الأديب الحق المبدع فى تصوير الحياة والتعبير عنها ، لا يكون عرضة للانحلال ولا للافلاس ، مهما أمعن فى التجرد والبعد عما يسميه واقعا ، لأن الخيال كما أوضحنا فى المحاضرة الثانية ، إنما هو الحقيقة التى لم يؤهلها العقل للكشف بعد لافتقاره إلى العلم ، ولو أمعن الأستاذ المحاضر قليلا فى تخيلات الشعراء قبل ألف عام ، لرأى أكثرها قد تحجر وأصبح حقيقة بعد أن كنا نعده خيالا .

وهناك تعليق على التعليق أحب أن لا يفوتنى الخوض فيه : ذلك أن الأستاذ المحاضر جعل عواطفه مع الأديب الواقعى ، حينما قسم الأدب إلى مثالى وواقعى . ثم جعل الأديب الذى يحبه وهو الواقعى ، جعله يستمد موضوعاته ونماذجه من واقع الحياة مباشرة ، ولا يحاول تصويرها إلا بعد سبر أغوارها الخ . .

إذا جعلنا الأديب الواقعى هو الأديب الحق ، والمفروض فى الواقع هو ما تحت حسنا ، فمن هو الأديب المبدع أو الخالق ؟ ؟ وأين نجده إذا جعلنا احترامنا وتقديرنا وقفا على الواقعى الذى يصور لنا الحياة التى تحدق بنا ، وهل نحن فى حاجة إلى تصوير حياتنا فقط ، إذن لوقفنا جامدين عند هذه الحياة ، ولماذا إذن نطبل ونزمر للتجديد ؟؟ وما هو هذا التجديد الذى نطمح إليه ؟ ؟ وكيف يكون فى الأديب إذا دعونا الأديب إلى تصوير الحياة الراهنة فقط ، ونعينا عليه تخيل حياة لم تكن فى سبيل كونها من جديد ؟ ؟

إن التطور فى الحياة ، كان ولا يزال وقفا على الخياليين المثاليين الذين يتخيرون فى تصورهم مما كان ويكون ما ليس بكائن ، ذلك هو الجديد الذى نطمح إليه ، ونعول عليه فى سمو المدارك والابتهاج بالحياة ، أفليست الحياة القائمة على وتيرة واحدة مملة للحى ؟؟

أفلا تتوق النفس البشرية أبدا إلى ماليس فى كيانها من ألوان الحياة ؟ ؟ أفلا يكون تطلع النفس دائما الى جديد الحياة ؟ فإذا قصرناها على الحبس فى إطارحياة ، نشأت عليها ودرجت فيها ، أجنت وركدت وتفسخت آخر الأمر .

إذن فليس الأدب الواقعى أملنا المنشود فى الحياة ، لأنه وقف على التعبير عن حياة هى بين أيدينا ، وفائدته قاصرة على تنبيه الغافل عن حياته إلى نفس هـــذه الحياة ، وأما الطبقة المتنبهة منا ، فماذا يفيدها تصوير حياة ملوها وتشوقوا إلى حياة أسمى منها ، هل يفيدهم مثل هـذا الأدب ، أم يتطلعون إلى أدب خالق مجدد ، ينقذهم من السأم القائم فى نفوسهم بالنقمة على حياتهم المملولة ؟ ؟ ؟

فالأدب الواقعى ، ضرورة ماسة لتفهم الحياة التى هى بين أيدينا ، ولاســتغلالها استغلالا نطمئن معه إلى الراحة فى الحصول على ما تتقوم به أجسامنا من طعام وشراب ، وأما الأدب المثالى فهو ضرورى لنا من أجل الطموح إلى حياة أسمى وأخلق بالحى ، والمدنية القائمة اليوم بروعتها ، إنما كانت وليـدة الخيال السامى الذى رمز إليها بأدبه الخلاق ، فمشى العلمـاء متأثرين هذه الخيالات وحققوها ، فأصبحنا بفضلها عالما يطير فى السماء ، ويغوص تحت المـاء ، ويقرب البعيد ، ويعزز النور ، ويفعل كل ما كان يقوله الإنسان وهو قابع فى زواياه من مظلمات الحياة القاسية ، التى كنا نطلق عليها لفظ الواقع ، والتى لولا المثاليون لما ترقينا بها ، ولـكنا لا نزال نركب الحيوان ، ونعشو إلى السرج .

والعود فى تفسير ذلك كله إلى المحاضرة الثانية من هذا الـكتاب ضرورى لازم .

المحاضرة العاشرة :

حياة المحاضر

الأستاذ إبراهيم الفلالى

سيرة حياته



مولده ولد بمكة عام ١٣٢٤ هجرية الموافق ١٩٠٣ ميلادية .

دراسته نشأ متخرجا على النهج القديم فى الدراسة ، فأخذ علوم اللغة والبيان والمنطق والفقه والحديث ونحو ذلك من العلوم العربية الإسلامية عامة ، ولم يتقيد بنظام الدراسة الحديث لشيوع هذا الطراز من التعليم على عهد الأتراك فى بلاد العرب ، وقد كانت الفوضى عنوان التدريس فى ممتلكات العثمانيين لكرههم العرب ، ولضعف الدين فى نفوسهم .

عمله شغل المحاضر عدة وظائف ، منها : التدريس فى إحدى المدارس النظامية بمكة المكرمة ، ثم ترك هذه المهنة ، وكان محاسبا للإسعاف الخيرى ، ثم قائما بأعمال الدفاع عن فلسطين ،

ثم عضوا فى لجنة التمييز ، ثم كان آخر الأمر مراقبا مساعدا بدار البعثات السعودية فى مصر .

وقد اعتزل العمل النظامى بعد ذلك ، وعمل فى التجارة والأدب على ضفاف النيل ، مؤثرا حياته هذه على أى عمل آخر .

آثاره

من آثاره المنشورة : كتاب « رجالات الحجاز » ، وكتاب « مع الشيطان » ، وكتاب « المرصاد » وهو جزآن ، هذا من نتاجه المنثور . أما المنظوم ، فقد أخرج منه ثلاثة دواوين ، أولها : « صبابة الكاس » ، والثانى : « ألحانى » ، والثالث : « صدى الألحان » .

شخصيته

الأستاذ الفلالى شاعر بشمائله ، فلا تبصره أو تسمعه إلا وحسبت أنك والشعر فى أفق واحد ، يتجلى عليك منه ، ما يفرض عليك حبه واحترامه .

وهو ذكى لبق فى الحرص على محبة إخوانه ، ويساهم فضلا عن فنه ، فى كثير من علوم الفكر واللسان . ففى كل ندوة تسمع له بحثا يملأ نفسك إعجابا بما يفكر ويقول ، وبيته منتدى أدب وعلم ، وسخاء عربى أصيل .

المحاضرة العاشرة

شخصية الأمة العربية ومقوماتها بعد الإسلام

ألقيت فى منزل الدكتور الأحمدى الظواهرى أحد أعضاء الندوة
مساء يوم الأربعاء فى ٢٦ / ٨ / ٧٤ الموافق ٢٢ / ٤ / ٥٥

لم تكن للأمة العربية — قبل الإسلام — شخصية عالمية قوية يخشى غضبها ، ويرجى رضاها . بل كانت شخصيتها شخصية بدائية محلية تسودها الفوضى ، وتفتك بها الأحقاد ، ويستبد بها الجهل ، لا تعنى بأمر العالم ، ولا يعنى العالم بأمرها ، إلا كما يعنى بالأمم البدائية وسكان المجاهل .

فلما جاء الإسلام أعطاها كل مقومات الشخصية القوية ، وجعلها شخصية عالمية ، تخرج من خلف جبالها . وتبرز للناس برسالة إلهية سامية تدعو الناس جميعا لاعتناقها . وكانت رسالتها تحرير العقول من التجمد والتحجر ، والضمائر من الخوف والمذلة ، والنفوس من الضعة والخنوع ، كما دعت إلى نبذ النعرات الدينية والعنصرية والإقليمية التى يتعادى الناس بسببها ويحتربون . ودعت الناس جميعا إلى وحدة عالمية كبرى ليخلصوا من الاشتغال بالخصومات السخيفة ، إلى الاشتغال باجتلاء الكون وأسراره ، والكشف عن غوامضه وكنوزه والقوى الكامنة فيه وتسخيرها لأمنه ورخائه ومصلحته ليكون الإنسان خليفة الله فى أرضه بحق ، وليقتنع عقله وروحه بيارئ السموات والأرض وما بينهما ، فلا يجعل له نداً من صنع يده ، يذل له ويخضع لجبروته وطغيانه ، وتضليله وخداعه « يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون . الذى جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون » .

« قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله » .

وبدأت الأمة العربية بأصنامها ، فحطمتها ، وجعلتها مواطئ أقدامها سواء أكانت تلك الأصنام حجراً أم بشرا . ومحت الفوارق العنصرية وألغت التمايز بين الألوان والأجناس فلا ميزة للون على لون و « لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى » ، « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .

وأشادت بالعلم والعلماء « إنما يخشى الله من عباده العلماء » ، « يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات » ، « أفمن يمشى مكبا على وجهه أهدى أمن يمشى سويا على صراط مستقيم » ، وفرضت طلب العلم على الرجال والنساء ، « طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة » ، ولم تفرض نظاما من نظم الحكم على الناس بل تركت لهم الحرية الكاملة فى اختيار النظام الذى يريدون أن يحكموا به ، ولم تقيدهم إلا بالشورى ، « وشاورهم فى الأمر » ، « وأمرهم شورى بينهم » .

والنظام الملكى لم يشرعه الإسلام لما يصحبه من اثرة وعصبية ، ولذلك لم يرضه رسول الله صلى الله عليه وسلم لنفسه . ولم يوص به من بعده ، ولم يمل إليه أحد من الخلفاء الراشدين ، بل اختاروا نظاما هو أقرب ما يكون إلى النظام الجمهورى ، حتى لا يستبد فرد أو أسرة أو طائفة أو رهط بالحكم ، ويستأثروا به لأنفسهم ويورثوه أعقابهم من دون الناس . ولما أراد سعد بن عبادة أن ينصب نفسه ملكا عليهم قتلوه ، وهو من هو فى صحبته للرسول وبلائه فى الإسلام .

كان ذلك من الأمة العربية فى وقت كانت فيه الدنيا من حولهم لا تعرف فى واقعها إلا النظام الملكى إذ كان سائدا فى فارس والروم ، وفى الهند والصين والحبشة وفى غيرها من البلاد . ولما انحرف العرب إلى النظام الملكى ، فقدوا شخصيتهم القوية ، وفقدوا مقوماتها ومكنوا للنعرات العنصرية والطائفية والقبلية أن تبعث من مقابرها ، وتعيث فى الأرض فسادا ، وتشيع فى الدولة العربية انحلالا ، وتحيل الدعوة الإسلامية جدلا وأقوالا .

وقد عنيت الدعوة الإسـلامية بكل نشاط حيوى للانسان ، وأبدت رأيها فيه ، ووضعت الحـلول الحاسمة لمشاكله . فحرمت كل ما يضر بالإنسانية جماعات وأفرادا . واعترفت بحقوق الإنسان وكرامته فمن وحيها قال عمر بن الخطاب لعمرو بن العاص حاكم مصر وفاتحها حينما ضرب ابنه قبطيا من أقباط مصر « متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا » وأعطى السوط للقبطى وقال له : « اضرب ابن الأكرمين »

واعترف الإسـلام بحقوق المرأة فجعلها تتساوى مع الرجل أمام القضاء وأعطاها الحرية الـكاملة فى اختيار الزوج الذى تريده . وفى امتلاك المال واستثماره ، وساواها بالرجل فى التعليم . وهو أن جعل لها نصيبا أقل فى الميراث إن كان لها شركاء من الرجال فلأنه لم يوجب عليها نفقة لأحد بل ألزم الرجال بالنفقة عليها وترك لها الحرية المطلقة فى قبول هذه النفقة أو رفضها ، وإن جعل شهادتها أقل من شهادة الرجل فلأن ما تعانيه من آلام الحمل والولادة وما تدره من لبن وما تنزفه من دم قد يجعلها تنسى بعض الدقائق فتذكر إحداهما الأخرى بما تقتضيها الشهادة أمام القضاء ، والقضاء دقة وتحر ، ونزاهة واحتراز .

وتدرج الإسلام فى إبطال الرق ومحوه من الوجود كما هو أسلوبه فى معالجة المشاكل الإنسانية ، ونظم أموال الدولة وثروة الأمة . فأموال الدولة لا تصرف إلا فى مرافق الدولة . وجعل لـكل من تظله دولته نصيبا فى مالها أيا كان دينه وأيا كان لونه ، وجعل للأمة حق الإشراف على أموال الدولة ومحاسبة المهيمنين عليها . أما ثروة الأمة فقد نظمها أيضا وذلك بفرض الزكاة على الأغنياء ، وتحريم الاكتناز ، الاحتـكار والربا والميسر . وجعل للسائل والمحروم حقا معلوما فى أموال الموسرين « وفى أموالهم حق معـلوم للسائل والمحروم » ، ولم يحظر علينا تنظيم كل أولئك بما يتلاءم مع كل زمان ومكان . فقد نظم عمر أموال الدولة تنظيما لم يكن فى عهد الرسول ولا فى عهد أبى بكر وأمم سواد العراق لمصلحة الأمة ، وجعل للخادم والأجير حق التساوى مع مستخدميهما فى المأكل والمشرب والمسكن وحق التعليم والعلاج ، ولم يحظر الإسلام على الخدم والأجراء ممارسة أى عمل من الأعمال حتى الحـكم إذا أبدوا صلاحيتهم له ، وانتخبهم الناس .

وحرية العقيدة فى الإسلام مكفولة ، فهو لا يكره أحدا على ترك دينه « لا أكراه

فى الدين قد تبين الرشد من الغى » وكذلك حرية العمل مكفولة فى الإسلام « قل كل يعمل على شاكلته فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلا » والإسلام لا يغمط حق المحسن فى عمله أيا كان دينه أو جنسه أو لونه « أنا لا نضيع أجر من أحسن عملا » .

وحدود الاسلام لاتطبق إلا إذا أديت التزاماته ، فالسارق لاتقطع يده فى مجتمع مختل الموازين لا تسوده العدالة الاجتماعية الحقة ، والحد فى جريمة الزنا لايقام إلا بشهادة أربعة شهود عدول شهادة لايمكن أن تتحقق الا على مستهتر داعر مستخف بالآداب العامة غير محترم لشعور المجتمع وشرائعه ، وجعل الإسلام حدودا للحاكم يجب ألا يتعداها فلا يستأثر بمال ولابرأى ولا بحكم ولا بأسرة ولا بطائفة ولا برهط يركبهم أعناق الناس ، فإذا تنزه من كل أولئك فعلى الجماعة طاعته . فإذا أخل بالتزاماته نحو الجماعة وتعدى حدوده ، فلا طاعة له على أحد بل يصبح من يطيعه خائنا للأمة ، وعلى الجماعة تنحيته من الحكم ولو بقوة السلاح .

وقد نحى العرب عثمان بن عفان بالقوة عن الخلافة لما قيل إنه استأثر بأموال الدولة ووظائفها ووجهها لأقربائه ، وعلى الاختلاف فى كل ما قيل عن هذه الواقعة فإننى إنما أسوق حادثة سلفت لأمة العرب حينما كانت مرهفة الشعور بواجبها وحقوقها ومقومات شخصيتها . ومن مقومات الشخصية القوية عند العرب والتى منحها الإسلام لمتبعيه أن طالب الولاية لايولى حرصا على حرية الناس من أن يتولى أمورهم من يرغمهم على ولايته بالقوة أو بالمال أو بذلاقة اللسان وفصاحته أو بجمال الهيئة وروعة مظهرها . بل لقد بلغ التحرج بعبدالله بن عمر أن قال للناس حينما رشحه بعضهم للخلافة ما مفهومه « والله لولم ينتطح فى توليتى الخلافة إلا عنزتان لما قبلتها ، فكيف ولم يجمع الناس على ذلك » .

تلك هى بعض المثل العليا ، التى اعتنقتها العروبة وآمنت بها ، ونشطت فى الدعوة إليها ، فكانت أمة قوية ومنها تكونت شخصيتها العالمية تلك الشخصية التى صهرت فى بوتقتها كثيرا من الأمم واللغات وأحالتها إلى أمة عربية ذات لسان عربى مبين ، والتى بلغت فى عصرنا هذا سبعين مليون نسمة تسكن فى رقعة تمتد من مضيق جبل طارق إلى منتهى الخليج الفارسى غربا وشرقا ، ومن جبال الأحقاف إلى جبال الأناضول شمالا وجنوبا ، ويتخذ أربعمائة مليون مسلم فى شتى أنحاء الأرض من موطنها قبلة ، ومن مجموعتها قدوة ،

ومن مقومات شخصيتها مثلا أعلى . ولكن تلك المقومات لم يعد لها وجود فى حياة الأمة العربية — مع الأسف الشديد — فهى الآن كما كانت قبل الإسلام أمة لا شخصية لها تسودها الفوضى وتفتك بها الأحقاد ، ويستبد بها الجهل ، فالاستعمار الغربى جاثم فى بعض بلادها بكل ما فيه من وقاحة واستهتار ، وبكل ما فيه من توحش وغلظة ، وذلك ماثل فى شمال إفريقية ، وفى البلاد الواقعة على ساحل الخليج الفارسى ، وفى أطراف اليمن وفى طرف من أطراف الشام ، وبعض بلادها يتمثل فيها الاستعمار بمثل ما كان يتمثل فى حكم الروم لبلاد الشام بواسطة الغساسنة ، وحكم الفرس للعراق بواسطة المناذرة ، وحكم الحبشة لليمن بواسطة الأبارهة .

لقد فقدنا مقوماتنا الشخصية ففقدنا معها كل شىء ، ولم يعد لنا ما نرتكز عليه فى معترك الحياة والأحياء . فالمسلم لا يعرف من الإسلام إلا اسمه لأن هذا الاسم أصبح علما للغموض والبلبلة فى أذهان البعض ، وعلما للرجعية والجمود والتعصب فى أذهان البعض الآخر ، أما فى أذهان كثير من المثقفين ومن يقال إنهم مستنيرون فهو طقوس كنسية يجب ألا تخرج عن ساحات المساجد والمعابد إلى حياة الناس ولا تشاركهم فى مشاكلهم ونظمهم وتشريعاتهم ، وأصبحت مجتمعاتنا فى حيرة مما تسمع وترى فداعية الإسلام عند الكثيرين رجعى متعصب ، وداعية العروبة مأفون جاهل ، وداعية الحرية زنديق ملحد ، وداعية الديموقراطية عبد خائن ، وداعية الاستسلام للأمر الواقع انهزامى جبان ، وداعية الشيوعية يسارى متطرف ، وضاع الإسلام وضاع العلم وضاعت العروبة وضاعت الحرية وضاع كل شىء بين تناكر الدعوات وصراخ الدعاة . واقتنصت منا فلسطين ، واستشهد منا شباب وكهول بسيف المكر والخديعة والتضليل ، وأكلت الرياح السافيات والقفار الموحشة مليونا من أبناء العروبة ، وبكينا مأساة كأحر ما يكون البكاء وبينما نحن شرقى بالدموع يحالف نورى السعيد الغرب ، ويهدد الأتراك سوريا ، وتتوالى علينا لطمات اسرائيل ولا ندرى ما يأتى به الغد ؟

وإذا تساءلنا لماذا يستهتر بنا العالم هذا الاستهتار ؟ ولماذا لم يستمع مجلس الأمن لشكاوانا المكرورة ؟ ولماذا تكون أطراف اليمن مهادا للانجليز ؟ ولماذا تستعمر فرنسا شمال إفريقيا ؟ ولماذا يكون الخليج الفارسى منشأ ثانيا لبريطانيا ؟ ولماذا يهددنا الأتراك فى سوريا ؟ ولماذا

يكفر نورى السعيد بنا وهو منا ويؤمن بالغرب ؟ وأخيراً لماذا ينقسم العالم إلى كتلتين ونحن بينهما كالكرة بين أقدام اللاعبين ؟

إن أجوبة كل هذه الأسئلة تكمن فى شىء واحد : هو أننا فقدنا مقومات الحياة الصحيحة التى هى الإسلام الصحيح وبذلك فقدت الأمة العربية شخصيتها القوية فهانت على نفسها وهانت على الناس .

فنحن الآن لسنا ديمقراطيين ، ولسنا شيوعيين ، ولسنا شرقيين ، ولسنا يهودا ، ولسنا إسلاميين ، وبالتالى لسنا عربا . هذا هو واقعنا المؤسف ، لا بل المخجل . أليس الحاكم خصما للمحكوم ؟ أليس المحكوم يتربص بحاكمه الدوائر ؟ أليست مجتمعاتنا تعيش فى بلبلة فكرية وعقيدية وإدارية ؟ أليست موازين العدالة مختلة ؟ أليست وجهات النظر فى الإسلام مختلفة ؟ أليست نظمنا القضائية متناكرة ؟ أليست حرياتنا مقيدة ؟ أليست نظم الحكم فى بلادنا استبدادية فى شتى ألوانها ؟ أليست النعرات القبلية سائدة فى بعض بلادنا ، والطائفية فى بعضها الآخر ؟ أليست بعض الفنون والعلوم تحارب فى بعض البلاد كما يحارب الرجس والمنكر ؟ أليست أهواء الكبار وأفكارهم دينا يجب أن يتبع ، والحكام آلهة يجب أن تعبد ؟ أليس علماء الدين سدنة للآلهة يجب أن تلغى أمامهم العقول الإنسانية ويجب أن تقدم لهم المواهب والملكات قرابين يتصرفون بها كما يشاءون ؟ أليست الحدود تقام على الضعفاء ولا تقام على الأسر التى يقال عنها كريمة ؟ بلى كل ذلك وأكثر منه ماثل فى الأمة العربية للمبصرين . والكتلة الشرقية ، والغربية ، والصهيونية العالمية أحد بصرا ، وأعمق رؤية لذلك منا ، ولو لم تكن أحد بصرا لما اجترأت اسرائيل علينا ، ولما سمعنا — وطالما سمعنا — من الاستعمار وهو يتذرع ببقائه فى بلادنا بحجة حماية العرش ، أو بحجة أن المستوى المعيشى منحط فى مجتمعاتنا وهو يخشى من تفشى الشيوعية فيها ، أو بحجة أننا ليست لنا قوة كافية فما لو اعتدى علينا معتد ، أو بحجة أننا لسنا أهلا لحكم أنفسنا بأنفسنا ، أو بحجة حماية الأقليات . وما كان له أن يقول مثل هذه الأقاويل لولا وجود تلك الثغرات فى حياتنا .

انه يقول ما يقول لأمة فقدت كل مقوماتها الشخصية ، روحية كانت أم مادية ، أما مقوماتها الروحية فهى كافرة بها ، أو مرتابة فيها ، وليس لها من المقومات المادية

غير ما يراه من كرسى الحكم الفخم أو الملابس المزركشة ، أو الأوسمة البراقة ، أو القصر الشامخ ، أو الدارة الأنيقة ، أو غير ذلك من مظاهر الفخفخة الزائفة التى لا تغنى شيئاً فى قوة الشخصية ، ومواقف الشرف والكبرياء .

***

هذه كلمة استعرضت فى صدرها بسرعة المقومات الشخصية التى كونت لأمة العرب شخصية مستقلة تستطيع أن تقابل العالم بها . وتقف أمامه قوية مسيطرة شامخة بعد أن كانت أمة بدائية محلية لا خطر لها ولها شأن ، وأبنت بعد ذلك كيف تهافتت شخصيتها لما تنكرت لمقوماتها فاجترأ عليها البعيد والقريب ، وهانت على نفسها وعلى الناس ، وصغرنا حتى صغرنا اليهود ، وإنى إذ أعرض ذلك فإنما أعرض الواقع المر الأليم ، وأرى أن العودة لمقوماتنا الشخصية هو العلاج الذى يخرجنا من المحنة التى نعانيها .

وإنى إذ أرى ذلك فإنما أعرض لكم وجهة نظر للمناقشة ، فإننا الآن فى وضع لا يتسع للجدل ، وإنما هو يستدعى العمل ، ونحن فى ظلال ثروة مصر وما تحمل فى فلسفتها من اتجاه سليم وآراء مسددة وآمال يتمنى المخلصون للعروبة أن تتحقق يجب علينا أن نسهم بأفكارنا فيما نراه مخرجا للأمة العربية من محنتها ، ففى غير ظل هذه الثورة لا يتاح لمثل هذا القول أن يتفوه به أحد ، ويبقى علينا بعد ذلك أن نبين ماهو الطريق الذى يجب أن نسلكه للعودة إلى مقومات الشخصية العربية ، ولذلك حديث آخر نرجئه لميقاته والله من وراء القصد وهو ولى المخلصين ؟

ابراهيم هاشم فلالى

احتكره الدكتور على عبد الواحد إذ قال : يظهر أن اختلاف

النقاش : الموضوع عن العنوان ، أصبح طرازا لكثير من المحاضرين في ندوتنا حتى شمل الأستاذ الفلالى ، فإن موضوعه شيء وهو إسلامى صرف ، وعنوانه شيء آخر وهو عربى صرف ، إنك تتكلم عن نظام إسلامى تمسك به أهله أولا ، ثم انصرفوا عنه أخيرا ، وهذا ما تسميه أنت بشخصية الأمة العربية بعد الإسلام .

فخبذا لو أسميت المحاضرة : بمقومات الدين الإسلامى أو الإسلام كدين اجتماعى ، ثم بحثت على ضوء هذين العنوانين ما شئت من بحثك هذا ، تلك هى ملاحظتى العامة ، ثم لى نقاش آخر بعد ذلك ، حول ادعائك أن الأمة العربية كانت قبل الإسلام منطوية على نفسها فى مجاهل تسودها الفوضى ويستبد بها الجهل . وهذا غاية ما يأثم به الكاتب المؤرخ ، فإن الأمة العربية ، وخاصة قريش ، كان لها شخصية قوية عالمية . والقرآن يحدثنا فى كثير من قصصه عن مدنية العرب وحضاراتهم فى قلب الجزيرة وجنوبها .

ولو لم يكن إلا اللغة العربية التى نزل بها القرآن ، برهانا على حضارة العرب لكفى ، فإن اللغة أكبر دليل على ثقافة الأمة ، لأن فيها مجال العقول والأفكار فى نظمها وقواعدها ، وهاهى لغة العرب بين سمعنا وأبصارنا ، تبذ لغات العالم ، فكيف تدعى أن الأمة العربية قبل الإسلام كانت بدائية ، ولعل من معجزات محمد عليه الصلاة والسلام ، بعثه فى أمة تفوق غيرها بما فيها من مؤهلات لقبول الوحى وتعزيز الدين .

نعم لك أن تقول : إن الأمة العربية كانت منحدرة من حيث العقائد والأخلاق والعادات ، لا من حيث العلوم والثقافة والفنون ، وأمة هذه شأنها ، لا يصح الادعاء بأنها كانت بدائية .

والإسلام قد أقر الطبقات والعنصرية ، وإجماع المذاهب الإسلامية ، على أن العرب أفضل الأمم ، وأن القرشى كفؤ للقرشى فحسب ، ذلك دليل على أن للعرب شأنهم قبل الإسلام وبعده . وفى قول أبى بكر يوم السقيفة ، لمن نازعه الخلافة من الأنصار ،

قال : إن هذا الأمر لا يخرج من قريش ، برهان آخر على إقرار الطبقية فى الإسلام ، وفى القرآن : « ورفعنا بعضكم فوق بعض درجات » .

ثم نرى الأستاذ المحاضر يذم الملكية ، ويدعى أن الإسلام جمهورى ، بينما نرى الأمر على العكس . فإن الإسلام ملكى ، ولا فرق بين الخليفة والملك ، لأن الملكية أقسام : منها الملك المطلق ، ومنها المنتخب ، ومنها المقيد بدستور ، أفلا يصدق شىء من هذا على الخلفاء ؟ نعم إن الإسلام ينقم على الملك الظالم ، وأما الملك العادل ، فلا فرق بينه وبين الخليفة إلا الاسم ، وهذا ما يفسره أن الإسلام فى عهد الملوك الأمويين والعباسيين ، كان فى أسمى عهوده حضارة ومدنية .

التعليق

الدكتور على عبد الواحد فذ فى جدله ، فذ فى نقاشه ، ولعله فذ فى آرائه أكثر الأحيان ، إذ يتشبث بما يراه ، ولا يمكنه أن يتزحزح عن تلك الآراء مهما كان مصدرها ومآلها ، فهو إذ يرى أن كل شهادة مبنية على الكذب ، لا يتراجع عن قوله هذا ولو كان الشاهد أبا ذر الغفارى ، بل ولو كان القرآن يأمر بهذه الشهادة ، كما عارضه الشيخ منصور رجب ، وهو يرى أن وأد البنات أيام الجاهلية ، كان من ضرورة الحضارة العربية الموهومة عنده ، ولو نعى القرآن على ذلك الوأد ، ويرى أن العرب قبل الإسلام أرقى الأمم ، وحضارتهم أرقى الحضارات ، ولو كانت جزيرتهم نهبا مقسما بين الفرس والحبش والروم ، يرى أن قريشا فى الرفيق الأعلى ، وهو يعلم علم اليقين أن النجاشى غزاهم فى عقر دارهم ، وحاول هدم كعبتهم لو لم تذدهم الملائكة بالأبابيل عنها .

ثم هو فى كل ذلك ، صلب فى دينه ، عريق فى عصبيته لإسلامه وعروبته ، فما نفسر مخالفته للقرآن فى جدله أن الإسلام عزز الطبقات ، وهو يقول : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله اتقاكم » . ويجادل فى أن الإسلام فضل العرب على غيرهم ، وسيد الإسلام يقول : « لا فضل لعربى على عجمى إلا فى التقوى ، وسلمان منا أهل البيت ، وأدخل نارى من عصانى ولو كان سيدا قرشيا . ثم أدخل جنتى من أطاعنى ولو كان عبدا حبشيا » ، ويجادل فى أن وأد

المرأة من مدنيـة العرب ، والقرآن ينعى على العرب وأد البنات ، وقتل الأولاد خشية الإملاق .

وأبلغ من ذلك فى الغرابة ، وفى كونه فذا فيما يجادل ، رده على المحاضر ، إذ يأتيه بمثل هذه الأدلة على انحطاط العرب قبل الإسلام ، قوله : إن المقصود من جعل التقوى مناط الأفضلية يوم القيمة لا فى هذه الدار ، فمن ذا يسمع ؟ ؟ كأن الدين فى كتابه ، إنما فصـل الشرائع ، ونعى ما نعى ، ثم نقم ما نقم على مخالفيه ، ومنتهكى حرماته فى الآخرة لا فى الدنيا ، وكأن هذه الدنيا بعيدة عن الآخرة ، ولم تكن مقدمة لها ، ثم لم تكن الآخرة غاية لهذه الدنيا .

فالقرآن إذ يقول : « الأعراب أشد كفرا ونفاقا وأجدر أن لا يقيموا حدود ما أنزل الله » ، يعنى بذلك يوم القيمة ، وأما اليوم فالأعراب وإن وأدوا بناتهم ، وبغى بعضهم على بعض ، وعبـدوا الأصنام ، وقطعوا الطرق ، وأكلوا الخبائث ، أما اليوم وفى جاهليتهم فهم أرقى الأمم ، ولذلك بعث الله محمـدا إلى أرقى الناس ، ليبعث فيهم رقيا آخر .

وأبلغ من هـذا وذاك أن المناقش ، حصر نعى القرآن على العرب فى الأخلاق والعقائد ، حتى كأن فى الأمة المتحضرة شىء أسمى من الأخـلاق والعقيدة ، وحتى كأن الدين فى الأمة لا قيمة له فى جانب العلوم والثقافات ، والشاعر كاذب إذ يقول :

وإنمـا الأمم الأخلاق ما بقيت حتى إذا ذهبت أخلاقهم ذهبوا

وكأن رسول الله كان يمجن إذ قال : « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق» ، وكأنه أراد تتميم هذه المـكارم يوم القيامة لا فى هذه الدنيا .

وأبلغ من ذلك كله فى غرابة الجدل الذى فطر عليه الدكتور ، كما يزعم له أصدقاؤه أنه إذا أمسك بحبل الجدل لا يريد أن يمسك معه فى طرفه الآخر أحد أبدا ، وإنما يريد أن يمسك بطرفه الأول ، ثم يرسله فى الفضاء ليقف منتصبا وحده ، كما يفعل فقراء الهنود ، فمن العبث أن يحاول إخوانه فى الندوة رده أو إسكاته ليسمع مايقولون ، ومن العبث أن يسمع المعـارض ، ثم من العبث كل العبث أن يترك مجالا لغيره فى النقاش ،

ولو استمر الساعة والساعتين ، حتى يمل إخوانه منه . ومن الجدل ، ومن النقاش ، ومن الموضوع ، ومن الندوة ، وحتى يصبوا لعناتهم على الحومانى ، الذى هو ناموس اللجنة ، والذى هو المسئول عن نظامها ، وضبط هذا النظام عند الجدل والحوار .

والحومانى أجبن من أن يجأر ، أو أن يشير ، أو أن يهمس ليرد المناقش ، أو يقنعه بأن الندوة مشاع لأعضائها على السواء ، وأن النقاش والحوار علم قائم بذاته ، منزه عن السفسطة والاحتكار ، وكيف يجرؤ الحومانى على ذلك ، والمناقش لا يصغى إلى القرآن وهو يرده ولا يصغى إلى محمد وهو يقول بنقيض ما يحاول المناقش إثباته .

على أنا لا نحرم هذا المناقش من الإنصاف لو أذعن ، أو لو حسب نفسه واحدا من إخوانه ، أو لو أنكر العصمة فيما يناقش . ففى قوله : إن للعرب قبل الإسلام مدنية وحضارة عالمية ، وبرهان ذلك نزول الوحى بلغتهم ، واللغة كانت ولا تزال برهانا قاطعا على حضارة الأمة .

فى قوله هذا كثير من الحق ، وتوجيه صحيح فى الحجة والدعوى ، ولكن إنكاره على المحاضر أن العرب كانوا قبل الإسلام على غاية من التأخر والإسفاف ، غير وجيه ، لأن المحاضر لم يقصد بالعرب قبل الإسلام ، حتى قحطان وسبأ وعاد وثمود ، وإنما يعنى العرب قبيل الإسلام مباشرة ، والدليل أن ذلك مقصود المحاضر تمثيله بما كانوا يرتكبونه من أجرام وحشية ، وعادات سيئة ، وأخلاق أسوأ ، كما أقره المناقش على ذلك .

فاللغة العربية دليل على حضارة العرب فى تاريخها البعيد لا القريب ، لأن قريشا ليست واضعة هذه اللغة ، وعقولهم التى أدت بهم إلى فساد الأخلاق ، أحقر من أن تضع لغة تنم على مدنية وحضارة ، ونقول للدكتور المناقش : إن بعث محمد للعرب خاصة وللعالم على العموم ، حيث كان واجبه الأول تطهير العرب ، أقول : إن بعثه هذا برهان على انحطاطهم ، إذ لو كانوا صالحين ، لما احتاجوا إلى إصلاح ، فالمحاضر على حق إلى حد ما ، كما أن المناقش محق إلى حد ما ، وبودى لو أصغى الدكتور لحوار إخوانه أن أبسط هذا الرأى ، ولكان حاسما ، ثم لوفر علينا ساعات طويلة قطعها الدكتور وهو يبرهن على نظريته ، ثم لم يترك فرصة لإخوانه أن يدلوا بآرائهم ، وذلك ما جعلنى حريصا على القسوة

فى التعليق ، راجيا أن يكون منصفا فى حملى على الأحسن ، وأنى أحترمه ، وأقدر فضله .

ومما ننصف المناقش فيه ، إنكاره على المحاضر أن يكون الإسلام قد نعى الملكية على الحكم ، هذا حق ، ولو كان ذلك كذلك ، لا تصل بنا إنكار الأئمة والفقهاء الأحرار طوال ألف عام ، على الأمة الملكية والحكم القائم عليها ، فليس الإسلام ناظراً إلى الحكم فى كونه ملكيا أو غير ملكى ، ولكنه ينظر إلى الحاكم فى كونه عادلا أو غير عادل ، ففى ملوك الإسلام من يعتز بهم الدين ، وفيهم من هو على عكس ذلك ، فليست الملكية فى الملك هدف الإسلام فى الإنكار والمقت ، ولكن طراز الحكم فى الملك هو المعنى بنقمة الإسلام أو رضاه .

على أنى أنكر حشر الخلافة بعد الرسول فى حظيرة الملكية ، كما يدعى المناقش ، فإن بين الخليفة والملك بعدا شاسعا فى العمل والشخصية ، أما العمل فإن الخليفة مشروط عليه أن يكون القرآن والسنة دستورا له ، لا تقبل الأمة تشريعا غيره ، وهذا غير مشروط فى الملك الدستورى ، لأنه يحمى الدستور الذى يضعه ممثلو الأمة فى مجلس التشريع ، وفرق كبير بين من يكون دستوره القرآن ، وهو من وضع الحق ، وبين من يكون دستوره من وضع الإنسان ، أصاب الحق أو أصاب الباطل .

ولذلك كان من واجب الحكم فى الملكية ذات الدستور ، إنشاء مجلس يمثل الأمة فى وضع هذا الدستور أو تحويره ، وأما واجب الحكم فى الخلافة ، فالتقيد بقانون لم يوضع ولم يحور ، هو بين دفتى كتاب أنزله الله على عباده وألزمهم به ، هذا توجيه لنظرية المناقش فى أن يكون الملك عادلا ملتزما بدستور ، وأما الملك المطلق أو المستبد ، فلا شبه بينه وبين الخليفة مطلقا .

وأما الخلاف بين الخليفة والملك فى الشخصية ، فيتحقق فى أن الخلافة انتخاب دائم ، والملك وراثة دائمة ، ولا يتحقق الانتخاب فى الملكية إلا للملك الأول ، ثم تستمر وراثة شرعية فى أعقابه ، ويبقى الأمر فى عزله أو بقائه منوطا بالأمة ، التى هى خاضعة لحكم المنوط به حماية الدستور الموضوع من ممثليها ، وهنا يتجلى الفرق واضحا بين الدستورين ، الدستور الثابت الضامن لرقى الأمة فلا تقر عليها حاكما مستبدا ظالما ، ألا وهو دستور

الإسلام ، والدستور المتطور بتطور الأمة ، فإذا ساقها ملكها بدستوره الموضوع إلى الحياة ، مشت حية ، وإذا ساقها إلى الموت ، طواها التاريخ .

فالموضوع فى النقاش يجب أن يتحرر فى الحكم لا فى الحاكم من حيث الدستور ، وفى الحاكم لا فى الحكم من حيث العدالة ، فالإسلام يطلب من الحاكم الأعلى أن يتقيد بدستور الإسلام المقرر فى كتاب الله وسنة رسوله ، وما يتبعهما من عقل وإجماع ، ويطلب فى الحكم التطبيق على هذين ، سواء أطلقنا على الحاكم لقب ملك ، أو لقب خليفة ، أو لقب أمير ، أو زعيم ، أو رئيس ، فليست العبرة بالأسماء ، ولكنها بالمسميات .

وبعد ، فالذى يؤاخذ به المحاضر حملته على الملكية ، وادعاؤه خروجها عن الإسلام ، والذى يؤاخذ به المناقش ، جعله الخلافة والملكية شيئا واحدا فى الإسلام وغير الإسلام ، ومن خلال التعليق ، يصل القارئ إلى الفصل بين الحق والباطل فى كلا الدعويين ، ثم لا يفوتنا أن نسدى الشكر لعاطفة المحاضر الإسلامية التى قامت فى الكلمة مقام الإيمان الحق بإسلامه ، وإخلاصه لهذا الإسلام .

المحاضرة الحادية عشرة :

حياة المحاضر



مولده ولد يوم الخميس الواقع فيه ٤ من شهر شوال عام ١٣٠٦ الموافق ١٠ جون سنة ١٨٨٩ فى مقاطعة قسطنطينة من الجزائر «المغرب العربى» ونشأ فى اقليم «ريفه» يتأدب على عمه وهو لم يبلغ سن المراهقة.

دراسته درس على عمه الشيخ محمد المكى الإبراهيمى علوم العربية ومقدمات الأصول الفقهية من منطق وبيان ، وذلك نهج الجامع الأزهر فى مصر إذ كانت أسرته مدرسة للمتأدبين فى ذلك الإقليم ثم انصرف إلى الدراسة بالبحث والتنقيب والمطالعة والحفظ معتمدا على نفسه فى اكتناز آثار العرب من علوم وآداب وفنون حتى أصبح معدودا فى الرعيل الأول من أعلام الأدب العربى .

وبدأ رحلاته عن المغرب إلى الشرق وهو فى سن الشباب لم يتجاوز العقد الثالث من عمره فزار مصر والحجاز ثم عاد بوالده من مهجره فى « طيبة » إلى الشام واستقر بها زمنا يمتهن الدراسة ويضطلع بعبء القومية العربية حتى أدرك عهد فيصل بن الحسين الهاشمى فيها .

عمـــله

عاد إلى وطنه سـنة (١٩٢٠) ليعمل مع إخوانه الذين دعوه للعودة إلى الجزائر ، فأنشأ معهم جمعية العلماء الجزائريين ولسان حالها جريدة « البصائر » ومضى يكافح الاستعمار بتأسيس معاهد لدراسة اللغة العربية ومبادئ الدين الإسلامى حتى استطاع أن يوجد خلال سنوات قليلة عشرات المدارس وبلغ الطلاب فيها زهاء خمسين ألفاً من أبناء المسلمين وهو يتحمل خـلال ذلك النفى والتعذيب والسجن من المستعمر الإفرنسى دون أن يتسرب الملل إلى نفسه بعد أن اسندت إليه رئاسة الجمعية وتحرير البصائر .

ولما انتهت الحرب العالمية الأخيرة كان قد تأهب لرحلته الثانية إلى الشرق بدافع الغيرة على العروبة والإسلام فزار مصر والحجاز والباكستان وسورية والعراق يتواطأ مع زملائه من أعيان المسلمين على بعث الاسلام الجديد وهو يقف مواقفه الخطابية المشهورة حتى أحرز أفقا واسعاً فى عالمه العربى الإسلامى .

ثم ألقى عصا ترحاله فى مصر يعمل لما خلق له تاركا زوجه وأبناءه فى وطنه الأول ولهم مرتب بسيط من الجمعية التى لا تزال قائمة باسمه ولا يزال يغذيها من أموال المحسنين فى الأقطار الإسلامية ، وهو الآن يدير مع زملائه كثيرا من الأعمـال فى البعث العربى الإسلامى .

شخصيته

اعتداده بنفسه واعتماده على عبقريته هو رأس ثروته فى تأسيس منزلته القائمة على تقدير إخوانه له ، وهو موضع ثقتهم فى ذكائه وبلاغته وثروته من العـلوم والآداب ، ثم له الميزة الفاصلة فى تقدير الفضيلة والإشادة بها أينما وجدها ، ثم فى النداء عليها فى المحافل والأندية التى تشخص إليه وهو يخدم الفضيلة بمنطقه وبيانه .

المحاضرة الحادية عشرة

ألقيت فى منزل الأستاذ محمد مفيد الشوباشى
أحد الأصفياء بالمعادى
مساء يوم الأحد الواقع فى ٥ / ٦ / ١٩٥٥

مشكلة العروبة فى الجزائر

طلب إلى أخى الأستاذ محمد على الحومانى مقرر ندوة الأصفياء إلقاء كلمة فى الندوة عن مشكلة العروبة فى الجزائر ، فألقيتها ارتجالا ، لأن موضوع العروبة أو العربية فى الجزائر هو الموضوع الذى قسمه الله لى ، وجعله ميدان أعمالى وأحاديثى ، ومجال قلمى عشرات السنين ، وقد توسعت فى الكلمة الارتجالية وجر شىء إلى أشياء ، لما تقتضيه طبيعة الارتجال من عدم الضبط وصعوبة الحصر ، ثم كلفنى الأخ الحومانى تلخيصا لمعانى تلك الكلمة بالكتابة ، لأن الندوة عاملة على إخراج هذه الكلمات التى تلقى فيها — فى كتاب — وان هذا لبناء جليل ، تتقاضانا الغيرة أن نعين القائمين عليه ولو بلبنة .

وهذا المركب الإضافى (مشكلة العروبة) هو العنوان الذى اختاره رجال الندوة لهذه الكلمات التى يلقيها الإخوان الأعضاء فى اجتماعاتهم المنظمة ، ولعمرى لقد سددوا وقاربوا فى اختيار هذا العنوان ، وفى قصر أحاديثهم على موضوعه ، فإن قومنا العرب انعكست معهم القاعدة ، فبعد أن كانوا يذودون عن حقيقتهم بمعناها المعروف عندهم ، أصبحوا يذودون عن حقائقهم الواقعية ، ويصرفون حتى عن التفكير فيها ، فتراهم يهتفون بشئون غيرهم ، حديثا عنها وجدالا فيها ، وعملالها ، ويعرضون عن شئونهم إعراض الخلى الفارغ . مما لا ينقضى منه العجب ، من خصائص قومنا العرب ، ومن ورائهم المسلمون

كلهم ، ان معظم مشكلاتهم الدينية والاجتماعية قديمة العهد ، مرت على بعضها القرون ، بل مر على بعضها تاريخ الإسلام كله ، وهى على حالها من الإشكال ، وشأن القدم أنه يعفى الآثار وينسى الأخبار ، ويميت الأذكار ، ولكن مشكلاتنا غالبت الدهر كما غالبت عقولنا ، فلم يستطع مر الزمن إنساءها ، ولم تستطع عقولنا حلها ، وما زالت فرعيات الأحكام مشكلات قائمة بين علماء الدين ، وفى كل مطلع شمس تحدث مشكلات اجتماعية وسياسية جديدة تضاف إلى تلك المشكلات القديمة ، ومنها ما يحتاج إلى الحل السريع الحاسم ، فلا تجد المشكلات الجديدة محلا من عقولهم وأفكارهم لاشتغالها بالمشكلات القديمة .

كأن عقولنا ألفت الاشكال فاطمأنت إليه فأصبحت لا تستطيع حل إشكال ، وكأن الإشكال أصبح لنا عادة فأصبح هو القاعدة ، وأصبح حله هو الشذوذ ، والعقول كهذه الآلات المعروفة ، إذا لم تتصرف أصابها الصدأ ثم الكلول ثم التلف .

وأضرب لنا مثلا قضية اللحية وإعفاءها أو إحفاءها ، وقضية الصوم والإفطار ، وهل يناطان برؤية العين أو بالحساب ، وأمثالا أخرى كثيرة مما يتعاقب على حياتنا الدينية والدنيوية ويدخل فى تصرفاتنا اليومية ، وقد مر عليها بضعة عشر قرنا وهى مشكلات قائمة تناولتها ملايين الأقلام بالكتابة ، وملايين الألسنة بالكلام ، وملايين العقول بالبحث ، وانظر ، فإذا كنا لم نستطع حل مشكلة الصوم والإفطار مثلا — فى أربعة عشر قرنا ونحن وحدنا فى الميدان لم يدخل معنا فى الجدال يهودى ولا نصرانى ولا وثنى. فكم تقدر من القرون لحل مشاكلنا العصرية الدنيوية التى يجاذبنا حبلها اليهودى والنصرانى الخ . وأين تقديرك على اعتبار السرعة (بأربعة عشر قرنا فى اللحية) .

أما الأمم الجارية مع الحياة فإنها تحل مشكلاتها القديمة ، لتتفرغ للمشكلات الجديدة ، ومن سلك هذا السبيل ، لم تبق له مشكلة ، لأن المشكلات إذا وجدت العقول متهيأة لحلها قادرة عليه ، متفرغة له — لم تعد مشكلة ، وما صير قضايا العروبة مشكلات إلا العرب وعقول العرب ، فهم فيها بين حالات ثلاث : إما أن يسكتوا فتبقى إشكالا ، وإما أن يعتمدوا فى حلها على غيرهم فيزيدها تعقيدا أو يحلها لصالحه لا لصالحهم ، وإما أن يعالجوها بأنفسهم ولكن بنيات مدخولة وضمائر مريضة وعقول ناقصة وغايات متباينة وإرادات

مستبعدة ، ومقاصد تافهة ، فلا يكون العلاج علاجا ، وإنما يكون بلاء مضاعفا .

ومشكلات العروبة صار لها هذا الإهمال الذى وصفناه لقاحا ، فصيرها ولودا ، فكل مشكلة منها تلد مشاكل ، ومن شاء أن يرد كل مشكلة منها إلى أصلها وينسب كل بنت إلى أمها — تهيأ له ذلك بأيسر تناول .

كل شئوننا مشاكل ، وكل شعب من شعوبنا مشكلة فى نفسه ، ومشكلة مع جاره ، وكل حكومة من حكوماتنا مشكلة فى نفسها ، ومشكلة مع جيرانها ، وكل رئيس حكومة مشكلة ، وكل زعيم دينى مشكلة ، وكل زعيم سياسى مشكلة ، الأمية مشكلة ، والثقافة مشكلة ، والمرأة مشكلة ، والزواج مشكلة ، والطلاق مشكلة ، والعلم عندنا مشكلة ، والجهل مشكلة ، وما لا إشكال فيه عند جميع الناس ، يصبح مشكلة حين يتصل بنا أو نتصل به ، والعروبة نفسها مشكلة تنحل إلى مشكلات ، فهى — جنسية — هدف لكل رام ، وغرض لكل طاعن ، ومدرجة لكل عاق من أبنائها العائشين على درتها يتسللون منها إلى فرعون أو فينيق أو بربر ، ويتخذ بعضهم من شقرة شعره أو زرقة عينيه شهادة على نفسه ، بأنه منها لغية ، وأن هذه وما أشبهها لمشكلات ذات آثار سيئة عميقة فى المجتمع العربى ، وقد بزتها الجنسيات التى شرفها أبناؤها بالعلم والعمل والصناعة والحضارة ، وأصبح أبناء العروبة يتضاءلون ويتصاغرون إذا جمعتهم الحياة بأبناء الجنسيات الأخرى ، حتى ليكادون يتبراؤون من العروبة .

والعروبة — لغة — غمرتها الرطانات الأعجمية ، واللهجات العامية ، واللغات الأجنبية والرطانات الأعجمية أخذت منها ، ثم تعالت عنها ، واللهجات العامية مزقتها ، وأصبحت حجة عليها ومداخل ضيم لها ، واللغات الأجنبية زاحمتها فى ضعفاء الهمم والعزائم من أبنائها ، وهذه كلها مشكلات ذات أثر سيىء وعميق فى المجتمع العربى .

* * *

ومشكلة العروبة فى الجزائر تتنوع وتتفرع ، ولكنها فى مجموعها أيسر حلا وأسهل علاجا منها فى بعض الأقطار العربية ، لخلوها من كثير من عناصر الأشكال فى الأقطار العربية الأخرى ، ذلك أن مشكلات العروبة فى غير الجزائر يصاحبها من الأوضاع ما يزيدها

تعقيدا واشكالا ، من تعدد الحكومات وتنوعها ، واختلاف الأحكام وتضادها ، ومن اختلاف الاتجاه السياسى لتلك الحكومات ، ومن عدم وجود مايسمى الرأى العام فى معظم الشعوب العربية ، وعدم نضج الموجود منه فى بعضها ، ومن التفاوت العظيم فى الثقافة بين شعوب العرب ، ومن اختلاف الثقافة الأجنبية على الجيل الجديد من العرب .

أما فى الجزائر فان مشكلة العروبة أساسها وسببها — الاستعمار الفرنسى ، وهو عدو سافر للعرب وعروبتهم ولغتهم ودينهم الاسلام . ووجود المشكلة منوط بوجوده ، فإذا زال ، زال العنصر الأكبر منها ، والسبب الأعظم فيها ، وإذا بقى — ولو إلى حين — فمشكلة العروبة فى الجزائر سائرة إلى واحد من اثنين : إما أن نغلب الاستعمار على عروبتنا ونعالج مشكلتنا بأيدينا — وهذا ما تفعله جمعية العلماء منذ قامت — ثم لا نجد عائقا بعد الاستعمار الفرنسى لخلو الجزائر من العناصر العائقة كما ذكرنا ، وأما أن يغلبنا الاستعمار على عروبتنا فتتطور المشكلة إلى شىء آخر ، وهو ما يقض مضاجعنا .

وبيان ذلك — مع الايجاز — أن الاستعمار الفرنسى صليبى النزعة فهو — منذ احتل الجزائر — عامل على محو الإسلام لأنه الدين السماوى الذى فيه من القوة ما يستطيع به أن يسود العالم ، وعلى محو اللغة العربية لأنها لسان الإسلام ، وعلى محو العروبة لأنها دعامة الإسلام ، وقد استعمل جميع الوسائل المؤدية إلى ذلك ، ظاهرة وخفية ، سريعة ومتأنية ، وأوشك أن يبلغ غايته بعد قرن من الزمن متصل الأيام والليالى فى أعمال المحو ، لولا أن عاجلته جمعية العلماء المسلمين الجزائريين على رأس القرن بالمقاومة لأعماله ، والعمل على تخييب آماله .

وما قامت هذه الجمعية — إلا لاحياء الإسلام والعروبة والعربية التى صمم الاستعمار على محوها ، وما نصرها الله فى الجولات الأولى أضعف ما كانت ، وأقوى ما كان خصومها ، إلا لأنها نصرت دينه وأحيت لغة كتابه ، وما اشتد الاستعمار فى مقاومة هذه الجمعية إلى يومنا هذا إلا لعلمه بمقاصدها هذه ، وأنها على النقيض من مقاصده .

فإذا قدر لهذا الاستعمار أن يبقى فى الجزائر فإنه لاينسى ما له من التراث عند جمعية العلماء ، وسيوجه كل جهوده لمحوها من الوجود ، وهو قادر على ذلك من الآن ، ولكنه

يتربص بها الدوائر ، ويتمنى أن تسقط وحدها ، بسبب من الأسباب كالعجز المالى ، حتى لا يبوء بجريمة أخرى يضيفها إلى جرائمه الكثيرة فى حرب الإسلام والعربية والعلم ، والجمعية تعمل لهذه الثلاث ، وتتحصن بها ، وتشنع على الاستعمار وتقيم الحجج الدامغة على أنه عدو للاسلام ، عدو للعربية ، عدو للعلم ، وفى ظل هذا التشنيع الذى تنشره ، وتحت النفع الذى تثيره على الإستعمار متظامة مستعدية صارخة بالحجج مهددة بإثارة المسلمين — تعمل جمعية العلماء أعمالها المدهشة فى بناء العقول وفى بناء المدارس ، وفى إثارة الأفكار .

والاستعمار الذى حاربته الجمعية وحاربها يعلم قوتها ورسوخ قدمها والتفاف الأمة حولها ، ولكنه يعلم — أيضا — أن قوتها المالية محدودة ، وقوة الأمة التى تسندها محدودة كذلك ، وما دامت حركتها التعليمية فى ازدياد ، فحاجتها إلى المال فى ازدياد ، وسيأتى يوم تقف فيه الحالة المالية ، فينهار هذا البنيان الشامخ من المدارس والمعاهد .

هذا هو اليوم الذى يترقبه الاستعمار للعروبة فى الجزائر ، وهذه هى المشكلة الحقيقية للعروبة فى الجزائر ، وهذه هى العقبة القائمة فى طريق جمعية العلماء الجزائريين حامية العروبة فى الجزائر ، وإذا كان الاستعمار يتوقع حل المشكلة على تلك الصورة التى يتمناها ، فإن جمعية العلماء تتوقعها أيضا وتخشاها .

وما زالت الجمعية تفكر فى تلك العاقبة وتقدر لها من الحلول كل ما يجول فى الخاطر حتى رأت أخيرا أن تتوجه إلى إخوانها العرب فى الشرق شعوبا وحكومات وأشخاصا وهيآت ، ليأخذوا بيدها مادام فى الأمر فسحة .

من أجل ذلك كانت وفادتى إلى هذا الشرق بقسميه العربى والإسلامى ، فما هو موضوع هذه الوفادة ؟ وماذا كانت نتائجها ؟ .

يحسن قبل شرح موضوع الوفادة ونتائجها ، أن نعرفكم بهذه الجمعية (جمعية العلماء المسلمين الجزائريين) تعريفا موجزا ، وأن نبين لكم بعض أعمالها ومقاصدها ، فلعل فى الإخوان الحاضرين من يعرفها معرفة مجملة أو لا يعرف عنها شيئاً :

اسم الجمعية يفصح عن حقيقتها ، فهى جمعية علماء ، يخدمون الإسلام بتبيين حقائقه ونشر علومه بالجزائر ، ومن كان له إلمام بحالة الجزائر ، وما صنعه الاستعمار الفرنسى بها ، يستشعر عند سماع اسمها كل ما رآه أو سمعه من آثار الاستعمار ، ويستشعر مع ذلك أن طريق هذه الجمعيـــة شاق ، وأن أعمالها صعبة ، وأن تبعاتها ثقيلة ، والأمر فى حقيقته كذلك .

تكونت هذه الجمعية سنة ١٩٣١ ميلادية ، أى فى السنة الأولى من القرن الثانى لوجود فرنسا فى الجزائر ، هذا القرن الذى كانت تعتقد فرنسا أنه قرن الاطمئنان والراحة والنعيم والاستغلال الهنى لخيرات الجزائر ، بما مهد له القرن الأول من اكتنافها بالحديد والنار . فأراد الله لها غير ذلك ، وطاش فألها ، فلم تسترح يوما واحدا من بدء هذا القرن الجديد .

كان الداعى إلى تأسيسها عوامل الهية ، هى سننه فى التطورات البشرية ، وفى مجىء نصره للصادقين حين يستيئسون منه ، وفى املائه للظالمين حتى يأخذهم أخذ عزيز مقتدر .

ولكن الظاهر من أمرها ، الذى يكتب وتناله القوانين هو أنها جمعية اصلاح دينى تحارب ضلالات العقائد ، وبدع العبادات ، ومفسدات الأخلاق ، وترجع بالمسلمين إلى ينبوع الدين ، ومطلع هدايته من الكتاب والسنة .

إن هذه الكلمات لأثقل شىء على سمع فرنسا ورجالها الاستعماريين فى ذلك الحين ، وهى كلمات ، فكيف بها إذا صارت أعمالا ودعوة إلى الحق ! إن الاستعمار فى الجزائر كان ينفر وينفر من كلمات اصلاح ، وفضيلة ، وهداية ، وكتاب ، وسنة ، وتاريخ سلف ، ويتخيل من كل واحدة منها : عمر ، وعليا ، خالدا وعقبة وطارقا وصلاح الدين إلى جمال الدين ، ومحمد عبده ، لا سيما وهو يعلم أن هذه الفئة التى جهرت بهذه الكلمات ليست من طراز العلماء الذين راضهم على الخنوع له والرضى بوظائفه والجرى فى عنانه . . . إنها فئة تجمع مع قوة العلم قوة الإيمان ، ومع قوة الحجة قوة البيان ، ومع صلابة الإرادة ، صلابة العزيمة ، ومع علمه بهذا كله فقد تظاهر بإرخاء العنان لها ، وأعد لها من المكائد السرية ما لا يعلمه إلا الشيطان .

والاستعمار يرى فى مبدأ جمعية العلماء الذى أعلنته فى جمل قليلة متواضعة هينة لينة — خطرا كل الخطر على سلطانه ، لأنه ما ثبت أقدامه فى الجزائر إلا بتخدير العقول بواسطة المبتدعين والدجالين والمتجرين باسم الدين ، وقد كان لهم سلطان على النفوس ، فإذا زال سلطانهم زال سلطانه .

بدأت جمعية العلماء أعمالها بالاتصال بالأمة من طريق الدروس الدينية ، والمحاضرات الاجتماعية والتاريخية ، مبينة لها حقائقه وما جاء به من العزة والكرامة والشرف والمجد والسيادة ، وكانت الحملة شديدة ، وكان التأثير بليغاً ، وكان التأثر عظيما ، فكان فزع الاستعمار — تبعاً لذلك — شديدا ، ودام هذا الدور سبع سنوات تقريبا ، توثق فيها الاتصال بين الجمعية والأمة ، وتغلغل الاصلاح الدينى فى جميع الطبقات ، وتفتح الشعور إلى ما وراء الإصلاح الدينى من إصلاح دنيوى ، وانتقلت أحاديث الناس فى ذلك من السرار إلى العلان ، ومن الخبر إلى المطالبة ، ومن ثم عمت المطالبة بالحقوق السياسية ، ورأت فرنسا ورجالها بعينها ما كانت تحذر ، فماذا صنعت ؟ إنها صنعت كل شىء ، ولم تصنع شيئاً ، كادت ومكرت وسلطت جيوشا من أئمة الابتداع والمرتزقة باسم الدين على الجمعية يحاربونها ويصدون الناس عنها ، فلم يجدوا لكلامهم مساغا ، بل قابلوهم بالمقت والغضب ، وخسروا المقام الذى كان لهم فى الأمة ، وخسر الاستعمار عونهم وتأييدهم لأن الأمة انفضت من حولهم ، وما انتهى الدور الأول بانتهاء سبع السنوات ، حتى انهدم ركن من الأركان التى كان يعتمد عليها الاستعمار ، وهو هذه الطائفة التى شهد عليها التاريخ بأنها (مطايا الاستعمار) .

جاء الدور الثانى لجمعية العلماء ، وهو دور التربية الإسلامية والتعليم العربى الابتدائى الحر ، المشتمل على مبادئ العربية وآدابها ومبادئ التاريخ الاسلامى ، والتربية الإسلامية الصالحة ، وجاء معه الصراع العنيف مع السلطة الاستعمارية وقوانينها الجائرة ، استعدت الجمعية بالإيمان والعزيمة وتجاهل القوانين الاستعمارية ، وتوطين النفوس على المكروه الذى يصيبها فى سبيل تعليم الدين والعربية ، وآزرتها الأمة فى ذلك ، لأنها أدركت بواسطة تلك الدروس والمحاضرات ما يبيته الاستعمار لدينها ولغتها ، وما كان يغالطها به أولئك الدجالون المتجرون بالدين .

صممت الجمعية على تشييد مدارس فخمة بمال الأمة ، لتحيي سنة البذل فى سبيل العلم ، وهى منقبة فى المسلم نسيها بفعل التخدير الاستعمارى فأحيتهـا جمعية العلماء فى نفوس الجزائريين ، فتباروا فى البذل وتنافسوا فى بناء المدارس ، وقابلت الجمعية هـذا الاتجاه بما يكمله من برامج وكتب ومدرسين ، وارتاع الاستعمار لهذه النهضة التعليمية الخطيرة ، وتربص بها اشتعال الحرب الأخيرة وقضى على معظمها بالتعطيل والاستيلاء على كثير من المدارس لاستعمالها فى المصالح الحربية ، واعتقل كثيرا من العلماء ورجال التعليم ، ونفى قادتهم إلى الصحراء ، منهم كاتب هذه السطور ، فقد قضى ثلاث السنوات الأولى للحرب منفيا فى صحراء وهران .

ولـكن الجذوة لم تخمد فى النفوس ، بل زادت التهابا ظهر أثره فى أخريات الحرب وعند انتهائها ، فقد اندفعت الأمة إلى تشييد المدارس ، وأتمت من ضروب التنافس ما بعد العهد بمثله ، وما ذكرنا بما كان يأتيه السلف الـكرام .

وللجمعية الآن — بل للأمة الجزائرية ، أكثر من مائة وخمسين مدرسة ابتدائية حرة رغم الاستعمار الفرنسى ، يتردد عليها أكثر من خمسين ألف تلميذ من أبناء الأمة الجزائرية ، بنين وبنات ، يدرسون مبادئ لغتهم وآدابها ، وأصول دينهم وتاريخ قومهم ، على برنامج يجمع ضروريات العلم وإيجابيات التربية الإسلامية القومية الوطنية الصحيحة ، وقد تخرج منها فى هذه المدة عشرات الآلاف ، يحملون علما قليلا ومعه فـكر صحيح ، وعقيدة قومية ، ونظرة إلى الحياة سديدة ، وكل هذه المدارس على طراز ونظام عصريين ، ومعظمها رائع فخم ، وكلها ملك للأمة وبمال الأمة ، وكل هـذه المعانى مما يبعث القوة ويرغم الاستعمار الذى لا يحترم إلا القوة .

ثم شيدت الجمعية معهدا ثانويا كخطوة أولى للتعليم الثانوى ، أنفقت عليه ستين ألف جنيه مصرى وعمرته بألف تلميذ وعشرين أستاذا ، وهنا تبرز مشكلة العروبة الـكبرى فى الجزائر متجلية فى ناحيتين :

الأولى : كيف نحافظ على الموجود من هـذه المدارس ، وليس لنا مورد مالى قادر نعتمد عليه ، والموارد الحالية لا يعتمد عليها ، إذ هى عبارة عن اشتراكات شهرية بسيطة

من طبقات الأمة الفقيرة المؤمنة ، ورسوم تعليم شهرية من آباء التلاميذ ، وتبرعات غير مضبوطة ، ومقادير من الزكوات الشرعية غير مضبوطة أيضا ، فهذه الأنواع من الموارد هى التى يقوم عليها هـذا الجهاز العتيد من المدارس ومئات المعلمين فيها ، وكلها موارد معرضة للانقطاع ، والحكومة تحارب منذ السنوات الأولى لاحتلاله ، فكيف نرجو منها أن تعين ، والأوقاف الاسلامية مفقودة فى الجزائر لأن الاستعمار الفرنسى صادرها ، ولم يفرق بين أموال الله وأموال الحكومة التركية المغلوبة .

وقد كانت الجزائر أغنى الأوطان الإسلامية بالأوقاف ، وكان فى مدينة الجزائر وحدها ثمانية آلاف عقار لم يبق منها ولا واحد .

الناحية الثانية للمشكلة : كيف نستطيع الإستمرار فى إنشاء المدارس الجديدة مسايرة لرغبة الأمة ، ومراغمة لسياسة الإستعمار ، وانقاذا لما يمكن انقاذه من مليونى طفل عربى مسلم . لا يجدون مكانا فى المدارس الحكومية ولا فى مدارس جمعية العلماء ، فهم مشردون فى الحاضر ، بلاء على الأمة فى المستقبل ، والحكومة لا تعلمهم ، لأن تعليمهم مناف لمصلحتها ، وجمعية العلماء عاجزة عن تعليمهم لقصر مواردها ، وهذا العدد الهائل من الأطفال الضائعين تعترف الحكومة بوجوده وتسجله احصاءاتها الرسمية ، ولا تريد له أن يتعلم ، لأنها تكتفى باقتناع الشرقيين بأنها (معلمة العالم) وأنها (قبلة العلم)

نقول الآن هذه هى مشكلة العروبة فى الجزائر على الحقيقة ، ويزيدها إشكالا أن الحكومة الاستعمارية الفرنسية لا تريد حلها بعد أن كانت هى التى عقدتها ، أتسفه نفسها ؟ أتنسلخ عن طبيعتها ؟ أيصبح ابليس ناهيا عن المنكر يوما ما ؟ وأن جمعية العلماء لا تستطيع حلها ، وإن كانت تريده ، وتتمناه ، لأنها لا تملك الوسائل اللازمة لحلها ، وأم الوسائل المال .

* * *

فكر قادة جمعية العلماء فى هذه النقطة ، وقدروا عواقبها ، واتبعوا الأيام نظرهم ، وليسوا مدفوعين عن حسن النظر وبعده وصدقه ، ووضعوا أيديهم على موضعها من سجل التفكير ، وموقعها من جدول التقدير ، وقالوا : « هنا المشكلة » ، هنا المشكلة

عند من يزن الأشياء بموازينها الصحيحة ، لا ما سبق الحديث فيه ، ولعب الخيال فى مقارنته بمشكلات العروبة فى الشرق ، فخرج من المقارنة بأن مشكلتنا فى الجزائر أيسر حلا وأسهل علاجا . ولكن الدور الآن دور الحقائق والأرقام .

من الجائز أن تنضب الموارد الحالية بفعل الأحداث ، ومن الأحداث ذهاب هذا الجيل المخضرم الذى يعتقد أن تعليم الولد كفارة لما فات أباه من العلم ، ومنها قوالى القحوط فى أمة تعتمد فى معيشتها على الزراعة ، وقد شاهدنا أثرا من ذلك فى بعض الجهات .

فإذا وقع ذلك ، وهو جائز قريب ، كان من نتائجه سقوط المدارس ، وضياع هذه الجهود .

وإذا أسقطت المدارس القديمة فكيف نطمع فى اطراد النهضة واستكمال الجهاز الكافل لتعليم مليونى طفل ؟

وكانت نتيجة ذلك التفكير الطويل ، والتقدير العميق اتفاق الكلمة على توجيه الوجه إلى الشرق العربى ، وتنبيه الإخوان فيه — بعد تعريفهم بالحقيقة — على أنه قد وجب حق الأخ على أخيه .

اختارت جمعية العلماء للسفارة بينها وبين الشرق العربى رئيسها محمد البشير الابراهيمى ، كاتب هذه السطور ، فطاف العراق والحجاز وسوريا والأردن ومصر ولبنان ، وتردد على هذه الأقطار مرات فى ثلاث سنوات ، ولقى ملوك العرب ورؤساء حكوماتهم ووزراء معارفهم وجميع أهل الرأى فيهم ، وأدى رسالته الخاصة والعامة أكمل تأدية .

أما الرسالة العامة فهى : تعريف الشرق العربى بالغرب العربى تعريفا تاريخيا شاملا ، وبيان أنه قطع متجاورات متصلة الأجزاء بالشرق ، وأن سكان هذه القطع يشكلون نصف العرب تقريبا ، فإذا تمادت القطيعة وعدم التعاون بين شرق العرب وغربهم ، كما هو واقع — التهمت أوروبا شمال إفريقيا العربى وهضمته إلى الأبد وضاع على العرب نصف عددهم ، والأمم فى هذا الزمان تتكتل وتتكاثر حتى بمن ليس منها فى عرق ولادين ولا صلة ، فكيف لا يتكتل العرب ويتكثرون بمن هو من صميمهم فى النسب واللغة والخصائص ؟

فني سبيل أداء هذه الرسالة العامة وشرحها قضى كاتب هذه السطور ثلاث سنوات ، وألقى مئات الأحاديث والمحاضرات ، واستصرخ واستنجد ، ونصح ووعظ وسمى الأشياء بأسمائها ، وقال كلمة الحق جهيرة ، وشرح وعلل وانتقد ، وصاحبه توفيق الله فى أداء هذه الأمانة .

وأما الرسالة الخاصة ، فهى استنجاد جمعية العلماء الجزائريين بالحكومات والهيئات العربية وطلب العون المادى والمعنوى منها ، حتى تستطيع الجمعية الاستمرار فى عملها العظيم وهو انقاذ الجزائر العربية من البربرة والاستعجام ، وقطع الطريق على الاستعمار الفرنسى ومقاصده السيئة التى بيتها للجزائر ، وقد أعلنها وأصبح يعمل لها فى وضح النهار ، بعد ما استيقن أن الهيكل العربى تقطعت أوصاله ، وبعد ما سحر طائفة من اخواننا العرب الشرقيين بلغته وحضارته وتهاويله فأصبحوا يسبحون بحمده ، وفى آذانهم وقرعن استغاثتنا ، ومن بيننا وبينهم حجاب .

والعون الذى تريده جمعية العلماء الجزائريين من حكومات العرب وهيآتهم ، نوعان :

النوع الأول : قبول طوائف من أبناء الجزائر ترسلهم الجمعية ليدرسوا فى المعاهد العربية على اختلاف أصنافها ، ثم يرجعون إلى وطنهم الجزائر ، فيقومون بالتعليم فى مدارس الجمعية الابتدائية والثانوية ويسدوا فراغا بدأت الجمعية تشعر به من الآن ، ويسير النوابغ منهم فروع الأعمال الأخرى للجمعية وهى كثيرة مقسمة على لجان منظمة ، ولكنها تفتقر إلى رجال ذوى كفاآت . فهذا إجمال النوع الأول .

أما النوع الثانى من العون الذى تطلبه جمعية العلماء الجزائريين من الحكومات والهيئات العربية والشعوب العربية أيضا ، فهو : أن يمدوها بمبالغ من المال ناجزة أو مقسمة على السنين ، لتستعين ببعضها على حفظ القديم من مدارسها ومشاريعها ، ولتنشئ ببعضها مدارس جديدة للمشردين من أبناء الأمة ، المحرومين من التعليم بجميع أصنافه .

فكيف كانت سفارتى ؟ وماذا كانت نتائج سفارتى ؟ أسلك الآن سبيل الالتفات ، فأتحدث بضمير المتكلم ، لأننى أنا الذى عرضت هذه المشكلة (مشكلة العروبة فى الجزائر) بل مشكلة المشكلات فى نهضة الجزائر الإصلاحية العلمية العربية —

على الحكومات العربية ، منفردة فى عواصمها ومجتمعة فى مجلس الجامعة العربية ، وممثلة فى أمين الجامعة العام ، وأنا الذى قدمت المذكرات المتتابعة فى هذه المشكلة موضحا شارحا ، منذرا بالعواقب ، محذرا من الإهمال والتقصير ، بينت ذلك لجلالة الملك سعود ، ولى عهد وملكا بجدة ولحكومة العراق ببغداد مرات ، ولحكومة سورية ممثلة فى الشيشكلى ، وفى وزاة المعارف بعده بدمشق ، ولحكومة مصر فى العهدين ومعظم المسئولين فيها ، ولوزارة الأوقاف المصرية ، ولحكومة الأردن بعمان ، ولعدة سيوف من أمراء اليمن بالقاهرة ، ووجهت عدة مذكرات إيضاحية عن هذه المشكلة لجميع الحكومات العربية بواسطة سفرائها فى القاهرة ، والمحور الذى تدور عليه تلك الأحاديث والمذكرات بالنسبة للنوع الثانى ، يدور على النقط الآتية :

أولا : النهضة التعليمية العربية التى تضطلع بها جمعية العلماء الجزائريين معرضة لأخطار مالية تؤدى إلى انهيارها .

ثانيا : هذه النهضة العلمية أصبحت حقيقة قوية يعترف بقوتها وخطرها الاستعمار قبل غيره ، والحق ما شهدت به الأعداء .

ثالثا : النهضة العلمية يجب أن تكون مقدمة فى الاعتبار على جميع أنواع النهضات ، مقدمة فى العون المالى لأنها هى الأصل وهى الطريق إلى الحرية والاستقلال ، وما تحررت أمة أمية .

رابعا : لم تستطع هذه النهضة بعد جهاد عشرين سنة أن تعلم أكثر من عشرات الآلاف ، من مليونى طفل محرومين من التعليم .

خامسا : جمعية العلماء متدرجة فى الإنقاذ حسب استطاعتها : وهذه الاستطاعة محدودة لأن قدرة الأمة المالية محدودة .

سادسا : جمعية العلماء فى حاجة ملحة إلى الأنواع الآتية : من المدارس :

(ا) مائة وخمسون مدرسة ابتدائية على الأقل فى كل خمس سنين حتى ينتهى عدد المدارس إلى ألف مدرسة .

(ب) ثلاثة معاهد ثانوية على الأقل للذكور واثنان للبنات فى ظرف خمس سنوات ، لترضى بها جزءا من هذا الجيش المتكاثر من حملة الشهادات الابتدائية .

(ج) معهدان كبيران على الأقل للمعلمين ، ومعهد على الأقل للمعلمات ، فى أقرب زمن ، لتسد بمن يتخرج منها حاجة المدارس الابتدائية الجديدة إلى المعلمين .

أما رجال التعليم العالى فالجمعية معتمدة فى تخريجهم على الكليات العربية والجامعات فى الشرق العربى كما بيناه فى النوع الأول .

والمعنى الصريح لهذا كله أننا نطلب من الحكومات العربية أن تبنى للأمة الجزائرية التى هى جزء منها ، هذه الأنواع من المدارس كما تبنى فى أوطانها لشعوبها ، ولها أن تباشر ذلك بنفسها إن سمحت لها الأوضاع السياسية ، ولها أن توكل جمعية العلماء وتحاسبها الجمعية على الفلس ، كما هو ديدنها فى الماليات.

ان فى هذه (العملية) التى دعوت إليها الحكومات العربية معانى جليلة من ملك القلوب وتمتين الروابط وتثبيت الأخوة ومراغمة العدو الذى صمم على فصلنا وجعلنا شيعاً يلعن بعضها بعضا ، فأعناه على ذلك بسوء تدبيرنا . ومن المحزن أن هذه المعانى الجليلة يدركها عدونا ولا ندركها .

* * *

وبقى الآن أن نحدث إخوانى الأصفياء عن نتائج هذه السفارة التى طالت ثلاث سنوات ، وهجرت لأجلها وطنى وداري وعائلتى الصغرى وعائلتى الكبرى التى هى الأمة الجزائرية ، وضحيت لأجلها بمصالح جمعيتى فى الداخل ، وقد كانت تستغرق أوقاتى كلها.

تم فى النوع الأول ما يأتى :

أولا : قررت حكومة مصر الملكية قبول عشرة طلاب بعثة من جمعية العلماء فى معاهدها على حسب استعدادهم ، وخصصت للواحد منهم خمسة جنيهات مصرية للشهر ، وتتقاضى من كل واحد منهم فى أول كل سنة دراسية رسوما ذات أنواع تتحيف المخصص الشهرى إلى أربع جنيهات وأقل وفى بعض الأوقات .

وقررت حكومة الثورة لأول عهدها قبول أربعين طالبا على نفقتها ، عشرين على المعارف وعشرين على الأزهر ، فثبت نصيب المعارف بكل سهولة وحزم ، ولم يثبت شىء من نصيب الأزهر ، وأعيانى التردد سنتين فسكت .

وفى السنة الماضية صرح لنا الرئيس جمال عبدالناصر بقبول مائة طالب جزائرى بعثة لجمعية العلماء وتمت الاجراءات ، ولكن قيام الثورة فى الجزائر عطل البعثة عن السفر ، وما زلنا متمسكين بوعد الرئيس ، فاذا تم الأمر من جهتنا ، يكون لنا بمصر مائة وخمسون طالبا يدرسون على نفقة الحكومة المصرية ، ولكن النقص فى القضية أن المخصصات لاتكفى للضروريات ، واستلزم ذلك أن نقوم لطلبة البعثة بالبقية وهى لاتقل عن مبلغ ماتدفعه الحكومة المصرية وقد تزيد فى كثير من الأوقات .

ثانيا : قررت حكومة سوريا قبول بعثة جمعية العلماء من عشرة تلاميذ لسنة ١٩٥٤/٥٣ ، وعشرة لسنة ٥٥/٥٤

ثالثا : قررت حكومة العراق قبول عشرة طلاب لسنة ١٩٥٣/٥٢ ، وقبول خمسة آخرين فى سنة ١٩٥٤/٥٣ .

رابعا : قررت حكومة الكويت قبول خمسة عشر طالبا لجمعية العلماء الجزائريين . من سنة ١٩٥٣ .

خامسا : قرر امام اليمن ببرقية رسمية الانفاق على طالبين من بعثة جمعية العلماء الجزائريين فى مصر ، من شهر مارس سنة ١٩٥٣ ، ولكن لم يتحقق شىء من ذلك الا منذ ثلاثة أشهر .

سادسا : قررت الحكومة السعودية من يناير الماضى قبول خمسة طلاب فى المعهد العلمى بالرياض على نية الزيادة فى العام الدراسى الآتى .

فنتيجة هذه المساعى الجدية منى فى ثلاث سنوات متوالية ، مع الحكومات العربية باسم الأمة الجزائرية أن أصبح لجمعية العلماء فى الشرق العربى مائة تلميذ ، أنفق عليهم آلاف الجنيهات فى السنة زيادة ماتنفقه الحكومات .

أما أحوال هذه البعثات فى كفاية المخصصات الحكومية وعدم كفايتها ، فبعثة الرياض موسع عليها إلى ما فوق الكفاية ، وتليها بعثة الكويت فى التوسعة ، وتليهما بعثة العراق ، أما بعثة مصر وبعثة سوريا فأنا منها فى عذاب أليم لعدم كفاية المخصصات الرسمية .

هذه هى نتيجة الناحية الأولى ، وهى لاتحل شيئا من مشكلة العروبة فى الجزائر بل ربما تزيد المشكلة اشكالا ببعض الآثار التى تترتب على الابتعاث ، والأحوال التى تنشأ

فى المبعوثين ، واختلاف المناهج فى المدارس العربية ، والاتجاهات واللهجات المختلفة فى الأقطار العربية . وسيرجع الينا أبناؤنا — يوم يرجعون — خليطا من اللهجات والعوائد والتأثرات ، وسيكون لهذا أسوأ الأثر فى الجيل الذى يتولون تربيته وتعليمه ، كما ظهرت آثار اختلاف الثقافات فى الشرقيين الذين تعلم بعضهم فى ألمانيا وبعضهم فى انجلترا مثلا .

وأما النتيجة التى حصلت عليها فى الناحية الثانية ، فهى بضعة عشر ألف جنيه مصرى أرسلت من أقطار عربية مختلفة ، وفى أزمنة متفاوتة إلى مركز جمعية العلماء بالجزائر ، وأرسلت الايصالات إلى أصحابها مقرونة بالشكر ، ومجموعها لا يبنى للجزائر مدرسة ابتدائية ذات عشرة فصول ، وعلى هذا فهى لا تحل (مشكلة العروبة فى الجزائر) .

وبقيت المشكلة بحالها بل ربما ازدادت اشكالا بآثار الخيبة وقطع الرجاء ، الذى تتركه هذه الأحوال فى النفوس .

ولقد قال لى كبير عربى مسئول وأنا أحاوره فى كثرة المحرومين من التعليم فى الجزائر ، قال لى : إن مثل هذا العدد موجود حتى فى الحكومات العربية المستقلة ، فقلت له نعم ، أعرف هذا ، ولكن بازائهم ملايين المتعلمين ، فأعينونا على أن نصل بالجزائر إلى مستواكم فى التعليم ، وعلينا الباقى ، ولا تذكر اليمن ، فان لها حكومة وميزانية وأوضاعا مما لا يوجد فى الجزائر ، فاذا لم تتعلم فهى حجة على نفسها لا على غيرها .

***

ياحضرات الأصفياء :

أنا لم أصحح مرادكم بهذه الأحاديث فى هذا الموضوع بالذات ، هل أنتم تريدون تصوير المشكلات فقط ؟ أم تريدون مع تصويرها تحليلها ؟ أم تريدون مع ذلك بعض الوصفات لعلاجها ؟

ولم أدر غايتكم من هذه الأحاديث ؟ هل هى الاقتصار على جمعها ، فى كتاب ؟ أم لكم قصد أعلى وأنفع ؟ وهو أن تسعوا مجتمعين فى علاجها مجتمعة .

ان كان الأول فما زدتم على أن تداعيتم واحتشدتم لعمل يضطلع به الفرد ، وان كان الثانى ، وهو اعتقادى فيكم — فجندون ، ولا تفندون .

وكيفما كنتم فالسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ؟

محمد البشير الابراهيمى

تعقيب على المحاضرة

للقائد العربى

السيد عبد الله النديم

أثارت كلمة سماحة الشيخ كوامن الألم فى نفسى ، وأنا الذى أعتبر نفسى جندياً فى هذه الأمة أجدنى عاجزاً عن تلبية نداء إخواني فى المغرب وهم يخوضون معركة رهيبة مع الأعداء المستعمرين . وليس الذنب ذنبى وإنما هو موقف الأمة العربية والحكومات العربية المخزى من معركة الحرية فى المغرب .

ولاشك أنكم تدركون معى كيف أن هذه المعركة الخطيرة فى تاريخ العروبة والإسلام لم تلق رد الفعل اللازم عند الشعوب العربية الإسلامية وحكوماتها .

فأين هى الاجراءات الحكومية التى اتخذت ضد فرنسا المعتدية الباغية ؟ وأين هى الإجراءات الشعبية التى اتخذت لشد أزر المجاهدين الأبطال ؟ أين هى الأموال التى تبرع بها المسلمون والعرب ؟ أين هى لجان الإسعاف الطبى ؟ أين السلاح وأين المتطوعون الذين تقدموا للأشتراك فى هذه المعركة ؟ إننى لم أسمع بأن عملا واحداً نفذ فى سبيل نجدة المغرب المجاهد . وخذوا كلاما كثيراً من العرب والمسلمين الذين أصبحو حريصين على الدنيا وما فيها حرصا أذل نفوسهم ورقابهم ، فى الوقت الذى صار فيه اليهود — وهم الذين عرفوا بالجبن والحرص والبخل — يجودون بأموالهم ودمائهم فى سبيل أهدافهم ، حتى أن لجنة واحدة منهم فى أمريكا جمعت فى جلسة واحـــدة ومن ألف شخص فقط عشرة ملايين دولار .

إن موقف الشعوب العربية وحكوماتها من معركة تحرير المغرب أيها السادة سيكون وصمة عار فى جبين الدهر على العرب والمسلمين .

التعليق

لقد شفى نفسى محاضرنا بما أسبغ على حكومات العرب وأعيانهم من ألقاب السوء لأن حاكما عربيا منذ معاوية حتى اليوم لم يؤهله خلق ولا دين لأن يكون موضع احترام الأمة على لسان شاعر أو قلم كاتب .

أقول : لقد شفا نفسى بهذا الطعن ، ولكن غصة فى الصدر من طعنه هذا مسببة عن عدم تعليله السوء فيهم أهو من طبع أم تطبع ؟ ؟ لماذا ساؤا ؟ ألكونهم عربا أم لكونهم مسلمين ؟ ؟ هذا ما كان يجب عليه أن يتساءل لنعلم نحن وليعلم أبناؤنا السبب فى انهيار العرب ثم ليعذرنا هؤلاء الأبناء فى إسباغ ألقاب السوء على السادة والقادة فينا .

كلمة واحدة صريحة كانت تكفى لتبرير هذا الطعن على ولاة الأمر منا هى نبذهم رسالة محمد باعث العرب ومنقذهم وواضع الأسس لسيادتهم واعتصام العالم بهم ، إن فصل السياسة عن الدين منذ العهد الأموى وقصر السياسة على المحكمة ، والدين على المسجد ثم تأييد هواة الحكم وغواة السياسة لهذا المبدأ ، هو الذى هدم العزة فى نفوس العرب وبناها فى صدور أعدائهم ، وماذا نفيد من الدين إذا فصلنا السياسة عنه ؟ ؟ وأية حاجة بنا إلى ناموس ينزل علينا من السماء ونحن خاضعون للناموس الذى يشرع قوانينه من لا خلاق له فينا من خلق أو دين ؟ ؟

هل تنزل الروح الأمين على محمد ليبصره بأمر آخرته دون تبصرة بأولاه ؟؟ وهل كان على وعمر وأصحابهما عاجزين باسم الدين عن سياسة الخلق وكان معاوية والحجاج والمنصور والسفاح أجدر بسياسة العالم عن طريق التحلل من الدين ؟؟

إن الأديب إذا عرض لتعليل الأسباب التى أفضت بالأمة إلى الانهيار فى العرب والاسلام لم يجعل السبب الأول نكبة العرب والمسلمين بفصل السياسة عن الدين ، أقول : ان هذا الأديب لم يستهدف للحق فيما يحبر أو يحرر ، فلنصعد فى تعليلنا هذا الانهيار إلى أول قائد لنا تحلل من عصمة الدين ونعمل على تغذية أبنائنا بالحق فيما نقول ونفعل

فانا إن موهنا على الأبناء بالتضليل من وراء تأثرنا الأعمى لمؤرخينا الأول الذين وضعوا عمر بن الخطاب ومعاوية بن أبى سفيان فى ميزان واحد من حيث الرضى عنهما والتماس الرحمة لهما دون أن نفكر فى الثلم الذى أحدثه معاوية وضحى بعشرات الألوف من المسلمين قربانا لشهواته ، ودون أن نفكر فى تضحية عمر بهذه الشهوات بين يدى رسالة ربه .

أقول : إنا ان موهنا على الأجيال بذلك لزمتنا الحجة فى السكوت عن قادتنا ومالكى أمرنا اليوم ان فعلوا ما اقترفه القادة الأول بخروجهم على الدين فيما يشخصون له من باطل ويعرضون عنه من حق ثم نلتمس لهم العذر بأنهم مأجورون لأنهم اجتهدوا فأخطأوا .

لشدما يغيظنى أن أسمع بعض الناس من عباد الشهوات يتشدقون قائلين : « ليس لنا أن نسأل عن شخصية الحاكم وانما علينا أن نرقب عمله الخارجى فهو حر فى شخصه والقانون من وراء عمله » تلك هى الجمل السائدة على ألسنة الغواة من متحللى الأمة العاملين على تضليل الناس والقائلين بأن شخصية العامل شىء وعمله شىء آخر ناسين أن فاقد الشىء لايعطيه وأن صلاح الذات مأخوذ فى مفهوم إصلاحها وأن من وضع القانون وهو فاسد يعرف كيف يطبق القانون على نفسه حين يفسد .

يفرض هؤلاء العقوبة على مرتكبى الإجرام خلقية أو عملية وهم رأس الجرأة فى ارتكاب تلك الجرائم ثم لايمس القانون منهم فماً يفحش ولا يداً تجرح ، انهم يشرعون ادانة اللص وهم أبرع الناس فى اللصوصية ، ويدينون الخائن وليس فى كيانهم جارحة يأمنها المحكوم على نفسه أو عرضه أو ماله ، كل ذلك ناشئ فيهم عن تغلغل الكفر والالحاد والفسق فى نفوسهم وعن اتخاذهم سياسة الأمة وقيادتها والحكم فيها والهيمنة عليها وسائل تشفى نفوسهم الطاغية من داء الكلب والجشع المسيطرين عليها سيطرتهم على الأمة المتردية بهم فى حمأة الهون .

ذلك مادفع الحكومات منا إلى أن تحجم عن تلبية المستغيث من مظلومى الأمة فى مشرق الأرض ومغربها فلو مس الدين نفوس هؤلاء مسا رفيقا لشعروا بمسؤلياتهم ورجعوا الى قول نبيهم : «مثل المسلمين فى توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا أصيب عضو منه تداعت له سائر الأعضاء بالسهر والحمى » من هو هذا المسلم أو العربى فى أى قطر من

أقطار العالم يشعر بالحمى لما تنكب به مراكش والجزائر اليوم ولما نكبت به الأندلس وفلسطين بالأمس فيحتم ويسهر ليفكر فى انقاذ أخيه المسلم من هذه النكبة ؟ ؟

من هو هذا المسلم حاكما كان أو محكوما يقتصد من ماله ومن وقته مايغيث به مسلما آخر هو نهب الحديد والنار ؟؟ أفى هذه الملايين البالغة مئات من مجموعة البشرية مليون واحد يألم لآلام ثلاثين مليونا يرهقهم الاستعمار الغربى بظلمه وقهره ؟؟ إذن لكنا إذ ذاك خليقين برسالة محمد ولكان لنا ملء الحق أن نفاخر العالم بتراثنا وبين أيدينا منه مايفيض على العالم نورا ورحمة .

فرنسا ، وطغيانها المستمر على العروبة والاسلام ، تعبث بناموس العالم شرقه وغربه وتحت ايدينا نحن العرب خاصة والمسلمين عامة من مقـــدراتها مالو عطسنا مهددين لارعوت وازدجرت ولخف وطء الظلم والطغيان منها على اخوتنا فى العروبة والإسلام.

يولمنى أن أقول : إن حاكما عربيا يتحلى بسجايا العرب القائمة على الحمية والغيرة والإباء وأن حاكما مسلما يعتصم باسلامه القائم على الانصاف والرحمة والعدل . اقول : إن حاكما عربيا مسلما كذلك لم ترفع به الأمة العربية رأسا ولا فاخر به الإسلام عدوا منذ نبذنا رسالة سيد العالم إلى العالم حتى اليوم .

ان فى مقدور كل واحد من مائة مسلم على أكبر تقدير أن يغيث مسلما . أفما نستطيع بذلك أن نغيث عرب المغرب بما يحميهم من الدمار تحت الحديد والنار ؟؟ ان أبطال المغرب لايطلبون رجالا ولكنهم يطلبون مالا يدفعون به العدو ويحمون به نساءهم وأطفالهم من الجوع . أفما نجد فى خمسمائة مليون مسلم خمسة ملايين يغيثون آلافا تجردوا للجهاد فى سبيل الذود عن اسلامهم وعروبتهم تحت سماء المغرب ؟

أيها الناس يا ذباب الأرض يا عالما بلا كيان ، ان بريطانيا وفرنسا لاتزالان حتى اليوم تنهشان أعراضكم وتنخران أفكاركم وتهدمان كيانكم وتقوضان تراثكم باسم التمدين والتجديد تارة وباسم الدين والانسانية تارة أخرى ولاتهدفان من وراء ذلك الا لمحو دينكم الذى أعرق فى صميمه أقوى عامل لتقويض الإستعمار الذى تقومان عليه منذ قرون ، ان فى دينكم سلاحا لايقوى على دفعه الإستعمار بما يعد من قوة تحلق فى السماء أو تتفجر فى تخوم

الأرض، وان اليهود لم يسيطروا على العالم فيقودوا قادة الرأى والسلطان فيه قود الخنازير لمآربهم بقوة الحديد ولكنها القوة التى نادى بها محمد قبل ألف وثلاثمائة عام ولايزال صوته مدويا بها حتى هذه الساعة يقول : « انصر أخاك ظالما أو مظلوما ، المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا » .

تلك هى المزايا التى ضمنت للاسلام أن يسود العالم والتى ساده العالم يوم تخلى عنها والتى تعتنقها اليوم أمة موسى فسادت العالم .

ليست السيادة فيك أن أقول لك ياسيدى وإنما السيادة أن أتخذك مطية لى وأنت فوقى فلشد ما رأينا الهر يعلو الحمار والقرد ينزو على الجمل ، تلك هى سيادة إسرائيل فى العالم ، تستخذى للعالم كله وتتخذه مطايا لاعادة مجدها وبعث تراثها . وها هى اليوم تركز جهودها فى استغلال أرقى العالم لدعم كيانها ثم تعمل بعد ذلك على ضرب العالم بعضه ببعض حتى يهلك العالم وتنسل هى منه انسلال الفأر من غمر الحصيد .

لقد أعاد لى العلامة المحاضر ذكرى مرورى بالجزائر قبل خمسة عشر عاما وأنا فى طريقى إلى العالم الجديد يوم كنت صحفيا أصدر مجلة العروبة التى حاربتها فرنسا بكل وسيلة على أيدى العتاة من أذنابها فى لبنان وهم من صميم عشيرتى المسلمين العرب فى بيروت وصيداء وصور ، لقد مررت بالجزائر وأنا أحسب أنى فى بلد عربى ولكنى دهشت وأسفت إذ قطعت شطراً كبيرا من هذه المدينة الجميلة ساعيا على قدمى أبحث عمن يفهم لغة العرب لأستهديه إلى جمعية العلماء الجزائريين فلم أفلح .

ومنيت أخيراً بخادم فى متجر غربى قيل لى إنه يحسن العربية فإذا به يمسخ لغة العرب بلسان ألكن لاعربى ولاعجمى وبعد جهد أفهمته غرضى وأرشدنى إلى الجمعية ثم أرشدتنى هذه إلى إحدى المؤسسات الثقافية لأبناء العرب وقد رافقنى الشاعر محمد بن عبود إلى الآثار الإسلامية فى المدينة وأطلعنى على المساجد التى حولها الاستعمار إلى كنائس فكان ختام هذه الزيارة قاسيا على نفسى وأنشدت بعد مغادرتها وأنا على ظهر الباخرة قطعة من الشعر خاطبت بها ابنتى « أمل » وقد جاء فيها :

تلك الجزائر لا تشير جبالها لأبيك يا أملى بغير الأدمع
هلا وقفت مع الصباح بجانبي تتبينين جمال ذاك المطلع
لبنان ، وهو أغر أبلج جالس فوق الجزائر جلسة المتربع
تختال فى عينى عرائس دوحه ويرن لحن هزاره فى مسمعى
ليت الأحبة أرهفوا أسماعهم يتلقفون خرير أنهره معى
ويح الجزائر ما لأوج تراثها غربت أهلته ولما تطلع
إنى لأسمع من وراء خضوعها للضيم رجع حنينه المتقطع

تلك هى النفثة التى قوست أضلاعى على أحر من الجمر إذ مررت بالجزائر آنذاك ، وها هو المجاهد الابراهيمى يعيد إلى تلك اللوعة ولما تخمد جذوتها بين جنبى ، فأين غيرة الإسلام فى أهله ؟ ؟ أين أعيانه وقادته ؟ ؟ وأين ساسته وزعماؤه ؟ ؟ الذين شغلوا الصحف بمآثرهم فى ملاهى الشرق والغرب ، والذين أفاضوا الذهب على الخمارات والمواخير ؟ ؟ أين المال الذى يغمرون بالذهب والفضة منه أقدام العواهر فى الشرق والغرب ؟ ؟ ثم لا نرى صحيفة حرة تنادى على شذوذ هؤلاء وتهيب بالشعوب العربية والإسلامية إلى الضرب على أيدى هذه الفئة العابثة بتراثها والعاملة على بعث الخزى والعار المدفون فى صدور أسلافهم فى العهدين الأموى والعباسى من خلاعة وتهتك ومجون .

إن البذخ القائم فى قصور الأغنياء وعلى قبور الأولياء من وراء الجحود فى سكان القصور والجمود فى عباد القبور ، أقول : إن هذا البذخ وحده يكفى لتعزيز الكفاح فى المغرب العربى وتقرير العزة فى نفوس العرب المستخذين للأجنبى تحت وطء الجهل والفقر اللذين غلا يدى كل مسلم وحالا بينه وبين تدبر القرآن الكريم وتفهم سنة الرسول الأعظم وفى كليهما دعوة العالم إلى العلم حتى رأينا محمدا يقيم دعائم رسالته على شقين هما العلم والأخلاق .

حقا يقول المحاضر إذ يجعل مشكلة العروبة فى المغرب أولى مشاكلها لأن الأندلس التى كانت شطر العروبة الغراء أيام عز العرب ذابت كما يذوب الثلج تحت الهجير ولم نجد علما إسلاميا خفق للأخذ بالثأر ممن أذابها ، وكان سلطان الإسلام يومذاك يهيمن على

العالم من الصين إلى محيط الأطلس ، وذهبت الأندلس ثم نسيت كما ينسى الثوب الخلق تأكله النار ، فهل نلوم المغرب العربى اليوم إذا أوجس خيفة من أن يكون مصيره مصير الأندلس والمسلمون والعرب أصبحوا بفضل الاستعمار وأذنابه منهم فى مستوى من الحياة ليس تحته تحت ؟ ؟ ؟ رحم الله القائل إذ رأى الافرنسيين يدمرون قرى المسلمين أيام الثورة عليهم فى لبنان قال يستنجد العرب ودول الإسلام وهم صم بكم .

أو مسلمون هم وبيضة دينهم هتكت وما ملكت يداهم مغنم

هلا غلا فى مسلم دم غيرة ؟ غفرانك اللهم أين المسلم ؟ ؟

أين العرب ؟ وأين المسلمون وأين شبابنا المثقف الذى يزعم أنه صاحب التراث وأنه الحريص على قوميته ووطنه ؟ أليس المغرب العربى قطعة غالية من أرض العرب ؟ ؟ أليس أهله عربا أقحاحا ؟ ؟ فأين إذن حمية الشباب العربى فى مصر وسوريا والعراق ولبنان واليمن والحجاز ونجد ؟ ؟ أين التطوع ؟ وأين التظاهر ؟ ؟ وأين بذل المال ؟

ثم أين المؤسسات باسم العروبة والإسلام ، فأين الشباب المسلم ؟ وأين شباب محمد ؟؟ وأين الشبان المسلمون ؟ ؟ وأين الإخوة الإسلامية ؟ ؟ أين مئآت الهيئات والمؤسسات باسم الإسلام ؟ ؟ وأين غيرتهم على ثلاثين مليونا تقتل أبناؤهم وتهتك أعراضهم من عتاة فرنسا ومن عبيد السنغال ؟؟ هل سدت فى وجوههم الطرق لإغاثة إخوانهم فى المغرب ؟ أفلا يستطيعون أن يقضوا مضاجع فرنسا وهم فى أوطانهم ؟؟ أفلا يستطيعون أن يشغلوا حكوماتهم بالعمل على إغاثة المغرب وهو يستغيث ؟ أفما تصغى لهم هذه الحكومات إذا رأت منهم الثورة والهياج ؟ ؟ فتعمل على القطيعة بين العرب والإفرنسيين ؟ ؟

ان الطريق مفتوح أمام المتطوعين من شباب العرب والمسلمين لنصرة إخوانهم فى المغرب ، أفلا تندفق الكتائب مزودة بالكرامة والعز ثم بالزاد والسلاح من شعوبهم وحكوماتهم ؟ ؟ أخوفا من الموت يتقاعسون ؟ ؟ أم حرصا على الحياة يتثاقلون ؟ ؟ فليذهب ضحية انقاذ نصف العرب مليون من العرب وليذهب عشرة ملايين من المسلمين فإنا رأينا الشباب الروسى أيام تهددت بلاده بالدمار من ألمانيا ، رأينا الجيوش تلقى بأنفسها على الجثث والجماجم تحت وطء الحديد والنار حتى قيل : إن أربعة ملايين ذهبت من

الروس طعمة للسلاح الأبيض أيام الحربين العالميتين فى سبيل كرامتهم والدفاع عن بلادهم .

فأين كرامة العرب ؟ وأين عز الإسلام ؟ وأين التضحيات فى سبيل هذا العز وتلك الكرامة ؟ ؟ لقد رأينا الشباب المسلم فى لبنان وغيره يتطوع فى الجيش الايطالى أيام نشوب الحرب بين ايطاليا والحبشة وكان التطوع ناشئا عن الحاجة إلى الخبز ، أفكان الخبز دافعا للمسلم العربى أن يتطوع للموت فى سبيل غير المسلم ولم تكن الكرامة والقومية والدين جديرة بأن تدفع المسلم للتطوع فى سبيلها أمام هذا التيار الجارف من الاستعمار القائم على الانتقام والثأر من العروبة والإسلام منذ ستمائة سنة حتى اليوم ؟ ؟

ان التعليق والتعقيب على محاضرة الشيخ الابراهيمى لا يشفى النفس من ألمها ، ولكنها نفثات تجيش فى الصدر ويلفظها القلم على الطرس لعلها تجد من يشفى صدره بقراءتها ولو بعد حين ، ولعلها ترفع السبة فى الأجيال المقبلة عن العربى المسلم الذى أوتى الشعور والاحساس بما يخسف أمته وبلاده من هضم العدو اليوم ثم لم يؤت من القوة ما يدفع به هذا الخسف الا اللسان والقلم ، فماذا يقول أبناؤنا بعدنا اذ يقرأون أن ثلث العالم العربى كان عربيا مسلما ثم تلاشى ولم يقرأوا شيئا من دموع الأدباء والشعراء وراء هذا التراث المسلوب أفلا نملك حتى أضعف الجهاد فى سبيل الحق الذى كان ملكا لنا فأضعناه ، والعز الذى كان سلاحنا فى السيادة على العالم ففقدناه ؟ ؟

ان البلية كل البلية فى المسلمين عامة وفى العرب خاصة ، أن تكون غنية حتى التخم بأدبائها وشعرائها وصحافتها ثم نجد هذه الفئة منهم قاصرة فى توجيهها الأمة على العبث والمجون ، أولئك الشعراء لا نجدهم يتغنون إلا بالمرأة وإذا تعدوها فإلى التافه من ضروب الحياة ، وأولئك الأدباء لا يتخيرون مواضيع لأحلامهم الا تراجم الموتى من أعدائهم شيوعيين وبيزنطيين وأن تعدوا ذلك فالى السفاسيف من ألوان الحياة وهؤلاء أصحاب الجلالة الصحافيون لا يحشدون فى صدور الصحف إلا صور النساء العارية الخليعة أو صور الدجالين المضللين من زبانية الأمة المسيطرة على مقدراتها باسم السيادة والسياسة والحكم ، وهؤلاء الخطباء فى المحافل والأندية لا يفقهون من الحياة ليقولوا الا الجعجعة النزيهة من

كل طحن والا المواضيع الرثة البالية من توافه الحياة ، وحتى أئمة الفكر وقادته أمثال طه حسين والعقاد وتوفيق الحكيم وأضرابهم لا نجدهم يشغلون المذياع بغير النعى على القديم والانتصار للجديد وهو أخلق موضوع قام عليه الأدب العربى منذ نصف قرن ولا يزالون يضربون على وتره المحطم .

أما الثورة على اليهودى مندريس فرانس وعلى أمته الافرنسية وعلى تشرشل عبد الصهيونية وعلى أمته السكسونية التى يرسف العالمان عربا ومسلمين فى القيود المصهورة بين لندن وباريس وبين روما والكرملين ، أما ثورة أعلامنا فى الشعر والادب على الفظائع التى ينزلها الفرنسيس بالعرب المسلمين فى مراكش والجزائر وتونس ، والتى تنزلها بريطانيا بالعرب المسلمين فى اليمن وعمان وفلسطين ، وبالمسلمين فى الملايو ، أما هذه الثورة فشاقة على ألسنة وأقلام أعلامنا .

وهكذا نجد أكبر كاتب كالتابعى يعنى بمغامراته مع اسمهان وكالشناوى والعقاد وصدقى يعنون ببعث أبى نواس فى عهد لم ينقصه من المدنية إلا عود أبى نواس إليه ، أما أن يتظاهروا بألسنتهم وأقلامهم على إثارة العواطف فى قومهم بله العالم ، وعلى ايقاد العزائم فى صدور الشباب للانتقام من دول الإستعمار القائمة على التنكيل بأمتهم فى الشرق والغرب ، أما هذا فشاق عليهم وبعيد عنهم لأن فيه اغضابا للباطل وإرضاء للحق . أستغفر الله لى ولهم وللأمة يوم ترد على محمد وهى « عالية الرأس » بين يدى هذه الآثام والآلام .

المحاضرة الثانية عشرة :

حياة المحاضر



محمد محمد المدنى

الأستاذ فى كلية الشريعة بالأزهر الشريف

ولد « بالمحمودية — بحيرة — مصر » فى ٢٨ سبتمبر سنة ١٩٠٧ م .

نال شهادة العالمية من الأزهر فى سبتمبر سنة ١٩٢٧ قبل أن يبلغ العشرين من عمره بأيام ، وبذلك يعد أصغر الذين نالوا هـذه الشهادة سنا فى تاريخ الأزهر .

نال شهادة التخصص « دكتوراه » فى علوم البلاغة والأدب من الأزهر سنة ١٩٣٠ .

اشتغل بالوظائف العلمية والإدارية بالأزهر : مدرسا وأستاذا ومفتشا ، ووصل إلى درجة السكرتير العام المساعد للجامع الأزهر والمعاهد الدينية ، وهو الآن أستاذ لمادة أصول الفقه فى كلية الشريعة .

وهو من أعضاء جماعة التقريب بين المذاهب الاسلامية بالقاهرة ، وهو السكرتير العام المساعد للجماعة ولدار التقريب ، ورئيس تحرير مجلتها (رسالة الاسلام) منذ ظهورها إلى الآن ، وهى فى سنتها السابعة .

من أعضاء « جمعية الدراسات الاسلامية » المؤسسين ، وهى الجمعية التى أنشئت فى هذا العام ويتبعها « معهد الدراسات الاسلامية » .

له بحوث ومقالات كثيرة تعد بالمئات فى الصحف والمجلات العالمية ، ولا سيما فى مجلات « الرسالة » و « الأزهر » و « رسالة الإسلام » .

له عدة مؤلفات ، منها :

١ — فى أصـــول الفقه : « درس كتاب المنهاج » جزآن .

٢ — فى الفقـــه : « المهذب فى فقه المالكية » .

٣ — فى أسرار التشريع الاسلامى : رسالة « دعائم الاستقرار فى التشريع القرآنى » .

٤ — فى التفسير : تفسير سورة الكهف ، وهى رسالة تقدم بها لنيل عضوية جماعة كبار العلماء ولكن صغر سنه حال دون قبوله عضوا ، فقد كان يومئذ فى الثالثة والأربعين وقانون الجماعة لا يقبل إلا من وصل إلى الخامسة والأربعين على الأقل .

٥ — فى التفسير : تفسير سورة المائدة — وينشر تباعا فى مجلة رسالة الإسلام .

٦ — فى الأدب والبلاغة : الأدب والبلاغة المقرران على طلاب السنة الثالثة فى كلية الشريعة — (العصر العباسى) .

٧ — فى الأدب والبلاغة : الأدب فى صدر الاسلام وعهد بنى أمية .

وغير ذلك فى الفقه والمنطق — الخ .

شخصيته

إن فى آثاره ولا سيما تصديره مجلة رسالة الإسلام ، ما يطابق شخصه من هدوء فى التفكير وعمق فى إصابة الهدف الذى يرمى اليه بفكره ، وأما علمه وإيمانه فهما رهن بمنزلته التى أحرزها فى نفوس عارفيه فهو منهم بالمنظر الأعلى ، فإذا قال صدق ، وإذا وعد وفى ، ولعمرى ان ذلك من صفات الرجل الكامل الذى تنشده الأمة من وراء حرصها على الحياة .

المحاضرة الثانية عشرة

مشكلة تصوّر لا مشكلة تصديق

ألقيت فى منزل مقرر الندوة وهو مؤلف هذا الكتاب
فى ١٩ / ٦ / ٥٥ الموافق ٢٨ / ١١/٧٤

أيها السادة :

نحن معشر الأزهريين لنا عبارات تجرى منا مجرى القضايا المسلمة التى لا تقبل الجدل ، وحتم على المتجادلين أن يذعنوا لها من أول الأمر ، ومن هذه القضايا قولنا « الحكم على الشىء فرع عن تصوره » وبعبارة أخرى لا يمكن التصديق قبل التصور ، لأن التصور أصل ، والتصديق فرع ، ولا يمكن أن يوجد الفرع قبل وجود أصله .

والأزهريون لم يبتكروا هذه القضية وإنما هم معبرون عن معناها بهذه العبارة وهى قضية عالمية منطقية مسلمة من أرباب الفكر فى أية أمة ، لا فرق بين حديث الأمم وقديمها ولا بين مسلمها وغير مسلمها .

ومع وضوح هذه القضية وتسليمها من جميع الناس نجد كثيرا من المشكلات فى العالم الإسلامى ، بل أكثر المشكلات يرجع إلى عدم الانتفاع بهذه القاعدة وعدم تطبيق مضمونها ويستوى فى ذلك العامة منا وكثير من الخاصة .

فهؤلاء وأولئك قد تعودوا أن يصدقوا قبل أن يتصوروا ، فما أيسر أن تجد المسلم مصدقا تصديقا تاما لا يعتريه شك بقضية لا يعلم أطرافها ولا يتصور أركانها أو هو يتصور هذه الأركان تصورا فاسدا ، فلا يمكن أن يكون تصديقه وإيمانه الا ايمانا فاسدا

ويترتب على ذلك أنه يسير فى حياته على هدى ما يظنه حقيقة ثابتة ، وقد يكون فى نفس الأمر معكوسا ، وأضرب لذلك مثلا مشهورا هو أن الغالبية العظمى منا يعتقدون قضية تراهم يجرونها على السنتهم ويتبادلونها فى تعليقاتهم على الحوادث فيقولون « المقدر لابد من نفاذه » وقد يقولون باللغة العلمية الدارجة « المكتوب على الجبين لازم تشوفه العين » وأحيانا يرددون باللغة العربية الفصحى تلك العبارة المأثورة « ماشاء الله كان وما لم يشأ لم يكن » .

ان هذه العبارات وأمثالها صحيحة فى نفسها وكثير منها جاء التعبير به على لسان الشارع ، فى كتاب الله أو فى سنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، ولكن الناس يخطئون فى فهمها خطأ يرجع إلى تصور بعض أركانها تصورا فاسدا ، فإذا سألت كثيرا من المؤمنين الذين ينطقون بالعبارة الأولى مثلا : « المقدر لابد من نفاذه » عن معنى « المقدر » أجابوك : هو ما أراده الله لك ، وكتب عليك أن يكون قبل أن تكون ويترتب على ذلك التفسير أو على ذلك التصور كثير من العقد والمشكلات العلمية والعملية :

يترتب عليه أن يقول بعض الناس : مالى أسعى وأعمل وأجد وأشقى نفسى ؟ أليس الله كتب لى حظى من الغنى والفقر والسعادة والشقاء والصحة والمرض ؟ أليس الناس جميعا خاضعين لقضاء الله وقدره ، فهو الذى يسعدهم ويشقيهم وهو الذى يمرضهم ويشفيهم وهو الذى يرفع أقواما ويضع آخرين ؟ ألم يقل رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اعلم أنه لو اجتمع أهل الأرض جميعا على أن ينفعوك لم ينفعوك إلا بشىء كتبه الله لك ، ولو اجتمعوا على أن يضروك لم يضروك إلا بشىء كتبه الله عليك ، رفعت الأقلام وجفت الصحف » .

ويترتب على ذلك أن تفتر الهمم فى الطلب والسعى والأخذ بسنن الحياة ، ان لم نقل أن قوة بعض الناس فى الإيمان بذلك قد تحملهم على إبطال السعى جملة والركون إلى ما يحسبونه « توكلا على الله » وانتظارا لقضاء الله وقدره .

ويترتب على هذا التصور أيضا أن يقول بعض الناس : انى إذا كنت مطيعا لله فبقضاء الله وقدر الله أطعت ، وإذا كنت عاصيا لله فبقضاء الله وقدر الله عصيت وليس فى استطاعتى

أن أكون غير ما كنت . فالعاصى لا يستطيع أن يكون مطيعا وقد قدر الله عليه أن يكون عاصيا ، والمطيع لا يستطيع أن يكون عاصيا وقد قدر الله له أن يكون مطيعا ، فكيف يعاقب الأول على عصيانه الذى دفع إليه وحمل عليه ؟ وكيف يثاب الثانى على طاعته وهو انما سيق إليها سوقا ودفع إليها دفعا ولم يأتها فى الواقع طوعا وإنما أتاها جبرا ؟ وهب الثانى أثيب تفضلا ، فلم يعاقب الأول ؟

وقد يقول بعض الناس : إذا كان الله هو الذى يكتب ويقدر ويقضى ، فلم كتب فلانا سعيدا وكتبنى شقيا ؟ ألسنا كلنا مخلوقين له مربوبين بربوبيته متساوين تحت ظل رحمته ؟ ويترتب على هذا وذاك اضطراب فى الإيمان وزلزلة فى التصديق فانظروا كيف آلت العبارات الصحيحة فى ذاتها إلى الخطأ ؟ وكيف صارت القضايا التى أثرت عن الشارع وقصد بها تربية الايمان بالله فى قلوب المؤمنين — كيف صارت سببا للبلبلة والزعزعة ؟ ماذاك الا من الخطأ فى التصور ذلك أن هناك فرقا بين فهم المقرر والمكتوب والمقضى به على أنه كما يتصوره المتصورون ما حكم الله به وبين فهمه على مفهومه الصحيح وهو أن المراد به علم الله ، « فالمقدر لابد من نفاذه » قطعا ولكن معنى هذه العبارة « ما علمه الله لابد يكون » وذلك لأن الله يعلم الأمور كما تكون سواء وجدت فعلا أو كانت ستوجد فلا يمكن أن يعلم الله أن فلانا سيكون من أهل السعادة ثم يشقى أو سيكون من أهل الشقاوة ثم يسعد والا لانقلب علم الله جهلا تعالى الله عن ذلك ولكن العلم ليس صفة من صفات التأثير كالقدرة فلا دخل له مطلقا فى حصول شىء فى الوجود أو عدم حصوله إنما هو صفة كشف وعرفان فقط وتقريبا لذلك نقول إذا كان لك ولد وعلمت علما قطعيا بأنه سيرتكب جريمة القتل مثلا وإرتكبها الابن فعلا فلا يمكن أن يقال أن علمك هو الذى دفعه إلى القتل دفعا وسيره إليه تسييرا أما إذا حرضته ودفعته إلى القتل أو قذفت به شخصا فقتل هذا الشخص فأنت الفاعل وأنت المسئول وإذن فليس العلم قوة تنفيذية ، وغاية مايقال إن هناك فرقا بين علمنا وعلم الله فعلم الله لايمكن أن يخطىء فإذا سبق فى علمه أن شيئاً ما سيكون فهو حتما كائن لا لأن العلم هو الذى يوجده ولكن لأن العلم كشف ما هو كائن على حسب ما سيكون من الواقع الفعلى ومحال أن يتخلف ما علمه الله والا

لكان الله علم خلاف الكائن فيكون علمه جهلا وهو محال وإذن فتفسير « القدر » « بأنه ما كتب عليك أن يكون » ليس تفسيرا صحيحا وإنما التفسير الصحيح أن يقال « ما علم أنه كائن » .

فإذا صح الناس تصورهم على هذا النحو حلت المشكلة وأمكنهم أن يدركوا أن القضاء والقدر والكتابة والعلم ليست تعبيرا عن إلزام وإرغام وسوق ودفع للناس وإنما هى تعبير عن علم الله المحيط وفى القرآن الكريم آيات محكمات تدل على ذلك هى الأساس الذى يرد إليه ما تشابه ومن الآيات قوله تعالى : « الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد وكل شىء عنده بمقدار عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار » فقوله تعالى : « الله يعلم ما تحمل كل انثى » أنبأ لعلمه المحيط بمالا يعلمه الناس وقوله « وما تغيض الأرحام وما تزداد » : المشهور أن « ما » فى هذه الجملة مفعول ليعلم ، عطفا على «ما» فى قوله ما تحمل كل أنثى ، والتقدير : ويعلم ماتغيض الأرحام وما تزداد ، والأجود أن يقال ان « ما » فى الجملة الثانية نافية ، ومعنى الكلام : ولا يتخلف الواقع الفعلى عما علمه الله وإنما يقع ماعلمه كما علمه دون نقص أو زيادة فما تغيض الأرحام أى ما تنقص وماتزداد فإذا علم أن فى بطن هذه الأنثى توأمين فهما توأمان وإذا علم أن فى بطنها جنينا واحدا ذكرا أو أنثى فهو كما علم والجملة الأولى : « الله يعلم ماتحمل كل أنثى » اثبات للعلم والجملة الثانية تعبير عن عدم تخلف العلم ثم قال تعالى : « وكل شىء عنده بمقدار » أى بعلم وحكمة وتدبير وفى قوله تعالى : « عالم الغيب والشهادة » إثبات لأن الحالين عنده تعالى سواء إذ يستوى فى علمه غيب الأشياء وحضورها وخفيها وظاهرها .

وقولوا مثل ذلك فى قوله تعالى : « وما تحمل من أنثى وماتضع إلا بعلمه وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا فى كتاب إن ذلك على الله يسير » فذلك إثبات لمظهر العلم لا لمظهر التأثير.

أما العبارة الثالثة فما ضربته لكم من أمثلة وهى : «ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن» فهى عبارة صحيحة أيضا وقد وردت فى الكتاب والسنة بلفظها أو بمعناها ومن ذلك

قوله تعالى : « ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله » « وما تشاءون إلا أن يشاء الله » « إلا أن يشاء ربى شيئا » « ولا تقولن لشىء إنى فاعل ذلك غدا إلا أن يشاء الله » .

وإنما يرجع الخطأ فى فهمها إلى الخطأ فى تصوير « ما يشاؤه الله » فلا شك أنه لا يقع فى ملك الله إلا ما يريد ، وإن الذى يشاؤه الله هو الذى يكون حتما والذى لا يشاؤه لا يمكن أن يكون أبدا ، لكن هناك شىء آخر يجب الإيمان به فى حق الله ، هو أن مشيئة الله وإرادته لا تكون عبثا أو ارتجالا ولهوا ، تعالى الله عن ذلك ، وإنما ترتبط بالحكمة وما لله من سنن ، فالله لم تجر سنته ، ولم تقتض حكمته ، أن يلزم الناس بالإيمان أو الكفر الزاما ، ولم تجر سنته أن يوزع بين خلقه السعادة أو الشقاء توزيعا مرتجلا ، جرت سنته واقتضت حكمته أن يبتلى الناس ابتلاء حقيقيا ، ويختبرهم بالتكاليف اختبارا جادا لا اختبارا تمثيليا — وأقول لا اختبارا تمثيليا ، لأن الذين يفهمون أن الإنسان مسير لا مخير يلزمهم ذلك — والله تعالى جعل للخليقة سننا بمشيئته وحكمته ، وكتب على نفسه مراعاة هذه السنن بمشيئته وحكمته ، وهو ليس بعاجز عن تغييرها وتحويلها لو شاء ، لكن حكمته قضت أنه لا يشاء ذلك ، فقد قيد مشيئته بمشيئته ، فلو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعا ولكنه لم يشأ ذلك ، لأنه ترك أمر الإيمان والكفر لسنة من سننه ، و « إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين » ، لكنه لم يشأ أن ينزل هذه الآية المخضعة للأعناق ، و « من يشأ الله يضلله ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم » ، ولكنه تعالى لا يشاء الاضلال والهداية إلا على وفق ما تقضى به الحكمة والابتلاء الصحيح ، و « من يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام ، ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد فى السماء » ، ولكن إرادته الهداية أو الإضلال مرتبطة بسنته التى دل عليها آخر الآية « كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون » ، وهكذا إنما هو امتحان صادق واختبار حاد ، فمن فتح على نفسه باب هدى وخير يسره الله له ، ومن فتح على نفسه باب ضلال وشر يسره الله له « وهديناه النجدين » « والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم » « ومن يعش عن ذكر الرحمن

نقيض له شيطانا » « سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق ، وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها ، وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا ، وإن يروا سبيل الغى يتخذوه سبيلا ، ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين » ولا ينبغى أن يفهم من قولنا « يسره الله له » ، أو من قوله تعالى « سأصرف » ، أو « نقيض له شيطانا » أو نحو ذلك ان الله يحمل العبد على نهج من النهجين حملا ، ويدفعه إلى إحدى الخطتين دفعا ، وإنما المراد أن ذلك يقع حين يقع بإرادة الله وخلق الله ، ولكنه ييسر الخير لمن اختاره ، والشر لمن اختاره ، لا قهرا عنه ولا رغما له ، تعالى الله عن ذلك ، فكل شىء بيده يصرفه حسب سنته ، وكل شىء بمشيئته فلا شىء يعجزه ولا يفوته ، واقرأوا إن شئتم قوله تعالى : « والليل إذا يغشى ، والنهار إذا تجلى ، وما خلق الذكر والأنثى إن سعيكم لشتى ، فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى ، وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى» ، ولكن احذروا أن تتصوروا التيسير فى قوله « فسنيسره لليسرى » « فسنيسره للعسرى» تصورا مخالفا لواقعه ، فإن الله لم يرد به دفع أحد إلى طريق معين جبرا وإلزاما ، وإنما أراد به أن سنة الله جرت على أن ترتبط اليسرى بعمل الصالحات ، والعسرى بعمل السيئات ، والميسر لهذا أو ذاك هو الله ، ولم يقل الله جل شأنه : إنه يعكس فسنيسر للعسرى من عمل صالحا ، وييسر لليسرى من عمل سيئا ، فلو سألنى سائل فقال : هل الله لو شاء العكس لفعل ؟ فإنى أقول له : نعم من حيث القدرة وعدم تصور القيد المفروض الذى يتنافى مع الألوهية لو شاء العكس لفعل ، ولكن من حيث الحكمة ، وما كتبه الله على نفسه من إجراء العالم على سنن تيسير اليسرى للصالحين ، وتيسير العسرى للمفسدين ، أقول من هذا الحيثية : لا يمكن أن يشاء الله العكس .

* * *

أيها السادة :

يحسن بى أن أخرج إلى مثال آخر من العمليات ، فى سلوكنا الاجتماعى ، فإن المسألة التى قدمتها ترجع إلى العقائد ، والعقائد أمور قلبية ، وإن كان لها تأثير فى العمليات وسلوك الطريق المستقيم فى الحياة .

إننى أمثل لكم بخلق من الأخلاق الكريمة التى أمرنا بها ربنا فى كتابه الكريم ، ورسولنا فى سنته المطهرة ، وهو الصبر :

لقد جاء ذكر « الصبر » فى كتاب الله عز وجل أكثر من تسعين مرة ، عرف الله فيها عباده بثمراته الطيبة ، وما له من عاقبة حسنة فى الدنيا والآخرة ، وأنه أساس من أسس الدين ، وينبوع لما سواه من الأخلاق الفاضلة والصفات الشريفة :

أمر به عباده المؤمنين ورسوله الكريم فقال: «يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا» « واصبر وما صبرك إلا بالله » . وأثنى على أهله فقال : « والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس ، أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون ، وأوجب محبته لهم « والله يحب الصابرين » ، وأخبر أنه معهم أى بنصره وحفظه وتأييده « إن الله مع الصابرين » ، وأوجب لهم الجزاء بأحسن أعمالهم « ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » ، وأخبرانه سيوفيهم جزاءهم بغير حساب « انما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب » ، وأن أهل الجنة انما نالوا ما نالوه بالصبر ، « والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم » ، وقرنه بمقامات الإسلام من الإيمان والعمل الصالح ، والشكر والتقوى والتوكل والرحمة والحق واليقين .

ولهذا كله ، يقول أعلم الناس بالقرآن نبينا صلوات الله وسلامه عليه : « ما أعطى أحد عطاء خيرا له وأوسع من الصبر » .

هذه هى منزلة الصبر فى كتاب الله وفيما روى عن رسول الله ، فما معنى الصبر ؟ أهو الاستسلام والخضوع وقبول النكبة والمصيبة قبول الترحيب والرضاء ؟ وهل يمكن أن يكون الله تعالى قد أراد هذا المعنى حين أمر عباده بالصبر ، وأثنى عليه ، ورغب فيه ، وضمن حسن عاقبته ، وأعلن أنه يحب أهله ، وأنه معهم ، وأنه سيوفيهم أجورهم بغير حساب . . . الخ ؟ كلا ، ليس هذا هو الصبر ، وإنما يتصوره هذا التصور الخاطىء

الضعفاء الكسالى ، الذين يسارعون إلى إلقاء سلاحهم والتخفف من أعبائهم ، زاعمين أنهم بذلك ينفذون وصية من وصايا الدين الحنيف ، وأنهم يتمسكون بخلق من أخلاق القرآن ، ولو كان الصبر هو الخمول والقبوع والاستسلام لأحداث الزمان ونوازله ، لما كان مصدرا من مصادر القوة ، ولا سبيلا من سبل العزة ، ولما أمر به الله ، ولما ارتبطت به سنته تعالى فى تفريج الكربات والخلاص من المحن .

ان الصبر هو القوة التى يستطيع بها المرء أن يظل سائرا فى طريقه حين تصادفه عقبة من العقبات ، فلا تهوله ، ولا تزلزله ، ولا تحير لبه ، ولا تصيبه بالارتباك ، ولا تجعله يقف أمامها مبهوتا مكتوفاً ، لا يعرف ما يأتى وما يدع .

ان الصبر هو القوة التى تجعل العامل قادرا على أن يستمر فى عمله ، فلا يخور عنه ، ولا يضعف فيه ، ولا يتأثر بطارىء يطرأ عليه .

إن الإنسان بالصبر يكون شبيها بالآلة القوية المتينة الصنع ، الأصيلة فى مادتها وتركيبها إذا اعتراها خلل لم تسارع بالوقوف والتعطل ، ولكنها تقاوم بقوتها ، وتستمر فى عملها ، وتحتمل ، أما تلك الآلة الخفيفة الضئيله الرخيصة التى تتعطل لأوهى الأسباب ، وتقف عند أول احتكاك ، فما أشد تفاهتها ، وما أشبهها بذلك الإنسان المترف الناعم الذى لا يعمل ولا يثمر ، إلا إذا كانت الحياة على ما يحب من الاستقامة والاطراد ، وهيهات أن تستقيم الحياة أو تطرد على ما يحب الناس ، ولو كانوا من الأنبياء المرسلين ، أو من الأتقياء الصالحين .

إن الله سبحانه وتعالى يربط بين الصبر والحق والإيمان والعمل الصالح وسائر الصفات الإيجابية ، فيقول مثلا : « والعصر إن الإنسان لفى خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » ، فهو ينبئنا هذا النبأ المؤكد بالقسم ، أن هذا النوع من الخلق وهو الإنسان ، لا يخلو من الخسران والبوار ، ويستثنى من هذا الحكم العام من آمنوا وعملوا الصالحات ، وتواصوا بالحق الذى هو المقصود الأول من سائر الأديان وتواصوا بالصبر الذى هو السلاح الأكبر للجهاد وإزالة العراقيل واكتساح العقبات .

وقد قص الله علينا قصة داود وجالوت حين احتربا : كان جالوت على الباطل ، وداود على الحق ، فلما رأى أصحاب داود ما عليه أصحاب جالوت من القوة وكثرة العدد ، وقال قائل منهم : (لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده ، قال الذين يظنون انهم ملاقو الله)

— وهم الصابرون على أمر الله ، الماضون لما ندبهم إليه — (كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين) ، لم تهلهم الكثرة الساحقة ، ولم تذهلهم القوة التى تبدو ماحقة ، ولم يتعللوا بعدم التكافؤ فيعودوا من حيث أتوا ، ناكصين على أعقابهم ، ملتوين عن قصدهم . ولكنهم مضوا فى طريقهم عالمين أن القوة إنما هى قوة الأرواح ، لا قوة الأشباح ، وأن القلة المتماسكة ، خير من الكثرة المتفككة ، وأن الله مع الصابرين ، وبذلك انبعثوا فلم يكن صبرهم خنوعا ولا استسلاما ، وإنما كان شجاعة واقداما (ولما برزوا لجالوت وجنوده) لم يفتروا ولم ينسوا ربهم ، ولم يغفلوا عن تقوية أنفسهم بدعائه والاعتماد على قوته ومعونته ، والتوثق بنصره وتأييده « قالوا : ربنا افرغ علينا صبرا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين ، فهزموهم بإذن الله ، وقتل داود جالوت ، وآتاه الله الملك والحكمة » .

وهكذا يفعل الله بالصابرين الحكماء .

ويحدثنا الله عز وجل عن قوم آخرين فيقول : « وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون » . فارجعوا إلى التاريخ تعلموا أن صبرهم ما كان الا مواظبة على الجهاد ، ومثابرة على العمل .

ويقول الله عزوجل : « يأيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة » .

وهو لا يرشدنا بذلك إلى أن نتخذ من الصبر والصلاة وسيلتين يتوسل بهما إلى نسيان الهموم والتسليم بالواقع فى خضوع ، ولكنه يرشدنا إلى أن نتخذ منهما وسيلتين إلى ماتوحيان به من تجديد العزم ، والمضى فى طريق الخير والبر ، وتطهير النفس من الفاحشة ، والتحرر من الخوف الهلع والشح والرياء ، أليست الصلاة سبيلا إلى التطهر من الأدران الخلقية ؟ بلى : « إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر » « إن الإنسان خلق هلوعا ، إذا مسه الشر جزوعا ، وإذا مسه الخير منوعا ، إلا المصلين الذين هم على صلاتهم دائمون » « فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون ، الذين هم يراءون ويمنعون الماعون » .

ويقول الله جل شأنه : « ولا تستوى الحسنة والسيئة ادفع بالتى هى أحسن ، فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم ، وما يلقاها إلا الذين صبروا ، وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم »

فهو سبحانه يهدى إلى خلق كريم عملى فى مدافعة الشر وتقليم أظافر العدوان ، هو مقابلة السيئة بالحسنه ، ثم يعقب على هذا الإرشاد بما نعلم منه أن هذا الخلق العملى ، لا يمكن أن يصدر إلا عن الذين صبروا .

فالصبر اذن خلق عملى يهدى إلى الأعمال الصالحة ، وليس خلقا سلبيا تموت به النفوس وتستخذى ، وتخور قوتها وتنحط روحانيتها .

هو خلق من أخلاق القوة والرجولة ، وليس خلقا من أخلاق الضعف والعجز .

فأين هذا من المعنى الذى وقر فى أذهان كثير من المسلمين أفرادا وأمما عن الصبر؟ لقد جعلتهم عصور الضعف والانحلال والتفكك والاستخذاء ، يتصورونه ركودا وبلادة وإقامة على الخسف والضيم ورضا بالذل ، فرضى الفقير بفقره باسم الصبر ، ورضى المريض بمرضه باسم الصبر ، ورضى الذليل بذله باسم الصبر ، ورضى المظلوم بظلمه باسم الصبر .

والشعوب ، وما أدراك ماالشعوب ؟ لقد استغلوها فى غفلة منها أسوأ استغلال ، علموها أن الملك الظالم قضاء وقدر يجب أن يصبر عليه ، وأن الحكومة الظالمة مظهر من مظاهر الإرادة الإلهية بالناس فعليهم أن يتقبلوه بالرضا والصبر ، وأن الاستعمار كارثة لو شاء الله لدفعها عنا ، فانه « لا حول ولا قوة إلا بالله » « وإنا لله وإنا إليه راجعون » « ولو شاء ربك ما فعلوه » وغير ذلك من العبارات التى اتخذت فينا معنى جديدا لم يكن لها . نعم : « لا حول ولا قوة إلا بالله » ولكن الله ذا الحول والطول ، هو الذى أمرنا بأن نهيئ أنفسنا ، وأن نعد العدة لأعدائنا ، وأن نكون فى أعينهم مهيبين أقوياء يخشون بأسنا ، ويخافون غضبنا ، عندئذ يكون لنا حول بالله وقوة بالله ، وعزة بالله ، وصبر بالله .

وان الله سبحانه وتعالى ينهى عباده المؤمنين عن الوهن والحزن ، واحتقار النفس ، واستعظام العدو . وهى صفات كلها ضد الصبر ، فيقول : « ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين » ، فيغرس فيهم القوة الروحية ، ويملأ قلوبهم ثقة بأنفسهم ما داموا مؤمنين حقاً ، عاملين بمقتضى إيمانهم ، ويطرد عنهم وساوس الشيطان ، وعوامل العجز والضعف ، وهى الوهن والحزن . ويقول فى آية أخرى : « لا تهنوا فى ابتغاء القوم أن تكونوا تألمون ، فانهم يألمون كما تألمون ، وترجون من الله ما لا يرجون » .

فهو ينهاهم عن التقصير فى طلب عدوهم وتتبعه ، ولا يرضى لهم أن يعالجوا بالوهن متعللين بما يصيبهم فى سبيل ذلك من الألم ، فالألم قدر مشترك بينهم وبين أعدائهم « أن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله » . وأنتم تمتازون عليهم بأن بينكم وبين الله صلة ، هى أنكم تجاهدون فى سبيله ، وترمون إلى إعلاء كلمته .

وقد أنكر الله تعالى على عباده أن يرضوا بالبقاء فى ظل الاستضعاف ، وأنحى باللائمة الشديدة على من لم يحاولوا التخلص منه ، والخروج من عاره ، ولو بالهجرة ، فقال جل شأنه : « إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا فيم كنتم ؟ قالوا كنا مستضعفين فى الأرض ، قالوا ألم تكن أرض الله واسعة ، فتهاجروا فيها ، فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا! » . فاعتبرهم ظالمى أنفسهم ، ولم يعتبرهم صابرين .

وهكذا يدعو القرآن إلى الصبر ، ويربى به الأمة تربية عالية ، ولا يترك فرصة للخطأ فى تصور مفهومه ، فيفرق بينه وبين عوامل الضعف والتثبيط ، والإقامة على الضيم ، والرضا بالذل .

وهناك أمثلة كثيرة أخرى تبين أخطاءنا فى التصور ، وما انبنى عليها من اعوجاج فى مسلكنا وأسلوبنا فى الحياة : التوكل — التوسل — حرية الرأى — يسر الدين — الاجتهاد — الحياء — الزهد — الاخلاص للحاكم — المجاملة .

إن كثيرا منا يتصور التوكل على أنه « التواكل » ، ويتصور « التوسل » على أنه « التعبد » ، ويتصور أن « حرية الرأى هى الخروج عن الحدود ، وأن « يسر الدين » هو فعل ما يروقك وترك ما لا يروقك ، وأن « الإجتهاد » هو الرأى ولم لم يكن للرأى أهلا ، وأن « الحياء » هو الضعف والإنكماش ، وأن « الزهد » هو التقشف وترك الطيبات ، وأن « الاخلاص للحاكم » هو موافقته على ما يرى ، أصاب أو أخطأ ، وأن المجاملة هى السكوت على المنكر وهكذا .

أيها السادة :

ألستم معى فى أن أزمتنا — معاشر المسلمين — إنما هى أزمة فى التصور ، قبل أن تكون أزمة فى التصديق ؟

نقاش وتعليق

لقد أعاد على الأستاذ المحاضر بلفظى التصور والتصديق ذكرى صباى الأول ، وأنا أدرس مقدمات الفقه وأصوله تحت سماء الرافدين ، فقد كان لهذين اللفظين فى نفسى أيما إعجاب ، والأستاذ يملهما علينا فى حدود المنطق والبرهان وهو يقول : إن لعلم المنطق أثرا كبيرا فى علم الكلام الذى هو من صميم البرهان على وجود الخالق .

ثم يأخذ فى تحليل الجملة وأنها تتألف من محمول ومحمول عليه ، ونسبة بين هذا وذاك ، فالتصور يتعلق بطرفى الجملة ، والتصديق يتعلق بالنسبة بينهما ، وإذ يمثل لنا بجملة : العالم حادث ، وكل حادث متغير ، فالعالم متغير ، وهى الجملة التقليدية عند طلاب المنطق فى طريق البرهان على إثبات أن العالم متغير .

تلك الذكريات الحلوة التى بعثها الأستاذ المدنى فى نفسى ، وهو يحاضرنا ، عادت بى إلى الألم العميق من وراء الحنين البالغ ، إلى ليال كانت مشرقة بوجوه عصبة من الإخوان الغالين فى حب الأدب والعلم ، والحرص على اقتباس الحكمة من كتاب الله وسنة رسوله .

كانت معاهد النجف ومساجده تموج بآلاف الطلبة من رائدى فقه آل محمد فى المشهد العلوى بين عراقى ولبنانى وهندى وصينى ، كان مشهد الإمام على ، عليه السلام ، يحتشد صباح كل يوم ومساءه بأفواج العلماء والمتعلمين ، وكانت الجزيرة فى قلب الفرات على شواطئ الكوفة تغشى مساء كل خميس وصباح كل جمعة من كل أسبوع بالمستجمين من الطلبة العاكفين على الدرس طوال الأسبوع ، وكانت لنا هنالك حلقات لإنشاد الشعر ومطارحات الأدب ، لا تزال تلهب جنبى شوقا إلى ذلك العهد ، وتعزز فى نفسى الثقة بأن عهداً مر بى فى أمريكا أو أوروبا أو أى قطر زرته من أقطار العالم ، تعدل أيامه أو أعوامه لحظات من تلك المجالس ، لم أعثر به ، ولا وقعت لى عين عليه .

أسوق هذه المقدمة للتعليق على محاضرة الأستاذ المدنى ، ليعلم هو واخوانى الأصفياء

فى ندوتنا على ضفاف النيل ، إن العلم الحق والأدب الحى والفن الخالد لا يتقوم بالرفاه فى الجامعات ، ولا بالهجرة إلى نويرك أو لندن أو باريس، ما لم يكن فى صميم كيانه نزاهة الفكر من الزيغ وسلامة القلب من الطغيان ، وخلوص الضمير من الأنانية والغدر فى سبيلها ثم بالتضحية أمام الواجب الإنسانى بمتع الحياة ولذائذ العيش ، وهذا كله إنما كان سلمنا الذى تسلقناه إلى العلم وسبيلنا التى سلكناها إلى الآداب والفنون .

أما هؤلاء الذين اكتشفوا مواقع النجوم ، وفجروا تخوم الأرض ، فقد علموا ، ولكن : كيف تنهار الإنسانية على مذبح علومهم ، وترقوا ولكن إلى حيث يشرفون على العالم ليتبينوا مساقط نفوسهم الأمارة بالسوء .

كان أولئك الاخوة الصافية نفوسهم والناهلة من شرائع العلوم الصحيحة والفنون الأخاذة بجمال الصورة ونزاهة التصور ، كان هؤلاء الزملاء يدرسون علوم اللسان والمنطق والأصول والفقه ثم يعودون إلى أوطانهم رسل سلام وهدى وإرشاد .

أذكر وأنا صبى ، أن كل رسول من هؤلاء يعود إلى بلده الذى أوفده إلى النجف ليتفقه على نفقة أهله فى ذلك البلد ، ثم يعود اليهم ليفقههم فى دينهم ودنياهم ، فيبعث الروح فى أهل بلده بتأسيس مسجد وناد ومدرسة ، ويكون بيته مرجعا لهم . فما نبصر فى البلدة ملحدا ، ولا زنديقا ، ولا لصا ، ولا خائنا ، ولا كذابا ، ولا معتديا .

رجال البلد أخوة ، ونساؤه أخوات ، الفلاح عامل مخلص لعمله ، يصبح فى حقله ويمسى فى أهله ، والعامل جاد ناصح مخلص لوظيفته يصبح فى مصنعه ويمسى مع أهله ، فإذا أهاب المؤذن بهم إلى الصلاة ، نفروا متدافعين إلى المسجد فاستمعوا واتعظوا ، ثم انصرفوا كلا إلى عمله .

وإذا غشيهم شهر رمضان قطعوه صياما وقياما ، ثم إذا كان المحرم قطعوه فى ذكرى شهيد الحق والعدالة الحسين بن على بن أبى طالب تحت منابر الخطباء للعظة والإرشاد ، وإذا كان آخر موسم الحصاد ، جمعوا الزكاة ووضعوها فى المساجد ، وتركوا أبوابها مغلقة بدون اقفال لينتجع منها الفقراء تحت ستار الليل ، حرصا على إبائهم وتعففهم ، يأخذ الفقير من البر ما يحتاج إليه ، وربما انتجع فقراء البلدة جميعهم من ذلك البر ، وبقى فى المساجد منه فضل حتى يحول العام ويتلف البر الفاضل .

لم يكن للحكومات سبيل إلى قراهم إلا لجبي الضرائب ، أو تبليغ القوانين ، حتى كنا نهرع إلى دار المختار لنتعرف إلى وجوه الشرطة من الجابين والمبلغين ، كأنهم يفدون علينا من جزائر واق الواق ، ولم يكن يدور فى خلدنا أنهم يردون القرى الا بأمر السلطان لأخذ جندى أو تقاضى رسم أو ضريبة .

وكان الفقية فى القرية : هو المرجع الأول لسياستها ودينها ، وصلاح مجتمعها ، وإصلاح ذات البين فى أهلها ، وكان بيته مفزعا لها من ظلم الحاكم وطغيان الزعيم المتنفذ باسم ذلك الحاكم وكان منزله مفزعا لأهل بلده أيام المآتم والأعياد والأعراس ، يتواسون فى المصائب ويتبادلون التهانئ فى الأفراح ، حياة مطمئنة هادئة فى ظل دين سمح رحب ودنيا آهلة بجمال الحياة بين إخوان أصفياء يتجاورون ويتزاورون لكل منهم فى بيت كل نصيب من محبة وإخاء ورزق ، وتلك هى الحياة التى ينشدها الحكيم فى ظل السعادة المنشودة للإنسان الكامل المختار .

أما اليوم . وقد تفتحت للعلوم أبواب وللفنون معاهد تحت سماء لندن وفى حدائق باريس وبين أبراج نيويورك ، فتغير لها زى العالم ، وتطور فكره ، وتبدلت لغته وتشعبت ميوله ، وتضخمت أهواؤه ، واستحالت حياة الإنسان إلى تقاليد وعادات لا عهد لقومه بها ، ولا مساغ لها فى أمته ووطنه ، عاد المتعلم إلى بلده ليبنى فيه مرقصا على انقاض مسجده وليشيد خمارة أو ماخورا فى ناديه ، وليضع منهاجا عصريا لمدرسته ، فإذا بالمساجد تعطل ، وإذا بالمواعظ تغيض ، وإذا بالفقيه يهيم على وجهه ليتلمس رغيفا يسد به فاقة أهله ، وإذا بالإلحاد يسود النشء ، وإذا بالزندقة توغل فى نفوس الأحداث ، وإذا بالخصام يرين على القلوب ، وإذا بالدماء البريئة تراق ، وبالحقوق تغتصب ، ثم إذا بالحياة يسودها القلق والاضطراب ، وإذا بالمحاكم تشكو ضيق الزمن للحكم فى الخصام ، وإذا بالسجون تغص بذوى الإجرام .

هكذا كنا فى لبنان قبل نصف قرن وهكذا عدنا اليوم ، وإنى لأعتقد أن ما كان عندنا قد كان فى كل بلد مسلم ثم ما أصبح هناك قد أصبح هنا لأن المورد واحد والمصدر واحد فى كل قطر مسلم .

هكذا يكون العلم البسيط مع الدين ، ثم هكذا يكون العلم المركب مع الكفر والإلحاد ، وإن للكلمة الحكيمة القائلة : « الجهل التام خير من العلم الناقص » أقول : أن لهذه الكلمة أثراً عميقا من الإجلال والإكبار فى نفسى ، إذا كان الجهل التام يؤدى بذيه إلى تقليد العالم المخلص ، وإذا كان العلم الناقص يؤدى بذيه إلى الغرور والفجور.

لا شك فى أن الحياة مع العلم الحديث قد ازدهرت . ولكن الأحياء قد ازدادت نفوسهم ظلمة وودوا لو يعودون إلى عهد الجمل والحمار مستعيضين بهما عن السيارة والطيارة ، وإلى عهد النفط والزناد عوضا عن الكهرباء ثم إلى عهد النمارق والبوارى بدلا من الأرائك والزرابى ، على أن ينصرفوا إلى أعمالهم هادئين مطمئنين ، يحمدون إلى ربهم نعمة الوجود وبساطة العيش وغبطة الحياة ، لا أن يجلسوا مساء كل يوم إلى المذياع فيحشدوا رءوسهم بأنباء العالم المادى الجشع ، أنباء تهلع لها قلوبهم وتضطرب نفوسهم مشفقين من حرب ثالثة تتعهد الإنسان اليائس بما يأتى على ما فيه من بقية حياة.

لقد جرنى إلى هذا الاستطراد قول بعض السامعين لكلمة العلامة المدنى : إنها رجعية وأين نحن اليوم من هذه الألفاظ القائمة على التصور والتصديق ؟ ؟ والقضاء والقدر والعلم والإرادة والخير والشر ؟ ؟ انها جمل أكل الدهر عليها جيلا من الناس ، وقد مر بهذه التقاليد قرن من الزمن ضحت الأمة معها على مذبح الجهالة طوائف من أبنائها تحت عنوان الجبر والتفويض والخير والشر وخلق القرآن وقدمه حتى أصبح المسلمون بها أمثولة الهزء والسخرية عند الغربيين إلى يومنا هذا .

وقد جاء تعليق صاحب السماحة الحاج أمين الحسينى على نقاش العلامة على عبدالواحد شافياً لنفس السامع المنتقد أن حجر على الندوة الخوض فى القضاء والقدر لأن عقل الإنسان محدود بين يدى البحث عن كنه الخالق وما يقضيه فى خلقه فعليه تعالى أن يعمل وعلينا أن نقبل ولا نسأل .

على أنى فى تعليقى هذا لا أحب أن أكون أخرس فى قبول الحق ورفض الباطل فإن الله الذى خلق الباطل والحق لم يفرضهما علينا قبولا ورفضا إلا بعد أن وهبنا العقل المميز المختار لندرك الحق وفرضه والباطل ورفضه ثم لنتفقه فى تعليل الرفض والفرض ،

فقد هدانا إلى معرفة الحق قبل فرضه وإلى معرفة الباطل قبل رفضه ، أفلا نفخر بأن الله أشركنا معه بالعقل والاختيار ؟ ؟ فلماذا نسد فى وجوهنا أبواب التفكير وقد ملأ وحيه بالتقريع لنا أن كنا نقول ونفعل دونما عقل أو تفكير ؟ ؟ وكم آية ختمها الله فى وحيه بهذا التأنيب ؟ أفلا تعقلون ، أفلا تبصرون ، ألم يتفكروا ، ألم يعلموا ؟ ؟ هل نزلت هذه العبر لنصمت بين يدى أحكامه فى التعليل والتأويل ؟ ؟

ان التصور الذى دعا المحاضر إلى تدبره فيما نسمع لم يحتج ليكون جديدا عند السامع الناقد إلى أكثر من أن يعبر عنه بلفظ مرادف له لم يجر على ألسنة المنطقيين من قبل ، فإن مفهوم الجديد والقديم عند معاصرينا أصبح لفظيا أكثر منه معنويا واصطلاحا أكثر منه موضوعا .

فليضع مكان تصور وتصديق : تدبر الفرد قبل الحكم عليه ، فإن ذلك يعنى تصور الجزءين اللذين تتألف منهما الجملة ويطلق المنطقيون عليهما لفظ الموضوع والمحمول وينوطون بهما التصور ثم يطلقون على العلاقة بينهما لفظ : النسبة ، وينوطون بها التصديق ،فإذا قلت : الدين ضرورى مثلا . وجب عليك أن تفهم الدين على حقيقته قبل أن تحكم بأنه ضرورى للبشر .

فمن الناس من يسىء فهم الدين فيجعل من ضروریاته إطلاق اللحية وتكبيل المرأة بقيود لا تفقه معها الحياة ، منها : الحجاب بحيث لاتخرج من بيتها إلا إلى القبر ، وهذا لا يزال حتى اليوم فى بعض الأقطار الإسلامية .

ومنها : حرمانها العلم حتى كأن فاطمة بنت محمد وعائشة بنت أبى بكر سنتا الجهل للمرأة وهما ما هما فى علمى الفصاحة والبلاغة .

ومنها : العبث بها فى الطلاق وتعداد الزوجات على وجه ينكره الله ورسوله لمربية الأمة وصانعة الرجال .

ويفهمون الدين أنه صلاة وصوم وحج وزكاة وجهاد فى سبيل الله ، ثم يحسبون الصلاة ركوعا وسجودا وذكرا ، ويحسبون أن الصوم إمساك شهر رمضان عن الطعام والشراب ويحسبون الحج زيارة الكعبة والزكاة إنفاق شىء من المال محدود ، ويفهمون أن

الجهاد قتال عدو الإسلام ، دون أن يتدبروا الحكمة من صلاتهم وصومهم وحجهم بيت الله وكيفية إنفاق ما فضل من أموالهم ، ولم يفقهوا الحكمة من جهادهم عدوهم ومتى يجب وكيف يجب ؟ ؟

يفهمون الدين كذلك فيحكمون بضرورته وينسون أن الدين المعاملة ، وأن الغش رأس الكفر ، وأن النظافة من الإيمان ، وأن المسلم من سلم الناس من يده ولسانه ، فلا ترى أسوأ من المسلم اليوم فى معاملته الناس لكثرة الغش والكذب والخدعة والتضليل فى تصرفاته ، وتكاد لا ترى شعبا أقذر من الشعوب الإسلامية حتى حسب أعداؤهم وأفهموا أبناءهم ما حسبوه من أن الدين الإسلامى قائم على الغش والخيانة والكذب والقذارة .

وهكذا قل فى كل موضوع يفهمه الناس ثم يحملون عليه القضايا . فإذا قلت : القومية دين ، فهموا القومية التى هى موضوع الجملة على غير معناها الحق فحملوا عليها الدين فكانت موضع تقديسهم واحترامهم كأنها دين لهم ، فاضطرب العالم بتعدد القوميات ونشأت من أجلها الحروب وأكلت نيرانها الإنسانية التى هى عنوان القوميات الأول .

فهموا القومية أنها تعصب للعنصر واحتكار للخير الإنسانى فى حده وهذا العنصر وأنانيته جماعية تحرص على الإشادة بفضل هذا العنصر مهما تدنت قواعده وانحطت عوامله واندك صرحه ، دون أن يفكروا فى أن القومية فى المجتمع كالشخصية فى الفرد لا يؤهلها لأن تكون لبنة فى بنائه إلا أن تكون صالحة الكيان ، فكما أن المجتمع لا يقوم على الفرد إلا إذا ذاب هذا الفرد فى الإخلاص للمجتمع ، كذلك لا يتقوم العالم بالقوميات إلا أن تتضامن مخلصة فى تقويم العالم ، وأول ما يستلزمه هذا التضامن فى القوميات والأفراد هو تحطيم العصبية الذميمة والقضاء على الأنانيات .

وخير مثل صالح لكل ما نقرر فى هذا الموضوع أى موضوع « مشكلة التصور » هو ما أورده العلامة المحاضر من الأمثال الصالحة لبناء المجتمع ودعوة الفكر الإنسانى

إلى تفهم المواضيع فى القضايا قبل الحكم عليها . فلنفهم الصبر قبل الحكم عليه بأنه فرج للصابر ، ولنفهم الدين قبل الحكم عليه بأنه ضرورة للبشر ، ولنفهم القومية قبل الحكم عليها بأنها دين ، فإن الأخطاء التى يقع فيها الإنسان وهو يقوم عالما بما يقول ويفعل إنما يقع أكثرها فى سوء تصور الموضوع قبل الحكم عليه ، هذا أمر ثابت فى الناس لا ينزعه من نفوسهم إلا شيئان لم يوجدا إلا ليتحدا ويقوم عليهما بناء الإنسانية فيستقيم العالم ، ألا وهما العلم والدين .

بقى علينا أن نعرض للقضاء والقدر والجبر والتفويض . والخير والشر ، من حيث مصدر كل ذلك وتأويل ما تشابه منه ، ولقد بحثت هذه النواحى وأكثرها فى فصول كنت أحملها معى ثم فقدتها فى طريقى إلى بغداد ولم أعثر عليها ثم لم أذكر الفكرة التى أوحت لى مباحث تلك الفصول ، وعدت فبحثت شيئا من هذه المشاكل فى كتابى « بلاسم » الصادر عن دمشق سنة « ١٩٥٢ » وأرانى الآن حريصا على الخوض فى هذه المواضع بعد أن ناقش الدكتور على عبد الواحد محاضرنا بكلمات لم يتوفق معها إلى حل المشكلة إذ كانت خلاصة نقاشه زميله أنه لم يحل المشكلة ثم لم يعرض المناقش إلى حلها .

والمشكلة فى القضاء والقدر وانهما رهن بمشيئة الله يناط بهما عمل الإنسان خيره وشره ، وهذه المشكلة خاض فيها أئمة الكلام منذ عهد الإسلام الأول وقامت عليها بعد ذلك مذاهب وجرى من أجلها خصام ونزاع بين كثير من أئمة تلك المذاهب وخاصة مادار منها بين المعتزلة والأشاعرة مما هو معروف ومشهور فى السطور والصدور ، ومجال التعليق هنا يضيق عن تحرير ما حبروه وتلخيص ما أفاضوا فيه من بحث وتعليق ، ولكن موضوع رابطتنا هذه قائم على بحث المشاكل عربية وإسلامية ؛ ومشكلة القضاء والقدر فى صميم ما نحن فيه فلا بد من الأخذ بها ولو من طرف سهل مفيد لئلا يكون بحثنا لمشاكل الدين قائما على هامش الحياة لا يتجاوزها إلى المتون .

وبالرغم من أن المحاضر أشار إلى حل المشكلة بأن إسناد شقاء الإنسان إلى الله أحيانا قد تقتضيه حكمة نجهل كنهها ونقصر عن الإحاطة بها ، فعلينا أن نؤمن بأن الله

لا يريد الشر لعباده وأن نؤمن أيضا بأنه لا يقع فى الوجود الذى هو مملكته ما هو خارج عن مشيئته ، ثم علينا أن نوفق بين هذين عن طريق الحكمة والإيمان معاً .

قال ذلك وهو يرد قسوة الدكتور على عبد الواحد فى نقاشه ولعل قوله هذا يتحصل من محاضرته إذا تدبرها القارئ وهو مخلص ، أقول : بالرغم من أن المحاضر أشار إلى هذه المشكلة برمز من الحل وبالرغم من أن سماحة الحاج أمين الحسينى أفاض بعد النقاش فى طى البحث وأن اشكاله شاق الحل عن فكرنا المحدود وعقلنا القاصر عن كنه أتفه الأشياء فى الوجود ، فعلينا الإيمان بما ورد فى الكتاب والإغضاء عن المتشابه فيه إلى أن يحين الزمن المبعوث لحله والإضطلاع به .

بالرغم عن ذلك كله أحب أن أخوض هذا البحث على مقدار ما أفهم من مغلقات هذه المشاكل فإن لكل فكر مهما سما من نبو ومهما انحط من سمو ، فالاشكال فى هذا البحث يرقى مصدره إلى تشابه ما التبس علينا فهمه فى كتاب الله عز وعلا ، فالآية القائلة : «ما أصابك من حسنة فمن الله ، وما أصابك من سيئة فمن نفسك » والآية القائلة : «وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى» والآية القائلة : « قل كل من عند الله » ثم الآية القائلة : « من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا » والآية القائلة : « إنا هديناه النجدين » والقائلة « إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا » .

فى هذه الآيات وكثير غيرها يتراءى للمفكر تناقض وتشابه قد يمعن معهما الفكر فيخفق ثم يشفعه بالإيمان فيفلح ، وقد لا يجيل فكره فى شئ من ذلك ويتركه للزمن معتصما بالإيمان فقط ، وأحب الطريقين إلى أن أفكر فأبحث وأنا مؤمن ثم أقول ما يلهمنى إيمانى بعد تفكيرى ، أحب أن أكون كذلك ولا أحب أن أبقى حائرا ، ولم أفكر قط فى أن أجتاز مشكلة دون أن أفكر فى حلها بين حين وآخر حتى يفتح الله على ذلك .

فالقول فى التحلل من الخضوع للصمت بين يدى هذه الآيات يكاد ينحصر فى مواضيع ثلاثة أوجزها لقارئى فى هذا السفر الموجز ولعلى أوفيها البحث فى كتاب أوسع أفقا منه يصدر قريبا إن شاء الله .

الموضوع الأول : القدر من الله خيره وشره ، ويتلخص بحثه فى أن وسائل الحياة فى الإنسان صادرة عن خالقه وبهذا يصدق على الخير والشر الصادرين عنها أنها من الله وأنه مريد لها إذ لم تصدر هذه الوسائل عنه إلا وهو مختار لا مكره . فالإنسان مجبر على ما يصدر عنه من خير أو شر على اعتبار أنه مخلوق لله بكل مافى كيانه من وسائل الحياة خيرها وشرها .

الموضوع الثانى : ان الله وهب هذا الإنسان بعد إذ قلده وسائل الخير والشر ، وهبه ملكة الاختيار وهداه النجدين فنهاه عن الشر ودعاه إلى الخير ، فإذا صح معنا صدق كثير من صفات الخالق على خلقه كالرحمة والكرم والعفو وغيرها فلم لا يصح معنا أن يكون قد وهبه الله صفة الاختيار فيكون مختارا ؟ ؟ فالإنسان كريم وهى من صفات خالقه ، ولكنها فى الإنسان مصغرة عنها فى خالق الإنسان ، وهو مختار ولكنها صفة مصغرة عنها فى خالق الإنسان ، فإذا اختار طريق الشر ، فبسوء اختياره لأنه منهى عنه وإذا اختار طريق الخير فبحسن اختياره لأنه مأمور به ، أما الجواب عن قول من يسأل : لم اختار هذا فعل الشر وذلك فعل الخير ؟ فهو سؤال عما وراء ملكة الاختيار ، وهو كالسؤال عن علة خلق الإنسان .

الموضوع الثالث : هل من حكمة الله أن يعرفنا الحسن ما هو ليدلنا به على عظمته ؟ ؟ فإذا قلت : نعم وجب أن تؤمن بأن خلق الشر ضرورى لمعرفة الخير ، وخلق القبيح ضرورى لمعرفة الحسن ثم خلق الظلم ضرورى لمعرفة العدل ، فلو خلق فينا وسيلة الخير فقط فمن أين نأتى بالشر ثم أنى لنا أن نعرف الخير ؟ ؟ قد تقول يمكن للحق تعالى أن يعرفنا الخير عن غير طريق الشر ، وأن يعرفنا الحسن عن طريق غير قبيح . فتجاب : بأن الشر قد يكون نسبيا حين أضحى بنفسى فى تلقيه لأدفعه عمن هو أخلق بالخير منى ، فقتل الحسين ابن على مثلا لم يره الحسين نفسه شرا إذ قال لأخته عندما نهته عن المغامرة : « إن الله قد شاء أن يرانى قتيلا » ذلك لأنه علم أن فى قتله صلاحا لأمة جده وتضحية فى سبيل ناموسه فقتله الذى هو شر عليه ، صلاح لأمته التى نجت بناموسها الأعظم من طغيان

الأمويين إذ دمرهم أعـداؤهم تحت عنوان الثأر للحسين ولولا قتل الحسين لاستمر الأمويون فى طغيانهم حتى يزول الإسلام .

فللفـكر الموهوب أن يمعن فى تحليل هذه المواضيع الثلاثة ليصل إلى صميم الحق فى تعليل ما أعيى على الفـكر البسيط حله وتعليله ، على أن ايجاز هذا البحث فى هذه الجمل النزرة ضعيف الإنتاج لمن لم يؤت موهبة القلب الذكى والفـكر الملهم ، نسأل الله العصمة عن التهافت فى القول الصادر عن خطل الفـكر وإليه مرجعنا فيما نعجز عن إدراكه .

المحاضرة الثالثة عشرة :

حياة المحاضر

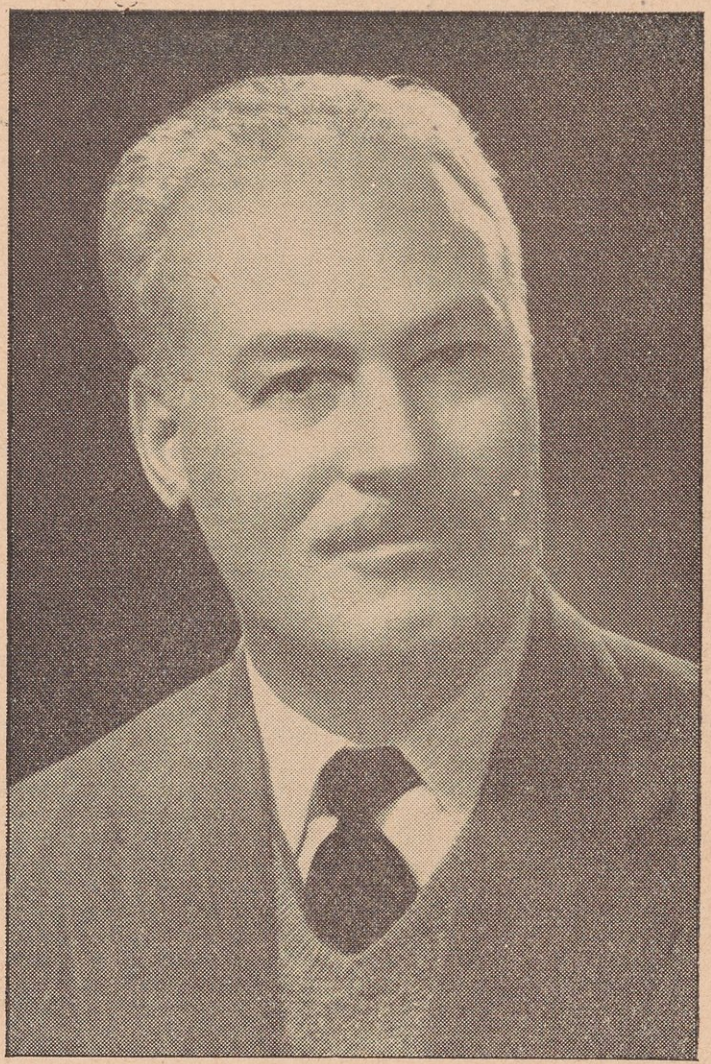

ولادته

ولد الدكتور عدلى أباظة فى القاهرة أول يوم من شهر يوليه ، تموز سنة ١٩٠٢ ونشأ فى البلد الذى ولد فيه من أسرة عريقة فى المجد غنية عن الدلالة عليها .

دراسته

درس العلوم الأولية ابتدائية وثانوية حتى أتمها فى بلده ثم هاجره إلى أوروبا لاتمام دراسته العالية فنال الشهادة العلمية الأولى « دكتوراه » من جامعة نانسى بكلية الطب فى فرنسا .

العمل والإنتاج

يمتهن طب الأسنان وجراحة الفم فى القاهرة ، وانتاجه العلمى والأدبى قاصر على محاضرات وكلمات يلقيها فى الأندية والمحافل أو ينشرها على وجوه الصحف .

شخصيته

إيمانه بالله وحرصه على دينه الإسلام هو عنوان شخصيته الأول وهو بعد ذلك هادئ الطبع لين العريكة سمح الخلق غيور على كل عمل صالح .

يشركه جلة ذوى المؤسسات فى عملهم دينيا كان أو اجتماعيا ، ثم هو بعد ذلك كله ، مثل صالح للرجل المسلم العامل بعلمه .

المحاضرة الثالثة عشرة

ألقاها الدكتور عدلى أباظة على إخوانه الأصفياء فى جلستهم
المنعقدة مساء يوم الجمعة الواقع فيه ٢٤ من شهر حزيران « يونيو » سنة ١٩٥٥
فى منزل رئيس علماء الجزائر الشيخ محمد بشير الإبراهيمى

الإسلام منبع العلوم الحديثة — الإسلام والطب الحديث

يسعدنى ويشرفنى أن أتقدم بالتحية والشكر إلى هذه الرابطة التى أتاحت لى فرصة هذا اللقاء والاجتماع النبيل المقصد والسامى المعنى — وانى فى الواقع مدين فى نيل هذا الشرف إلى الصديق الأستاذ محمد على الحومانى فكم فاتتنى فى فرص كنت أنا المقصر فيها وهو دائب الدعوة لى إليها حتى قدر الله أن أنال هذا الشرف فشكرا لله ثم لكم .

فى الواقع أننى ما اجتمعت بكم إلا لأنهل من بحركم الزاخر فكلكم أساتذة أعلام وعلماء أجلاء . وانى ماطرقت هذا الموضوع الذى هو العلوم الحديثة فى الإسلام وخاصة الطب الحديث فى الإسلام الا لأنادى وأدعو العلماء من كل فن ليجتمعوا ويؤلفوا منهم مجمعا علميا لاستخراج ما احتوى القرآن عليه من كنوز ، ليخرجوها لهذا العالم الضال الذى يتخبط فى ظلام الجهل بالله والجهل بعلوم الله فى كتابه المنزل على خاتم الرسل محمد عليه الصلاة والسلام .

وانى فى هذه الكلمة القصيرة سأحاول أن أقدم لكم بعض الأمثله من الكتاب والسنة التى أتى بها الرسول الأمى عليه الصلاة والسلام . كمقتطفات مختصرة :

صحة الفم والأسنان : فلها من الأهمية ما لو ذكرناها لملأت مجلدات على أن الكل يعرف للفم والأسنان علاقة وثيقة بالصحة العامه مما لا يخفى على أحد الآن — وان الرسول قد شدد فى المحافظة على صحة الفم والاسنان فى الحديث الصحيح بقوله : « لولا أن أشق على أمتى لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة » روى عن أبى أمامة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « تسوكوا فإن السواك مطهرة للفم ، مرضاة للرب ، وما جاءنى جبريل عليه السلام الا أوصانى بالسواك ، حتى خشيت أن يفرضه على وعلى أمتى ، ولولا أنى أخاف أن أشق على أمتى لفرضته لهم،وأنى لأستاك حتى لقد خشيت أن أحفى مقادم فمى ». رواه ابن ماجه . فإذا طبقنا هذا الحديث على النظريات العلمية لصحة الفم والأسنان وجدنا أنه قد وعى كل الدقائق العلمية الحديثة التى لم تثبت الا الآن فمنها أن السواك فقط هو الأداة الهامة لإزالة الفضلات التى تتراكم بين الأسنان والمواد الدهنية التى تغطيها وبمعنى آخر تغذى المكروبات وتحميها ولقد ذكر أحد علماء الأطباء فى أمريكا فقال : « ان معجون الأسنان ليس هو العامل فى وقاية الأسنان والعناية بها بل المهم هى الفرشاة التى تزيل الفضلات والمواد الدهنية » . وعلى ذلك فإن السواك وحده كان كافيا وهو الذى ذكره النبى منذ أكثر من ثلاثة عشر قرنا بل هو يمتاز عن الفرشاة بأن فى أليافه مادة قابضة . أما الأمر الثانى فكثرة استعماله فى اليوم الواحد ، فقد ثبت بعد عدة تجارب فى إحدى جامعات أمريكا أنه يجب استعمال الفرشاة عقب كل أكل لأن المكروبات تهاجم الميناء فى ظرف ٢٠ دقيقة بعد الأكل حتى إن التجارب أثبتت أن ميناء الأسنان تأكلت فعلا بعد ٦ أشهر فحكمة تعدد استعمال السواك أو الفرشاه اثبتها العلم الحديث وبين حكمتها

على أن استعمال السواك الآن بالطريقة المتبعة هو أخطر على الأسنان والصحة العامة من عدم استعماله فيجب أن يغسل السواك أو الفرشاة وتطهر جيدا ثم يوضع فى أنبوب خاص معقم حتى يكون مجهزا للإستعمال نظيفا مطهرا وإلا فيكون منبعا للمكروب مجلبة لمرض البيوريا . ومما يلفت النظر أن الحديث الآتى الذى عثرت عليه أخيرا عن الخلال عن أيوب الأنصارى عن أبى أيوب رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا حبذا المتخللون من الطعام ، إنه ليس شىء أشد على الملك من بقية تبقى فى الفم

من الطعام » وهذه الحكمة متممة لحكمة السواك فإن الفضلات يجب ألا تبقى فى الأسنان لأنها تتعفن فى خلال ساعتين فتكون منبعا للمكروب والرائحة العفنة الكريهة .

ننتقل إلى حديث آخر له من الخطورة والأهمية مايجعله جديراً بالاهتمام والتبصر : قال عليه الصلاة والسلام « إذا ولغ الكلب فى إناء أحدكم فليغسله سبعا احداهن بالتراب » . والتراب يسمى بلغة الطب « La Terra » أى التربة والتراب ومنها اشتق الإسم « ترامبسين » وهو أحدث مبيدات المكروب وأقواها ، ولا يزال التراب يستعمل فى القرى كمطهر للجروح ويندر أن يحدث منه تسمم رغم تلوثه بمختلف أنواع البكتريا ، والترامبسين هو عقار مستخلص من فطر يعيش فى صميم التربة ومنها اشتق اسمه ، وإليها يرجع الفضل فى قدرته الفذة ، مع بساطة متناهية فى كيفية الاستعمال أعدها ما امتاز به الترامبسين فى ثبات عجيب يقيه من التلف أو التحلل بالمؤثرات الطبيعية أو الكيميائية .

ويعد هذا الكشف أهم حدث فى عالم الطب أعقب اكتشاف البنسلين ، تلك المادة التى أحدثت انقلابا شاملا فى طرق العلاج ومصدر الأمراض ، فمكروب الالتهاب الرئوى كان يودى بحياة صاحبه فى غالب الأحيان ، وقد قلت ضراوته باكتشاف السلفا ، أما بعد البنسلين فقد أصبح عاجزا تماما عن أن يحدث أتفه ضرر .

غير أن البنسلين مادة مدللة تتطلب المبالغة فى الحيطة للحصول على الأثر المطلوب ، فهى تتأثر بالحرارة وتتحلل بحموضة المعدة ومن ثم لايجدى تناولها عن طريق الفم فتيلا ، وتتلف بالكحول ، والبنسلين يترك الدورة الدموية سريعا لذلك وجب أن يحقن به المريض كل ثلاث ساعات ليلا ونهارا مع مافى ذلك من مشقة وعناء وازعاج للمريض وذويه — ولقد بذلت محاولات متعددة لإستبقاء البنسلين فى الدورة الدموية مدة طويلة ، فأضيف له الشمع تارة ثم الزيت تارة أخرى ثم الدوكايين أخيرا ولكن لكل من هذه الأنواع مساوئه مما يضع الطبيب المعالج فى مركز دقيق اذ عليه أن يزن الأمور جيدا لإختيار الأصلح منها .

وإلى جانب ذلك فهناك مكروبات كثيرة لا تتأثر بالبنسلين وما أعقبه من مبيدات وقد ثبت أن كل عقار له ميدانه الخاص .

وللترامیسین مجال واسع فی مقاومة البکتریا من مکورات وعضویات ویصلح للتعاطی عن طریق الفم .

وقد دلت التجارب الأولیة علی أن الترامیسین یشفی معظم الالتهابات الحادة ، ویشفی الالتهاب الرئوی فی مدة یومین ، وقد شفی مرض السیلان فی ٢٤ ساعة — وشفی حالات من السعال الدیکی فی مدة ٣ أیام ، وحالات من الحمی المالطیة فی ٣ أیام ، وبعض حالات من التیفوس فی ٤ أیام — وهذه الحالات کلها تبعث علی التفاؤل الشدید .

وأخیرا ننتقل إلی آیة من آیات الله الکبری ، قال الله تعالی فی کتابه العزیز فی سورة النحل : ثم کلی من کل الثمرات فاسلکی سبل ربك ذللا یخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فیه شفاء للناس إن فی ذلك لآیة لقوم یتفکرون .

إن لعسل النحل فوائد غذائیة للصحیح کما للمریض بل ویلائم المریض لأنه شفاء وتلك الخواص یعرفها القدماء ویتداوون بها غیر أننا الآن بصدد ما أثبته العلم الحدیث فی الأبحاث التی بینت وفسرت الآیة الکریمة والأحادیث النبویة بخصوص عسل النحل وکیف أنه شفاء ، والسر یتلخص فی أن عسل النحل لیس البیئة غیر الصالحة الملائمة لحیاة المکروب ونموه فحسب ، بل إن المکروب یهلك ویموت إذا مکث فی عسل النحل ، وهذا ما قاله العلم الحدیث .

اعتقدوا قدیما أن عسل النحل وسط ملائم لنمو البکتریا وتکاثرها کما هو الحال فی اللبن ، ولکن أحد العلماء الزراعیین وهو الدکتور Sachell البکتریولوجی بجامعة کولورادو أثبت بالأدلة القاطعة أن عسل النحل خال من المکروبات وأنه بیئة غیر صالحة لمعیشتها ، ذلك أنه أدخل فی کمیة من عسل النحل کثیرا من أنواع المکروبات الضارة بالانسان ، فما أشد دهشته عند ما وجد أنه قد قضی علی بعضها بعد عدة ساعات وعلی بعضها الآخر بعد عدة أیام . ویقول إن مزرعة التیفود کان نموها محدوداً جدا ، کما أن احتمال نقل المسل لهذا المکروب ولمکروب الدیسنطاریا ضئیل جدا .

وتبین له أن « B. Tyrhosus التیفوس » لم یعد له أثر بعد مضی ٤٨ ساعة من ادخاله فی عسل النحل . والباراتیفوس هلك بعد ٢٤ ساعة وأن عصیات الدیسنطاریا تهلك بعد عشر ساعات .

ويذكر دكتور عالم آخر يدعى A. P. Sturtevant . أن عسل النحل غير صالح للبكتريا وذلك للأسباب الآتية :

١ — لأنه حامضى التأثير .

٢ — لزيادة نسبة تركيز المواد السكرية التى قدرت إلى ٨٠ ٪

٣ — لأنه ذوضغط أوسموزى عال .

وما يقال من أن عسل النحل يحتوى على مكروبات التيفويد والديسنطاريا وما شابهها إن هو إلا احتمال ضئيل .

النقاش

ينكر عليه الدكتور على عبد الواحد تعليل الأحكام الشرعية بالعلوم وتطبيقها على الحياة وأن الدين لم ينزل لنتلقاه معللا وانما يجب علينا أن نتقبله ونعمل به تعبدا ، ولو حاولنا تعليله لفاتنا كثير من فهمه كالعلة فى كون صلاة الصبح ركعتين والظهر أربع والمغرب ثلاثا ونحو ذلك من كثير ما يفرض ، وأن بعض الأئمة يقول ببطلان الوضوء إذا جعلنا حكمته النظافة فعلينا أن نتوظأ تعبدا ونصلى تعبدا دونما نظر إلى حكمة الوضوء والصلاة بأنها نظافة ورياضة .

ويرده المحاضر بأنا مأمورون بالعلم فى صميم الدين فإذا طبقنا الدين على العلم فكأنا عللنا الدين بالدين ، ويقره على ذلك الشيخ محمد المدنى بأن تطبيق الدين على العلم ليس معناه تعليل الدين بحكمته ، وإنما هو مجرد اظهار محاسن الدين إذ هو ، فضلا عن حكمته التى يفوتنا ادراكها يلائم مثلنا الأعلى فى الحياة ألا وهو العلم .

ويؤيد الشيخ رامز مسمار رأى المحاضر بجواز تعليل الأحكام بالعلم لقوله تعالى : « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » .

التعليق

ليس للدكتور على عبد الواحد وجه فى نقده المحاضر بتعليل الأحكام الشرعية فإن هذا التعليل وارد فى صميم الدين كتابا وسنة أما الكتاب فقد كفانا الرد به فضيلة الشيخ رامز المسمار وقد مر آنفا ، وأما السنة فقد روى عن ابن عباس أن النبى جمع بين الظهر والعصر وبين المغرب والعشاء فى غير حرب ولا سفر ، فسئل ابن عباس عن علة ذلك فقال : لئلا يكون على الأمة حرج من بعد .

هذا من حيث النقل وأما من حيث العقل فإن أمر هذا الدكتور عجيب وغريب إذ يجيز فى نقاشه محاضرة الآنسة سلوى الحومانية عندما نقمت على التقاليد المجحفة بالمرأة ، أجاز صحة هذه التقاليد إذا لم تتعارض مع الدين ، وانه يجيز تصرف العقل هنا ، ولكنه ينكره

مع الدكتور أباظه فى جواز تعليل الأحكام الشرعية إذا لم يتعارض التعليل مع الدين .

فأية معصية نستحق عليها اللعنة من الله والغضب من رسوله إذا عللنا الوضوء بالنظافة والصيام بالصحة والحج بالائتمار ؟ ؟ ثم نغضى عن تعليل مالم ندرك الحكمة منه ونتركه للأجيال اذ ثبت لدينا أن مخزون الكتاب ليس قاصرا على فهمنا ولا على فهم من سبقنا وإنما هو جار فى اعجازه حتى انتهاء العالم ؟ ؟

لقد سمعت أحد العلماء الأعلام يجيب سائله : هل يجزئ الغسل من الجنابة عن الوضوء ؟ ؟ فأجاب : نعم وأى وضوء أنقى من الغسل وأطهر ؟ ؟ أقول : لقد سمعت ذلك منه وهو يسنده إلى الإمام جعفر الصادق فأكبرت هذا الإمام والناقل عنه وسفهت من يقول بعدم إجزاء الغسل عن الوضوء وأنه لابد من الجمع بينهما للصلاة .

وما هو هذا الدين الذى ينزل علينا لنعتصم به تعبدا دون أن نجيل الفكر والعقل فى تمحيص أحكامه ؟ ؟ ان القرآن غنى بتسفيهنا فى تأثرنا الآباء والأجداد بين يدى تقاليدهم المسفة ، والشرع يحتم علينا أن لانعتنق دينا لم تقنع به عقولنا ، وفى القرآن مما يسوق البراهين على ضرورة الدين وتوحيد الخالق من الآيات ما لا يحده حصر ، فلو كان الدين قاصرا فى اعتناقه على التعبد لما ألزمنا الشارع بالرجوع إلى العقل فى كثير من الحكم ، ويكاد يكون الاجتهاد فى الدين صادرا عن العقل المستنبط المعلل .

ولقد ودع رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه وهو يقول : « إذا سمعتم الحديث عنى تعرفه قلوبكم وتلين له أشعاركم وأبشاركم وترون أنه قريب منكم فأنا أولاكم به ، وإذا سمعتم الحديث عنى تنكره قلوبكم وتنفر عنه أشعاركم وأبشاركم وترون أنه منكم بعيد فأنا أبعدكم منه » .

ما هذا ؟ ؟ هل فى ذلك دعوة إلى العلم فى تلقى الدين واعتناقه ؟ ؟ وهل لو سمعنا عن النبى حديثا دونما سند صحيح كل الصحة ولانت له أبشارنا فعملنا به معللين ذلك بلين الأبشار والأشعار وبمعرفة القلوب له ؟ ؟ وما هى معرفة القلوب هنا ؟ هل هى إلا العلم المعبر عنه بالتصديق ؟ ؟

وما هو هذا الدين الذى ينزل علينا لأولانا وآخرتنا ثم لا يصح لنا أن نجيل فيه عقلا

أو نرد إليه علما ؟ ؟ ولم لانقول : إن ما أورده الأستاذ المحاضر إنما هو تعليل العلم بالدين لاتعليل الدين بالعلم ؟؟ لم لانقول : ان التراب يقتل جرثومة السعار لأن الدين يقر ذلك ؟؟ وان الشهد لاتعيش فيه الجراثيم لأن الدين يقر ذلك ؟ وإن المخمضة والاستنشاق ضروريان لعصمة البطن من دخول الجراثيم لأن الدين يقر ذلك ؟

ومن يقول : إن أصحاب رسول الله كانوا من البساطة إلى حد البلاهة إذ كان اسلامهم تعبدا دون أن يعملوا عقولهم فى اعتناق هذا الإسلام ؟ ودون أن يدركوا الحكمة من أحكامه وربهم يخاطبهم بقوله عز من قائل : «ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا» وهل الحكمة التى هى اكتناه الأشياء أو إحكام صنعها إلا علم ؟ ؟

ما أسفه الإنسان أن يقرر أن الدين بحر لايدرك له غور ، أو يقرر أن الدين ضحضاح يتبين الجاهل غوره ، الا إن الدين بين هذا وذاك ، انه ناموس تنزل على الإنسان لهدى الإنسان لاهو بالغامض ولا التافه فإذا قارنا بينه وبين العلوم فإنما نحمل العلم عليه ونعلله به لأنه مصدر العلوم والفنون والآداب ، هكذا يجب أن يفهم الدين كل من أوتى العقل ومجت روحه كل تزمت واستعاذت بالدين من الأنانية والخيلاء .

يتحدث إلى أحد مهاجرينا العرب فى مدينة بونس ايرس عاصمة الأرجنتين من أمريكا الجنوبية ، وهو السيد محمد وهب ، يتحدث إلى أيام زيارتى ذلك الشطر من الأرض عام ١٩٢٩ للميلاد :

إن محاضرا أحنبيا ألقى بحثا تحت عنوان « الحياة الكاملة » وقد نشر فى احدى صحف تلك المدينة واطلع عليه ، قال : لا أذكر عنصر هذا المحاضر ولكنى أستطيع حصره بين سكسونى أو جرمانى ، وأنه استطرد إلى ذكر نبى العرب محمد صلى الله عليه وسلم حيث قال مامضمونه :

إن الحياة الكاملة تتقوم بأربعة عناصر لا تتم الا بها ثم لايصدق على انسان أنه حى كامل الا إذا اتصف بها وكان تام الافادة منها وهى : الزراعة فالطب فالسياسة فالقضاء . « فليس لواحد منا نحن بنى آدم أن يستحق لقب الحى الكامل الا إذا كان زراعيا طبيبا

وقاضيا سياسيا كاملا فى هذه الصفات» ثم يقول آخر الأمر : ولم أجد فيمن مر أو حضر من عباقرة الأجيال من يستحق هذا اللقب الا نبي العرب ».

ويحدثنى السيد محمد بن الحسن وهو من القضاة الشرعيين فى لبنان : ان أحد الضباط الإفرنسيين شكا لطبيبه فى بيروت « ولعله من أسرة حداد » شكا إليه مرض الكبد المزمن فوصف له شرب الماء الحار قبل الفطور من صباح كل يوم ، وقد استخف الضابط بهذه الوصفة ولكنه جربها أياما رأى فى عقبها أنه يستجم فاستمر على الوصفة شهرا أو أكثر حتى وثق من فائدتها ثم استمر حتى زال مرضه زوالا تاما فرجع للطبيب وقال له :

« إن أجلة حكماء باريس عجزوا عن شفائى فكيف اتصل بك هذا العلاج السهل الناجح ؟؟ فأجابه : إن نبي العرب كان قبل ألف عام يستشفى به ويقول : «الماء المشوى على الريق يشفى من الكباد » بضم الكاف فكان من انصاف الضابط أن نشر هذا الحديث فى كبرى صحف باريس يدعو العالم الغربى لاقتباس الطب من الهام نبي العرب .

ويقول المهندس ناظم ظبيان ، وهو أحد مهاجرينا إلى مدينة سانتياغو عاصمة جمهورية تشيلى من أمريكا الجنوبية ، يقول لى بعد أن أجبت سائلا يسألنى وأنا فى حشد منهم تحت سماء تلك البلاد النائية ، يسألنى هذا : هل صح عن النبي قوله : «لاعدوى فى الإسلام» ؟؟ فأجبته : نعم ، والحكمة فى ذلك أن قوة العقيدة فى الإنسان تحول دون العدوى ثم لا يخفى ما ينتج عن اجتناب المرضى من كبت المريض كبتا ربما أدى به إلى الموت بسبب الجفاء من أهله وأصدقائه خشية العدوى .

يقول السيد ظبيان تعقيبا على قولى : إن فى معهدنا التحليلى لدى الكشف عن الاشعاع وقوته ، ان من الأشعة الظاهرة ما هو أصفر وأحمر وأزرق ، أضعفها الأول وأقواها الأخير فى الأحراق ، وحرارة الإنسان لدى الكشف تتلون بهذه الأشعة وفق ماتتأثر به من ثورة النفس ، فإذا أقدم المرء على العمل ينبعث منه شعاع خفى تحت المجهر ملوناً بمقدار ما تأثر به من ثورة نفسه ، فإذا أقدم على المريض وهو خائف اندفع الشعاع من جسمه أصفر باهتاً وذلك لايقوى على احراق الجراثيم المنبعثة من أنف المريض وفمه لدى اتصالها بالصحيح العائد ، وإذا أقدم على المريض وهو قوى العقيدة بعدم العدوى

انبعث منه شعاع أحمر أو أزرق وذلك ما لا تقوى الجراثيم على اختراقه إلى جسم العائد اذ تحترق وهى فى طريقها إليه » .

وهناك أمثلة تفوق الإحصاء من تواطؤ العلم والدين على حفظ الحياة وإن قوله عليه الصلاة والسلام : «الحمى عرق من جهنم فاقتلوه بالماء البارد» . وقوله : « المعدة بيت الداء والحمية رأس الدواء » إن قوله هذا وأشباهه لايزال موضوع احترام العلم والعلماء من حكماء العصر ، فما هى المشكلة التى نقع فيها إن قلنا بتطبيق العلم على الدين أو تطبيق الدين على العلم أو تطبيق كليهما على الحياة ؟ ؟ أليس من صميم الدين هذه العلوم التى لو لم يدع إليها محمد لاستمرت فى أعماق الحياة مدفونة إلى نهاية الحى ؟ وإذا أمر الله فى كتابه وعلى لسان رسوله بالعلم فكيف يكون العلم خارجا عن الدين ثم إذا كان فى صميم الدين فلم لايصلح علة لأحكامه ؟ ؟ أفلم يعلل مشرع الكون جل وعلا كثيرا من آياته بالعلم ؟ ؟ أفلا يتذكرون ؟ أفلا يعقلون ؟ ؟ ألم يتفكروا فى خلق السماء والأرض ؟؟ ولا يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم » .

أما قياس ما نعلم سره على ما لا نعلم فهو قياس خاطىء لأن المفروض فى الدين أنه لم ينزل لجيل واحد من الناس وانما هو للإنسان منذ بعث الله محمدا حتى نهاية هـذا الإنسان ، فعلل أحكامه تنجلى على العقل الواعى جيلا فجيلا حتى تتم بتمام الحياة وإيذانها بالخلود ، وهكذا يعلمنا القرآن بقوله : «ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » يعلمنا أن البحث عن الروح منوط بالعلم والعلم فى جيل السائلين يقصر عن فهم الروح ، ويعطى فى النتيجة أن العلم خليق بفهمها عندما يزداد ، وازدياده ممكن لقوله عز من قال : « وقل رب زدنى علما » .

المحاضرة السابعة عشرة :

حياة المحاضر



لم يتصل بى من سيرة حياته ، وهو بعيد عن القاهرة منذ أشهر ، الا أنه شمر للكفاح فى سبيل عروبته منذ شب ، وأنه فلسطينى المنشأ ، وأن مدينة نابلس مسقط رأسه .

أعرف أنه أسس جريدة الشورى فى القاهرة وهى من أرحب الصحف صدرا يتسع للنضال والكفاح المريرين . وقد كان فيها مجال واسع لقلم أمير البيان شكيب ارسلان فى الدفاع البالغ عن الإسلام ، وكانت أقلام ذوى الغيرة والحرص على الوطن العربى تتبارى فى ميدان صحيفته هذه .

وأعرف أن له آثارا غير الشورى بضعة تآليف منها : «أوراق مجموعة» ضمنها ذكرياته عن الثورات العربية ضد الاستعمار وقد أسهم فيها بعمل قيم صالح ، ومنها : « فى ظلام السجن » ، ومنها : «معتقل هاكستب» وهما كتابان جلى بهما فى حلبة النقد اللاذع لمنتحلى العروبة والعاملين على قمعها ، والذين رافقوه فى المنزل الخشن فكان مواسيا لهم حتى إذا عهدت إليهم الأمة بالقيادة استأثروا بها وقلبوا له ظهر المجن .

وبعد فندوة أبى الحسن الطاهر موضع ثقة الخلص من اخوانه العرب ، وملتقى النخبة الصالحة يتعارفون ويتشاكون ويتطارحون السياسة والعلوم والآداب ، وهو لا يزال رغم شيخوخته ، يحمل الشباب الغض بين يديه شابا أحمر ، وعلى لسانه نقدا أزرق ، وفى حنايا قلبه جهادا أبيض ، سلام الله على أبى الحسن وعلى ندوته الحافلة برءوس تطأطىء للحق وتتعالى على الباطل ، وأجار الله كلا صديقه وعدوه من يراعه الذرب ولسانه الجبار .

المحاضرة الرابعة عشرة

مشكلة القيادة فى الأمة العربية

ضعفها وعلاجها

تليت بالنيابة عن صاحبها السيد محمد على الطاهر فى منزل الشيخ فهمى هاشم
أحد الأعضاء فى ٦/٥/٥٥

من خير ما تبعثة ندوة الإخوان الأصفياء فى مصر إلى الأجيال المقبلة هذا الأثر الذى تضامن أعضاؤها على تخريجه بقلم أحدهم الأستاذ محمد على الحومانى الذى هو مقرر جلسات هذه الندوة .

كثيرا مانرى جمعيات تنشأ وأحزابا تؤسس وندوات تعقد ثم لم نرهذه الفكرة تتحقق بعد انحلال هذه المؤسسات ، إن فكرة اخراج كتاب للعالم العربى حاضره ومستقبله يعالج مشاكل الأمة العربية فى داخلها وخارجها ويتبادل الرأى فى توجيه الأمة بهذا الأثر نفر من العلماء والأدباء والشعراء والساسة المحنكين ، إن فكرة كهذه لم تتحقق حتى الآن لغير « إخوان الصفا » فيما مضى من زمن ، وللإخوان الأصفياء فى هذا الزمن .

وقد فرض على مقرر هذه الندوة موضوع « القيادة العربية » ، ومقرر الندوة بما له عندى من دالة يستطيع أن يفرض على واجباً نحو الأمة كما يستطيع أن يفرض على هذا الواجب كل عامل مخلص ، لذلك أرانى مرتاحا لهذا الفرض وإن كنت آبى أن يفرض على رجل فى العالم مثل هذا الواجب فرضا ، لأنى أحب أن أتطوع لكل واجب من تلقاء نفسى ، والحومانى كنفسى . فأقول :

أن القول الشافى على هذا الموضوع يحتاج إلى كتاب قد يصل إلى ألف صفحة فيما لو أراد الباحث أن يفيه حقه من البحث ، لأن قيادة الأمة العربية تشتمل على فصول تضطر الكاتب إلى الإسهاب فى تعليلها وتحليلها ، أليست قيادة الأمة أهم عامل فى بناء الأمة ؟؟ إذن فالكلام على هذه القيادة كلام على بناء الأمة ، وكم يحتاج الكاتب إلى إطناب فى صفات القائد الأعلى والقادة الذين يلونه ؟؟ ثم كم يحتاج إلى تطويل فى عرض الوسائل الفنية التى تستلزمها قيادة الأمة ؟؟

وهكذا القول على مشاكل القيادة وعلى أسبابها وغاياتها ثم القول على أمراضها وعلاجها ، وعلى الأمة التى تتولى السيطرة عليها والذود عنها والاعتزاز بها .

ولكنا لا نعدم وسيلة للأخذ بشىء من هذه الأسباب على سبيل الإيجاز لنسهم فى بعث اليد التى تسديها الندوة للأمة ونضع فى بناء هذه الندوة الذى تضطلع به لبنة ربما عضدت ركيزة أو دعمت سقفا أو ظاهرت ركنا . فالواجب الذى من أجله كان العربى عربيا وكان الإنسان آخر الأمر إنسانا يفرض على أن أبسط ماعندى فى سبيله إذا دعيت ، وكم يكون الكاتب مسئولا عن الخذلان الذى يصيب أمته وفى طوقه أن ينبه الأمة لهذا الخذلان قبل وقوعه فلقد نبهنا قبلا وننبه اليوم وسننبه غدا فان الخذلان الذى يصيب كل أمة بفضل قادتها السفهاء ليس له حد فى ماضى ولا مستقبل .

أولا : الجهل المطبق الذى سد على أمة العرب منافذ النور وغمرها بظلمات بعضها فوق بعض ، هذا الجهل هو أول أسباب الضعف فى قيادتنا العربية ، ولست أقصر الجهل المفضى بالقيادة إلى الضعف على القادة فى الأمة ، وإنما يبدأ فى الأمة ثم يجتازها إلى قادتها لأن النبى صلى الله عليه وسلم يقول : « كما تكونون يولى عليكم » فالأمة الجاهلة يقودها جهلاء والأمة المتعلمة يقودها علماء .

وإن أهم عبء على الأمة الجاهلة نشوء الفوضى فى نواحى حياتها عامة لأن النظام لا يعيش مع الأمة الجاهلة ، كما أن القادة فيها لا يخضعون للنظام الآخذ عليهم أسباب الترف والفسوق ، هكذا نسمع الشاعر يقول :

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم ولا سراة إذا جهالهم سادوا

نرى كثيرا من حاكمى بعض مناطق شعبنا العربى لا يفقهون شيئا من مؤهلات الحكم الذى يخولهم السيطرة على شعوبهم ، ويكادون لا يحيطون علما بما يدور حولهم من أحداث الزمن فضلا عما يدور فى العالم من جلائل هذه الأحداث ، وهم مع ذلك يتصدون لقيادة الشعوب ويفضى بهم هذا الجهل حرصا على مناصبهم إلى الاتصال بالأجنبى المستعمر ليستمد منه قوة السيطرة واستمرارها فى شعبه الجاهل ، ثم لم يفق هذا الشعب من غفلته الا وهو مكبل بالقيود ، راسف فى الأغلال .

ثانيا : الخيانة الناشئة عن الشعوبية فى القادة ، فان فى الأمة ساسة خونة لم تعرق فى نفوسهم عروبة محمد ولا اسلامه فاستباحوا حرمات القومية والدين فى سبيل شهواتهم وسهلوا للعدو التحكم بشعبهم وبأنفسهم يستعينون به لاخضاع أمتهم حتى أصبح الذل خلقا متأصلا فيها ، وحتى أصبحت العبودية دينا يهيمن على نفوسهم ، وحتى اصبحت جزيرة العرب مطوقة من ست جهاتها بالأجنبى المستعمر .

ثالثا : الأنانية المتغلغلة فى نفوس العرب المفطورين على الجشع وحب الأثرة بدافع التمرد الناشئ فيهم عن الشذوذ والفوضى فى الحياة ، إذ لم يتقيدوا بنظام ولم يخضعوا لسلطان ، والنبى يقول : « ينزع الله بالسلطان كما ينزع بالقرآن » لأن القوة كانت ومازالت مصدرا أول لزجر الإنسان وقمع نفسه العاتية الأمارة بالسوء .

الأنانية فى العربى سبب قوى فى اختلاله وتنكبه عن جادة الحق ، وأسوأ ما فى هذه الأنانية أنها فردية أكثر منها جماعية . لأن العربى يرى نفسه قبل غيره مهما حقرت هذه النفس ومهما جل ذلك الغير ولوكان من صميم أسرته بل ولو كان منحدرا من صلبه ، ولذلك وجدنا العربى يئد بناته حرصا على عرضه ويقتل أولاده حرصا على طعامه وشرابه ، هذا وهو من عامة قومه فإذا كان من الخاصة . ملكا أو أميرا أو زعيما ، فلا يتورع فى سبيل منصبه عن قتل ولده أو أخيه مهما انحدر عنهما فى خلقه وخلقه .

هذه الأنانية فى العربى تختلف عن الأنانية فى السكسونى والجرمانى مثلا ، فى كونها فردية لا تتجاوز ذات العربى الفرد الا فى مقام تنافس القوميات فهو بلاشك متعصب لقومه دون غيرهم مالم يشعر بأن هذا التعصب يطيح بأنانيته فإنه إذ ذاك يضحى بقومه فى سبيل نفسه .

أما الأنانية السكسونية مثلا فهى جماعية ، لا ينظر المرء منهم لنفسه ما دامت أمته مهددة الكيان حتى إذ اعتصمت بأفرادها من العبودية رجع يعزز نفسه على أساس قوميته وعنصره الذى كان منه ، ثم لم نسمع بأن واحدا منهم اليوم يضحى بأمته أو بأخيه الذى هو من صلبه فى سبيل أنانيته الجوفاء ، بل على العكس نرى الواحد منهم يكافح ويناضل فى سبيل أنانيته حتى إذا غلب على أمره خضع لنظام دولته وأسلم الأمر لغيره واعتز بسلطان أخيه الظافر عليه من وراء جدارته أو حظه .

أما أن نسمع أن سكسونيا أو جرمانيا أو يابانيا رأى فى نفسه الضعف عن إشباع أنانيته فى وجه أخيه المنافس له فسعى لقمعه عن طريق أجنبى مستعمر فذلك ما لم يحصل إلا فى النادر ، ولعل هذا النادر مدخول فى كونه الأصيل بعيدا عن عنصره ، بينما نجد أكثر قادة العرب منذ طرحوا الاعتصام برسالة محمد يتذرعون لأنانياتهم الفردية بخرق النظام ونبذ السلطان فان لم يستجب لهم ذلك فضلوا الاعتصام بالأجنبى الطامع فيهم ، تحت وطء هذه الأنانية الذميمة ، وأمامنا دليلان واضحان لا يقبلان الجدل : أحدهما أعمال العرب فى الأندلس بالأمس وأعمالهم فى فلسطين اليوم .

هذه لمحة عن مرض القيادة فى الأمة العربية أحببت أن تلقى فى دار الندوة الأدبية الحافلة باخوان أخلصوا لعروبتهم واسلامهم لعلها تخلد فى سفرهم العتيد الفتى بالتوجيه للنشء العربى العاثر .

ولا بد لى فى ختام القول على الأدواء من إشارة إلى الدواء ، ومن خاض فى تشخيص الداء لزمه الخوض فى تعيين الدواء وتركيبه ثم رفعه للمريض ، فالمرض الذى جعلنا الجهل عاملا أول فى تمكينه من جسم القيادة يستدعى علاجه بالعلم ، فالأمة المتعلمة لا تفتح أمام الجهلاء سبيلا للسيطرة عليها ، والعالم كبير بنفسه عن أن يجعل المنصب هدفا لأعماله فان الكرامة عند هذا وأمثاله تحتل المكانة الأولى من نفسه الجياشة بالعز .

والعالم أبعد الناس عن تحرى الخيانة فى سبيل عيش يتبلغه أو منصب يتجمل به لأن العلم يبلغ به من نفوس الأمة منزلة لا تتعزز بالمناصب وانما تعزيزها قاصر على التضحية والتوجيه والخلود من ورائهما بالذكر الطيب ، وبرهان ذلك إنا نرى الطغيان من قادة

الأمة لا يستفحل إلا إذا ساد الجهل هذه الأمة قبل أن يسودها الحاكم الجاهل ، ويتضاءل هذا الطغيان بمقدار ما تتوجه الأمة إلى العلم الذى هو نور يكشف غياهب الجهل عن أبصارها .

ثم إذا كانت الأنانية والخيانة وحب الدنيا أسبابا أخرى فى ضعف القيادة فلا بدلنا من علاج ثان لهذا الداء ، ذلك هو الدين ، فالدين كان ولا يزال المحاسب الأول للانسان على توماسوس له نفسه من الجشع فى الحياة والتكالب على الدنيا ، والدين كان ولا يزال المطهر للضمائر من أوضار الحياة القائمة على الأثرة والأنانية وحب السيطرة فى سبيل الشهوات ، ثم نرى الدين إذا تغلغل فى النفوس وتعززت جذوره فى الصدور كان أكبر عامل وأقوى دافع للمتدين أن يخوض غمار التضحية بنفسه وبماله فى سبيل الحق والخير والجمال .

ذلك هو الداء وهذا هو الدواء ، فعلى الشعوب أن تفكر وأن تزن أعمال القادة المهيمنين عليها ثم أن تبحث عن المنفذ الذى تخرج منه إلى حيث تعز وتسمو بقيادتها الصالحة ، « وما ربك بمهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون » .

النقاش

بدأه الأستاذ محمد مصطفى الماحى فأنكر على المحاضر حصر العروبة فى الجزيرة العربية وهى أرحب أفقا من ذلك ، ففى مصر وليبيا والمغرب الأقصى جزائره وتونسه ومراكشه ما يثبت أن العروبة اوسع رقعة من هذا المجال ، ثم عزز المناقش هذا الإنكار على المحاضر بأنه مس العرب مسا عنيفا عندما نعت العربى بالأنانية وأطلق هذا النعت دون حصره فى زمان أو مكان ، فإن اعزاز الإسلام أول أمره بالعرب أمر واضح لايحتاج إلى توضيح فلو كانت الأنانية الفردية شاملة فى العرب لما أفاد منهم الدين هذه الإفادة التى أخذت على العالم أسبابه سماواته وأرضه .

وتلاه فى النقاش الشيخ منصور رجب فأنكر على المحاضر نبز القادة العرب بكلمة سفهاء ، لأن الأدب ينبغى أن يترفع عن مثل هذا النبز وحبذا لووصم المحاضر قادة العرب الخونة بكلمة أخف وطأ من هذه ثم قال :

ذكر المحاضر فى جملة النعى على القادة الخيانة وعزاها إلى الشعوبية فيهم وإذا عددنا الشعوبية أحد أسباب الخيانة لزمنا عد كثير من الناطقين بلغة الضاد فى الخائنين لأنهم شعوبيون ، أليست الشعوبية هى التنكر للقومية ؟ ؟ وكثير منا من هو دينى لا قومى ، أفنحن خونة للأمة ؟ ؟

وردت سلوى الحومانية مقارنة المحاضر بين العرب وبين الغربيين فى الأنانية ، للفرق الشاسع بيننا وبين الغرب الذى اجتاز القرون الطوال فى الحضارة والمدنية بينما لا يزال العرب فى أول نهضتهم ، على أن دول الغرب كانت فى عهودها المظلمة حافلة بالتنازع الإقليمى والحروب الطائفية فى كل شعب من شعوبها ، وكانت الأنانية الفردية آخذة بأسباب السلطان فيهم .

وينكر القائد عبد الله التل نسبة الأنانية وغيرها من الصفات المهينة للعرب على الإطلاق ، فإن هذه وإن نالت قسطا من زعمائهم وقادتهم ، ففى العرب قديما وحديثا ،

من يضرب المثل الأعلى للعالم فى التضحية ونبذ الأنانية ثم فى السير إلى أبعد حد ، على النهج الإنسانى القويم .

ويختم النقاش العلامة الشيخ محمد تقى القمى بأن هيمنة العرب على العالم أيام تمسكهم بالدين الإسلامى ثم استخذاؤهم للعالم قبل الإسلام وبعد ضعفه فى نفوسهم ، أقول : إن فى ذلك برهانا على أن حضارة العرب إنما هى وليدة الإسلام لا العروبة ، فإذا أراد العرب عودا إلى عزهم فليعودوا إلى الاعتصام بدين محمد فهو الضامن لهم ذلك العز .

التعليق

ينتقد الأصفياء أخاهم المحاضر أن وصف قادة الأمة العربية بالسفاهة وكادوا يجمعون على أن هذه الصفة كبيرة عليهم ، فلو تأنق بالوصف السيء لكان أحسن ، والمحاضر إذ وصف القادة العرب بلفظ السفهاء لم يقصد خالد بن الوليد أو قتيبة بن مسلم ، ولا عنى بهذا النعت عقبة بن نافع ولا طارق بن زياد طبعاً ، ولكنه أطلقها وهو يريد عتاة الأمة الذين فرطوا بالأندلس وفلسطين فقادوا الأمة بتفريطهم هذا إلى عار لا يمحوه الزمن .

وماذا تعنى كلمة سفهاء ؟ هل إلا أنها من السفه ، والسفه ضعف العقل ؟ ؟ وهل فى العالم أضعف عقلا ممن خان أمته وألبسها عارا لا يبلى ؟ ؟ هل فى العالم أخس نفسا وأسفه عقلا وأحط همة وأضعف إيمانا وأوهى ضميراً من رجل تضع الأمة ثقتها فيه ثم لا يكون موضع هذه الثقة حزماً وإخلاصاً وتضحية ؟ ؟ بماذا نصف قائداً تأتمر الأمة بأمره وتنتهى بنهيه ثم نراه لا يأمر إلا بشر ولا ينهى إلا عن خير ! ؟

أترى قادة العرب اليوم وقبل اليوم يتناحرون فيلجأ بعضهم إلى الأجنبى فى سبيل القضاء على البعض الآخر حتى يصل بنا هذا التناحر إلى الخسف والانهيار ثم نتأثم فى نعتهم بالسفاهة والخسة والضعف ؟ ؟ إنى لأرى ان مجموعة ما فى القواميس من صفات الخسة لو صيغت بلفظ واحد لكان قاصراً عن أن يفى هذه العصابة حقها من الجزاء فى الدنيا قبل أن تنهار فى أعماق الجحيم يوم يحشرها الله ويسألها عن الأمانة التى حملوها ثم كانوا منها مكان الذئب من الشاه والصقر من العصافير .

كيف نتأدب مع هؤلاء ياقوم ؟؟ أيملأ الله كتابه باللعن عليهم ، ويملأ الرسول حديثه بالتشهير فيهم ويحملنا العقل والدين على الانتقام منهم ، ثم نرى من القسوة فى القول أن نصمهم بالسفاهة والخسة والانحطاط ؟ ؟ ان هـذا لمن مهازلنا التى ورثناها فى الدم جبناً وضعفاً وانهزاماً .

ينكر الأستاذ التل ويقرر إنكاره الأستاذان رجب والماحى أن تكون الأنانية الفردية الممقوتة شاملة فى العرب ، وإذا طلبنا منهم أن يأتونا برجل واحد ضحى بأنانيته فى سبيل الصالح العام جاءونا بالعربى المسلم الذى كان إسلامه الوسيلة إلى هـذه التضحية ولم يكن يعرف قبل الإسلام ولا بعده شيئاً من التضحية بالنفس أو المال أو المنصب أو الجاه فى سبيل مجده وكرامته .

والدين الإسلامى لم يترك منفذاً إلى نفوسهم ليتعهدها بالتهذيب والتطهير إلا سلكه ، ولكنهم مع كل أسف لم يذعنوا لمحمد فى رسالته ولا دانوا حتى لخالقهم فى ربوبيته ، وإنى لأذكرهم من معاوية حتى عبد الرحمن الداخل ، ومن السفاح والمنصور حتى المستعصم ، ثم من أول ثائر عربى لنهضتنا الحديثة حتى آخر عقب له ، أقول : إنى لأذكر الجشع الذى جبلت عليه نفوسهم ، والأنانية التى طغت فيهم على كل إنسانية ، فأكفر بالقومية التى يدعونها وبالعروبة التى يستغلون باسمها عواطف الأمة ليمعنوا فى هتك أعراضها وهدم كيانها من وراء الشهوات .

الدين ، الدين ، هو السبب الأول فى حياة المسلم ، وهو السبب الأول فى موته ، عنيت أن الدين وهو عزيز فيهم ومهيمن عليهم ، سبب أول فى سلوكهم سبل الحياة ، والدين وهو مخذول بهم وموتور منهم ، سبب أول فى ترديهم إلى قرارة الهلك .

ليس لمسلم أن يقود أمته إلى حيث تحيى وهو ميت القلب من عصمة الدين لأن اتصافه بالإسلام يقتضيه الوفاء له والاعتصام به ليتمكن من قيادة العالم كما فعل محمد وخلفاؤه الراشدون من بعده ، لأن هـذا الناموس الأعظم الذى تنزل به الروح الأمين على المسلم الأول منا وهو محمد ، إنما ضمن لنا العز والنصر والسيادة فى العالم إذا اقتبسنا منه النور

الذى نمشى بين يديه ، والفكر الذى نعتصم به ، والعلم الذى نفرع إليه ، فإذا أعرضنا عنه وتحللنا منه ثم انتحلناه كان هو فى حل من تخليه عنا وانتقامه منا .

أما غير المسلم فليس للإسلام حجة عليه فى أن ينصره إذا نصره أو أن يخذله إذا خذله ، فليتبرأ زعماؤنا وقادتنا من إسلامهم ثم يلتمسوا النصر فيما يعملون له فقد يتولى الشيطان الذى أحفظ تشرشل على الحق فانتصر وأعرى ترومان من النبل فاستجاب له القدر ، ذلك لأن أمة الرجلين تدين بدينهما القائم على الأثرة فى الحياة بخلاف الأمة العربية التى تدين بدين قادتها والمسيطرين عليها فإنها تعد عليهم كل خطوة يخطونها إلى المعاهد والمعابد باسم الدين الذى لم يشرع لهم سبيلا يسلكونها إلا إلى الحق الذى تنزل على نبيهم محمد صلى الله عليه وسلم .

وواضح من ذلك فيما نرى : أن رب محمد أخذ على محمد وأمة محمد أن يكون مصيرهم فى الحياة رهن بناموسه الأعظم الذى أنزله على محمد ألا وهو القرآن فإذا أخذوا به أخذ الله بأيديهم إلى العز فى دنياهم والنجاة فى أخراهم ، وان نبذوه ظهريا تردوا إلى حضيض ليس تحته تحت ، لا لأنهم نبذوا رسالة الاسلام فحسب بل لأنهم فعلوا ذلك ثم لا يزالون يدعون أنهم مسلمون ، فلا إكراه فى الدين من شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر بعد تميز الحق من الباطل ، فالرحمة تنال المؤمن والغضب ينال الكافر ولكن الغضب الذى لا رحمة معه إنما يتنزل على من يسر الكفر ويظهر الإيمان .

فالله ينظر إلى المسلم الذى حمل رسالة محمد واعتنق دينه ثم فرط به ، ينظر إليه نظرة لا ينظرها إلى من لم يحمل هذه الرسالة ولم يعتنق هذا الدين ، ونظير ذلك عدوان عدوك الذى لم تضطلع بعبء حياته ، فهو غريب عنك لم تسلفه الجميل الذى تأخذه به إذا كفر نعمتك عليه ، وعدوان قريبك أخيك أو ولدك الذى تحملت عبء حياته وأسلفته الجميل الذى أسهرت عينيك من أجله حرصا عليه واحتفاظا به ثم يجحدك ويتنكر لك ويكفر نعمتك عليه ، فالفرق واضح بين هذين العدوانين أيهما تتجاوز عنه وأيهما تفرض العقوبات عليه .

هؤلاء القادة العرب الذين حملوا رسالة الاسلام بأفواههم ونشروها فى الأندية والمحافل وعلى أكتاف الجماعات إبان التأهب لاعداد السيادة فى الشعب تحت قبة البرلمان ، لقد برع هؤلاء بحمل تلك الرسالة فى أفواههم وأدائها إلى الجماهير حمما قاصفة وصواعق محرقة حتى إذا نزل الشعب على حكمهم واستجاب لهم وأنزلهم من سلطانه منزلة السادة الأمناء على حقوقه ، زلت بهم الضمائر ، وماتت منهم القلوب ، وسفهت الأحلام ، وكلحت الوجوه ، واستهواهم الرجس ، وأعمت بصائرهم بهارج الحياة ، فاستخذوا للباطل وأعرضوا عن الحق ونسوا تلك المواقف وتنكروا لأولئك المساكين الذين طأطأوا لهم مطايا ، وما أخلق بهم قول الشاعر : وهو صاحب « النخيل » .

كم زعيم يزلزل الأرض إن شقشق بالقول طاغيا عربيدا
تحسب الليث جاعرا بين شدقيه وعيناه تقذفان الوقودا
وإذا ما بلوته فاتك الليث وأبصرت ثعلبا رعديدا
يمهر المنصب المحبب أيمانا غلاظا من لغوه ووعودا
وإذا نص فوقه بعث الخزى به كل لحظة نمرودا

المحاضرة الخامسة عشرة :

حياة المحاضر



سماحة الحاج أمين الحسيني

مولده

ولد فى القدس حاضرة فلسطين سنة ١٨٩٦ ونشأ فيها أولا وأخيرا .

دراسته

تلقى دروسه الإبتدائية والثانوية فى المدارس العثمانية ومنها المدرسة السلطانية ولدراسته الخاصة فى أهله نصيب وافر من ثقافته الأولى ، ثم درس اللغة الافرنسية فى مدارس أجنبية حتى أتقنها ، وعنى بعد ذلك بدراسة الفقه فى الأزهر وغيره من المدارس الدينية فى مصر وفلسطين .

عمله

رئاسة المجلس الاسلامى الأعلى فى بيت المقدس ومدير الحركة الوطنية والدينية فى الدفاع عن فلسطين ، ورئيس الهيئة العربية العليا والمنتخب الأول لمجلس التمثيل فى حكومة عموم فلسطين . وهنالك كثيرا من الرئاسات أسندت إليه فى عدة مناسبات .

آثاره

كان فى هيأة مؤسسى كلية الروضة فى القدس ، ومؤسسى المجلس الإسلامى الأعلى الذى رأسه بعد تأسيسه واستمر على ذلك حتى خرج منفيا بعد جهاده المرير فى الثورات على بغى الاستعمار البريطانى ، ومن آثاره تأسيس دار الأيتام التى كان لها الفضل فى تعزيز الصناعات لدى رواد بيت المقدس من شرقيين وغربيين .

شخصيته

أعرق الزعماء عربا ومسلمين فى اجتذاب قلوب عارفيه وأقدرهم على تأسيس المحبة فى نفوس المجتمع وأحذقهم فى تصوير الأحداث العربية حول فلسطين ، وأبعدهم نظرا فى التنبؤ عما يستقبل الأمة العربية من أحداث ، وهو بعد ذلك تقى ورع خلوق ، وذكى بارع لا يدخر وسعا فى التحبب إلى الناس ، ولا يهدأ حيث كان حتى كأن العمل الواصب والنشاط البالغ وقف على شخصه المرموق فى العالمين الإسلامى والعربى .

المحاضرة الخامسة عشرة

ألقاها صاحب السماحة بنفسه على الندوة المنعقدة فى منزله بمصر الجديدة
مساء يوم الأحد الواقع فيه ٣/٧/٥٥

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله ، وعلى آله وصحبه ومن والاه .

وبعد ، فقد طلب إلى مقرر ندوة الاصفياء الأستاذ محمد على الحومانى ، أن ألقى كلمة عن قضية فلسطين ، فى هذه الندوة التى جمعت صفوة ممتازة من فضلاء الأقطار العربية . ولما كانت هذه القضية معروفة بجملتها لحضراتكم ، رأيت أن أقصر بحثى على بعض عناصرها الأساسية مسترعيا الأنظار إلى أهميتها وتأثيرها على سائر الأقطار العربية والإسلامية . وهذه العناصر الأساسية هى ما يأتى :

أولا — العنصر الدينى :

ان المركز الدينى لهذا القطر العربى ، بالاضافة إلى المركز الجغرافى والاستراتيجى وتوسطه الأقطار العربية والاسلامية ، كان له دور خطير فى تاريخها فى العهود الماضية ، كما كان له نفس الدور فى العهد الحاضر والعهود الآتية :

(ا) ففى فلسطين نشأت ديانات ، وبعث أنبياء ، وأسرى إليها بخاتم النبيين وسيد المرسلين صلى الله عليه وسلم ، فإليها كان الإسراء الشريف ، ومنها كان المعراج العظيم إلى السموات العلى ، ثم فتحها المسلمون عام ١٥ للهجرة النبوية ، ومنذ ذلك الحين طبعت بالطابع الإسلامى ، ثم قامت المحاولات الأجنبية فى العهود الماضية ، لانتزاع هذه البلاد المقدسة ، وقامت الحروب الصليبية فى القرون الوسطى التى استمرت حتى اليوم وإن اختلفت الأسماء .

(ب) ان قضية فلسطين قضية دينية قبل كل شيء ، وإن اليهود لا يخفون حماستهم وتعصبهم الدينى ، ولا يحجم ساستهم عن الجهر به فى كل ظرف ، فهم منذ القديم يثيرون النعرة الدينية ويظهرون الرغبة فى بناء هيكلهم مكان المسجد الأقصى ، وهم اليوم ، فى فلسطين المحتلة ، يظهرون تعصباً شديداً لدرجة أنهم يمنعون سفراء الدول الأجنبية من ركوب السيارات أيام السبت ، ونحو ذلك من ضروب التعصب ، حتى أنهم يسمون مجلس نوابهم (كنيست) أى البيعة والمعبد . . كما لو قلنا عن مجلس نوابنا (الجامع) أو (المسجد) . ولا يتسع المجال لسرد الدلائل الكثيرة على إفراط اليهود فى تعصبهم الدينى . فهم لا يسمحون بدخول المدارس الأجنبية لأبنائهم ، بل لا يسمحون بإنشاء مدرسة علمانية ، لا تعلم الدين اليهودى .

وحسبنا فى هذا الموضوع أن نذكر كلمة المؤرخ الإنجليزى الشهير البروفسور « أرنولد توينبى » إذ يقول : « إن اليهود هم أول من أثار التعصب الدينى الشديد فى العالم ، وقد قلدتهم الأمم الأخرى فيه » .

(ج) لا ريب أن كثيراً من الأمم الأجنبية الأخرى قلدت اليهود فى تعصبهم الدينى ، وأن الحافز الأكبر لعطف أوروبا وأمريكا على اليهود هو الروح الدينى ، ولا سيما عند الطوائف البروتستانتية التى تستمد معتقداتها الدينية من « العهد القديم » أى التوراة . فالبروتستانت يشاركون اليهود فى جميع عقائدهم المستمدة من التوراة ولا يكادون يختلفون معهم إلا فى « مجىء المسيح » عليه السلام .

ودلالة على ذلك أشير هنا إلى ما جاء فى مذكرات وايزمن بقوله : « إن السبب الحقيقى الذى مكننا من الحصول على وعد بلفور ، هو الشعور الدينى المتأثر بالتوراة عند الشعب الانجليزى » . فبتأثير هذه العقيدة الدينية ، اضطلع الإنجليز بعبء هذه المؤامرة الغاشمة النكراء ، وحملوا وزر هذه الجريمة الشنعاء . وبذلوا جهودهم وأموالهم ودماءهم فى سبيل استيلاء اليهود على فلسطين ، فآزروهم ونصروهم ، ودربوهم وسلحوهم ، وفتحوا لهم أبواب فلسطين رغم معارضة أهلها العرب وثوراتهم المتواليات ، ولم يكن عدد اليهود فى أول الأمر عند

احتلال الإنجليز لفلسطين ، يزيد على خمسة فى المائة ، فكانوا نحو خمسة وأربعين ألفا أى أقل من نصف عدد اليهود فى العراق ، أو فى مصر .

(د) وكذلك فعل الأمريكيون ، الجمهوريون منهم والديمقراطيون ، فآزروا اليهود سياسياً ، وساعدوهم مالياً وعسكرياً أعظم مساعدة ، وقد ذكر وايزمن فى مذكراته أنه قابل ترومان فى ١٩ نوفمبر سنة ١٩٤٧ وأعلمه أن اليهود يقبلون تقسيم « النقب » بينهم وبين العرب على أن تكون « العقبة » لليهود ، ولكن ترومان أصر على أن يكون النقب كله لليهود (ومساحته نحو ثلاثة ملايين فدان) وأن تكون العقبة أيضاً لهم ، فكان ترومان بذلك يهودياً أكثر من اليهود ، وقد كانت العقيدة الدينية فى الولايات المتحدة هى التى حملت كثيرين من رجال الدين الأمريكيين على اتخاذ مقررات فى مؤتمر الكنائس البروتستانتية الذى انعقد فى عام ١٩٤٤ وقع عليها نحو خمسة آلاف قسيس يمثلون معظم الكنائس الأميركية ، فى مذكرة رفعوها إلى الرئيس ترومان ، تشتمل على عطفهم على اليهود ، وتأييدهم لهم فى شأن قضية فلسطين ، وطلبهم فتح أبواب فلسطين للهجرة اليهودية المطلقة .

أما عضدهم المالى لليهود ، فحسبنا دليلا عليه أن نعلم أنهم منحوا إسرائيل فى أربع سنوات نحو ألفى مليون دولار هبات وقروضاً وتعويضات ، أى ما يزيد على مائتى مليون جنيه سنوياً . ولا يزالون ماضين فى هذا ، عدا مساعداتهم الأخرى لهم فى الأسلحة والذخائر وغيرها . ودليلنا على ذلك تصريح مستر اندرسون وكيل وزارة التجارة فى ١٥ مارس سنة ١٩٥٣ ، وتصريح الدكتور لنكولن هيل مدير المساعدات الفنية الأميركية فى فبراير سنة ١٩٥٥ وغيرهما من الرجال المسئولين الأمريكيين .

ولا يتسع المجال لسرد البراهين الكثيرة القاطعة على أن للعقيدة الدينية التأثير الأكبر فى هذه القضية .

(هـ) يضاف إلى ذلك ما خلفته الحروب الصليبية التى أثيرت فيها العواطف الدينية ، من آثار فى بلاد الشرق والغرب ، وما تلاها من حملات الجيوش العثمانية على شرق أوربا فى نفوس كثير من الشعوب الأوروبية من أحقاد ومخاوف ، وبغض عميق للعرب والمسلمين ،

مما حمل الغربيين عامة على تأييد اليهود والوقوف إلى جانبهم ، لاستشعارهم الخوف من الإسلام إذ يرون فيه الدين الزاحف « الذى أجلى أسلافهم من بلاد الشرق ثم لم يلبث أن اقتحم عليهم غربى أوربا وجنوبها ، ثم شرقها » ، فهم يحاربونه اليوم كما حاربه أسلافهم فى الماضى ، ويقفون له بالمرصاد ، ويعملون جاهدين لصده ومحقه ، ولذلك فهم شركاء فى هذه المؤامرة ، ويتخذون اليهود وسيلة أو مخلب قط لتنفيذها .

وأذكر لهذه المناسبة ، إننى حينما كنت فى ألمانيا خلال الحرب الماضية ، وصلتنى رسائل من بعض زعماء المغرب العربى ، فراجعت بشأنها الحكومة الألمانية ، وكانوا يطلبون فيها من ألمانيا أن تعترف باستقلال بلاد المغرب العربى مقابل تعاونهم مع دول المحور بتجنيد عدد كبير من المغاربة للمحاربة فى صفوفها . وقد رأى الألمان فى ذلك نفعاً كبيراً لهم ، ولكن الدول الأوربية الأخرى عارضت المشروع معارضة شديدة ، خشية أن يصبح المغرب العربى قوة كبيرة تخشى أوروبا خطرها . فلما قلت للدكتور بروفر وكيل وزارة الخارجية الألمانية : ألا تخشى الدول الأوروبية أن تتغلغل الشيوعية فى هذه البلاد إذا ظلت مظلومة ؟ كان جوابه : إن أوروبا تخشى الإسلام أكثر من خشيتها الشيوعية . .

وحسبنا أن نعلم : أن التعصب الدينى والعقيدة ، هما السبب الأول فى الكفاح العالمى الحاضر رغم زعمهم أن السبب هو الاقتصاد والاستعمار . ومع اعترافنا بأن للشؤون الاقتصادية والاستعمارية والاستراتيجية أثرها ، إلا أن هذه ثانوية ، والعامل الأول كان ولا يزال هو العقيدة والحافز الدينى . وما دعوتهم العريضة إلى التسامح إلا مخادعة ، فإنهم يزدادون تعصباً ونزداد نحن تسامحا وصل بنا فى الحقيقة حد الغفلة المحزنة والتفريط والانحلال .

ثانياً — المركز الجغرافى :

إن المركز الجغرافى لفلسطين هو العنصر الثانى من عناصر هذه القضية الخطيرة . ففلسطين كما تظهر فى الخريطة ، قائمة على الحافة الغربية من آسيا ، مقابلة للحدود الشمالية الشرقية من افريقية ، وهى الصلة الوحيدة بين الأقطار العربية والاسلامية فى كل من هاتين القارتين . فهذه الأقطار الاسلامية التى تمتد من مراكش فى أقصى المغرب الافريقى ،

إلى ماروكى فى أقصى الشرق الآسيوى « من مروك إلى مروكى » (كما يقولون فى أندونيسيا). وهذا المجال الحيوى الفسيح لمسلمى العالم ، الذى يحتوى على أعظم أقطار الأرض ثروة وموقعا ، يثير مخاوف الأجانب المستعمرين ويدعوهم للاهتمام بتجزئته وفصل بعضه عن بعض كما نرى اليوم فى إقامة هذا الحاجز اليهودى بين الأقطار الإسلامية الذى قطع كل اتصال برى بين المسلمين فى كل من آسية وإفريقية . واليهود جاهدون الآن لقطع الصلات البحرية والجوية أيضا . وأذكر لهذه المناسبة ما حدث قبل نحو عام من معارضة الحكومة الافرنسية ، لمحاولة قامت بها بعض السلطات الدولية لتسوية القضية الفلسطينية على أساس إعادة النقب أو قسم منه إلى العرب ، فقد عارضت فرنسة ذلك بشدة ، بحجة أن قيام هذا الحاجز اليهودى بين الأقطار العربية الأسيوية والإفريقية ، ضرورى لصالح فرنسة ولحفظ مستعمراتها .

ثالثا — مطامع اليهود الصهيونية .

هذا العنصر الثالث من عناصر هذه القضية . فعلينا أن ندرس اليهود على حقيقتهم فى نواحيهم الروحية والخلقية ، وأن نتعمق فى معرفة عقائدهم ونياتهم ووسائلهم العملية ، لتحقيق خططهم الخطيرة ، ومطامعهم البعيدة . فهم فى صميم عقائدهم ، كما جاء فى كتبهم الدينية كالتوراة والتلمود ، ينظرون إلى العالم كله ، نظرة البغض الشديد والحقد والغدر ، زاعمين أنهم شعب الله الخاص من دون الناس ، وأن الدنيا إنما خلقت لهم وحدهم ، وأن لا حق فيها لأحد غيرهم كما تفسر ذلك الآية الشريفة : « ذلك بأنهم قالوا ليس علينا فى الأميين سبيل ، ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون » . والآية الشريفة الأخرى : « أم لهم نصيب من الملك فإذن لا يؤتون الناس نقيرا » .

وهم فوق ذلك عديمو الرحمة والشفقة ، قساة القلوب كما وصفهم الله تعالى بقوله : « ثم قست قلوبكم من بعد ذلك ، فهى كالحجارة أو أشد قسوة ؛ وأن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار ، وأن منها لما يشقق فيخرج منه الماء ، وأن منها لما يهبط من خشية الله ، وما الله بغافل عما تعملون » .

ومطامعهم الخطيرة لا تقتصر على فلسطين ، فقد صرح بن غوريون قائلا : (ليست فلسطين إلا رأس جسر ، أو ثكنة عسكرية تحشد فيها قوانا ، وليست فلسطين إلا نقطة الوثوب التى نقفز منها إلى أهداف الصهيونية العظيمة) . وقال أيضا فى كتابه « إسرائيل وأحزابها » : (إن ما حصلنا عليه حتى الآن ليس إلا الفصل الأول من المرحلة الجديدة للدولة اليهودية) .

كما أن شعار المجلس النيابى اليهودى المسمى « الكنيست » أى الكنيس هو : (حدودك يا إسرائيل ، من النيل إلى الفرات) . وقد نشرت إحدى صحفهم « حيروت » بتاريخ ٥٢/٣/٣٠ خطاباً للزعيم اليهودى الدكتور آريه التمان جاء فيه : « إن إسرائيل العظمى من العراق إلى السويس » .

وقد اطلعت شخصياً فى المعهد الألمانى للدراسات اليهودية فى فرنكفورت (ألمانيا)، أول عام ١٩٤٣ على خريطة عثر عليها الألمان فى خزانة كبير عائلة روتشلد بعنوان : « خريطة إسرائيل » وهى تشتمل عدا فلسطين ، على جميع سورية ولبنان ، والأردن والعراق حتى خليج البصرة (باستثناء المنطقة الشمالية الكردية من العراق) ، وسيناء والدلتا من مصر ، وشمال الحجاز بما فيه المدينة المنورة . أما مطامعهم فى سيناء والدلتا وغيرها من البلاد المصرية فهو معروف من القديم . وقد جاء فى كتاب « يقظة العالم اليهودى » لمؤلفه إيلى لينى أبو عسل ، وطبع فى القاهرة سنة ١٩٣٤ الصفحة ١٠٢ : (إن اليهود راجعوا نابليون عندما احتل مصر وطلبوا إليه أن يسمح لهم بامتلاك الوجه البحرى من مصر والمنطقة الواسعة الممتدة من عكا إلى البحر الميت ومن جنوب هذا البحر إلى البحر الأحمر بما فى ذلك شبه جزيرة سيناء) .

وهناك فى كتاب اسمه (ماسادا) ألفه زعيم يهودى باللغة الافرنسية دعا فيه اليهود لاحتلال سيناء لأنها الباب الواصل بين القارتين ولما لها من أهمية استراتيجية وتاريخية ودينية عند اليهود .

هذا ولا شك أنه بلغكم شىء عن مطامع اليهود فى البلاد الحجازية ، وما قام به الرئيس الأمريكى السابق روزفلت ، عند مقابلته للمرحوم الملك عبد العزيز آل سعود فى الفيوم

على شاطئ بحيرة قارون عام ١٩٤٥ من مساع لحمل جلالته على الموافقة على استعمار اليهود ، للمناطق التى كانوا يقيمون بها فى الماضى البعيد ، وهى مناطق خيبر وبنى قريظة وبنى النضير وبنى قينقاع وغيرها ، مقابل عشرين مليون جنيه ذهباً ، وأن المرحوم الملك عبد العزيز رفض ذلك معلنا وقاحتهم فى ذلك .

ومن مطامعهم الدالة على الوقاحة المتناهية والاستخفاف الذى لا مثيل له بالعرب والمسلمين جميعاً ما كتبه (بن هخت) وهو أحد زعماء اليهود وكتابهم فى أمريكا ، إذ كتب مقالا فى جريدة نيويورك تايمس بتاريخ يونيو ١٩٤٨ ، دعا فيه اليهود ، لتجهيز جيش قوى يحتل المدينة المنورة ويفعل كذا وكذا فى الروضة المطهرة مما لا يستطيع لسان أن ينطق به زاعما أن هذا هو السبيل لإخضاع العرب . . .

ولليهود خطة خطيرة بالنسبة للبحر الأحمر ، فهم بعد ما احتلوا العقبة بمساعدة الإنجليز ، شرعوا فى العمل لجعلها قاعدة بحرية حربية لأسطول يهودى ومركزا للغواصات ، وهم يجهرون بتصميمهم على السيطرة على البحر الأحمر ، وإذا عرفنا أن المسافة بين العقبة وبين المدينة المنورة لا تزيد على أربعمائة من الأميال براً ، وأقل من مئة ميل بين المدينة وينبع على شاطئ البحر الأحمر ، قدرنا مبلغ الخطر الذى يهدد البلاد الحجازية المقدسة .

***

وبعد ، فإن مصيبتنا فى الأقطار العربية والإسلامية مصيبة واحدة ، وقضايانا فى الحقيقة قضية واحدة ، لا يكاد يكون بينها فرق فى الأساس ، ولكن أعظمها خطراً وأبلغها أثراً ، هى قضية فلسطين . ولهذه المناسبة أذكر أن العرب فى جاهليتهم كانوا يتبارون فى سوق عكاظ بقصائدهم ، ويتفاخرون بمناقبهم وبعظم مصائبهم . وقد ذكرت الخنساء أنها أعظم العرب مصيبة إذ فقدت أخوتها ، واحتسبت أبناءها الأربعة فى معركة واحدة هى معركة القادسية.

ولقد ذكرت فى الوقع هذه القصة لبعض الوفود فى مؤتمر باندونج ، وقلت لهم إننا نحن الفلسطينيين أعظم الناس أجمعين مصيبة ، لأن الظلم الذى حل بنا لم يعرف التاريخ له نظيرا ، فقد سجل التاريخ كثيراً من النكبات والمظالم ، ولكنه لم يذكر أن شعباً أخرج بقضه وقضيضه من دياره ليحل محله فيها شعب آخر .

وأنها لمظلمة تاريخية شنعاء لها ما بعدها ، وهى لا تزال تجربة ، ولكنها تجربة خطيرة إذا نجحت لا سمح الله ، وظل العرب والمسلمون ماضين فى غفلتهم . ساكتين على كارثتهم وخزيهم ، فلا شك أن الدول الاستعمارية الظالمة تستخف بهم وتتخذ من قضية فلسطين سابقة ومثلا لسياستها الاستعمارية ، ومطامعها الأشعبية فى الأقطار العربية المجاورة وفقا لخطتها الموضوعة المقررة لمحق العروبة والاجهاز على الاسلام .

وصفوة القول : إن مانسميه اليوم قضية فلسطين ، ليست خاصة بفلسطين ، ولكنها فى الحقيقة قضية الإسلام والعروبة ، وهى إحدى المراحل الخطيرة فى الغارة على العالمين العربى والإسلامى لهدم كيانهما . وإزالة معالمهما . وليس أمام العرب والمسلمين اليوم إلا إحدى طريقتين :فإما الخنوع والتخاذل وعدم الأخذ بالحزم ، والتوسل بالوسائل العملية وعدم الاعتبار بالكارثة ، وعندئذ فقدحق عليهم لاسمح الله قوله تعالى : (وكانوا قوما بورا) . وقوله : (وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم) .

وإما الجنوح للطريقة المثلى ، من جمع الشمل وحزم الأمروتوحيد الكلمة . (والقضايا العربية والإسلامية لافرق بين مشرقها ومغربها وشمالها وجنوبها) ، والقيام بتعبئة روحية تتلوها تعبئة حربية ، واتخاذ الوسائل العلمية الحازمة ، ونبذ التخاذل واليأس والضعف ظهريا ، والحذر من أعوان الاستعمار . ومطايا الأعداء ، من النفعيين والوصوليين ، والجواسيس والدعاة المأجورين ، ومن جميع أولئك الذين يؤلفون «الطابور الخامس» واتخاذ الأهبة ، واعداد النفوس ليوم الفصل الذى يسترد فيه الحمى ، ويستعاد فيه الحق المهضوم ، ويثأر للشرف المثلوم ، وسبيل ذلك هو الإيمان والتصميم ، (ولينصرن الله من ينصره ، إن الله لقوى عزيز) .

تمهيـــد

عند ما أبرقت الجمعيات العربية الإسـلامية فى شمال أمريكا وجنوبها لسماحة المفتى الفلسطينى الحاج أمين الحسينى رئيس المجلس الإسلامى الأعلى فى البيت المقدس يومذاك ، وكنت قد غادرت أمريكا إلى الوطن العربى ، وكانت السنة الثانية والثلاثين بعد التسعماية والألف لميلاد المسيح أقول : عند ما أبرق هؤلاء لسماحته وهو يرأس المؤتمر الإسلامى الأول فى العالم الإسلامى إذ ذاك ، ينتدبوننى ممثلا لهم فيه ، كان ذلك أول عهدى بالتعرف شخصيا على سماحة المفتى الأكبر ، وأما التعارف الغيابى والـكتابى فقد سبق ذلك بسنين ، ولعله يذكر أن مراسلات جرت بيننـــا أيام وجودى فى مدينة بونس ايرس عاصمة الأرجنتين فى جنوب أمريكا ، وكان هو يدير الثورة على السكسون فى سبيل الوطن المقدس ، وكنا نتغنى بأمجاده فى الأندية والمحافل تحت سماء العالم الجديد .

كنت يومذاك أى لدى انتدابى ممثلا لجمعيات المجاهدين العرب : التعاضد الإسلامى فى بونس ايرس والاتحاد العربى فى ديتريت مشغن ، والعصر الجديد فى مشغن ستى من أعمال نيويورك . وكان زملائى لشهود هذا المؤتمر فى دار واحدة : العلماء الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء ، والشيخ أحمد رضا ، والشيخ سليمان الظاهر ، وكنت برغم شبابى العارم وتأثرى بالحياة الأمريكية أبكر فجر كل يوم للصلاة والدعاء تحت قبة الصخرة فأجد سماحة محاضرنا اليوم ورئيس المجلس الإسلامى الأعلى يومذاك قد سبقنى إلى التهجد فى تبكيره ، وأذكر مرة واحدة دخلت القبة مبـكراً فلم أجده ولدى انتهائى من الصلاة خرجت وإذا به يفاجئنى صاعداً على السلم المتصل بدائرة القبة يقفزه مثنى وثلاث فلم أشأ أن أصرفه عن وجهته بالتحية ولـكنه لحظنى فسبق إليها .

أكبرت هذا الرجل يومئذ وأخلدت إلى نفسى بالاطمئنان على جدارته أن يقود العالم الإسلامى تحت لواء جده محمد منقذ العالم من ظلمات الجهل المطبق ، وكنا نحسب أنه وهو يدير عدة أحزاب سياسية واجتماعية ؛ وعدة مجالس دينية ومدنية ، ويقود ثورات على المستعمر والغاصب ، ويشغل الصحف العالمية وإذاعات العالم شرقه وغربه ، كنا نحسب

أنه من طراز ساستنا العرب الذين لا يهمهم فى الحياة غير البذخ والقصف وإشباع الأنانية من ألقاب فارغة وشهوات جامحة ، حتى إذا بلوناه إذا هو كجده الحسين بن على بن أبى طالب، أو كجده الأعلى على أمير المؤمنين ، يطلب الخلافة ليعزز بها الدين ويطلب المنصب ليقتص فيه للحق من الباطل . وإذا به كجديه هذين يمنى بمنافسين يحملهم الجشع والحسد وحب الدنيا على أن ينصبوا له المكايد ويعتصموا لإشباع جشعهم منه بالأجنبى المستعمر ، وإذا به كجده الأول مظلوما مقهوراً مغصوبا حقه ، وإذا به كجده الثانى مشرداً عن وطنه وأهله قليلا أعوانه كثيراً أخصامه .

ثم لا نزال نراه حيث حل وأينما نزل ، مثلا أعلى لإباء النفس والجهاد المر والخلق الهاشمى النبيل ، لا نزال نراه أبعد ما يكون عن الصلف والخيلاء والمكر والدس كما هو خصمه ، لا نزال نراه يعمل نهاره وليله أنشط ما يكون عاملا لأمته وبلاده كأنما هو سيد أولى الأمر فى حكمها والهيمنة عليها ، ويعمل لدينه كأنما هو خليفة جده على أمته من بعده ، لا يأتمر قوم لهم وجهة إلى الحق إلا وكان المجلى الأول فى مؤتمريهم ، ولا يرتفع علم لمؤسسة تهدف إلى الحق إلا كانت يده واضعة الحجر الذى يقوم عليه أساس البناء ، ثم لا تتألف جامعة لدين أو سياسة أو نفع اجتماعى عام إلا رأيناه بذلك الوجه الصبوح مشرق الروح ناصع الجبين .

هذا هو الحاج أمين الحسينى الزعيم الدينى المدنى فى العرب المسلمين ، هذا هو المجاهد الذى أحدث فى العالم دوياً لا يزال ولن يزال مثالا يتأثره كل عامل مجاهد مخلص ، هكذا أحببت أن أقدم بين يدى تعليقى على محاضرته فى ندوة الأصفياء المنعقدة فى منزله الكريم بمصر الجديدة ، والتى أفاض بإلقائها دموعنا وأثار كوامن الألم فى نفوسنا وتركنا نذكر الحياة التى مرت بأمة العرب وبالمسلمين أيام تقهقرهم ونهش الكفر والإلحاد أعراضهم ، وتولى زعانف الأمة قيادتهم ، أسأل الله أن يحفظ السيد المحاضر ليصون أمته ويعمل بكل ما أوتيه من قوة على حفظ دينه وتعزيز أمجاده .

نقاش وتعليق

إن عنوان العصبية اليهودية عند أبناء صهيون تسميتهم الدولة اليهودية الناشئة « باسرائيل » ولم أجد من يصمهم بذلك ممن ينسب التعصب لهم ، وقد أحسن صاحب السماحة المحاضر فى إغفال كلمة إسرائيل فى محاضرته فانها كلمة جليلة القدر فى القرآن فاطلاقها عليهم يشعر بتعظيمهم ، لذلك نرى الصحف العربية جائرة على نفسها إذ تردد كلمة إسرائيل دون أن تعلم ما لهذا اللقب من عذوبة ووقع حسن على مسامع اللصوص من هذه الأمة ، فعلينا ألا نذكرها إلا بلفظ الصهيونية أو اليهود المذمومين والثقيلين على السمع .

يصيب سماحة المحاضر فى أن عدوان بريطانيا للإسلام ناشئاً عن التعصب الدينى ، وهكذا قد نجد القول مجديا فى نسبة ذلك إلى إيطاليا وفرنسا وأسبانيا فى عدائهم للإسلام ، ويمكن حمل الدول اللاتينية فى جنوب أمريكا على ذلك ، وأما شمال أمريكا القائم فى الولايات المتحدة وكندا فلم أتحسس من النعرة الدينية فيه لشدة ايغالهم فى التحلل من الدين واعتناق المذهب المادى دونه ، حتى رأيتهم يطبقون الدين على المادة كما نطبق دين الإسلام على العلم أو نطبق العلم عليه .

فعدوان أمريكا لنا بعيد عن تأثرها بالدين ولعل أمريكا الشمالية أخس من أن تعتصم بدين فان الأديان السماوية مقدسة فى نظر الإسلام وأين هؤلاء من قدسية الدين ؟ ؟ ان من يمعن فى دراسة هذه الأمة ويحسن التغلغل فى نفوس شعوبها يجد الروح الدينى مقهوراً بسلطان المادة على النفوس حتى ليشعر بأن الرقيق الأبيض عنوان مدنيتهم القائمة على الخضوع للشهوات .

فليس من الصحيح فى نظرى أن ننسب العصبية فى الدين إلى الشعب الأمريكى دافعا لما قاموا به من ظلم العرب فى قضية فلسطين ، ولكن النسبة فى ذلك إنما تصح إذا عزوناها إلى استخذاء الأمريكان لليهود من وراء سيطرة هؤلاء على المادة المعبودة للشعب الأمريكى ، ثم من وراء تأثرهم بالبريطانيين الذين أحكموا الدس والتضليل فيهم بالدعاية القائمة على الخداع والمكر وادعاء القربى فى العنصرية من قبل .

فالأمريكى سهل الانقياد للسياسة بالدعاية والاستهواء ، أما الدعاية ففى أيدى اليهود

لأنهم يملكون الصحافة والسينما والاذاعات ، وأما الاستهواء فبالمال والفسق لأنهم يملكون التجارة « والبورص » مصدر الصيارف وهل المادة شيء وراء ذلك كله ؟ ؟

لقد شاهدت بنفسى أن كل نوع من التجارة منوط بمصدر واحد يهيمن عليه يهودى فإذا كنت تاجراً فعليك أن تستمد قوتك فى التجارة من هذا المصدر ، أذكر أنى مررت بمدينة فيلادلفيا سنة ١٩٤٩ وتفقدت بضعة نفر من أبنائنا المهاجرين كنت قد اتصلت بهم فى زيارتى الأولى للولايات المتحدة منذ عشرة أعوام ، وهذا النفر من صميم العرب فى لبنان وهم من أهل جبل عامل الذى هو أعرق اللبنانيين فى العروبة .

سألت عن هؤلاء فهديت إلى متجر كبير يستوردون منه فلما دخلته وسألت عنهم تلقانى صاحب المتجر بوجهه الباش وأكرمنى ثم قال : هم جميعا يعملون عندى وأغلب الظن أن بعضهم يرد على اليوم فإذا أحببت أن تنتظر بعض النهار فربما زارنا واحد منهم أو أكثر ، فصممت على ذلك ولما أدركتنى صلاة العصر طلبت منه الخلوة إلى نفسى للوضوء والصلاة فأمن ذلك لى بكل ترحاب ، ولشدما كنت ذاهلا بعد حديث تبادلناه عن فلسطين إذ عرفت أنه يهودى وأن أبناءنا المسلمين العرب فى هذه المدينة عيال عليه جميعا .

وقبل ذلك بسنين قليلة مرت بى فترة وأنا فى مدينة ديترويت مشغن فى عشيرة تبلغ الآلاف من قومى العرب لبنانيين وسوريين وقد تبلغ ثروة بعضهم ملايين الدولارات ، كان يردنا إذا ذاك بعض الوطنيين من فلسطين أو سوريا باسم الثورة على اليهود أو باسم المؤسسات العربية ، ونعقد الحفلات فى سبيل الغوث لهم والتعزيز لما يقومون به من عمل صالح فكنا كثيرا ما نصطدم بتكتم بعض المتبرعين من مهاجرينا لهؤلاء المشردين تكتما يفضى بهم إلى أن يجودوا مغفلين أسماءهم خشية أن تنشر فى الصحف العربية هناك ، وسألت سبب ذلك ، فقيل لى : انهم مدينون لليهود فى تجارتهم فلا يجرؤن على نشر أسمائهم فى لوائح التبرع للعرب ضد اليهود خشية أن يحرموهم من وسائل النجاح فى تجاراتهم .

هكذا كنا نجد العرب الذين يسبقون الشعب الأمريكى فى الجرأة والتضحية ، فما بالك بالأمريكى الذى لا يفقه من الحياة الا اشباع نفسه العارمة بالشهوات حتى ساد فيهم المثل

القائل : «الحياة سيارة جميلة ومال وافر » وأكبر برهان على بساطة الشعب الأمريكى هو سيطرة اليهود فيه على العلم والمال ووسائلهما ، ثم سيطرتهم على أهل البلاد من وراء ذلك باستعباد الساسة القائمين على الحكم ، وهم بضعة ملايين فى شعب يناهز مائتى مليون إنسان .

ينقل لى بعض المهاجرين العرب عما بلغ اليهود فى سيطرتهم على الشعب الأمريكى إلى حد أن مدينة « انديانا هاربر » تبلغ نفوس أهلها مائتى ألف ليس فيهم إلا يهودى واحد هو حاكم المدينة ويكاد يكون حاكمها المطلق بما يؤثر ويهيمن ، فما هى هذه العصبية الدينية التى ننسبها إلى هذا الشعب الخامل فى تفكيره السياسى والدينى ؟ ؟ إنهم أجراء لليهود وعبيد عندهم ولكنها عبودية مادة لا تعرف الخضوع إلا للشهوات التى طبعهم اليهود عليها بطابع الخدعة والاستهواء من وراء الأقلام والأفلام ، وأذكر أن دورة انتخابية مرت بى وأنا فى نيويورك نجح فيها مرشح اليهود تحت تأثير شراء الضمائر ، وقد عرفت من بعض المهاجرين أن اليهود أنفقوا فى سبيل إنجاح هذا المرشح أربعة عشر مليونا من الدولارات ، هذه أمريكا ، فأين نذهب نحن العرب فى لبنان بلد الاشعاع فى الأمة العربية إذ نصم شعبنا الفقير المسكين بأنه تأثر أيام الانتخابات بالرشى وشراء النفوس ؟ ؟

فالساسة الأمريكان إنما جاروا على العربى من وراء تهالكهم على المادة التى استعبدهم بها اليهود وأما الشعب الأمريكى فانما اندفع وراء ساسته بدافع التضليل من وراء الدعاية التى يسيطر عليها اليهود حتى كانت الصحف الأمريكية أيام حرب اليهود مع العرب ولعلها نشرت يوم فاجعة « دير يس » صوراً لرجال عرب بشكل وحوش يحملون أطفال اليهود على رءوس الرماح ، والشعب الأمريكى لا يفقه فى منطقه غير الصحف برهانا يخضع له .

فأين التعصب الدينى حيال هذا كله عند أمة تدين بالمسيح ربا وتعتقد أن اليهود هم الذين صلبوا هذا الرب ؟ ؟ ولعلى إذا ناقضت نفسى فى القول على المسيحى الأوروبى وأنه لا يدين اليوم بغير المادة التى لا تناهض النصرانية فحسب وإنما تصفع المسيح صفعا ، أقول : لعلى إذا ناقضت قولى السابق ، مصيب فى ذلك لما نرى من سيطرة المادة عليهم اليوم ، فما هى هذه العصبية عندهم وهم يعملون على تدمير بعضهم بعضا حتى سمعنا ورأينا

فظائع الحربين القائمتين بين النصرانى والنصرانى على الهمجية فى القمع والتدمير اللذين لا يقف الضمير الإنسانى فى تصورهما عند حد .

فالنصرانية التى هى مقدسة عند الإسلام والتى حجر القرآن بها على المسلم أن يستحل مال الكتابى أو دمه أو عرضه ، هذه النصرانية أسمى وأبعد من أن يتصف بها الغربى اليوم سواء كان أوروبيا أو أمريكيا ، فان هذه النصرانية تستلزم فى أهلها المحبة والرحمة والزهد والورع والسلام التى هى صفات المسيح وأين هذا كله أو بعضه أو ما يشير إليه من بعيد أو قريب فى أمة عيسى اليوم ؟ ؟

الغربيون أخس وأقصر من أن تتسع صدورهم لتعاليم عيسى أو موسى ، كما أن الشرقيين عربا أو مسلمين أخس وأقصر من أن تتسع صدورهم لتعاليم محمد ، عنيت بذلك الساسة المسيطرين من الشرق والغرب ، هؤلاء الذين لا يتورعون ، فى سبيل شهواتهم عن أن يشيدوا بالأنبياء والرسل ، وأن يتباروا فى تقديس النواميس العليا التى دعا إليها موسى وعيسى ومحمد ، حتى إذا خولتهم الشعوب قيادتها ، وأمكنتهم من سياستها ، أمعنوا فى النهش من قدسية الرسل وانتهاك حرمة ما جاءوا به من شرائع ، بين يدى نفوسهم المرضى بالأنانية والجشع حرصا على الحياة الدنيا .

ثم إذا وصمنا الغربيين بالتعصب لدينهم ونحن واثقون من أن تعصبهم هذا قد أفضى بهم إلى التعالى علينا والسيادة فينا والكيد لنا والنقمة منا ، وإذا رأينا أن عصبية اليهود لدينهم أفضت بهم إلى تأسيس ملك واستعادة مجد وتعزيز قوة ، إذا كان ذلك كذلك ، فأين مكان الوصمة منهم ؟؟ أفلا يستحقون الحياة فوق مانستحق ونحن نتسامح فى ديننا ثم لم نجد عاقبة هذا التسامح الا التقهقر والخذلان والا النصب والحرمان ، وإذا كررنا اللحظ قليلا فى تاريخنا رأينا أن أسباب العز التى كنا نرقى بها إلى تعزيز ديننا وأوطاننا ، وتشييد قوميتنا وأمجادنا ، رأينا تلك الأسباب قائمة على العصبية للدين الحق والاحتفاظ برسالة سيد العالم محمد الذى يتمنى أهل الأرض وسكان السماء بعثه فيهم بينما نحن راغبون عنه زاهدون فيه مستخفون برسالته ساخرون من شرعه .

هذه عصبيتهم لدينهم قد أدت بهم إلى أن يملكوا أمرنا ويبسطوا سلطانهم علينا ويستعبدوا نفوسنا ويستعمروا بلادنا ، فأين عصبيتنا التى ملكنا بها أرضهم ، وهيمنا بها عليهم ثم فرضنا بها على كل ذى امرة فيهم أن يعطى الجزية لنا عن يد وهو صاغر .

ألا تدلنى ياسيدى على الإسلام الحق فى حاكم واحد يسيطر على العرب والمسلمين اليوم ؟ فاذا كان أحد الساسة منا قائما بما يفرضه عليه دينه من نصرة أخيه والتماس النجاة له ، والجهاد فى سبيل اعزازه ، فلماذا إذن نجد المغرب الأقصى يرسف فى قيوده ويتخبط فى دمائه تحت وطء الاستعمار الأفرنسى ؟؟ ثم لماذا نجد المستعمرات البريطانية فى أطراف الجزيرة العربية وهى بين سمعنا وبصرنا تقاسى ضروب العسف والارهاق من ظلم السكسون وهضمه ؟؟ ثم لماذا نرى مليون لاجىء فلسطينى يأكلون التراب ويلبسون الذل بينما يتمتع اليهود فى بلادنا ويمتصون دماءنا ويبتزون أموالنا وهم علة العلل فى غصب فلسطين منا وتأليب العالم الغربى علينا ؟؟

وإذا لم يكن فى الشرق حاكم عربى أو مسلم يعتصم برسالة محمد أو يتعصب لها عصبية يصدق الظاهر فيها الباطن ، فلماذا نعيب على الغرب عصبيته لدينه والعمل على تعزيز مجده وتوفير كرامته ؟؟ فلنتعلم من اليهود عصبيتنا لديننا ولنأخذ دروسا من مسيحيى الغرب فى تعصبنا لقوميتنا ، فإن السكسونى يضع نصب عينيه سكسونيته قبل مسيحيته واللاتينى يضع بين عينيه لاتينيته قبل نصرانيته ، وهكذا نجد السلافى والاغريقى والقبطى والسريانى والفينيقى كل أولئك يضعون عناصرهم والعصبية لها فى المنزلة الأولى من نفوسهم ، ثم لا يتورعون عن التضحية بمسيحيتهم فى سبيلها إذ يرون هضم العناصر لها وجور الجيرة عليها .

وهكذا نجد التركى والعربى والفارسى ، والأفغانى والباكستانى والأندنيسى ، وغير أولئك من عناصر الشرق المدعين عراقة الإسلام فيهم ، نجدهم يخفون لتضحية إسلامهم فى سبيل قوميتهم ايان يرون الأنانية فى بعضهم تزاحم أنانيـــة البعض الآخر ، دون أن يرجعوا فى دفع الضيم عنهم وتعزيز الحياة فيهم إلى رسالة نبيهم وتشريع ربهم القائم على الحق والسلام فى العالم .

نجد كل مدع عراقة الاسلام فيه يفزع كلما عضه الجشع الأنانى وأعوزته النعرة القومية أو القبلية ، يطرح إسلامه ويهجر كتاب ربه ، ويستخف برسالة نبيه ليقيم بهذا الاستخفاف وتلك الأنانية أود الشهوة البهيمية فيه ويشبع سعار نفسه الأمارة بالسوء . إذن فليس الغرب دون الشرق ولا الشرق دون الغرب ، وليس أحدهما فوق الآخر فى قضية الدين والعصبية له ، انهم على السواء فى تضحية الدين على مذبح الأنانية فردية أو جماعية .

وليطمئن صاحب السماحة وكل عربى فى أن مساعدة الأمريكيين وغيرهم من شعوب العالم لليهود لم تنشأ عن غيرة المسيحية على اليهودية كما أسلفنا من أن المسيحيين حتى الكهنوت منهم فى أمريكا وغيرها إنما هم عبيد الدنيا ، والدنيا هى السياسة ، والسياسة العالمية اليوم فى قبضة اليهود حتى الزعماء منا ، ولو شئت لدللت المحاضر الكريم على أشخاص من أولى الأمر فينا لا يزالون يرئسون حكومات ويؤلفون أحزابا ويملكون التشريع فى مجالس التمثيل وهم صنائع اليهودية وقد أشرت إلى فريق منهم فى كتابى «وحى الرافدين» .

أقول ليست هذه المساعدات لليهود مسببة عن تأثر النصرانية باليهودية وإنما هى ناشئة عن تضامن اليهود وإرهابهم للقادة العالميين فضلا عن قادتهم ، وليس قتل الجنرال موين الوزير الانكليزى المفوض فى القاهرة وقتل برنادوت مندوب هيئة الأمم فى القدس وجلد الضباط البريطانيين قبل خروجهم من فلسطين . أقول : ليس ذلك بخاف على العالم وأنه من إرهابهم وأن هذا الإرهاب قائم على أساس متين من القوة التى يأسرون بها العالم.

بهذه القوة الارهابية يخضعون الأثرياء من الصهيونية لمطالبهم ثم يخضعون الأثرياء من العالم لمطالب الصهيونية ، إنى لأعلم جيدا أنهم أخضعوا صحافتنا البارزة لدعاياتهم بالاعلانات فقط ، فقد أسسوا شركات للاعلان العالمى طوقوا به أعناق الصحافة فى كل قطر من الأرض فما فى العالم صحيفة كبرى إلا ولهم فيها حقل يخدم غايتهم ويعمل لتنفيذ مآربهم .

فماذا فعل العرب والمسلمون تجاه ما يهددهم به ابن هخت كما يقول المحاضر ؟ ؟ أفلا يستطيع اليهود احتلال المدينة المنورة وهدم الروضة النبوية ووطء المنبر وتدمير الحرم

القدسى : بل انهم يستطيعون فعل ذلك ثم لا يستطيع العرب والمسلمون أن يفعلوا شيئاً لأنهم ليسوا عربا ولا إسلاما ولأن الاباء والحمية والغيرة رأس ماتتقوم به العروبة ، ولأن التضامن والمحبة والتضحية رأس ما يتقوم به الإسلام ؛ وهؤلاء الذين يقودون أمة العرب ويهيمنون على بلاد الإسلام أخس وأحط وأدنى من أن يثوروا لكرامة أو أن يشعروا بوجود .

ان زعماء العرب الذين ضحوا بفلسطين أمس ويضحون بالمغرب العربى اليوم وقد ضحوا بالأندلس من قبل ، هم أحقر من أن تأبى نفوسهم الذل أو أن تشمخ أنوفهم للعز ، وان قادة المسلمين الذين يسمعون بتحطيم اليهود وأعوانهم من الغرب كل شعار إسلامى فى فلسطين والمغرب العربى ثم لم تثر فى نفوسهم حمية الاسلام ، هم أحط وأخزى من قادة العرب بين يدى رسالة منقذ العالم محمد .

لسوف يملك اليهود السيطرة على البحرين الأحمر والأبيض ويقطعون الصلة بين شرق الإسلام وغربه ، ولسوف يملون إرادتهم على العالمين الاسلامى والعربى ما دام القادة من هؤلاء مأجورين للصهيونية أو لحماتها من عبيد الشهوات : مال وجاه وفسوق ، أفلا يحقق ذلك ما نراه وهو بعض ما لا نراه ولا نشعر به من إعدادهم القوة ظاهرة وخفية حتى ملأوا جوهم وبحرهم وبرهم بالسلاح القاصف والصواعق المدمرة والزلازل الهزامة . بينما نحن عاكفون على الخطط التى ينتقم بها بعضنا من بعض ، الخطط التى يضطر كل منا فى سبيل تقريرها للاعتصام بالصهيونية أو أعوانها كما فعل ملوك الطوائف أبان الهلكة التى قضت على ثلث العرب فى الغرب أيام الأندلس إذ كان ملوك الاسلام يحالفون فرديناند فى سبيل تناحرهم وهو يقضى عليهم ملكا ملكا حتى أبادهم وعادت بلاد الأندلس التى مر بها خمسة قرون وهى تنشر مدنية الاسلام وتبعث نور الحق والعلم فى العالم عادت إلى ظلامها الرهيب ؟ ؟

ولنعد إلى فلسطين وأهلها لنرى قول صاحب السماحة : « نحن أعظم الناس مصيبة » ، هذا القول الذى شافه به أعلام المسلمين فى أندنيسا تحت سماء « باندونج » ماذا فعل أهل فلسطين بعد أن رأوا ملوك العرب وقادتهم يساومون اليهود على بيع ديارهم

واسترقاق نفوسهم ؟ ؟ هل عملوا على الثأر من كل قائد أو زعيم أو ملك أو مأجور عمل على تحطيم حياتهم ؟؟ فأين الثورات التى ينتقمون بها من اليهود وعملائهم العرب والمسلمين ويقضون بها مضاجع القادة العرب الذين ينعمون بمتع الحياة بين قصفهم ولهوهم فى الحين الذى يرى الفلسطينون أنفسهم يموتون تحت وطء الجوع والبرد والذل ! هل يموتون إذا ثاروا ميتة أحسن من هذه الميتة ؟ ؟

يستطيع الفلسطينيون أن يجندوا مائة ألف إنسان لا يرى غير الموت فى سبيل عزه وكرامته وهذا العدد وحده يقوى على هز العالم الذى لا يهتز إلا للقوة ، فيضطروا بذلك قادتهم وقادة العالم إلى النظر فى مخرجهم من حظائر الهون لا أن يخضعوا للذل والمسكنة فيضطروهم للنظر فى استجداء العالم عطفا عليهم ورقة لهم ، فيقطعوا سنين طويلة قابعين فى زوايا البؤس ينتظرون الموت بالأمل والرجاء من قادتهم الموتى وملوكهم العاكفين على الخطط المرسومة : كيف ينتقم بعضهم من بعض لا كيف ينتقم هذا من عدوهم للبعض الآخر .

قد يقول قائل : وماذا يفعل الفلسطينيون وهم موزعون مضروب على أيديهم من حكومات العرب الذين لجأوا إليهم ، وهذه الحكومات مأخوذ عليها أن تخضع لهيئة الأمم المتحدة ، فهم بين نارين نار الحديد العربى من جيرانهم ونار الحديد الأجنبى من أعدائهم ، قد يقول ذلك قائل ما . . . وما أسرع من أن يجاب : ليكن ذلك ماسيكون ؟ لتعمد الحكومات العربية إلى تأديبهم ، وليكن منهم لهذه الحكومات ما كان منهم لليهود فإنها أولى بالثورة عليها من صهيون .

وأية حكومة من حكومات العرب تعمد إلى تأديب الثائرين لوطنهم وكرامتهم من عدوهم ؟ أسوريا تعمد إلى تأديبهم أم مصر أم الحجاز أم العراق ؟ لا . . لن يعمد إلى تأديبهم أحد أللهم إلا رجل عزيز على العرب وحظى عند ملوكهم ألا وهو الجنرال كلوب الذى كان ولا يزال صديقاً مخلصاً لإسرائيل والذى أرسخ أقدامه فى شرقى الأردن لينتهى من أداء رسالته ألا وهى : تسليم فلسطين بكاملها لليهود خالية من أهلها ، تلك هى رسالة تشرشل الذى عهد للقائد كلوب بأدائها كاملة غير منقوصة .

الذى أعتقده أن حكومات العرب إذا فوجئت بجيش فلسطينى ثائر ستعمل إلى تهديده ثم إلى تحذير الغرب منه وأنها لا تستطيع قمعه ، وأن ثورته طبيعية وأنه معذور فى أن يثأر لوطنه وشرفه وأن غاية ما تستطيعه حكومات العرب إخراجه من أرضها وليس له مخرج منها إلا فلسطين وليكن هنالك اشتباك بين الجيش الثائر وبين اليهود فإما أن يهلك هذا الجيش وتهلك من ورائه حكومات العرب أو أن يدفع ثمن الخزى والعار تضحية بدمائه وهذا كله هو الذى ينبغى أن يكون .

أما أن نصبر ونصبر ونرقب العدل من ترومان وتشرشل ، والانتقام لنا من أبطال العرب فهذا هو الأساس الذى يبنى صهيون قلاعه وحصونه على أنقاضه ، وهذا هو المطال والخديعة والمكر الذى دبروه ليلهو الأمة العربية به ريثما يقوى اليهود ويستطيعون دفع العرب عنهم وإنزال الهول والرعب فيهم ، وقد كان ذلك فليحصد العرب ما زرعوه من تهاون وتخاذل وتنازع ، فليحصدوه اليوم خوفا وحسرة وندماً .

إن الهدنة الأولى فى فلسطين مع اليهود ، هذه الهدنة التى أماتت عزتهم وأحيت كرامة صهيون ، هذه الهدنة التى خرقها اليهود بمقتل برنادوت واعتصم العرب عن الثأر له استخذاء لعدو العروبة الأول أمريكا وبريطانيا ، أقول : هذه الهدنة هى التى غرست طريقهم إلى عزة الإسلام وشهامة العرب حديداً من حسك الفولاذ مرصوداً بالوقيد الأزرق لا يطيقون وطأه حتى يشيب صغيرهم ويهرم كبيرهم تحت ظلال الأسنة وعلى رؤوس الحراب .

يقول سماحة المحاضر : إن أحد قادة الألمان قال له أثناء الحرب العالمية الثانية إذ عرض عليه صاحب السماحة اخلاص المسلمين فى المغرب العربى على أن يمنحهم محور برلين روما استقلالهم بعد الحرب ، قال له الألمانى : لقد أخذنا رأى الغربيين من أصدقائنا فى ذلك فحذرونا منه وقالوا أن أوروبا بأسرها تخشى الإسلام فوق خشيتها من الشيوعية .

إذن ياسيدى فلماذا لا يستحيل العرب والمسلمون شيوعيين ليصبحوا عدوا مزدوجا للغرب ؟ ؟ ما الذى يحول بيننا وبين الشيوعية إذن ؟ ولماذا لا نجيب نحن ذلك والألمانى بقوله معكوسا : أنا نخشى الديموقراطية فوق ما نخشى الشيوعية فإذا كان مصيرنا على

أيدى هؤلاء ما ترى فى المغرب العربى اليوم وما رأينا فى فلسطين بالأمس فأى مصير أسوأ من هذا ينتظرنا على أيدى الشيوعين ؟؟ وهل جربنا الشيوعية كما جربنا الديموقراطية لنرى أيهما أرأف بنا وأعطف علينا ؟ ؟ وهب أن هؤلاء كهؤلاء فما الذى يدعونا لأن نتمسك بالولاء لإحداهما دون الأخرى .

لماذا نجبن أمام الواقع الذى يقرر مصيرنا ونحن أمة لها عددها اليوم وتاريخها بالأمس أفلا يستطيع خمسمائة مليون مسلم ومائة مليون عربى أن يفرضوا على الغرب شيئاً مما فرضه اليهود عليهم وهم بضعة ملايين ؟ ؟ وأى سفيه يقول : أن خمسمائة مليون فقير جاهل لا يقوى بإيمانه على ابتلاع مليون من شذاذ الآفاق لا يمتهنون إلا الدس والكيد والخسة والاحتيال ؟ ؟ أى سفيه يجرؤ على القول : انا ضعفاء وقد ملكنا الأرض وهيمنا على العالم يوم كنا أضعف وأقل وأجهل وافقر نبعث الرعب فى العالم باسم محمد . . فلنخجل ولنصمت إلى الأبد . . .

المحاضرة السادسة عشرة :

حياة المحاضر



فى سيرة حياة هذه الفتاة عبقرية نادرة لولا أنها ابنتى لأفضت فيها ولكنى أترك القول عليها إلى كتاب أكثر مناسبة فى القول من هذا الكتاب .

اجمال القول الموجز فى سيرة حياتها : إنها درست فى مدارس إسلامية تحت سماء لبنان ثم فى مدارس أجنبية ولكنها لم تتأثر فى حياتها بدراسة أى معهد تأثرها بمدرسة أبيها التى حجرت عليها برضى منها أن لاتترك محفلا أو ناديا أو مجتمعا أو موضوعا دخل فيه إلا وكان همها الأول أن ترافقه إلى الورود عليه والصدور عنه ، فهى لا تفكر فى ملهى أو مقهى أو مسرح أو مطمح ما دام أبوها لا يفكر فى شىء من ذلك .

وهى الوحيدة من بنات حواء التى اعتنقت فكرة الأصفياء فى تعزيز ندوتهم واسهمت معهم فى الغاية التى من أجلها كانت الندوة منذ وردت مصر وعرفت الحياة على ضفاف النيل .

المحاضرة السادسة عشرة

مشاكل المرأة العربية

القتها بنفسها على أعضاء الندوة المنعقدة فى دار جمعية العلماء الجزائريين
فى أول شهر يولية سنة ١٩٥٥

تجتاز المرأة العربية اليوم أدق المراحل التى عرفتها فى تاريخها القديم والحديث ألا وهى مرحلة التكوين . فهى الآن تنفض عنها غبار الجهل والرجعية وتسعى لتكوين نفسها من جديد كانسان مستنير له قيمته ومركزه وأهميته ، هذه الأهمية المنبثقة من صميم الواقع وقلب الحقيقة وأعماق نهضتنا العربية الكبرى التى لا يمكن أن تتم وتتحقق أهدافها وتعطى ثمارها المرجوة إلا إذا ساهمت المرأة فيها بنصيب كبير ،فشملت هذه النهضة المرأة والرجل على السواء واحتضنت الاثنين بمستوى واحد وغذتهما معاً بمقدار واحد .

والمرأة كما لا يخفى هى مرآة الأمة وقد قيل هذا منذ القدم . ونحن اليوم نستطيع أن نقول إنها أم الأمة وصانعة الأجيال التى تلونها بلونها الخاص وتطبعها بطابعها .

والمرأة العربية بالرغم من أهميتها هذه بالنسبة لمجموع الأمة ، تلاقى مصاعب ومشاق عظيمة فى نهضتها ومحاولتها التخلص من بقايا الماضى المظلم ، من بقايا الأيام التى كانت الأمة العربية قد نسيت نفسها فيها فوقعت فى وهدة من الجهل والشقاء تحطمت فيها المرأة أكثر مما تحطم الرجل وتجرعت من مرارتها أكثر مما تجرع هو .

أقول أن المرأة تلاقى مصاعب ومشاق فى نهضتها هذه ، فهى وحدها فى الميدان وأمامها سيطرة الجهل والرجعية وليدة العصور المظلمة .

والرجعية هى أولى مشاكل الجيل العربى الصاعد ، والعقبة الكأداء فى سبيل تقدم المرأة بصفة خاصة ، لما لها من مساس قوى بحياتها ، إذ قيدتها بتقاليد رثة بالية أفقدتها كثيرا من سعادتها ومواهبها .

وبالرغم من جهاد المرأة للتخلص من هذا السم البطىء ، وبالرغم من العقبات التى تلاقيها فى هذا الجهاد المر نراها ما زالت أسيرة الرجعية إلى حد كبير . وأقول هذا وأعنى المرأة العربية بصفة عامة فى كل أنحاء الوطن العربى الكبير ، لأن العادات فيها واحدة تقريبا والتقاليد واحدة والتشدد فى تقييد المرأة فيها إلى درجة حرمانها من العلم على وجه العموم أو إنالتها النزر اليسير منه وذلك بسبب اهمالها أى إهمال المرأة من جهة وبدافع الرجعية الفتاكة من جهة أخرى .

ومنهم من يفعل ذلك بحجة الدين ، والدين من ذلك براء ، والشريعة السمحة تقول لنا إن العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة ، والاسلام هو الذى رفع مستوى المرأة وهو الذى حررها من الجهل والعبودية ، والقرآن الكريم غنى بالآيات التى تدل على ذلك والأحاديث الشريفة مفعمة بهذه المعانى ، وما كانت المرأة منحطة جاهلة فى العهد العباسى الزاهر بمدنية الإسلام ولا فى الأندلس .

وهذه العقلية الرجعية التى حرمت المرأة من العلم بوجه عام ومن مساواة أخيها فيه نسبياً ، قد خلقت مشكلة أخرى للمرأة هى عدم انسجام عقليتها مع عقلية زوجها وعدم تفاهمهما وإختلاف نظرتهما للحياة وما يترتب على ذلك غالباً من خلافات بينهما وشقاء للمرأة والأسرة كلها ونتائج قاسية كثيرا ما يكون منها الإنفصال .

والرجعية ، هذه ، الكلمة البغيضة إلى كل عربى متوثب نحو النور ، هى متشعبة المعنى كثيرة النواحى تكاد تكون متسربة فى حياة المرأة تسرب الماء فى الطين ، تتحكم لا بحياتها الداخلية والخارجية فحسب ، بل تتحكم حتى فى لباسها وحتى فى تفكيرها وحتى فى الهواء الذى تتنفسه إذ لا يزال غطاء الوجه باسطا سلطانه فى حياة المرأة العربية على العموم فى كل أنحاء وطنها الكبير لدرجة أنه يوجد قانون فى بعض البلاد العربية يفرض على المرأة المواطنة فيها وهى تلبس العباءة التى تطمرها من رأسها لأخمص قدميها ، تفرض

عليها إذا كشفت وجهها أمام رجل من غير محرمها أن تجلد وهى موضوعة داخل كيس مقفل عليها بابه . لذلك كثيراً ما تراها محتفظة بغطاء وجهها حتى أمام النساء لشدة الخوف .

وهذا الحال يوجد ما يماثله أو يقرب منه فى كثير من بلاد الجزيرة العربية .

وفى بلد عربى آخر تفتخر المرأة الشريفة بأنها لم تخرج من بيتها كل حياتها حتى إلى بيت أهلها مهما عمهم من مصائب أو أفراح إذ أن مصطلح المرأة الشريفة عندهم أن لا تخرج من بيتها كل حياتها سوى مرتين الأولى لبيت زوجها والثانية إلى القبر. هذا مع العلم بأن المرأة هناك على العموم تلبس ما يشبه الإحرام تلف به كل جسدها بما فيه رأسها ووجهها عدا ثقب صغير لعين واحدة تتبين منه طريقها . هذا إذا خرجت مضطرة ولم تتمسك بقانون الشرف .

هذا فى البلاد العربية التى لم تقطع شوطاً كبيراً فى ميدان الرقى . وأما فى البلاد العربية المتمدنه نسبياً ، فيؤسفنا جداً أن نرى الحجاب أحيانا يرافق المرأة حتى إلى الجامعة فيكبت شعورها الزاخر بكرامتها وتوثبها نحو النور .

كل هذا يرتكب فى حق المرأة باسم الدين والدين أسمى من ذلك إذ لم يرد فيه اثبات يحتم حجب المرأة بهذا الشكل الذى هو وأد لهذا العنصر الهام فى حياة الأمة . وإنما هى الرجعية ، وليدة العصور المظلمة .

وكما أسلفت ، أن المرأة جاهدت ولا تزال تبذل الجهد للتخلص من قيود الرجعية هذه . المقيتة ولكن مع ذلك وكما بينا ونحن نبسط حالها ، لا تزال هذه القيود بكل معانى الرجعية العديدة ، تكون لها مشكلة هامة انبثقت عنها عدة مشاكل حساسة ، أولها جهلها على العموم وانحطاطها بالنسبة للرجل .

ونعرف فداحة هذه المصيبة إذا عرفنا تماماً وقدرنا جيداً أن المرأة مرآة الأمة والمدرسة الأولى للنشء وصانعة الأجيال ، وأنه ليس من الممكن بحال من الأحوال لامرأة مكبلة بالقيود أن تصنع رجلا حراً .

ومهما تحدثنا عن الرجعية البغيضة وأطلنا الحديث ، فإننا لا نستطيع أن نلم بكل نواحيها العديدة المتشعبة التى يدركها كل ذى نظرة عميقة واعية للحياة ، وخاصة ما يتعلق بالمرأة منها ويكون لها مشاكل تعرقل سيرها فى الحياة الكريمة المجدية .

ولا بد لإخواننا المنصفين المتنورين من الرجال أن يعترفوا بتخبط المرأة فى دياجير الرجعية ولا أقول عذابها لأن من غمره الظلام فمنعه عن رؤية النور لا يشعر بشقاء العيش فيه . وأما تلك الفئة من النساء التى كتب لها أن تبصر النور ولو إلى حد ما أمست تحس بذلك الظلام الخانق فشعرت بكرامتها وحقوقها بالحياة ، فجاهدت وضحت فى سبيل هذين الشيئين لدرجة كبيرة ، حتى إننى أعرف فتاة جامعية من بلد عربى متمدن اضطرت إلى النشاز من زوجها وتطليقه بعدالزواج منه بأسبوع واحد لا كتشافها رجعية فى أهله تفرض عليها أن تقبل يدى أبيه وأمه صباح كل يوم وأن لا تخرج إلا بإذن ذلك الأب مرفوقة برقيب خاص حتى اضطرت إلى تحطيم حياتها بالطلاق حرصاً على كرامتها وحريتها . وهذا بعد أن قضت طيلة الأسبوع الذى مكثته عند زوجها تقنعه بأن يخرج على هذه العادات الرجعية أو يفارق أهله فلم تفلح .

هذه واحدة من مآسى الرجعية الكثيرة الضاغطة على المرأة والمتغلغلة فى حيانها تتحكم حتى بتفكيرها . ولطالما سمعت أنات تلك النساء الموهوبات الخصبات الفكر شعراً أو نثراً اللواتى حرم عليهن نشر أفكارهن فى الصحف لا لشىء إلا لأن التقاليد الرجعية لا تسمح بذلك .

وأعرف شاعرة رقيقة اضطرت للطلاق من زوجها وتحطيم حياتها لمنعه لها من نشر شعرها الذى كان قد جرى ينبوعه عندها رقراقا صافياً منذ حداثتها ، ولكن صخرة الرجعية عند زوجها وأهله من ورائه أبت إلا أن تكبت هذا الينبوع فلم تجر مياهه العذبة فى أنهار الصحف ولا اغترفت منها النفوس المتعطشة إلى الفن والحياة .

وأنا بهذا لا أحبذ هذه التضحية من المرأة ولا أدعو للعمل بها ، ولكنى أبين بعض ما فى الرجعية من المشاكل التى ترهق حياة المرأة العربية .

وإننى بكلمة « رجعية » لا أعنى فيها القدم أو معنى القديم بحد ذاته كما قد يتسرب إلى الأذهان وقد تشوش معنى الرجعية الأصلى ونحن نجتاز الزمن من عهد إلى عهد ، وكاد يضيع هذا المعنى بين من حملوا راية الغرب وتطرفوا فى التجديد فشنوا الغارة على كل ما هو قديم مهما كان نافعاً مفيداً صفا جوهره وكرم أصله فسموه بالرجعية . كلا إننى

لا أقصد هذا ولم أقصد يوماً أن أنحو نحو أولئك المتمغربين الذين تنكروا لكل قديم حتى ما أورثنا أياه جدودنا من أمجاد وما زرعوه فى دمائنا من مزايا سامية . بل تنكروا حتى للغة العربية نفسها وحتى للروح الإسلامية بل حتى للدين الإسلامى من أساسه ، تنكروا لكل هذه الأشياء القدسية فى جريهم وراء الغرب الأهوج الجامح :

كما أننى لا أقصد بالخلاص من الرجعية أن تعتنق المرأة التجديد بكل معنى الكلمة ، فلقد فقد التجديد والتقدم معناهما الأصلى الجميل فى غمرة دورنا الانتقالى هذا وأصبح وبالا على المرأة فى أكثر نواحيه ومشكلة قائمة بذاتها . فلقد جنى علينا مجتمعنا بأخذه من مساوىء الغرب أكثر من محاسنه فابتليت المرأة بالأباحية عند أكثر شبابنا تعترضها كيفما دارت وأنى اتجهت فتمس حشمتها وكبرياءها وعزة نفسها .

وبالرغم من ادعاء هؤلاء الشباب بأن المرأة هى سبب هذه الأباحية بما تلبسه من أزياء فاضحة ، فإن الوقع يكذبهم فما هذه الأباحية إلا نتيجة هذا السيل الدافق من الراقصات المستهترات الذى تدفق علينا من الغرب فتمركز فى المراقص والمسارح وغيرها من المجتمعات ليعرض الأجساد الرخيصة التى تعيش على حساب أعصاب الشباب العربى ، ونتيجة تلك الأفلام المفضوحة التى دهانا بها الغرب لتعطينا التسلية التافهة على حساب أخلاق الشباب العربى ، وأخيراً نتيجة صحافتنا الماجنة التى تساهم فى تدمير أخلاقنا وقتل القيم المعنوية فينا بما تملأ به محورها من رسوم النساء المستهترات ومن المواضيع المسفة التى تتحدث بلغة العواطف المكشوفة ومن الكتابات النابية التى لا تتصل بواقعنا المر من بعيد أو من قريب ولا تشعرنا بمأساتنا القومية التى نعانى آلامها .

هذه الألوان الغربية من الحياة التى قبلناها ومشينا على وتيرتها فتفشت فى جميع نواحى حياتنا فصرنا نراها حتى فى الإعلان الذى لم يعد يصلح إلا بعينى المرأة أو صدرها أو ساقيها ، وحتى فى الحفلات الرسمية الجدية التى تتقدم فيها الراقصة شبه العارية لتعرض حركاتها أو أغانيها على الحاضرين .

هذه الألوان الأباحية وغيرها كثير مما لا يتسع المجال لتعداده كالسباحة المختلطة على الشواطىء وفى مسابح النوادى وكالرقص المختلط وغيرهما ، هى التى أفسدت أخلاق

الشباب وليس لباس المرأة العصرية الفاضح أو غير الفاضح كما يدعون إذ هو جزء من كل أراده هو لها ، وسعى هو لايجادها فيه تحت تأثير الروح الغربية النابية .

وكان فساد الشباب هذا وبالا على المرأة ومشكلة لها ، إذ وقفت حائرة بين أن تصمد أمام هذا التيار وتحتفظ بشرقيتها المحتشمة فتخسر تقدير الشاب العصرى لها وتنعت بالرجعية وبين أن تخوض معه بحر هذه الحياة الاباحية فتتعثر بالعقبات الأخلاقية وتسقط لدى كل واحدة منها ، فتتجرد من فضيلتها التى هى عنوان الأنوثة السامية فيها والسعادة المثلى .

وهذه الروح الاباحية قد أوجدت فى خلق الشباب العربى أمراضاً شكلت مشاكل هامة فى حياة المرأة . أولها داء العزوبة الذى عم أكثر شبابنا لتحررهم من قيود الأخلاق هذا الداء الغربى الوبيل الذى عاث فساداً فى مجتمعنا فأثقل حياة المرأة وكثيرا ما جعل منها وهى فى عنفوان الشباب زوجة لكهل تمرضه أو لشيخ عجوز تئد حياتها فى حياته.

وكانت عاقبة هذه العزوبة من الناحية المادية والأخلاقية أليمة مرة للمرأة . فاضطرت أن تحمل ما يحمل الرجل من مشاق تحصيل العيش فكان حملها أثقل من حمله وجهادها أمر من جهاده حيال تكوينها الرقيق وأعصابها الضعيفة وظروفها الدقيقة الخطرة .

والمرض الثانى الناتج عن الاباحيه والذى يشكل مشكلة أخرى فى حياة المرأة ، هو هذه الميوعة الأمريكية فى الكثير من شباب العرب التى جعلتهم يأخذون بتوافه المدنية الزائفة فخولتهم حق الزينة والتبرج وجعلت جل همهم لبس الألوان الصارخة والتحلى بالسلسلة الذهبية الدقيقة الصنع ومضغ اللبان فى الشوارع والعبث البارد السخيف . هذه الميوعة جعلت الشاب يجبن أمام الحياة فيدين بالزواج المادى ويفتش عن الزيجة الرابحة ليمد يده للمرأة وقد وضع رجولته وراء ظهره ليقبض منها ثمرة جهودها وكدها وعرقها مما اضطر المرأة للجر فى الكسب وطلب الوظيفة .

والوظيفة هى مشكلة المشاكل فى حياة المرأة .

وهذان الأمران ، عزوبة الشباب وماديتهم ، هما السبب الأهم فى طلب المرأة للوظيفة .

والحديث هنا سيطول ويطول عن هـذه المشكلة الـكبرى التى هى مشكلة المجتمع وليست مشكلة المرأة وحدها ، إذ تحرم عـدداً كبيرا من الرجال العائلين من أسباب العيش. وهى تجنى على المرأة إذ تجهد أعصابها على العموم وتثقل حياتها بما تحمل ظروفها الدقيقة من أخطار .

وهى تسمم حياة المرأة المتزوجة بما تخلفه لها من مشاكل داخلية فى بيتها وإرهاق قاتل حيال إدارة منزلها أو الاشراف عليه على الأقل ، ورعاية زوجها وأطفالها وتربيتهم التربية الصحية والنفسية والأخلاقية الصالحة التى تصلح معها الأمة ويسعد الوطن .

ولعمرى ، إن هذه الواجبات لينوء بحملها الرجل نفسه مع واجبات الوظيفة وهو المتين التـكوين القوى البنية ، فكيف بالمرأة ، ذلك المخلوق الرقيق وهى تدير هذين العملين الجبارين ؟ . . .

ولابد فى هذه الحال أن تكون النتيجة رجحان كفة أحد هذين العملين على الأخرى فيبدو قصور المرأة فى إحداهما أو أنها ستعجز عنهما الاثنين إذ لا يستطيع أحد أن يدير عملين كبيرين متباينين فى وقت واحد ولا أن يحيا حياتين معاً مختلفتين كل الاختلاف .

ومهما تحدثنا عن مشكلة الوظيفة بالنسبة للمرأة وعن المشقات التى تعانيها بسببها وهى تجمع بينها وبين المنزل فإننا لا نوفيها حقها الا بالصفحات العديدة . ولقد طالما استغرق هذا الموضوع أحاديث المتحدثين وكتابات الـكتاب كما أنه كان قد سبق أن أذعت بهذا الموضوع براديو مصر والشرق الأدنى فاستغرق معى الأحاديث الطوال .

ومن مشاكل المرأة العربية الـكبرى مشكلة الاختلاط . فمن المؤسف أننا رغم بلوغنا هذا الحد من التقدم ، لانزال نعد الاختلاط مشكلة نشغل بها تفـكيرنا وصحفنا ومجالسنا والأدهى من ذلك أننا نبحث فيها على أساس جواز الاختلاط أو عـدمه لا كيف يجب أن يكون هذا الاختلاط وعلى أى أساس . ومن المؤسف أيضاً أننا وجدنا الرأى العام فئتين فقط لا ثالثة لهما . والاثنتان لم تستطيعا أن تحلا المشكلة وتنظما الاختلاط على أساس من الفائدة الجمة والفهم الصحيح . فتطرف كل منهما فى طريقه حتى ابتعـد عن الحل الوسط القائم على العلم الصحيح ، والفهم للحياة ، والتربية القويمـة التى تقف بصاحبها ضمن دائرة الشرف والأخلاق .

وترى المرأة تتأرجح بين هاتين الفئتين واحدة تشدها إلى الوراء متزمتة فى عزلها عن الرجل فتحرمها من العلم العالى وحتى المتوسط أحيانا اذ تبالغ فى التشدد كما تحرمها من الاجتماعات النبيلة الغاية الجليلة المبدأ التى تصقل فيها النفس وتسمو الروح التى من شأنها أن تميل بالمرأة عن طريق العبث واللهو فى تيار المدنية الحديثة إلى الحياة المستقيمة المجدية .

ورأينا الفئة الأخرى تطلق لها حرية الاختلاط كاملة بدون أى قيد عرفى أو عقلى فتنطلق مع الشاب الذى أعمته أباحية الغرب تتعثر بالعقبات الأخلاقية فى كل خطوة تخطوها معه .

ولا تزال المرأة تعانى آلام هاتين الفئتين ضائعة الفكر بينهما تنتظر ذلك المصلح أو المصلحة التى ستهب يوما فتتجرد من شرقيتها القديمة الرجعية ومن غربيتها المتطرفة وتنادى بأروع ما يبهر الفكر من محاسن مدنية الغرب وأسمى ما يغنى النفس من التراث الشرقى القديم فتبثه فى النفوس وتطبع به الأرواح فى حركة قوية شاملة تفهمنا المغنى الأصلى للاختلاط وتعلمنا الأخلاق القوية التى لا يخشى معها من الاختلاط مهما عم وانتشر .

وهناك مشكلة كبرى فى منتهى الأهمية من مشاكل المرأة العربية ألا وهى تعدد الزوجات والطلاق . هذان الشيئان اللذان يعنيان بالنسبة للمرأة تدمير حياتها وشعورها وكل أحاسيسها .

وأنا لا يسعنى أن أتحدث عن نشوء هذه المشكلة وهى تتصل بالدين الإسلامى اتصالا وثيقاً ، وإنما أستطيع أن أعد الإشكال فيها عدم فهم أكثر إخواننا الرجال للدين فهما صحيحاً وعدم عملهم به على حقيقته وهم يكررون هذه المآسى غير حاسبين لحياة المرأة حسابا ولا لعواطفها .

والمرأة تطالب رجل الدين بحل المشكلة وإفهام الرجل جيداً أن الطلاق أبغض الحلال إلى الله وأن تعدد الزوجات ليس معناه ارضاء أهواء الرجل عندما تميل مع كل ريح .

وأخيراً هناك المشكلة الكبرى ، مشكلة العصر ، ألا وهى حق المرأة فى الانتخاب . وهذه المشكلة طالعنا بها القرن العشرون بما فيه من وعى نتيجة تيقظ الفرد وشعوره بكرامته الإنسانية ، ومن تطرف نتيجة ضلال هذه المدنية فى كثير من النواحى .

والمرأة وهى تطالب بحقوقها السياسية « كاملة غير منقوصة » على حد تعبير الهيئات النسائية التى تطالب بهذه الحقوق ، هذه المرأة وقفت أمام رقصة الانتخاب هذه حائرة فى كيفية نيلها وفى إيجاد الطريق إلى كراسى البرلمان . وسعت المرأة للوصول إلى ذلك الطريق وجاهدت وضحت ، وهذا كله يعنى مدى شعور المرأة بكرامتها الإنسانية التى تأبى عليها أن تحكم فى هذه الحياة بدون أن يكون لها رأى فى انتخاب الحاكم الذى سيدير دفة حياتها ويتحكم بمستقبلها .

هذا من جهة كونها ناخبة وهى محقة بذلك . فالعقل والمنطق يعطيانها هذا الحق وقد تنورت ووعت وأمست تشعر بالإهانة وهى ترى الرجل الأمى يفضل عليها فيه .

ولكن الجهة الثانية التى تصر المرأة على المطالبة بها وهى أن تكون منتخبه ، فهذا من التطرف بمكان . ولعمرى لو أن المرأه أدركت ما فى ذلك من ضرر لها وارهاق لحياتها وهى مكلفة بإدارة الأسرة وتحمل مشقات إنجاب النشء وتربيتهم ، ولو أدركت ما فى عملية الترشيح من متاعب وفوضى فى الدعاية ومنافسة الخصوم ، هذه الأشياء التى ستنوء بها حياتها المثقلة بواجبات العائلة ، بل أنها لو أدركت وقدرت أهمية هذه الواجبات التى يترتب عليها راحة الفرد وسعادته التى تنبثق عنها راحة الأمة وسعادتها ، أقول لو أدركت المرأة كل هذا جيداً إذن لتنازلت عن المطالبة بكرسى البرلمان بل لابتعدت عنه كل الابتعاد ، إذ أنه كما كنت قدمت ، لا يستطيع أحد أن يدير عملين كبيرين فى وقت واحد ولا أن يحيا حياتين معاً مختلفتين كل الإختلاف .

وهنالك من يقول أننا لا نستطيع أن نعتبر كل امرأة أما أو زوجة أو ربة بيت ، فهنالك نساء لم يكتب لهن الزواج وإنشاء الأسر ولكن هذا القول ليس له مكان من المنطق فى حالة الجدل أو الاعتراض على الصورة التى نرسمها للمرأة وهى أم وزجة وربة بيت فكل ماعدا هذه الصورة نادر شاذ والشاذ لا يقاس عليه .

ولكن هنالك ثغرة نستطيع أن ننفذ منها إلى حالة خاصة بالمرأة تصل إليها فى ظرف معين وهذه الحالة هى سن الكهولة التى تفرغ فيها المرأة تقريباً من مهمتها الكبرى فى إنجاب النشء وتربيتهم ، فتزول هذه الأعباء الكبيرة عن عاتقها عند ذلك فقط وبعد

أن تكون قد تجاوزت المرأة الأربعين نستطيع أن نسمح لها بدخول البرلمان وقد نضجت عقلا وخبرة ودراية بذلك الواجب المقدس الذى ستقوم بأعبائه. واجب سياسة الأمة وادارة أحوال البلاد فى التمثيل النيابى ، ثم بعد أن تكون قد توارت عن جمالها وشبابها وتواريا هما عنها هذان اللذان لا بد أن يسببا لها مشاكل ومتاعب تؤثر على تلك الأمانة التى فى عنقها ألا وهى وظيفتها فى البرلمان .

وأخيراً ، فإن المرأة رغم كل شىء لا تزال تعمل جاهدة على التخلص من مشاكلها بمساعدة المتنورين الواعين من إخواننا الرجال وبفضل تلك النفحات الطيبة التى يجود بها علينا الزمن من السيدات النادرات الوجود المفعمات بالروح ، يقدن الحركة ويوجهن الخطوات ويحملن مشعل النهضة أمام الصفوف .

النقاش

بدأ النقاش الدكتور على عبد الواحد بالثناء الطيب على المحاضرة قائلا : الحق إنا لم نكن نترقب أن تقول هذه الفتاة فتحسن القول فيما تهدف له من موضوع لا يتسنى لكثير من القائلين الإحسان فيه .

ومع ذلك فإن لى عليها بعض اللحاظ .

أولا : نقمتها على العادات والتقاليد الموروثة عند المسلمين فى تحجيب المرأة ، وفرض الطاعة عليها لزوجها ولأهله إلى حد تقبيل اليدين والرقابة عليها إذا خرجت ، والحياة معهم كما تقتضيه العادات المتبعة وماذا علينا من هذه التقاليد إذا كانت تراثا لنا مشى عليه آباؤنا منذ قرون أفلا يجمل بنا أن نفتخر بها ؟

ثم قال : وهكذا نستطيع أن ننكر على الآنسة زعمها أن من المنكر حجب المرأة حتى لا تخرج من بيتها طوال حياتها إلا مرتين إحداهما عند الزواج إذ تغادره إلى بيت زوجها والثانية إلى القبر ، وماذا على المرأة من هذا إذا كانت هذه الخطة مرسومة فى سجل تقاليدنا الموروثة ، فأين مشاكل المرأة هنا ؟ أرى أن ليس فيما قدمته الآنسة المحاضرة لنا أية مشكلة من مشاكلها .

ويتلقاه الشيخ محمد المدنى بأن القرآن ينعى على الإنسان خضوعه للعادات الموروثة إذا لم تبن على الحق إذ جاء قوله عز من قائل فى معرض النعى على ما نتخلق به : إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون قل أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يفقهون » فبالرغم من أنى لا أوافق الآنسة على كل ما جاء فى كلمتها الموفقة أنكر على الدكتور إنه كثيرا ما يفهم خطأ ثم يبنى نقاشه على ما فهم .

ويرده الدكتور فى أنه قيد إنكاره على الآنسة فى أن التقاليد لتكون متبعة يجب أن لا تخالف الدين ، فيجيبه الشيخ البشير الأبراهيمى ولو لم تعارض الدين نراها سخيفة فى مجتمعنا الإسلامى الذى يحترم المرأة ويجعلها غير بعيدة عن أخيها الرجل .

وينكر الشيخ أحمد الشرباصى على الآنسة تظلمها للمرأة فى الكويت إذ تجلد لمجرد سفورها بعد أن توضع فى كيس يقفل عليها ، زاعما أن وضعها فى الكيس لا للمبالغة بالجور عليها وانما للخشية من أن يظهر جسمها للنظر وهى تجلد .

تعليقان صغيران

قدمهما الأستاذ إبراهيم الفلالى خطيا حيث انفض عقد الجلسة
فى ساعة متأخرة لم تتسع لتلاوتهما

أعتقد — وتعتقدون معى — أيها السادة ، أن الله تعالى لم يبعث الرسل ، ولم ينزل الأديان إلا لحفظ المجتمعات البشرية من اغتيال الوهم ، والجهل ، والخوف ، والمرض ، والفقر ، وكل الأوبئة الفتاكة التى تفتك بالانسانية فتكا ماديا أو أدبيا . ليحيا الانسان صحيحا سليما ، كريما قويا ، مهيمنا على نفسه وعلى الكون الذى يحيط به . ومن مميزات الاسلام الكبرى حثه على التفكر ، والتبصر ، والتدبر ، فى كثير من الآيات القرآنية الخالدة . لأن فى التدبر والتفكر والتبصر إقناعا للعقل بالدين يزيد فى الاقناع الوجدانى به .

فإذا كشف لنا علم بأن العسل بيئة غير صالحة لحياة المكروب . وبأن فى التراب عنصر « الأوتومايسين » المطهر . كما جاء فى محاضرة الدكتور عدلى أباظة — آمنت عقولنا إيمانا علمياً بالحكمة الإلهية التى جعلت لنا فى العسل شفاء ، وفى التراب طهورا لأن السر فى ذلك قد كشف عنه العلم فازداد وجداننا إيمانا بالدين الذى نتمسك به ولانحيد عنه . ونلقى فى سبيل التمسك به والدعوة إليه ما نلقى . وبذلك يضع العلم بأيدينا سلاحا جديدا نذب به عن الإسلام . ونقمع به الجاحدين والمكابرين . ومن هنا أيضا تنكشف لنا الحكمة فى التيمم عند فقدان الماء .

وما العلم ؟ أليس هو ثمرة التفكر والتبصر والتدبر الذى حثنا الله عليه ؟ والله يقول : « هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » ؟ فإذا عللنا الأوامر والنواهى لم نخرج عن الدين وإنما نحن نتبع فى ذلك لباب الدين . يقول الله تعالى وهو خير القائلين : « من يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا » وإذا لم تصل عقولنا إلى الحكمة فى أمر أو نهى دينى ، فعلينا أن نتهم عقولنا بالكلال والتقصير ، ونستحثها على البحث ، والتنقيب حتى نصل إلى العلة الصحيحة لما شرع الله من أوامر ونواهى ، لا أن نقول

إنها أمور تعبدية علينا أن لا نعللها لنحتفظ بقداستها — كما يقول الدكتور على عبد الواحد وافى — ان الاحتفاظ بقداسة الأوامر والنواهى الدينية يتجلى فى بحثنا عن أسرارها ومعرفتنا لحكمة الله المنطوية فيها . يقول الله تعالى : « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد » ؟

أفيرى الدكتور أن الله يرينا آياته فى أنفسنا وفى الآفاق دون أن نطلق لعقولنا حرية التفكير ؟ ! وإذا كان يرى ذلك — ولا أعتقد أنه يراه — فما فائدة العقل الإنسانى ؟

إن الله لم ينعم علينا بنعمة العقل عبثا « سبحانك ما خلقت هذا باطلا » أودع الله فينا العقل ليقوم بوظيفته حتى يصل إلى غايتها . فإذا حلنا بين العقل وبين وظيفته فما الفارق بيننا وبين الأنعام ؟ علينا أن نعلل كل الأشياء بالعلل الصحيحة التى يهدينا إليها العلم الذى هو ثمرة التفكر والتبصر والتدبر الذى أمرنا الله به ، ولنقدس العلم إذا أردنا أن نحتفظ بقداسة الأوامر والنواهى الدينية . وذلك أفضل العبادات ، وأحبها إلى الله .

هذا ما عنّ لى أن أعلق به على مناقشة الدكتور على عبد الواحد وافى لمحاضرة الدكتور عدلى أباظة .

أما مناقشة الدكتور وافى لمحاضرة الآنسة سلوى الحومانى فلى عليها تعليق صغير أيضاً : ذلك أن الدكتور على عبد الواحد وافى يرى فى مناقشته ، أن التقاليد التى يقرها المجتمع ليست مشاكل ، وما دامت متفقة مع الدين لا يحاربها . وعلى ذلك يرى أن التقليد الذى يقضى بتقبيل زوجة الإبن يد أبى زوجها ليس مشكلة ، وأن الدين لا يحارب ذلك . ونحن معه فى ذلك — جدلا — ولكن الآنسة تقول إن إصرار الزوج على ذلك ، وإصرار الزوجة على عدم تقبيل يد أبى زوجها كل صباح أدى الى تطليق الزوجة من زوجها ولم يمض أسبوع على زفافها .

أفيرى سيادة الدكتور إن التقاليد — إذا أقرها المجتمع — لا يحاربها الدين ولو أدت إلى تحطيم الأسر وتخريب البيوت ؟ أو أن الدين لا تهمه هذه المشاكل فهو لا يعنى بها ؟

أظن أننا متفقون على أن الدين لا يهدف فى تشريعاته إلا مصلحة الفرد ومصلحة الجماعة فإذا أدى الجمود على التقاليد السخيفة والتعصب لها حتى يتحلل المجتمع من أقدس روابطه، أفلا يكون ذلك أمرا من الأمور التى لا يقرها الدين .

لا شك أن هذا التقليد وغيره من التقاليد السخيفة التى يحاربها الدين لأن المرأة تنوء تحت وطأتها . والدين أشفق بالمرأة من أن يتركها ألعوبة فى أيدى الجاهلين والمتعصبين والسخفاء بل الدين يحاربنا إذا لم نحارب كل تقليد سخيف لا يتفق مع كرامة الإنسان رجـــلا كان أو امرأة ، ان الدين لا يقف حجر عثرة فى سبيل ما يحفظ لنا الكرامة الإنسانية بل يحارب كل من يعوق المجتمع الإنسانى عن التحرر من جمود الجامدين وتعصب المتعصبين . ليظفر الإنسان بمجتمع سليم فى تفكيره ، فى تقاليده ، فى عقيدته ، فى مسلكه .

أما تشبثنا بالتقاليد البالية من فكرية ، واعتقادية ، ومسلكية ، فهو تشبث بالأغلال والقيود التى ما أنزل الله بها من سلطان .

ولقد رأينا كيف عاقنا التشبث بكل سخيف فى التفكير وفى المعتقد وفى المسلك ، عن الوقوف على أقدامنا فى زحمة الأحياء ، بينما الانطلاق من التقاليد والرواسب والمعوقات ، والتحرر من الخوف ترك غيرنا يحطم الذرة ويحطمنا معها .

إن تشبثنا بتقاليدنا فى التفكير هو الذى جعلنا لا نفهم ولا نطيع أمر الله فى قوله تعالى : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل » وهل القوة إلا ثمرة العلم؟ وهل العلم إلا ثمرة التفكير الحر المنطلق من كل الرواسب والمعوقات ؟ ؟

وما دمنا إلى اليوم نحظر على المفكرين تعليل الأوامر والنواهى الدينية بحجة أنها أمور تعبدية يجب أن نحتفظ بقدسيتها . ونقول أن إقرار المجتمع لتقليد من التقاليد ليس مشكلة . فمتى يا ترى نطلق أفكارنا للتدبر والتبصر والتفكر فى الكون الكبير الذى يحيط بنا ؟

ومتى نصل إلى اكتناه الأسرار وتسخير مكنوناته لصالحنا كما أمرنا الله ؟

أيروق للدكتور أن تظل أفكارنا وعقولنا كالمواد الخام حتى يأتى من يتنبه لها ويستغلها لمصلحته ؟ كما ظلت كنوزنا المذخورة فى أرضنا حتى جاء من سرقها منا ؟

وإلى مى نبقى كالأطفال نكتفى بما يقدمه لنا السارق من لعب وحلوى وزخرف وزبرج مكتفين بذلك فرحين به ؟

ألم يعلم الدكتور الفاضل أنه بحجة الأمور التعبدية والاحتفاظ بقداستها وبحجة التقاليد التى أقرها المجتمع ، حرمت فى بعض المجتمعات علوم وفنون ؟ ومن تقاليد بعض المجتمعات تحريم الانتفاع ببعض مستحدثات العصر النافعة ، ومن تقاليد بعض المجتمعات تحريم تعليم المرأة ، ومن تقاليد بعضها تحريم لبس القبعة والزى الافرنجى الذى أصبح زيا عالميا يتلاءم مع ضرورات الحياة — فى الحل والترحال — ! !

أيعلم الدكتور — وهو لا شك عليم — إن من مناسك الحج الإحرام وهو تجرد الرجل من المحيط والمخيط ، أما المرأة فاحرامها كشف وجهها ويديها ، وإذا سترت وجهها فعليها الفدية ، ولكن التقاليد حرمت على المرأة كشف وجهها حتى فى أداء مناسك الحج ؟ ألا يعلم الدكتور أن من التقاليد التى تتمسك بها بعض مجتمعاتنا تحريم رؤية الخطيب لخطيبته حتى تزف إليه ؟ مع أن الدين يأمر برؤيتها ، وناهيك بما ينشأ من عدم الرؤية من مشكلات . .

أفيرى سيادة الدكتور فيما قدمته له من هذه النماذج التقليدية أنها ليست مشاكل ، أو أن هذه التقاليد لا يحاربها الدين ؟ أو أن الذين نبذوا تلك التقاليد ليسوا مسلمين ؟ صحيح إن علينا ألا نتخلى عن كل تقليد أصيل ليس فيه معوقات تعوقنا عن السير فى قافلة الأحياء ، وكذلك علينا أن ننكر لكل تقليد دخيل يتنافى مع الخلق الفاضل . ولكن أغلب التقاليد التى تقرها مجتمعاتنا — اليوم — متوارثة توارثاً أعمى . فعلينا ألا نتقبلها تقبلا أعمى وإلا انطبقت علينا حجة المتشبثين بما ورثوه عن آبائهم وهى حجة الكافرين التى قصها علينا القرآن الكريم فى قوله تعالى : « إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون » .

وأخيرا لنتخذ من القرآن الكريم نبراساً نستضىء به فى حل مشاكلنا . وألا نتخذ من التقاليد حجة ، وإنما الحجة أن نفهم ديننا الحنيف فهما سليما من الرواسب التى ورثناها من عصور الظلمة .

والله نسأل أن يلهمنا السداد والرشاد فى الأقوال والأعمال ، إنه على كل شىء قدير .

تعليق المؤلف

إنى لأغفل فى هذا التعليق مجابهة الدكتور على عبد الواحد بالحقيقة المؤلمة حرصا على وقار الندوة وسجلها القائم على الصفاء بين يدى إخلاصنا للأجيال المقبلة من الأبناء والأحفاد ، من أجل هذا سوف أغضى فى هذا التعليق وما بعده عن ذكر السيد الوافى حتى نختم العام الأول من تأسيس ندوة الأصفياء برسالتها إلى العالم فى مشكلات العروبة والإسلام .

وسيكون لنا فى العام الثانى منهج آخر فى تنظيم الندوة وإنتاجها من جديد فيما ينفع الإنسانية عامة والعرب المسلمين خاصة وهو قريب انشاء الله إذ لم يبق لانتهاء عامها الأول أكثر من شهرين نختم بهما على ما كان ثم نبدأ ما يكون .

لقد أنهت الآنسة المحاضرة مشاكل المرأة إلى اثنتى عشرة مشكلة فى نظرها ، وهى تزعم ان ليست هذه مشاكلها فحسب وإنما هى أهم المشاكل التى تمنى بها المرأة العربية ، ونحن إذ نحاول بحث هذه المشاكل لا يسعنا إلا التسليم بوجاهة أكثرها فى نظرنا ثم نناقشها بالتعليق على القليل منها :

أولها الرجعية : وتعنى بها جمود الرجل فى طريق تقدم المرأة لتكون مساوية له فى العلم المفروض عليهما معا . وهذا حق لأن ظلم العربى قبل الإسلام وبعده للمرأة ظاهر محسوس بينما نرى الدين الإسلامى واساها به فى تلقى العلوم والفنون ولم يعتبره أكثر منها إنسانية .

وتعليل الآنسة عدم الإنسجام بين الزوجين بتعليم الرجل وإهمال المرأة وهو مايتسبب عنه تعدد الزوجات وكثرة الطلاق هو تعليل أقل ما يقال فيه انه حق وإن المحاضرة قد أبرهت بذلك عن فكر نير ورأى أريب فانا لا نجد الشاب المثقف حائراً فى بيته قلقا فى عمله إلا من وراء حرمانه الزوجة التى تشاركه الرأى والبصر فى الحياة ويكاد يكون ذلك مفقوداً فى عالمنا السقيم عالم العروبة الذى سن وأد البنات قديما وحديثا حرصا على العرض ولم يتأثر محمدا بسن العلم لها وله حرصا على ذلك العرض .

ثانيها الحجاب: وهومن أكبر مشاكل المرأة عندنا وقد فصلت المحاضرة فيه تفصيلا نقرها عليه وبرأت الدين منه على شكله الذى نراه وقد صدقت، فإن الدين ، وهو إنسانى،

أبعد الأشياء عن ظلم المرأة وعزلها عن المجتمع ، فالمرأة كالرجل مخلوقة لتعمل والعمل قائم على الحرية والانطلاق قبل أن يقوم على الكبت والعبودية ، فغطاء الوجه ولزوم البيت واعتزال المجتمع ليس من الدين فى شىء ثم ليس هذا مما يحول بين المرأة وبين شذوذها إن شاءت هذا الشذوذ ولكن الحائل الحق بينهما هو العلم المعزز بالدين .

ومما نقر المحاضرة عليه جعل التقاليد الموروثة فى الأسر مشكلة من مشاكل المرأة ، فما هو الدين الذى يوجب على المرأة أن تساكن أبا الزوج وأمه وأخاه وأخته وأخت أبيه ؟؟ فضلا عن عبوديتها لهؤلاء ولو كانت أسمى منهم فكرا وأثقب رأيا وأغزر علما ، وهل الدين يوجب على زوجتى المثقفة أن تقبل يدى أبى وأمى الجاهلين صباح مساء ؟ ؟ وهل يوجب عليها مساكنتى أم مساكنتهما ؟ ؟ اللهم إن هذا بهتان وتجن على الدين الإسلامى الطلق .

ومن هذا الذى نقر الآنسة عليه ونكبرها فيه نقمتها على تقليد المرأة العربية للمرأة الغربية فى زيها وزينتها وإباحيتها ، فإن للمرأة العربية خلقا وتراثا ودينا تتنافى مع زميلتها الغربية فيه ، لأن الأخلاق والعادات وليدة البيئة والمجتمع والعقيدة وليس من هذا شىء يوحد المرأتين شرقية وغربية .

وهكذا القول فى فساد الشباب الذى جعلته الآنسة مشكلة للمرأة فإنها ظل الشاب التابع له وشريكته فى الحياة ، ففساد الرجل يستلزم فساد المرأة كما أن صلاحه يقتضى صلاحها ، ومن فساده هذا ميوعته وتخنثه وعزوبته المزمنة وماديته .

وكذلك نجد وظيفة المرأة واختلاطها بالرجل الأجنبى وحقها فى الانتخاب ، نجد هذا كله من مشاكل المرأة على النحو الذى فصلته الآنسة المحاضرة ، وهكذا القول فى الطلاق وإنه مشكلة على الشكل الذى انحدرت المرأة معه من إنسان إلى حيوان ، ومن هو هذا المشرع الذى سن الطلاق دونما علم تحاط به المرأة أو شاهد عدل يقف مع الزوج بين يدى حاكم يفصل فى الأحكام ؟ ؟ من يقول: إن الله جعل الطلاق بيد الرجل الجاهل الأحمق ولم يجعله فى يد المرأة المثقفة العاقلة ؟ ؟

والله ، تعالى الله ، إذ يقول : الرجال قوامون على النساء إنما عنى بالرجال القوامين الذين يفهمون معنى القيامة على المرأة والذين أوتوا البصيرة فى رعاية المرأة ، أما هؤلاء الذين يتصرفون بالمرأة كما يتصرف النخاس بالرقيق ، وكما يتصرف الراعى بالسائمة فليسوا أهلا لأن يكونوا قوامين على النساء لأنهم ليسوا رجالا إذ لم يدركوا معنى الرجولة فضلا عن إحرازها فى صدورهم فهم بالحيوانات أشبه وإلى الجماد أقرب .

بقى أمامنا مشكلة المشاكل عن المرأة ألا وهو تعدد الزوجات ، وهذا ما نخالف المحاضرة فيه إذ جعلته مشكلة ولم تجعل عدمه مشكلة أكبر ، فإن تحديد الزواج بواحدة أكبر إشكالا من تعدده . لأن المفروض فى المجتمع الإنسانى ، وهو فرض لا ريب فى صدقه ، أن النساء دائما أكثر تعدادا من الرجال والآنسة المحاضرة تعترف بذلك ويقره المنطق والعلم ، فإذا كان هذا هو المفروض فأين يذهب الفضل من النساء إذا حجرنا تعدد الزوجات ؟ ؟

أما حجة الآنسة فى أن بلبلة الأسرة وجحيم الحياة بين الضرائر والزوج والغيرة التى تأكل قلب الضرة من ضرتها فتوغر صدرها بالحقد إلى حد لا تتورع معه عن أن تضر بالزيجة وأن أولاد الضرائر ينشأون أبناء علات ، فهذا لا يقيمها على عذر بين يدى ضرورة الحياة .

أما الغيرة فقد كنت فى أمريكا أرى عجبا من اتفاق الفتيات الصديقات على صديق واحد ما دام خيره عاما لهن ، أفيتفقن خليلات ويختلفن حليلات ؟ ؟ ولماذا ؟ ؟ لم ينشأ هذا الاتفاق بينهن إلا من توطين النفس على الخضوع للأمر الواقع ، فإن المرأة الأمريكية رأت أنه يستحيل عليها احتكار الرجل فتسامحت والرجل الأمريكى رأى أنه من المستحيل أن يحتكر المرأة ولو كانت حليلته فتسامح ، وأكاد أقسم بشرف الإنسانية أن اقتصار الغربى على زوجه أو الغربية على زوجها أندر من الكبريت الأحمر فى الغرب ولعله مفقود ثم لا نرى ذلك عندهم مشكلة اجتماعية ، حتى ان صديق المرأة ليزورها فى منزل زوجها والزوج معها وصديقة المرء تزوره فى منزل زوجته وهى معه ثم لا نجد ذلك مما يحجزه عندهم شرف ولا قانون ، أليس فى هذا تعدد زوجات عندهم ؟ ؟ وهل

المفروض فى المشكلة تعدد الزيجات أم تعدد الزوجات ؟ أليس كلاهما واحدا ؟ ؟ وما هو الفرق فى مجال الغيرة بين الحليلة والخليلة وبين الحليل والخليل ؟ ؟

فهل نرى لهذه المشكلة أثراً فى بلاد الغرب وأعنى بها أمريكا شمالها الراقى قبل جنوبها ؟ ؟ إن الحياة عندهم أسمى حياة عرفها الإنسان لونا وطعما وأن المرأة كالرجل عندهم كلاهما يشعر بجمال الحياة ما دامت الحكومة المهيمنة عليهم تضمن حياة الفرد من المهد إلى اللحد ، فالمرأة عندهم لا تقيم وزنا للحياة كيف تلد أو كيف تربى أو كيف تسعد وتشقى ، لأن ولادتها فى مستشفى الحكومة وولدها فى مدرسة الحكومة ثم هى إن شاءت ففى حوزة رجل أو إن شاءت ففى مصنع أو مزرع تعمل كما يعمل الرجل ، وإن عجزت أو تعاجزت عن هذا وذاك فهى فى كنف حكومتها تنفق عليها من بيت مال الأمة . أتسمعون ؟ ؟

لذلك فقدوا كل ما يقال له غيرة إلا النادر الذى هو الكبريت الأحمر ، هذا مثل أضربه للمحاضرة فى مدنية العصر الحديث ، وأما فى الدين فقد كان العهد الأول والذى يليه قائما على ذلك فلم نجد فى أولاد الإمام على الذين هم من عدة أزواج من يتنكر لأخيه وعلى العكس نرى العباس بن أم البنين ضحى بنفسه بين يدى أخيه الحسين ابن فاطمة ، وكذلك محمد بن الحنفية لا نشك فى اخلاصه لاخوته من أبيه .

وهكذا نجد فى وقائع العرب وملاحمها كثيرا من الأخوة أبناء العلات متضامنين فى الحياة ماداموا يرون أن ذلك مشروع ونرى كثيرا من الضرائر متفقات بعد أن خضعن للمنطق فى تعدد الزوجات وأطعن الله ورسوله فى كونه مشروعا ضروريا للانسان ، فتعدد الزوجات إنما شرع لكون المرأة أكثر عددا من الرجل ، أما أن يستغله هذا الرجل لمجرد شهواته فليس لنا أن نحاسبه عليه وانما حسابه على العدل أو الجور بين أزواجه .

ولماذا تجعل المرأة المثقفة زمامها بيد الرجل ولا تجعل زمامه بيدها ؟ فلقد واسى الشارع بينها وبينه فى جعل الطلاق بيد كل منهما فإذا رأت منه اعوجاجا فلتنبذه كما ينبذها إذا رأى اعوجاجا منها أو سولت له نبذها نفسه الأمارة بالسوء ، وأما أن المرأة قابلة للتشوه بدافع الولادة والحمل وأنها تشيخ قبله فما الذى يجبرها على الحمل والولادة ؟ ؟

ثم ما الذى يجبرها على أن تتزوج أصغر منها أو مقارنا لها ؟ ؟ فإذا كانت غايتها انجاب الأولاد، فماذا يهمها غيرهم فى الحياة ؟ ؟ وإذا كان همها احتكار الرجل لها فذلك خرق للطبيعة التى سنت لنا الحياة محبة وتزاوجا لا احتكار معهما ثم نزل الشرع لتزويد العقل بالحكمة والعلم ليحول بهما دون الجور فى تصرف الإنسان بالإنسان أيا كان ذكرا أو أنثى .

أمام الآنسة برهان على أن تعدد الزوجات لا يكون مشكلة للمرأة بل على العكس قد يكون تحديد الزواج مشكلة ، أقول : أمامها البرهان فى أوروبا وأمريكا حيث يحدد الزواج بواحدة ويكثر الزنا إلى حد لا يتصوره عقل ، أقول ذلك عن خبرة مارستها فى لندن وفى نيويورك وباريس ، فهل كان هذا حاصلا لو أبيح تعدد الزوجات ؟ ؟ وهذه ألمانيا بعد الحرب العالمية الثانية حيث كان يقابل كل رجل عشر نساء فارغات غصت أنديتها بجماهير النسوة يطالبن الحكومة بسن قانون يبيح لهن تعدد الزوجات ليخلصن من البؤس والتردى .

وهذه باريس بعد الحرب الأخيرة يقابل كل رجل فيها أكثر من عشر نسوة ، وباريس المعبر عنها قبل هذه الحرب بأنها ماخور الغرب . فماذا يعبر عنها بعد الحرب ؟ ؟ أما والله لقد شهدت بنفسى فى هذه العاصمة يوم وردتها من أمريكا عائدا إلى الوطن فرأيت الشبان العرب من طلبة العلم ينفقون جل وقتهم الثمين الذى يسلخه آباؤهم من صميم حياتهم البائسة ليوفروا لهم الراحة فى طلب العلم فإذا بهم يشترون الفساد والفسوق بما اقتصدوه فليس عجيبا أن يعود أبناؤنا هؤلاء وسيرتهم هى هذه التى تنعاها الآنسة سلوى علينا من جور وتخنث وميعان حتى أصبحت محاكمنا ودوائرنا تعج بهؤلاء الذين إنما درسوا فى الغرب ليعودا قادة محكمين فينا ، وإذا فسد المسيطر فماذا يحول دون الأمة التى يسيطر عليها أن تمعن فيها الفساد .

فلماذا نشأ هذا الفساد فى أخلاق الرجل والمرأة بين السين والتايمز من أوروبا وبين الشاطئ الفضى والمسيسيبى فى أمريكا ؟ ؟ أما روما وجنوى ونابولى وهن الجارات للفاتيكان مصدر اللاهوت المسيحى فقد مررت بهن أياما معدودة وكانت لهن فى نفسى ذكرى آثمة أليمة لا أنساها ما حييت .

فكم يربح الوطن ، وتنمو الأمة ، وتسلم على عاديات الزمن الموبئ لو تعدد الزواج وتحددت حرية المرأة بالانقياد إلى الزوج وقام الحكم على العدالة فى صون كرامتها وحفظ أسرتها ؟ ؟

يوشك النسل فى فرنسا وانجلترا وأمريكا أن يضمحل أو يتلاشى إذ لاتزيد المئة من الأنفس خلال مئة عام أكثر من نفس واحدة ، هذه بريطانيا وفرنسا وإيطاليا منذ قرن لم تزد نفوسها على واحد بالنسبة للمائة بينما نجد شعوب الشرق تزيد مائة فى المائة خلال قرن واحد ، ذلك لماذا ؟ ؟

وقد يتشدق الأهوج من متمغربينا بأن ذلك عائد إلى تحديد النسل فى الأمة ، وهذا هراء وإنما يعود إلى أن المرأة حددت نسلها حرصا على جمالها الذى تغرى به الرجال ، وهذا رئيس جامعة أن آربر مشغن يقول سنة ١٩٣١ — عندما زرت هذه المدينة بدعوة من شباب الطلبة العرب ودعوت أن يعودوا إلى أخلاقهم ويكتفوا من الغرب بالعلم لأن الأخلاق وليدة الأمة والوطن وأما العلم فلا وطن له .

يقول رئيس الجامعة الذى شهد خطابى معقبا : نعم أنا مع الخطيب فى دعوة شبان العرب إلى أن يحتفظوا بأخلاقهم ويتركوا أخلاقنا ، فإنها لاتصلح لهم ولا لنا « ثم يضرب لنا مثلا على ذلك بالمرأة الأمريكية التى حررها الغرب فتحللت من الخلق الأول الذى كان يقهرها على الركون إلى تدبير المنزل وتربية البنين ، وهى من أخلاق العرب ، قال : إن تحلل المرأة عندنا من هذا الخلق أفضى بنا إلى أن تسود البطالة فى العمل فيقف عنه عشرة ملايين من الرجال قدحل محلهم عشر ملايين من النساء فى العمل فكانت الأزمة التى يعانى الشعب وتعانى الحكومة من ورائها أسوأ الآثار ، ثم كانت المرأة بتحللها هذا هدفا لسوء الخلق إذ لا وازع يردعها فأفسدت الرجل واختارت العزوبة وعدم الولادة لتحتفظ بجمالها فى سبيل استهواء الرجل فكان الوبال بذلك أكبر ، ولولا أن فى أمريكا قسما كبيرا من مهاجرى الشرق الذين يحرصون على النسل وبقائه لعادت ولاياتنا هذه إلى تعدادها قبل مائة عام » .

والمرأة إذا حرسها القانون من تبعة الأخلاق والتقاليد والدين فإلى أين تذهب بشرف الإنسانية القائم على التربية والتنمية ؟ ؟ إذا لم تخف الناس يثلبون عرضها إذا أفحشت ولم تخف أهلها يكبحون جماحها إذا شذت ، ثم لم تخف ربها حسابا وعقابا ، فماذا تخولها النفس الطاغية أن تفعل ؟ ؟ فالقانون حررها من هذه التقاليد ، والدين لم يستطع عصمتها إذ هو قاصر على المعابد الجامدة فى ترانيمها وتعاليمها فكان من الطبيعى أن تختار لنفسها حياة قريبة منها فضربت لذلك مثلا مفاده : « اغتنم الفرص فانها تمر مر السحاب » وأصبحت الحياة عندهم قاصرة على الاسترسال فى متع الحياة والانغماس فى شهواتها التى ليس لها حد .

فاذن تجربة الزواج الموحد لم يفد فى الغرب وهم أرقى منا فكرا وأبعد أثرا فى العلوم والفنون ولم يستطيعوا صون المرأة وانتاجها الضرورى لبقاء الإنسان فلنجرب نحن تعدد الزوجات بحكمة وتدين لنرى أيؤول أمرنا إلى ما آل إليه أمر الغرب المسيحى أم نكون أحسن عاقبة منهم ؟ ؟

مما لا شك فيه ثم لا يشك فيه عاقل أن تعدد الزوجات إذا صين بحكمة الدين ووطنت المرأة نفسها عليه مضحية بشىء من غيرتها فى سبيل الإنسانية ، وإذا عصم القانون هذا النظام من جور الرجل واستخفافه بحقوق زوجاته، أقول : إن تعدد الزوجات على هذا الشكل ليس ضروريا للمرأة فحسب وإنما هو أكثر من ضرورى للرجل والإنسانية القائمة على بقاء النسل وصونه واحترامه .

المحاضرة السابعة عشرة :

حياة المحاضر

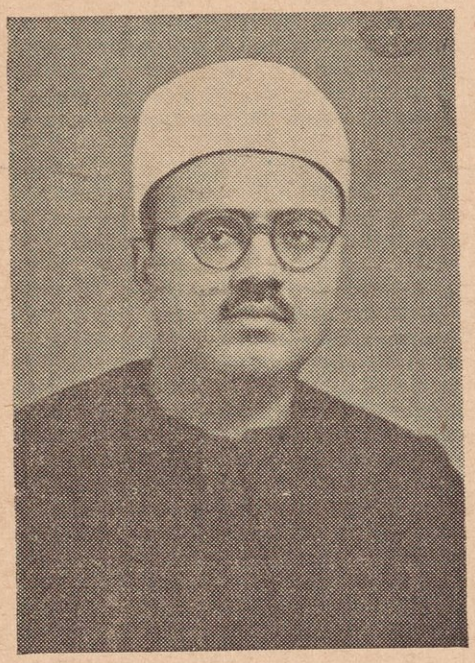

الأستاذ محمد الطيب النجار

مولده ولد سنة ١٩١٦ بقرية النجار التابعة للعلاقمة فى المديرية الشرقية بمصر ، ونشأ فى هذه المديرية حتى نهاية دراسته الثانوية .

دراسته درس القرآن الكريم وأتم حفظه فى سنه العاشرة بكتاب القرية ، ثم التحق بمعهد الزقازيق الدينى حتى أتم دراسته الابتدائية والثانوية سنة ١٩٣٥ فهاجر إلى القاهرة لتلقى العلوم الدينية العليا فى الجامع الأزهر فنال الشهادة العالمية من كلية أصول الدين سنة ١٩٣٩ ثم تابع هذه الدراسة حتى نال الشهادة العالمية من درجة أستاذ فى التاريخ الإسلامى سنة ١٩٤٦ وهذه الشهادة تعدل الدكتوراه بمقتضى قرار مجلس الوزراء المصرى الصادر سنة ١٩٤٤ .

آثاره أصدر كتاب « الموالى فى العصر الأموى » وهو بحث مستفيض يؤرخ فترة من الصراع العنيف بين الشعوبية والعصبية العربية فى العهد الأموى .

وكتاب : « من وحى البلد الأمين » وهو مجموعة محاضرات ألقاها من المذياع السعودى العربى أيام انتدابه للتدريس فى مكة المكرمة .

وكتاب « الموجز الواضح » فى تاريخ العرب والإسلام وفق منهج القسم الثانوى فى الأزهر .

ثم أصدر « السيرة النبوية » وفق المنهج المقـــرر للقسم الابتدائى فى مدارس الأزهر الشريف .

شخصيته

إن كان يصح : أن لـكل مسمى من اسمه نصيب من اسمه نصيب ، فإن لهذا الرجل أكبر نصيب من اسمه المحبوب « محمد الطيب » . أما محمد فقد قرأته من مؤلفه : « الموالى فى العهد الأموى » وقد أفرغ عليه من روحه المؤمن ما يتأثر به سميه محمدا صلى الله عليه وسلم ، وأما « الطيب » فإن على حديثه مسحة من الطيب تفتح عينيك على زهر الجنة . ولـكأن السيد محمد الطيب هذا باقة من الزهر وداعة ورقة وعطرا ، وكان إذ يمعن فى بحث ما يطارحك إياه يرد على شريعة سمحة ويصدر عن ينبوع نقى عذب من ســلامة العقل وصحة التفكير .

المحاضرة السابعة عشرة

مشكلة الإسلام فى صدر الإسلام

ألقاها المحاضر بنفسه فى منزل الأستاذ عبد الله زكريا الأنصارى فى ١٤ / ٨ / ١٩٥٥

للشرائع السماوية فى كل عصر هدف تسعى إليه وهو إصلاح الأمم والشعوب ، وتوجيه الغرائز البشرية والطبائع الإنسانية إلى الطريق القاصد والمنهج السوى الرشيد .. ولئن تفاوتت تلك الشرائع السماوية بتفاوت أحوال الناس ومدى استعدادهم ، وتنوعت مظاهرها وأشكالها على تعاقب القرون والأجيال فإن الجوهر واحد ، والغرض الذى تتجه له أبداً تلك الشرائع والقوانين إنما هو بناء الأمم على أسس سليمة ، وإقامة المجتمع الصالح الذى يهنأ الفرد فى جنباته ، وتسعد الجماعة فى ظلاله الوارفة .

والإسلام دين خالد بمبادئه القديمة وأصوله الحكيمة ، فهو يدعو إلى مكارم الأخلاق ، وينظم العلاقة بين الأفراد والجماعات ، وينفى الفوارق بين الأمم ، ويصف مايعانيه الناس من أدواء ، ثم يقدم لهم فى يسر وسهولة أنجع الدواء .

ولقد عالج الإسلام نواحى النقص فى المجتمع الإنسانى العام لا فى المجتمع العربى وحده . لأن الإسلام ليس دين العرب وحدهم وإنما هو دين الناس كافة ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كان كل نبى يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس كافة » ، وقال تعالى يبين عموم بعثة محمد صلى الله عليه وسلم وفضله على الناس : (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) .

وأساس النقص فى هذا المجتمع الإنسانى العام هو عدم الألفة بين أممه وشعوبه ، ومحاولة كل أمة أن تتميز على غيرها من الأمم ، وأن تستأثر وحدها بالخير ، وأن تقيم المجد والسلطان لنفسها ولو كان ذلك على أنقاض الغير وفوق أشلائه .

ولقد علم الله ذلك فى نفوس البشر ، ورأى من آثاره فى سلوكهم وتصرفاتهم فوجههم إلى تدارك هذا النقص حتى ينجاب الشر وتزول العداوة والبغضاء ، وتنمحى الأثرة البغيضة والعصبية الحمقاء ، وذلك قوله تعالى: « إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون » . وقوله : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا . ان أكرمكم عند الله أتقاكم » .

وطلب الإسلام إلى الناس أن يكونوا أمام الحقائق كيوم ولدتهم أمهاتهم ، وألا تخدعهم المظاهر الكاذبة والمؤثرات الخارجية الزائفة ، وأن يأخذوا بحكم العقل لا بحكم الهوى والوهم فلا يفضلوا جنساً على جنس ولا لوناً على لون ، وفى ذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم مخاطباً العرب فى شبه الجزيرة العربية ، وهو فى الحق خطاب إلى الناس فى كل زمان ومكان: « إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعاظمها بالآباء ، إن أباكم واحد وإن ربكم واحد . كلكم لآدم وآدم من تراب . ليس لعربى على أعجمى فضل إلا بالتقوى ، أكرمكم عند الله أتقاكم » .

ولقد نفذت تلك المبادىء الإنسانية العادلة فى الصدر الإسلامى الأول فكان المجتمع الإسلامى الصالح ، وشعر المسلمون بالأخوة والمساواة على اختلاف أجناسهم فزادهم ذلك إيمانا وتثبيتا ، وشعر غير المسلمين بهذه المساواة فحبب إليهم الإسلام ودخلوا فى دين الله أفواجا . والأمثلة على ذلك كثيرة تفيض بها كتب التاريخ والسيرة ، فيروى أن أبا ذر الغفارى رضى الله عنه تقاتل مع رجل من السود . وكان ذلك بحضرة النبى صلى الله عليه وسلم . فقال له أبو ذر فى حدة وغضب : يا ابن السوداء ، فغضب النبى صلى الله عليه وسلم . لذلك أشد الغضب وقال : « طف الصاع طف الصاع ، ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل إلا بالتقوى أو بعمل صالح » . فوضع أبو ذر خده على الأرض وقال للأسود : قم فطأ على خدى ، ثم استغفر لربه وندم على ما فرط منه » .

وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يسوى بين العرب وغيرهم من سائر الأجناس ولا يفرق بينهم إلا بالتقوى والعمل الصالح، وأساس ذلك فى رأيه هو السبق إلى الإسلام وكثرة البلاء فيه ، ومن ذلك ما يروى أنه حضر بباب عمر نفر من سادات قريش

كسهيل بن عمرو وأبى سفيان وغيرهما . ونفر آخر من الأعاجم كبلال الحبشى وصهيب الرومى . فأذن عمر لهؤلاء الأعاجم وقدمهم على أولئك السادة ، فقال أبو سفيان — وقد تملكه الغضب — : لم أر كاليوم ، يأذن عمر لهؤلاء العبيد ويتركنا على بابه لا يلتفت إلينا ! ! ، فقال سهيل بن عمر — وكان جلا عاقلا :

« أيها القوم . إنى والله — أرى الذى فى وجوهكم إن كنتم غضاباً فاغضبوا على أنفسكم ، دعى القوم ودعيتم ، فأسرعوا وأبطأتم ، فكيف بكم إذا دعوا يوم القيامة وتركتم ؟ » .

ولما طعن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه وعرف أنه قد دنا أجله ، رشح ستة نفر من الصحابة للخلافة وأمر أن يتولى الصلاة بالمسلمين صهيب الرومى حتى يتم انتخاب الخليفة ، والصلاة بالناس إمامة وقيادة ، ومهمة دينية كبيرة ، وقد أسندها عمر إلى صهيب الرومى لأن الاسلام لا يفضل جنسية على جنسية ، وإنما ينظر إلى الكفاية الشخصية والمزايا الذاتية . ومن الكلمات المأثورة عن عمر أنه كان يقول : والله لئن جاءت الأعاجم بالأعمال وجئنا بغير عمل فهم أولى بمحمد منا يوم القيامة ، فإن من قصر به عمله لا يسرع به نسبه .

وكان على بن أبى طالب كرم الله وجهه خير مثال لهذه الديموقراطية العادلة ، إذ كان يؤمن كل الإيمان بالإنسانية لا بالجنسية ، وينظر إلى الدين والكفاية والإخلاص دون أن ينظر إلى الحسب والنسب ، حتى ليروى أن الكثير من العرب قد تقاعدوا عن نصرة على رضى الله عنه لأنه كان لا يفضل شريفا على مشروف ولا عربيا على عجمى . وحتى يروى أن طائفة من أصحابه مشوا إليه وطلبوا منه أن يفضل بعض الأشراف من العرب على غيرهم من الأعاجم فى الأعطية . ووعدوه أن ينصروه إن فعل ذلك ، فغضب على أشد الغضب وقال لهم : أتأمرونى أن أطلب النصر بالجور ؟ .

وتلك أمثلة عن أعمال الرسول صلى الله عليه وسلم وبعض خلفائه الراشدين . وهى تنطق فى وضوح بسياستهم الرشيدة وتدبيرهم الحكيم ، ولقد ظل المجتمع الإسلامى على هذا الوضع السليم حتى انتهت أيام عمر رضى الله عنه فتغيرت الأوضاع واختلت

المقاييس والموازين ، وتسربت الأنانية إلى النفوس وضعف الوازع الدينى فى القلوب ، وانكشف ذلك الغطاء الذى كان يوارى العصبية القبلية فبرزت بوجهها البغيض وصورتها الشوهاء . ولم يبق إلا ومضات ضئيلة كانت تضىء فى أرجاء المجتمع الإسلامى فى بعض الأحيان وتنبعث من القلوب المطمئنة بالإيمان .

ومن ذا الذى يستطيع أن يعتذر أمام الإسلام عن تلك المآسى الدامية التى منى بها المسلمون فى عهد عثمان وعلى رضى الله عنهما ، والتى شققت الوحدة العزيزة وشتتت شمل الجميع ، وأوهنت من ذلك البناء الشامخ العتيد ؟

بل من ذا الذى يستطيع أن يبرر أمام الحق والإنصاف موقف معاوية بن أبى سفيان — وهو من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وكتاب وحيه — حينما ينتقل بالمسلمين من الخلافة إلى الملكية ، ويبتعد بهم عن عدالة الشورى إلى تحكم الفرد وأثرته ، وتطغى عليه رغباته فيرغم الناس على البيعة لابنه يزيد . وينتزعها من قوم كانوا أحق بها وأهلها من أمثال الحسين بن على وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير ويخرس الألسنة عن الجهر بكلمة الحق فى أمر يزيد بقوته وسلطانه حتى يظفر بالبيعة له وتتحقق آماله ؟

بل من الذى يستطيع أن ينسى موقف بنى أمية من العلويين ؟ وموقف بنى العباس من العلويين والأمويين ؟ وموقف المجتمع الإسلامى بين أولئك جميعاً ، وكيف كانت الدولة الإسلامية تتقطع أجزاء وتتمزق أشلاء ، وتنتقص من أطرافها حيناً بعد حين حتى لم يبق إلا القلب وقد اختلجت دقاته واضطرب نظامه وتمكنت منه الأدواء ؟ ؟ تلك هى المشكلة الأولى للاسلام ولما يزل نبى الإسلام غضا فى قبره ، ولعمرى أنها مشكلة المشاكل ، وأما ما بعدها فهى وليدة لها حتى اليوم .

وهذه الأمثلة الكثيرة التى سجلها التاريخ فى تلك الحقب الطويلة وفى العصور الإسلامية المختلفة تلقى لنا ضوءا كافيا على المجتمع الإسلامى وتبين لنا أنه منذ الصدر الإسلامى الأول أخذ ينتقل من ضعف إلى ضعف ، ويزداد وهنا على وهن ، وأساس الداء — كما قدمنا — هو الأنانية التى تتسلط على النفوس فتغطى على العقول وتنسيها تلك المبادىء السامية التى نادت بها الشرائع والأديان . .

وأشد ما تكون الأنانية عصفاً وفتكا إذا تملكت قلوب القادة والزعماء . . فهم الذين يوجهون سياسة الشعوب ويدبرون شئون الأمم ، وهم القلب المسيطر والرأس المدبر والقوة الدافعة ، وهم للأمة عنوان المجد والفخار أو عنوان العار والشنار ، وتستطيع أن تحكم على شعب من الشعوب بالإخفاق أو النجاح إذا عرفت سلوك رؤسائه وأخلاق زعمائه ، وقديما قال ابن العميد : المرء أشبه شيء بزمانه ، وصبغة كل زمان منتخبة من سجايا سلطانه . فلقد كان الوليد بن عبد الملك شديد الكلف بالعمارات والأبنية ، فكان الناس يلتقون فى زمانه فيسأل بعضهم بعضا عن الأبنية والعمارات ، وكان أخوه سليمان يحب الطعام والنكاح ، فكان الناس فى زمانه إذا التقوا سأل بعضهم بعضا عن الطعام والنكاح . وكان عمر بن عبد العزيز صاحب عبادة وتلاوة ، فكان الناس إذا تلاقوا فى أيامه سأل بعضهم بعضا : ما وردك الليلة ؟ وكم تحفظ من القرآن ؟ وكم تقوم من الشهر ؟ .

وإذا عبرنا القرون الماضية بما حملت من أوزار كبار ، وانتهينا إلى المجتمع الإسلامى فى هذا العصر الذى نعيش فيه فإننا نجده ليس هو المجتمع الصالح الرشيد ، وإنما هو امتداد لعصور الضعف التى ران عليها القدر ، وغشيتها ظلمات الشر والفساد . . فالعلاقة بين الأفراد ليست علاقة الأخوة والمودة ، والأساس الذى تقوم عليه الصلات بين الناس هو المادة والمنفعة الخاصة مهما لبست من مسوح واصطبغت بألوان ، والهدف الذى يسعى له كل إنسان هو مصلحته الخاصة ولو أصيب غيره بالأذى والنكال . . ويضاعف من هذه الأدواء ويزيد من خطرها أنها موجودة حتى فى نفوس العلماء والرؤساء .

تلك هى العلاقات بين الأفراد ، أما العلاقات بين الجماعات أو بعبارة أخرى بين الدول الإسلامية فهى فى مجموعها أقرب إلى الزيف والخداع ، وكثيراً ما تتستر بالنفاق حتى تفضحها المصالح الطارئة . فإذا هبت ريح الحوادث متجهة إلى جو غريب أداروا له القلاع ، وتفرقت بهم السبل وجرفتهم الأطماع ، فالسودان هو شطر الوادى الخالد وجذع الشجرة المباركة تتسعر فيه الخيانة وتجوس خلاله المطامع الرعناء ، لتفصله عن مصر فتفصل الجسد عن رأسه . . والباكستان الإسلامية والعراق الإسلامية يدخلان

فى حلف يناوئ شقيقتهما مصر الإسلامية . وليس اختلاف المطامع وتباين الأغراض هما أساس الفرقة والانقسام بين الدول الإسلامية فحسب ، ولكن المذاهب الدينية المختلفة التى نشأت من زمن بعيد فى المجتمع الإسلامى هى التى زادت من تفرق المسلمين وعكرت من صفاء العقيدة الإسلامية . ولقد وجدت هذه المذاهب فى بلاد الفرس والعراق بعد الفتح الإسلامى ثم تطورت وتفرعت وانتشرت فى كثير من الأمصار الإسلامية . وقد جاءت هذه المذاهب بآراء غريبة عن الإسلام كمبدأ الحلول والتناسخ إلى غير ذلك . وكانت هذه الآراء متأثرة بالديانات القديمة التى كانت موجودة قبل الفتوح الإسلامية . وكان الأساس فى نشرها أناساً أسلموا لأغراض خاصة ثم صبغوا معتقداتهم الحقيقية بلون إسلامى .

وعلاج هذا النقص فيما أعتقد يتركز فى نقطتين أساسيتين . هما : إحكام التربية الدينية وتوحيد المذاهب فى البلاد الإسلامية ، وإنما يتم ذلك بالرجوع إلى الأساس الأول الذى لن يضل من تمسك به ، وأعنى به كتاب الله والسنة الثابتة الصحيحة عن رسوله صلى الله عليه وسلم . وليس ذلك بعسير إذا صفت النية وصدقت العزيمة . وذلك هو الواجب الأول للأزهر . وتلك هى رسالة علمائه وأبنائه ، كما يقول الأستاذ أحمد الشايب أستاذ الأدب العربى بكلية دار العلوم بجامعة القاهرة : « يجب أن يكون الأزهر الشريف فكرة وقيامة على العالم الإسلامى يتولى أمره ويكمل نقصه . ويعد نفسه مسئولا أمام الله عن سلامته الروحية والمادية فيستبق رجاله إلى رعاية المسلمين فى أطراف المعمورة يقومون دينهم ودنياهم ولا يقفون عند حدود الوظيفة ورسومها التى تحبس جهودهم وتغل نفوسهم . وتفقدهم ما هم أهله من كرامة وزعامة تضعهم فى الطليعة أمام الناس جميعا . فهل يسمح لى حضرات السادة الأجلاء رجال الأزهر الشريف أن ألفتهم إلى أن كثرة من المسلمين فى أرجاء العالم لا تحسن أداء الشعائر الدينية ؟ وأن كثرة المسلمين لا يعرف بعضها بعضا ؟ وأن هذا التعارف عن طريق الكتاب والسنة واه خلق مزقته البدع والمذاهب ؟ وأن الكرب والبلاء يحدقان بكيان العالم ؟ وأن على رجال الأزهر من جراء ذلك واجبا خطيرا لا يليق التقصير فى أدائه ولا تنفع مع هذا التقصير المعاذير .. » ؟

وإنه لمن إحقاق الحق أن نقول ان الأزهر على الرغم من تقصيره قد بدأ يستيقظ وينهض لإكمال واجبه فى حدود إمكانياته ، فهو يرسل علماءه إلى كثير من الأقطار الإسلامية الشقيقة وهو فى طريقه إلى مضاعفة تلك العناية ، وقد لمست بنفسى برهانا عمليا على أثر علماء الأزهر فى تلك البلاد ، ذلك أننى ندبت إلى المملكة العربية السعودية سنة ١٩٤٩ م للتدريس فى كلية الشريعة التى أنشئت فى ذلك الحين بمكة المكرمة ، وكان أغلب طلاب الكلية من أهل نجد أتباع المذهب الوهابى ، وكلمة وهابى ، كانت تساوى فى نظر الكثير من المصريين كلمة كافر أو على الأقل مبتدع آثم ، كما أن علماء الأزهر كانوا حينئذ فى نظر أبناء نجد لا يعرفون أصول الدين ، ولا يفهمون مبادىء الإسلام على حقيقتها النقية السليمة ، وكانت تجربة قاسية فى أول الأمر ولكنها انتهت إلى الغاية المرجوة ، إذ وضح الغموض ، وتلاقت الأفكار ، واتفقت الآراء ، وزالت الشوائب . فلما كان العام التالى سمح لعلماء الأزهر بالانتقال إلى بلاد نجد للتدريس فى معاهدها ومساجدها حتى أصبح عددهم فى هذا العام يزيد عن الأربعين .

ويمكن أن يتحقق التآلف والانسجام بين علماء المسلمين جميعا إذا نظم التعاون العلمى والثقافى بين البلاد الإسلامية .

ولعل تلك الجهود التى يبذلها المؤتمر الإسلامى فى هذه الأيام والتى تهدف إلى تنظيم التعاون العلمى والثقافى بين البلاد الإسلامية وإقامته على أسس قوية سليمة — لعل تلك الجهود مع جهود المخلصين من رجال الأزهر وعلماء المسلمين وقادتهم تؤتى ثمرتها المرجوة . إذ تتلاقح الأفكار وتتلاقى الآراء ، ويعود إلى المجتمع الإسلامى صفاؤه وانسجامه ووحدته وقوته . وما ذلك على الله بعزيز .

نقاش وتعليق

لقد أبره السيد الطيب بكلمته هذه عن حكمة ورصانة وفهم وإنصاف واستعراض قيم لأحداث التاريخ الإسلامى منذ صدره حتى اليوم ، ولا عجب فى ذلك فإن من أمعن فى التاريخ بقلب مخلص وفكر سليم ، لابد وأن يأتينا فى عرضه بما أتانا به العلامة النجار .

لا أكتم أنى قرأت مؤلف هذا الرجل عن الموالى فى العهد الأموى فقلت لنفسى هذا واحد من نفر قليل يخلص البحث وينصف التاريخ وقد كنت قرأت لبعض آخر من هذا النفر أمثال السيد قطب فى كتابه « العدالة الاجتماعية » ومحمد زكى إبراهيم فى مجلته « المسلم » وعباس العقاد فى كتابه « عبقرية الإمام » وعبد الفتاح عبد المقصود فى كتابه « الإمام على » وطه حسين فى كتابه « الفتنة الكبرى » .

أقول : لقد قرأت للسيد النجار وزملائه هؤلاء ما حملنى على الثقة بأن الإسلام الصحيح بدأ يعود إلى عهده الأول من إنصاف التاريخ وحرية الفكر فى دراسته .

وأمثال هؤلاء كثير فى جماعة التقريب بين المذاهب الإسلامية يبثون المجتمع الإسلامى رسالتهم القائمة على وحدة الإسلام وخدمة الحق من وراء هذه الوحدة ، وهذه مجلتهم « رسالة الإسلام » حافلة بنتائج أقلامهم التى وقفوها على الإصلاح من وراء الدعوة إلى الإسلام الحق .

على أن كلمة الأستاذ الطيب النجار لا تخلو من مجال لنقاشه والتعليق على أفكاره وفيما يلى شىء من ذلك :

أولها : الإيجاز فى نعى القومية على عالم اليوم دون أن يشير إلى أن هذا النقص فى المجتمع الإنسانى أسسه معاوية بن أبى سفيان الذى عاد بالمسلمين إلى الجاهلية فى العصبية القومية والعمل على محو الدين الإسلامى الذى يناهض هذه القومية ، ثم لم يكتف معاوية باتخاذ العروبة ستارا يغطى به جرأته على ناموس محمد ، حتى حصر العصبية فى أسرته وأعاد للعالم العربى التعصب القبلى الذميم الذى مات محمد وهو ينعى علينا هذه الأنانية

فى كثير من أقواله ، فكأن محمدا يقول لنا : العصبية الجاهلية خرق فى الدين . ومعاوية يقول : لا ، بل العصبية الجاهلية أسمى من الدين ، ثم لم نبرح نلتمس له العذر ونعده فى زمرة الصحابة وكتاب الوحى رجما وافتراء فنسبغ عليه رضوان الله حتى أفسدنا تربيتنا لأبنائنا فى المعاهد والمساجد إذ يسمعون الخلط على منابر الوعظ والتدريس بين معاوية وعمر بن الخطاب وعلى بن أبى طالب ، وحتى نشأ القادة من أبنائنا يعتصمون بخطة معاوية ويتغاضون عن خطة عمر بحجة أن كلا الرجلين مرضى عنه فالخيرة لنا بين الخطتين والاجتهاد ليس قاصرا على معاوية ، ففى قادتنا اليوم من هم أسمى ثقافة من معاوية وأحفل بالاجتهاد منه .

ولنعد إلى أن الأستاذ الطيب قد أوجز وأمعن فى إيجاز النعى على التعصب العالمى للقوميات وقد كان عليه أن يخصص نصف كلمته للقومية التى هى أكبر مشكلة فى تاريخ العالم والتى لولاها لما رأينا هذه المجازر البشرية اليوم بين المسيحى والمسيحى وبين المسلم والمسلم ثم بين العربى والعربى من وراء العصبية للعنصر الذى هو أساس القوميات ، فالسكسون واللاتين والسلاف ، ثم الترك والعرب والفرس والهنود ، كل أولئك ضحوا بأديانهم الإنسانية فى سبيل قومياتهم العنصرية وأوطانهم الإقليمية ، فكل دين من الأديان ، ما عدا اليهودية المختلقة ، يفرض على الإنسان أن يتخذ كل إنسان أخاً له ، وكل بقعة فى الأرض وطناً له وأن يجعل كل ناموس دان به أخوه الإنسان موضع احترامه وتقديسه ، تلك هى الملاحظة الأولى إن صح أن تسمى ملاحظة وإلا فهى لفتة كريمة من أخ كريم لأخ أكرم .

ثانيا : هذه الرواية عن أبى ذر من أنه نبز خصمه بقوله : « يا ابن السوداء » فأبوذر هذا الترابى النفس هذا الصحابى الأول الذى ضحى بنفسه فى سبيل قدسية الدين ، هذا الذى قال فيه النبى : ما أظلت الخضراء أصدق لهجة من أبى ذر ، هذا الرجل أراه بعيدا عن صدق هذا الحديث عليه ، وعلى الدين أن أذعن لصدق هذا الحديث ، ولعله من موضوعات الأمويين الذين دسوا بضائعهم من أصحاب رسول الله الذين زاغوا من بعده وهجروا المدينة إلى الشام أيام على وبعده تهافتا على حطام الدنيا حتى أن معاوية

حصرهم فى مدينة حمص أكثر من سبعمائة صحابى خشية أن يختلطوا بعامة الناس ويفلت منهم حديث يكشف سوأته ويرد على على بن أبى طالب حقه فى تاريخ الإسلام .

وغنى عن البيان افتئات الأمويين فى عهد عثمان على أبى ذر حتى أوردوه الهلكة شريداً عن أهله ووطنه ، فمن الجلى الواضح دسهم على أبى ذر الاشتراكى الأول مثل هذا الحديث ليحطوا من قيمته الإسلامية فيبررون عملهم السيء معه ووالله ما ذكرت رفس عثمان برجليه أبا ذر حتى أغمى عليه ثم نفيه إلى معاوية وإعادة هذا أياه على قتب غير موطأ حتى تقرح جلده ، أقول : ما ذكرت هذا إلى نفيه حتى مات غريبا إلا وفاضت عيناى بالدمع ، ليس هذا المسلم الصالح خليل رسول الله يفعل معه ذلك أمثال معاوية بن أبى سفيان الطليق بن الطليق ، وأمثال مروان الوزغ ابن الوزغ .

وكم نحن فى حاجة ماسة إلى أمثالك أيها الطيب بجرأتك على الباطل واعتصامك بالحق إذ تنكر على معاوية عبثه بالخلافة واحالتها ملكا عضوضا فى أسرته ثم أنانيته فى حمل المسلمين حملا مريرا وفيهم الصحابة الأبرار على مبايعة ابنه المارق الفاسق خليفة يصعد منبر رسول الله وخلفائه الراشدين ثم يزعم أنه أمير المؤمنين ويعترف بخلافته هذه حتى عبد الله بن عمر الذى عزف أبوه عن توليته الخلافة برضى المسلمين وولاها معاوية تغلبه على كره منهم ثم تقول عند ذكر عمر رضى الله عنه ، وعند ذكر معاوية مثل ذلك .

أما ثالثا : فأحب أن أعاتبك على اشراك العبدين ابن عمر وابن الزبير مع الحسين ابن على ويكفى أن أقول فى انحدار هذين عن مكانة ذاك أنهما خذلا أمير المؤمنين عليا عليه السلام ورزحا تحت نير العبودية لمعاوية ويزيد ، بينما ينهض حسين ريحانة رسول الله وشبل على بن أبى طالب وربيب النبوة بأعباء التضحية فى سبيل الناموس الذى تنزل به الروح الأمين على جده ، دون أن يفكر فى نصيحة المستخذين له بالرجوع والخنوع ، وبذل نفسه وأهله قربانا يعلن به مروق المسلمين أجمع من دين جده إذ رضوا بيزيد مهيمنا عليهم يخلف محمداً وأصحابه الأعلين حتى كان دمه سببا أول فى قمع الأمويين على أيدى العباسيين الذين انتزعوا الملك منهم وهم يهتفون : يا لثارات الحسين ، ولولا تضحية الحسين هذه لاستمر ملك الأمويين حتى يمحو ذكر محمد وقرآن محمد ، فالله قد حفظ ذكره بدم

الحسين من أن يعيث فيه أعقاب أمية الذين لم يسلموا إلا رئاء ، والذين إنما دخلوا فى الإسلام لينتقموا من الإسلام .

وأما رابعا : فأنا مع المحاضر فى إنكار ما فعله الأمويون والعباسيون بالعلويين ، لأن الزمن برهن لنا عن أن أهل البيت ، وأعنى بهم العلويين ، لا كل من ينتسب لعلى ، فالعلويون هم الأئمة من صلب الحسين بن على ، أقول : إن الزمن بما حفظه لنا من صلاح أهل البيت وعزوفهم وورعهم وعلومهم وسمو ما فطروا عليه من الخلق النبوى ، وقد برهن لنا هذا الزمن أنهم أخلق بعهد الله ، وها هى سيرة الأمويين والعباسيين ماثلة على جبين التاريخ لطخة لا يمحو عارها الدهر .

أنا مع الأستاذ فى أنا لا ننسى نحن محبى أهل البيت والمعتصمين بسفينتهم والحافظين حرمة رسول الله بهم ، لا ننسى ما فعله الأمويون والعباسيون بهم ، وأما انكار الأستاذ الطيب فعل العباسيين بالأمويين فهذا ما لا نوافقه عليه بل نأخذه به جوراً على التاريخ ، فإذا لم يستحق الأمويون هذا القمع على يد العباسيين فمن المستحق إذن لهذا القمع ؟ هل كان الأمويون أهلا لأن يسيطروا على العالم باسم الإسلام ؟؟ أليسوا المعتدين على حقوق الله فى الإمام على بطل الإسلام الأول ؟ ألم يسنوا سب على وأهل بيته عقب كل صلاة ثم قضوا على عمر بن عبد العزيز لأنه رفع هذا السب ، ثم جددوا سبه من بعده ؟ أفليس كل أموى منذ أبى سفيان حتى مروان الحمار يستحقون القتل ؟؟ إنهم نكثوا عهد الله واستحلوا حرماته وأضاعوا ناموسه وكانوا شر خلقه فسلط الله عليهم أشر منهم ، عملا بالكلمة المأثورة : من عرفنى وعصانى سلطت عليه من لم يعرفنى ، فالله تعالى غضب على الأمويين الذين هم شرار خلقه فسلط عليهم شرار خلقه .

وأما خامساً فاغضاء الشيخ الطيب عن السبب الأول فى تفرقة المسلمين شيعا ثم فى الزيف والخداع المستترين وراء النفاق فى قادة الأمة وزعمائها مستمرا حتى اليوم ، واكتفى بقوله : إن هذه البدع دينية وسياسية نشأت فى المجتمع الإسلامى بزمن بعيد .

ما هو الزمن البعيد الذى فرق الإسلام شيعا والذى حمل الساسة فى المسلمين أن يتستروا وراء النفاق بفصلهم السياسة عن الدين هل هو إلا زمن عثمان ومعاوية ومروان

ابن الحكيم هذا الجرثومة الأولى فى افساد خطة الخلفاء الراشدين ؟؟ وهل كانت البدعة الأولى غير انقسام الإسلام إلى عثمانيين وعلويين ؟؟ فمن هو الذى أحدث هذه البدعة ؟؟ هل هو إلا المغير المبدل فى سنة محمد والخلفاء من بعده ؟؟ وهل هو إلا الخارج على إجماع المسلمين بالبغى على خليفتهم الرابع ؟ ؟ وهل هو إلا بعض أصحاب رسول الله الذين انحرفوا عنه بعد موته ووالوا عدوه ونصروه على خليفته بقعودهم عن نصرته أو بمظاهرة عدوه عليه سعيا وراء حطام الدنيا ؟ فلم نكون جبناء حين ندكر مصيبة الإسلام أولا وأخيرا ونعرف الأسباب التى أفضت بنا إلى أن نتفرق شيعا وأن نتناحر ونتباغض ثم نجبن عن التصريح بهذه الأسباب وبالطاغوت الذى صدرت عنه ؟ ؟

ومن أين لنا أن نصل أو نستطيع الوصول إلى توحيد المذاهب وإزالة الفرقة ونزع التراث الفاسد الذى تأصل فى النفوس منذ ألف عام أو تزيد ؟؟ هذا التراث السيء الذى أصبح أشبه بالغريزة الوشيجة عروقها والراسخة بذورها فى صدور المسلمين تنهش أفكارهم وعقولهم حتى أصبح بعضهم يكفر البعض الآخر لبدع أحدثتها السياسة الخرقاء التى سنها معاوية بن أبى سفيان وعمرو بن العاص وأشباههم من مدعى الإسلام القائمين على تقويض أركانه ولما يزل باعث الإسلام غضا فى قبره ؟ ؟

من أين لنا أن نزيل هذه الفروق المضللة التى اعتصم بها كل فريق من المسلمين يتخذها أصلا من أصوله التى يصل بها إلى فهم كتابه وسنته حتى بلغوا حدا لم يتورعوا معه أن يكفر بعضهم بعضا وأن يستحل بعضهم دم البعض الآخر وعرضه وماله ؟ ؟ كيف لنا بهدم المذاهب التى أسسها المارقون من الساسة قبل ألف عام وغذوا بها قلوب المسلمين وعقولهم باسم الدين على ألسنة المنافقين من الصحابة والتابعين ؟ ؟ إن هذه الوحدة ، لمستحيلة وإن كان الاتحاد غير بعيد ، فالوحدة المحمدية شيء والاتحاد المحمدى شيء آخر ، فيمكن لى ولك أن نتفق على التضامن باسم محمد وأما أن أتفق وإياك على إبداع مذهب ينسخ المذاهب كلها ويعيدنا إلى حظيرة القدس المحمدى الأولى فذلك أبعد من المستحيل لأن المصادر الأولى لم تسلم ولأن السياسة شوهت عنصرها الأول ولأن القرآن وحده لا يضمن لنا هذه الوحدة ولكنه يفتح أمامنا طريق الاتحاد .

وأما سادساً وأخيرا : فشكرى إياك أيها الطيب على الوسيلة التى أشرت إليها فى سبيل هذا الاتحاد ألا وهى إلقاء المسئولية على عواتق الأزهريين والنجفيين مصدرى الفقه السنى والشيعى ، فى العالم الإسلامى ، الحق أن الزمن الذى لم يبق من الفرق الإسلامية غير السنة والشيعة إلا ما ندر مما لا قيمة له فى المسلمين ، هذا الزمن يشعرنا بأن الإسلام هو شيعة يبلغ تعدادهم مليون إنسان وسنة قد يبلغ عددهم أربعمائة مليون ، يتجه أولئك إلى النجف مرقد الإمام على فى العراق ويتجه أولاء إلى الجامع الأزهر فى مصر ، ويمر بهذين المصدرين عدة قرون يتخرج منهما أعلام فى الفقه الإسلامى كلا على طريقة لا تكاد تغاير الأخرى إلا فى بسائط الفروع الخاضعة لأصول يتفق الفريقان عليها ولكن تلك الفروع على بساطتها قد أمكن الزمن المستمر تحت وطئها تنافسا وتناحرا بين الطائفتين حتى كادت الفروع تصبح أصولا ، أقول : لقد أمكن هذا الزمن كل فرقة من التنكر لأختها ، ما كاد يستحيل الاتحاد معه بينهما .

السبب فى ذلك عدم الشعور بالمسئولية من كلتا الفرقتين تجاه المصدر الجامع ألا وهو القرآن والسنة الصحيحة ثم الإجماع من كلتيهما على الأخذ به ، كلتا الفرقتين مسئولة عن تحرى الأسباب التى تفضى بالسنى إلى أن يحكم على الشيعى بالمروق من الإسلام ، وبالشيعى أن يحكم على السنى بمثل ذلك ، والمسئولية لا تنال العامة من كلتيهما وإنما تنال الخاصة الذين يستقون الفقه من جامعة النجف فى جوار الضريح العلوى ومن جامعة الأزهر فى جوار الحسين بن على ، فما الفرق بين طائفتين هما كل الإسلام إحداهما تنهل الفقه الإسلامى من مشهد الإمام على والأخرى تنهله من مدفن شبله الحسين شهيد العدالة والحق ؟

أفلا تقع المسئوليـة أولا وأخيرا على المصدرين الأزهر والنجف ، فأين إذن سمو الفكر الإسلامى ونضج عقله ، وأين حكمة الدين الإسلامى فيما يدرس أهل السنة فى الأزهر والجعفرية فى الغربى ؟ ؟ أفلم يصل بقادة الفريقين اخلاصهم لفقه محمد وحرصهم على إسلامهم إلى ضرورة التفاهم بين المصدرين منذ قرون ؟؟ أفما حدثت نفس أحد المراجع فى الأزهر أمثال الشيخ محمد عبده ومن سبقه أو لحقه فى ضرورة العود إلى الوحدة بعد زوال أسباب الفرقة التى لم تخرج عن كونها سياسية نرى مثلها فى كل زمن أحزاباً وشيعا ؟

أولم تحدث نفس أحد المراجع فى النجف بمثل هذه الضرورة فيدعو كل منهما كلا فى سبيل هذا التفاهم المفضى بنا إلى الاخوة الإسلامية وحدة أو اتحاداً ؟ ؟ إنى لأرى أن المسئولية الأولى والأخيرة تقع حتما على عواتق القادة فى هذين المصدرين ولعلى أرى هذه المسئولية تنال الأزهريين أولا لأن أهل السنة أكثر عددا وأعرق تحررا فى خدمة الإسلام إذ رأينا أن الشيعة لم تكن حرة فى اسداء هذه الخدمات والتحرر من الظلم الآخذ عليها أسباب السماء والأرض حتى لجأت إلى التقية فى كثير من مسالكها إلى اقتباس الفقة الإسلامى من مصدره الأعلى ألا وهم أهل بيت رسول الله .

وإذا ثبت لدينا أن الشوكة فى الدين عند أهل السنة أقوى منها عند الشيعة فالمسئولية إذن تقع أولا على الأزهر ورجاله إذ لم يفكروا منذ قرون بضرورة التقريب بين المذهبين أو الفرقتين على الأقل تحت لواء القرآن فلماذا لم يتناد الفريقان للائتمار فى سبيل الوحدة ؟؟ بل لماذا لم يفكروا فى هذا التنادى ، وهم أهل العقل الأول فى العالم الإسلامى ؟؟ أيغفلون عن واجب يكاد يكون الدعامة الأولى فى دعم الإسلام وعضده ؟ ؟ أيغفلون عن أن محمدا إنما بعث للتوحيد فى كل ما يقوم عليه أمر جماعى فى مجموعتى الأرض والسماء ، ؟ ؟ أيغفلون عن أنه إنما بعث فى عهد تمزقت الوحدة الإنسانية فيه بتعدد الآلهة حتى أصبح كل إنسان يعبد ربا ؟ ؟ وحتى الأسرة الواحدة فى صميم العصبية القبلية تحت سماء الجزيرة العربية أصبح أفرادها مختلفى العقيدة يعبد كل منهم صنما يرى خالقه من ورائه ؟؟

أو يغفلون عن أن محمداً أول ما عمد اليه من التوحيد فى السماء فاثبت وجود الله الواحد ليكون الخالق مصدراً لوحدة مخلوقاته ، ثم عمد اليه فى الأرض فكسر الأصنام ودعا إلى الوحدة فى العقيدة واللغة والأخلاق ليكون العالم كله وحدة إنسانية متماسكة ؟ ؟ فكيف يدعى فقهاء الأزهر وفقهاء النجف وهم قادة ربع العالم أنهم حملة رسالة محمد والآخذين بها والعاملين عليها ثم يغفلون عن أنهم لم يضطلعوا بعبء هذه الرسالة حتى فى أنفسهم فيوحدوها ، فكيف يقوون على القيام بعبئها فى توحيد العالم ؟؟

لقد شكرت أول ما شكرت إذ وردت مصر ، وتغلغلت فى مجتمعها ، وتحسست من علامها فرادى وجماعات ، فى شتى نواحى الحياة ، فوقفت ذاهلا أمام اثنين من قادة

الفكر الإسلامى أحدهما الشناوى شيخ الأزهر والثانى الشيخ القمى صاحب رسالة الإسلام الأول خضت معه فى أمر المسلمين فى أمريكا وربطهم بجامعة الأزهر بالبعثات المعلمة المرشدة فلم أستطع اقناعه بأن فى أمريكا مسلمين ، والثانى رأيته يعمل على إنشاء جماعة من علماء مصر للتقريب بين المذاهب الإسلامية ، هذا غريب مشرد كالسيد جمال الأفغانى يعمل عمله هذا ويصدر مجلة إسلامية هى لسان حال هذه المؤسسة لا يغفل عن واجبه الإسلامى الأول ، وذلك شيخ الأزهر يجهل رعيته فى أعرف مكان من العالم ، وهو يهيمن على مآت الملايين من أشياع محمد .

عسى أن نرى الجامع الأزهر فى عهد الثورة المبارك أن لا يغفل عن رسالته الأولى وهى الدعوة إلى وحدة المسلمين أو اتحادهم فيعمل عمل ذلك الغريب المشرد الشيخ محمد تقى القمى المسلم الإيرانى الذى استطاع بإخلاصه وفهمه للإسلام أن ينشىء خلال سنين معدودة « جماعة التقريب بين المذاهب الإسلامية » مؤلفة من خيرة أعيان المسلمين فى مصر ، وأن ينشىء لها صحيفة تنطق بألسنة هذه الجماعة وتعبر عن تفكيرهم الحر فى الدعوة إلى توحيد المسلمين ، ثم ينشىء بمساعدة زملائه هؤلاء معهدا للدراسات الاسلامية نأمل أن يصلوا إلى الهدف المنشود لكل مسلم ألا وهو الوحدة والاتحاد .

المحاضرة الثامنة عشرة :

حياة المحاضر

السيد أحمد حلمى عبد الباقى

رئيس حكومة عموم فلسطين

١ — ولد فى صيدا من أعمال لبنان ، ونشأ فى فلسطين .

٢ — تلقى علومه فى المدارس التركية ، ثم التحق بوظائف الحكومة .



٣ — وعند نشوب الحرب العالمية الأولى كان يشغل وظيفتى مدير المالية ومدير أملاك الدولة فى لواء (العمارة) من أعمال العراق ويقوم بأعمال (المتصرف) أى (حاكم اللواء) فيها بطريق الوكالة فيجمع عشائر اللواء ، والتحق بالجيش العثمانى مدافعا عن الدين والوطن فأسندت إليه الحكومة العثمانية مديرية المجاهدين وألحقته بالجيش .

٤ — وقع أسيرا فى يد الانكليز فى موقعة (العمارة) بالعراق ونجا من الأسر بعد أن قضى اثنين وعشرين يوما أنفة من ظلم الانكليز وإذلالهم للأسرى ورغبة فى معاودة الكفاح.

٥ — وبعد احتلال الانكليز للعراق عاد إلى سورية وعند دخول الأمير فيصل دمشق وتأليف الحكومة العسكرية اختير رئيسا للمالية فيها .

٦ — ولما دخل الافرنسيون إلى سورية رحل إلى عمان وتولى هناك نظارة المالية ،

ولـكن الانكليز ضاقوا به وباخوانه الأحرار ذرعا فنفوهم من البـلاد فالتجأ بطريق الصحراء إلى القطر المصرى سنة ١٩٢٤ .

٧ — ثم ذهب إلى فلسطين وأسس بعض الشركات الماليـــة وقام بإنقاذ الأراضى وساهم فى توجيه الحركة الوطنية فنفاه الإنكليز إلى جزيرة سيشل مع بعض إخوانه .

٨ — ولما عاد إلى فلسطين بعد غياب ثلاث سنوات قضاها فى سيشل ومصر ولبنان تابع أعماله المالية وخدمته الوطنية .

٩ — وعند وقوع الـكارثة الفلسطينية بقى فى القدس يدافع عنها ومعه صحبه المجاهدون إلى أن دعته جامعة الدول العربية لتولى رئاسة حكومة فلسـطين الإدارية ثم رئاسة وزارة حكومة عموم فلسطين سـنة ١٩٤٨ ولم يزل إلى اليوم لاجئا فى القطر المصرى .

شخصـيته : من ميزاته الجمع بين الأدب والجندية وقلما تجد أديبا جنديا لأن كلا العملين كاف ليصرف صاحبه عن العمل الآخر . أما المحاضر الـكريم فهو أديب وشاعر ثم هو بعد ذلك الجواد المجلى فى جهاده ودفاعه عن عروبته وإسلامه ، أما الروح المتجملة على جليسه من إخلاصه للحق وعطفه على البائسين من أبناء جلدته أقول : أما هذه الروح فهى الثورة الخالدة التى يأسر بها نفوس إخوانه المحدقين به .

المحاضرة الثامنة عشرة

أربعة أيام من عمرى شعرت فيها بنشوة الحياة فقط . وعرفت خلالها طعم النعيم السابغ . وتلمست من ورائها الزهو والفخر وأحسست أنى إنسان أضطلع بعبء الرجولة بين يدى واجبى فى الحياة .

بهذا أجبت أخى السيد محمد على الحومانى ، مقرر ندوة الأصفياء ، إذ طلب إلى كلمة تلقى فى مجالس هذه الندوة . وبالرغم من كثرة مشاغلى الحائلة دون توجيه الفكر إلى مدى أبعد مما أنا فيه فقد أجبته إلى مارغب بهذه الكلمة الموجزة الصريحة إلى أبعد حد .

سألنى أحد الأصدقاء عن سنى حياتى فقلت — أربعة أيام فاستغرب وقال : أنت مجاوز السبعين فأين منك هذه الأيام الأربعة ؟ ؟ فقلت : نعم إنها سبعون عاما ولكنى لم أشعر منها بغير هذه الأيام الأربعة ولا سطر التاريخ لى حياة أعتز بها غيرها . وأما بقيه حياتى التى تشغل الأعوام السبعين فلا ظل فيها للحياة الحقيقية التى ينشدها المرء فيما إذا ألقى نظرة على الخالى من الأيام .

هذه الأيام الأربعة كانت حافلة بالعز الذى سجله التاريخ لنا بالنصر على أعداء الإسلام والعروبة الذين طوقوا العالم الإسلامى بما يخضد شوكته وينحت من أثلاثه فاستولوا على أكبر معقل له فى الهند ومحوا كيان الحكم الإسلامى فيه وبثوا التنازع والفرقة بين الهندوس والمسلمين من جهة ثم عززوا هذه التفرقة بالدس والتفريق بين طوائف المسلمين يضربون بعضهم ببعض وبين طوائف الهندوس يؤلبون بعضهم على بعض . ثم والى عدوانه على بقاع الإسلام فى شرق الأرض وغربها حتى لم يدع بقعة إلا جنى عليها وترك سوس الفرقة والنزاع ينخر فى عظم أهلها وهو من ورائهم يستغل ويستعيد حتى

وقف عند فلسطين وتثبيت أعدى عدو الإسلام فيها وهناك اطمأن إلى النزاع بين العرب وغيرهم قائلا : اليوم انتهت الحروب الصليبية .

أما اليوم الأول فهو يوم « سلمان باك » (سلمان الطاهر) وهو اليوم الذى ذقت فيه حلاوة العيش الرغد فقد كان تحت سماء دجلة أيام الحرب العالمية الأولى بين الدولة العثمانية وبريطانيا فى العراق وذلك فى موقعة « سلمان باك » حيث يرقد هناك الصحابى الجليل والبطل الخالد صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحب فكرة الخندق يوم الأحزاب ألا وهو سلمان الفارسى رضوان الله عليه .

هنالك اشتبك الجيشان مطلع الفجر برا وبحرا . حديدا ونارا . وهاجمنا الجند البريطانى بمشاته وفرسانه من البر وبأسطوله من بحر دجلة ثم بطائراته الكشفية من الجو . وكان قد اطمأن إلى ضآلتنا بالكتشافه الجوى قبل يوم وأن فرقتنا التى تناهز ستة آلاف لا تقوى على الثبات بين يدى عشرين ألفا من رجاله معززين بأقوى عتاد وأمضى سلاح وأوفر زاد .

ولكن الله شاء أن يمدنا مساء تلك الليلة وعلى غفلة من العدو بفرقة كانت قد وصلت عصر اليوم السابق على غير علم منه ولم تكن داخلة فى الكشف الذى أجراه بواسطة الطيران . وكانت هذه الفرقة تنتظر الصباح لتدخل الاستحكامات . فلما وضح النهار وكان الجند البريطانى قد بدد مقدمة الجيش العثمانى فى استحكاماته ورأت الفرقة الجديدة التى لا يزيد عددها عن سبعة آلاف جيش العدو يمشى الخيلاء بنظامه العسكرى . صاح قائد الفرقة بكلمة « الله أكبر عز ونصر » حتى كان دوى الجيش بالهتاف « الله أكبر » يسبق دوى المدافع والبنادق إلى الآذان واهتزت الأرض حتى حسبناها تميد تحت أقدام الجنود وهم يزحفون ويدمدمون فإذا بالجيش البريطانى يفاجأ بما لم يعهد وإذا بجيشنا يعجله عن أن يستحكم ويعتصم وإذا بالنار تلهب الأفق وتتساقط حديدا ورصاصا كالسيل المنهمر واستمر الاشتباك تارة بالقذف وطورا بالطعن والضرب أربعة أيام متوالية بلياليها وإذا باليوم الخامس يتكشف عن رجعة العدو وعن بحر من الدماء وجثث تغطى الأرض . وعتاد مكدس ومؤن وذخائر عمرت معسكراتنا نتزود بها لليوم الثانى من الثأر والاستبسال .

هذا هو اليوم الأول من أيام حياتى .

وأما اليوم الثانى وهو يوم « الدلابحة » فقد انتهز الانكليز بعد هزيمتهم فرصة تفرق القطع العثمانية وهاجمونا مع الفجر مباغتين فى موقع يسمى « الدلابحة » بين سلمان باك وكوت الأمارة فى العراق أيضا . وكان ذلك الموقع على شاطئ دجلة وكانت الضربة أليمة علينا يومئذ لأنا أخذنا بنشوة الظفر ففقدنا آنئذ قائد إحدى فرقتى جيشنا ويدعى محمد على بك وقد كان له الفضل الكبير فى هزيمة العدو فى اليوم الأول بمعركة سلمان باك . وجرح قائد الفرقة الثانية واستشهد قائد المدفعية ويسمى صادق الجندى من أبطال حمص وفقدنا كثيرا غير هؤلاء من الضباط . وتفرق الجند فلولا فى الصحراء تفاديا من إصابة المدافع والبنادق التى كانت تمطرنا كالسيل المنهمر .

أقول : لقد كان المشهد أليما وكانت الضربة آلم وأقسى علينا فلم يثبت فى الميدان إلا القائد العام نور الدين باشا ومعه عدد قليل من الجنود والضباط المخصصين لصيانة المقر العام . فسألنى القائد وقد كنت بجانبه . ماذا ترى ؟ ؟ . فقلت : إن الوضع لا يحتاج إلى إيضاح . فأجاب هيا بنا نهتف بالجنود المتراجعين ونحضهم على الثبات باسم الوطن والدين ! !

إنها لساعة لا أنساها ما دامت حيا . إذ تقدمنا رجل مهيب يكاد يثب قلبه من صدره على جلالة قدره ورزانة سمته . تقدمنا وفى يده سوط يلوح به فى الهواء ثم يخاطب الجنود بقوله : يا جنود الله يا رجال محمد ويا أحفاد عثمان (السلطان عثمان مؤسس الدولة العثمانية) يا أبناء الفاتح (السلطان محمد الثانى فاتح القسطنطينية) . أين المفر ؟ ؟ أإلى الخزى أم إلى العار ؟ ما عهدت مسلما تأسى بمحمد ثم يفر إلى غير السيف ليعتصم به . أنتم حماة الدين والوطن ، فبماذا تجيبون إن دعاكم الوطن والدين ؟ ؟ .

بدأت جنودنا بعد هذه الصرخة ترتد لجهة العدو بدأت الفلول تتكتل وتلتئم ولكن القائد البريطانى شاء إذ رأى منا ذلك أن يعجلنا عن الإنابة إلى الجهاد وظن أن الفرصة لا تزال ملائمة للمباغتة والانقضاض على جنودنا . وزينت له نفسه سهولة إبادة جيشنا . فأمر جنده بالهجوم العام .

ويا له من مشهد تقشعر له الجلود وتطيش الألباب . إذ لبى نداءه عشرون ألف مقاتل على الموت واندفعوا بالسلاح الأبيض يفتكون بجنودنا المبددين فى الميدان . ولكن هذه الفلول التى أغرت العدو بتضعضعها وحسب أن أمرها قد انتهى إلى الزوال . عندما رأوا بريق السلاح الأبيض ووعوا هتافنا بهم وأصوات الله أكبر الله أكبر يا رجال محمد تصك أسماعهم خرجوا عن شعورهم فإذا بالمعجزة المحمدية تدفعهم وقد خاط سلاح العدو أجسامهم . إلى ملاقاة الموت وإذا بهم يهبون هبة واحدة وإذا بالأصوات تتعالى : الله أكبر عز فنصر . وما عصفت هذه الكلمات فى الأفق حتى عاد كل جندى تقهقر إلى الميدان وعادت المعركة أشد مما كانت حتى خيل لنا أن الأرض والسماء تصيح : الله أكبر الله أكبر . وما هى الا ساعات سبح الفريقان بها فى بحار من الدماء فإذا بالصوت يهدأ وإذا بالمعركة تنجلى عن هزيمة العدو تاركا خلفه القتلى والجرحى تغطى الأرض متجها إلى كوت الإمارة ليحتمى بحصونها وتاركا عددا كبيرا من الأسرى وقد استولى جنودنا على دارعة نهرية كانت السبب الأول فى إبادة عدد كبير من جيشنا . وقد أسميناها بعد الإستيلاء عليها « سلمان باك » حقا انه يوم أغر محجل .

وأما اليوم الثالث : فهو يوم كوت الإمارة الذى سلم فيه العدو بقيادة الجنرال (تاونسند) ودخلنا مدينة الكوت ظافرين بعد حصار دام أكثر من خمسة أشهر للجيش البريطانى وأسرنا أكثر من خمسة عشر ألف بين ضابط وجندى واستولينا على الذخائر والمعدات الحربية التى كانت باقية جميعها وهى شىء كثير وكثير جدا .

ومن الطريف أن الجنود المسلمين من الهنود وقد كانو ايحاربون فى الجيش البريطانى وقفوا صفا أمام القطعة التى دخلت لتسلم الأسرى وقفوا يهتفون لنا : مبارك مبارك . وكان رجال الإنجليز قد أتلفوا المدافع الكبرى بالديناميت وأنزلوا جميع الأعلام البريطانية إلا العلم المرفوع على دار الحكومة . فلما رأيته أشرت إلى مساعدى اليوزباشى تحسين العسكرى رحمه الله وهو الذى أصبح فيما بعد وزيراً مفوضاً للعراق فى مصر . أشرت إليه .

فدفعنا الخيل ومعنا بعض المجاهدين ثم صعدنا إلى دار الحكومة وأنزلنا ذلك العلم وقد تسلمه منا أنور باشا وزير الحربية لدى زيارته بغداد فى أعقاب ذلك النصر المبين .

وأما اليوم الرابع فهو يوم فلسطين ولعله أروع الأيام تأثيرا على وفخرا لى . ذلك أنه عندما رأينا الجيش الانكليزى يغادر فلسطين مساء ١٤/٥/ ١٩٤٨ وجدنا أنفسنا وجها لوجه أمام العصابات اليهودية التى كانت تسعى للإستيلاء على القدس هدف الصهيونية الأول . وكنا قلة بالنسبة لليهود،والتف حولى المجاهدون الأبرار لأن ارادة الله قضت أن أكون المسئول الوحيد الذى أبى أن يهجر القدس وينسحب مع المنسحبين . وحاربنا فى ظروف قاسية جدا ودفعنا الهجمات اليهودية المتكررة على أسوار القدس وصعدنا إلى أن جاءت قوة من الشرق بقيادة المجاهد القائد عبد الله بك التل وتسلمت أمر الدفاع عن المدينة فى ١٨/٥/١٩٤٨ متعاونة معنا فى كل شىء من أجل حماية القدس واشتدت المعركة وزاد الضغط على اليهود المحاصرين داخل المدينة القديمة وفى يوم ٢٨ /٥/ ١٩٤٨ استسلم هؤلاء وأخذوا أسرى حرب بعد أن قتل منهم عدد كبير ودمر الحى بأكمله . وفى ذلك اليوم أيضا شعرنا بعودة الإسلام ومجده . وذقنا طعم النصر وحلاوته . وانتقمنا لدير ياسين ولكنه انتقام عسكرى شريف . فلم نقتل الشيوخ والأطفال والنساء من اليهود كما فعلوا مع العرب فى كثير من المواقع .

وكان يوما خالدا لن أنساه . . . . .

هذه أيام عمرى كاملة أولها يوم « سلمان بك » والثانى يوم « الدلابحة » وثالثها يوم الكوت ، وأما اليوم الأخير وهو يوم القدس فقد كان اليوم الذى رجوت ربى فيه أن ألقاه شهيدا وأنا ناصع الجبين . فلا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

التعليق

لقد أعاد الأستاذ المحاضر إلى ، ذكرى أيام عصيبة قطعتها فى أواخر العهد التركى حافلة بالرعب والهول ، وستصحبنى هذه الذكرى إلى آخر حياتى مظلمة قاتمة .

كنت حديث السن أيام الحرب العالمية الأولى إذ كان النفير العام وإعلان الجهاد المقدس فى الإسلام ، وكانت مقر الخلافة عروس الشرق استامبول تندى لها كل عين ويهوى إليها كل قلب ، كنت وأنا صبى ، أشهد مع أبى إذ ذاك مجالس تعقد للسمر بذكر الحرب وتحالف تركيا مع ألمانيا لمجابهة بريطانيا وأحلافها ، وكان حديث النفير العام يسود كل مجلس ، فلم يبق فى البلاد شاب ولا كهل إلا وقد سجل اسمه فى أقرب مخفر إليه يعلن استعداده للجهاد ، ثم يأتى اليوم الذى ينفر العالم فيه إلى ساحة الحرب معتصمين بالحق الذى يتعبدهم الله له فى كتابه وسنة رسوله ، ويخرج النفير كتائب وفيالق من كل قرية تؤمهم فرق الموسيقى تعزف باللحن المثير ، والنساء تزغرد خلفهم مشيعة أفلاذ أكبادها بالدموع والابتسام .

أيام لا أنساها ، وقد بقينا أثر ذلك صبية وشيوخا ونساء نزاول الحياة فى القرى أشق ما تكون ، ثم يدهمنا وباء الحميات فتفتك بنا الفتك الذريع ، ولم يمر بنا سنة حتى جاء الوباء الأكبر « الهيضة » تكنس ما تعدته الحمى ، فاذا بالجيف الإنسانية تتفسخ فى البيوت وعلى الطرق ، دون أن تجد من يفتح لها أجداثاً توارى سوآتها . ولكن الله يشاء عود الشباب فراراً من الموت ، فتنقذ البلاد من تعفن لو استمر من غير مواراة لأهلك الحرث والنسل .

يعود الشباب والكهول هربا من الجهاد بعد عام كامل قطعوه فى ساحة الحرب ، وتعود مجالس السمر ، ويسود الحديث فيها سبب الفرار وما سيجر علينا من إرهاق الشرطة وتعذيب النساء والشيوخ ، من وراء فرار الأبناء واختفائهم نهاراً فى الكهوف

والمغاور ، فلا يخرجون منها إلى تحت رحمة الظلام الساتر ليروا أهلهم ، ويتزودوا للنجاة من الموت إذا أسلموا للسلطة مرة أخرى .

ويشتد الطلب من الشرطة وتقع التبعة على مختارى القرى والأعيان من شيوخها ، فيساقون إلى المخافر ، وتعلوهم السياط حتى تدمى جلودهم ليقروا بأسماء المنهزمين ، وتعمل الرشى عملها مع الحكام والمسيطرين ، فمنهم من يتعامى ، ومنهم من يصر على تعزيز الطلب .

أما نحن ، فكنا نتساءل فى مجالس السمر عن سبب الفرار من الجهاد والدين يوجبه فيجيب من اتصل بالفارين : إن سبب الفرار الجوع ، والحرمان من كل ما يتعزى به الجندى عن فراق أهله ووطنه ، ويتحدث إلينا هذا الخبير : إن رغيفاً واحداً نصيب كل جندى فى اليوم ، وربما ناله شىء من مرق العدس تحسبه ماء آجناً لسواده وقلة غذائه ، ثم لا رفاهية من دخان ولا حلوى ، ولا كساء يقى البرد أو مرطب يقى الحر ، ذلك مايهد القوى ويبعث على اليأس من الحياة ، بينما تضرب القباب وتدخر المؤن الحافلة بكل ما يحتاج إليه الجندى من ضرورى وكمالى للضباط الألمان المشرفين على الجند التركى ، ثم نسمع أن البلاد التى يغلب عليها العدو تمتلىء بالخيرات من فضل الجيش ، فتملأ القرى والدساكر علب اللحوم والأسماك والمعقمات من الخضر والجبن والفواكه ، وصناديق الأرز والسكر والشاى والبن بلا حساب ، وقد كان لكل من هذا حسرة فى نفس كل مواطن إذ بلغ ثمن الرغيف ريالا ، واختفى كل أثر للسكر والشاى والبن ، حتى كدنا نفقد كل مصدر للحياة .

ونتساءل عن سبب ذلك كله ، فاذا هو الخيانة فى القادة ، وضعف الدين فى المسيطرين على الأمة ، حتى أدى ذلك بهم إلى انهيار لم يجرفهم وحدهم ، وإنما تناول خمسمائة مليون مسلم فيهم لا يقل عن مائة مليون عربى ، فلنعد الآن إلى صميم التعليق على أيام المحاصر التى حصرها فى أربعة ، وكنا نأمل أن تستمر هذه الأيام حتى يتحرر المسلمون بفضلها ، ولكنها مع الأسف ، وقفت عند اليوم الرابع ، ثم ابتدأت أيامنا ولا تزال مظلمة حتى يومنا هذا .

أعتقد أن المحاصر قد قص على أنور باشا الذى كان وزيراً للحربية التركية آنذاك ،

والذى زار العراق بعد هـذا النصر المتوالى فى أيامه الثلاثة التى هى من صميم حياته ، ولعلها أبهج أيامه وأعزها على قلبه .

أقول : إنى على يقين بأن الرئيس المحاضر قد قص على وزيره يومذاك قصة هذا الظفر كما قصه علينا ويقصه على غيرنا ، لأن الجندى الظافر لا ينفك يروى أيامه الغر طوال حياته ، ومن البديهى أن يكون قد روى له أسباب الظفر ، وأنها لاتتعدى النداء على فلول الترك المنهزمين : الله أكبر ، والهتاف بهم باسم محمـد ، فيعودون باسم الله واسم أبى القاسم بقلوب من حديد ، يواجهون الموت وهم قلة ، بينما يفوقهم العدو عدة وعدداً ، وأساطيله تقذفهم بالحمم من بحر دجلة ، وطياراته تلقى الرعب فى نفوسهم من الجو ، ولـكن شيئاً من ذلك لم يحل بين جند الله وبين الانتقام للحق من الباطل ، حتى كانت المعجزة باسم الله ورسوله ، وكان الظفر الذى ملأ على المسلمين أرض الله وسماءه بالعتاد والمؤن ، وعمر قلوبهم بالحق والإيمان .

فهـل فكر أنور إذ ذاك فى سر هذا النصر الذى يشـبه نصر الله رجاله يوم بدر والأحزاب ؟؟ هل فكر فى السبب الذى حمل هذه الفرقة الضعيفة بين يدى قوة بريطانيا العظمى على أن تزج نفسها فى أتون حرب لا حول لهم فى دفعها ولا طول ؟

هل فكر طغاة الاتحاد والترقى فى ذلك العهد بالسر الذى أظفر بضعة آلاف صابرين جائعين مهزومين ، بفرق فنية مجهزة بأحدث طراز من فنون الحرب ؟ هل فكروا بذلك فعملوا على تعزيز هذا السلاح الذى طبع محمد عالمه على الإيمـان به واليقين بأنه أمضى سلاح يقمع الضعيف به القوى ويصفع المظلوم به وجه الظالم ؟

كلا ، إن زعيما تركياً يومذاك وقبله ، لم يفكر بأن سـلاح محمد القائم على اعتناق ناموسه الأعظم ، هو وحده الضامن لأمة محمد إحراز النصر ، فقد أشبع الغربى روح الشرقى زهداً فى دينه ورغبة عن تراثه ، وبعثه خلقاً جديداً يخضع للمـادة ويدين للقوة القائمة على البغى والعدوان ، وعلى استعباد القوى للضعيف ثم على التنافس فى الأنانية العنصرية والاسترسال فى الشهوات .

كان زعماء الترك يلهون بالجوارى والغلمان يوم استجار بهم ملوك الأندلس ، ومن بعدهم ملوك المغرب الأقصى ، حتى قمعهم عدو العرب والإسلام رأساً رأساً ، وطهر نصف أوروبا وآسيا من حثالة العالم الذين بغى بعضهم على بعض ، وهم يدعون أنهم أتباع محمد وقرآنه يملأ الأرض صياحاً بقوله : « ولا تنازعوا فتفشلوا » .

وهكذا مضى قادة الإسلام ، تركا وغير ترك ، مئات السنين يعبثون بناموس محمد سعياً وراء الأهواء ، واستخذاء لدس الغرب وتضليله ؛ واستعباد مستشرقيه رءوس المسلمين يغزونهم ، باسم الثقافة حيناً ، وباسم المدنية حيناً آخر ، وغرضهم من ذلك القضاء على عقيدة محمد التى زعزعت عناصرهم ، وهدت كيانهم ، وعلمتهم كيف يرقى العقل ويهيمن به الإنسان على العالم .

كان جلاوزة الترك يفعلون الأفاعيل فى بلاد العرب أيام الحرب العالمية الأولى ، ففضلا عن أنهم كانوا منغمسين فى الفساد الخلقى من الفسق وأكل السحت ، كانوا يهتكون حرمات الدين بجلد الشيوخ والنساء زعما منهم أن هؤلاء هم المسؤلون عن الشباب العربى المنهزم عن ساحة الجهاد ، دون أن يفكروا فى السبب الذى من أجله كان العربى يترك واجبه المقدس ، وهو ما أشرت إليه ، من أن قادة الجيش وضباطه كانوا يستأثرون بالمؤن ويبيعونها ، أيام كان مد القمح يباع فى السوق السوداء بثلاثة دنانير من الذهب ، هذا فضلا عن مخصصات الجيش من الشاى والسكر والبترول والدخان ، وكل أولئك كان له المنزلة الأولى فى السوق السوداء .

كان الجندى العثمانى يرتد من الجبهة التى تأكل من حياته الساعات أو الأيام أحيانا دونما طعام أو شراب ، يرتد من الجبهة ليشرب الآجن ويأكل التراب ، بينما قادته والآمرون عليه ينعمون فى سررهم بين المعلف والنثيل . دون أن يفكروا بهذه الأغنام التى يسوقونها إلى الموت قرابين على مذابح شهواتهم وأهوائهم .

ولنعد إلى جلاوزة الترك الذين يتولون الحكم العسكرى والتجنيد فى الأقاليم العربية من ولايات العراق والشام ، أذكر جيدا ، وأنا فى الخامسة عشرة من سنى حياتى ، أن القرى فى وطنى جنوب لبنان « جبل عامل » كان يسودها فى الليل والنهار

صمت عميق ، حدادا على الشبان الذين يغادرونها مقابر للشيوخ والأطفال وكانت النساء تقوم مقام الرجال نهاراً فى الزراعة والإنتاج ، ثم أمعنت الحرب فى الناس بؤسا وشقاء ، باستهلاك الغرب للشرق ، حتى قعد النساء إلى الشيوخ والأطفال يأكلون الحصى ، فكلحت الوجوه ، وشاهت السحن ، وطغى فقر الغذاء على الناس بأمراض الحمى والهيضة تكنسهم كنساً .

أذكر ذلك فيقشعر له بدنى إذ عدت من مهجرى يومذاك فى غور الحولة ألتقط الغذاء لأمى وأبى الشيخين ، عدت وأرى أهل قريتى فى حالة كلما تصورتها أرعدت فرائصى . أرى وجوها أنكرها كل الإنكار ، فما عرفت من لداتى وأترابى شابا ولا شابة ولم أكن أحسب أن الجوع يفضى بالإنسان إلى ظامة الوجه حتى كأن الوجوه سودانية ، وكأن العيون المنطفئة فيها بقع من السليط فى مستنقع مظلم .

وأذكر أن الحاكم العسكرى كان ، إذا ورده علم بفرار أحد الجنود ، يستدعى شيوخ القرية ، وإمام المسجد فيها ، فيقفون بين يديه والوقار وكبر السن يعلو جباههم المتغضنة ، وظهورهم المحنية ، ولحاهم البيض المالئة صدورهم ، كان هذا الحاكم الأرعن الكافر ، يقفهم بين يديه ثم يطلب منهم النفر المتراجع من الجهاد ، فيعلنون عجزهم عن رؤية من يفر ، فكيف بالقبض عليه ؟ فيبسط الجميع أرضا ، ثم ينهال هو ومساعدوه من الشرطة ، على أولئك الشيوخ بالسياط الملوية الساعة والساعتين ، حتى يتركهم معاجين بدمائهم دون أن يرعى لهم ذمة أو يرحم شيبة ، وقد كان أبعد ما يكون عن فعله ذاك لو أن لدى هؤلاء الشيوخ ما يكبت نفسه الطاغية عن حطام الدنيا ، ولكن الحرب أهلكت منهم الحرث ، وبترت النسل ، فلم يبق فى أيديهم من المال ما يدفع غائلة الجوع ، فضلا عن الرشى .

وقد كان يخطر لى إذ يبلغ علمى أن بعض السادة من ساسة العرب ، أمثال الأمير شكيب ارسلان ، والشيخ أسعد الشقيرى ، ومن نهج نهجهما فى خدمة الإسلام ، كان يخطر لى إذ علمت أنهم نقموا على الحسين وأبنائه : وعلى الجمعية العربية التى تأسست من شباب العرب وقادتهم فى باريس ثم امتد سلطانها إلى سوريا والعراق حتى عمت الجزيرة

العربية آخر الأمر ، نهضة العرب يطلبون الانفصال عن تركيا . أقول : لقد علمت آنذاك أن هنالك نفرا لا يستهان به من علية العرب أمثال من ذكرت ، نقموا على مناهضى الترك وهم مسلمون ومليكهم خليفة الإسلام ، وأعداؤهم من الغرب أعداء العرب ، فخطر لى إذ ذاك أن أفكر على حداثة سنى فى أى الفريقين هو المصيب ، أمن يقوم باسم العروبة ويناهض تركيا لظلمها العرب وإمعانهم فى هضمهم ، أم من يقوم باسم الإسلام ويرى الوحدة مع الترك والتفاهم خيرا من الثورة عليهم فى أحرج أيامهم ؟ ؟

فكنت أعطى القوميين حقا فى ثورتهم لما شهدت بنفسى من عصبية الترك لعنصرهم وأنهم كانوا لا يرون للعرب أية ميزة تخولهم الحكم ذاتيا أو غير ذاتى ، وألوم الفريق الآخر الذى يرمى بعصبيته إلى الدين ، حيث لا عصبية للدين عند من يحكمنا من الأتراك إذ كان فسق ملوكهم وانحدارهم فى الأخلاق بين سمعنا وبصرنا ، حتى سمعت من المحاضر نفسه أن بعض الوزراء العثمانيين ، ولعله وزير مال ، كان فيما يشتمل عليه قصره ألفان من الجوارى والمغنيات ، وهكذا كنا نسمع ونقرأ عن الخلاعة والتهتك فى قصور يلدز ، فأين الدين من هؤلاء ؟ ؟

ولقد بلغ من تهتكهم وتسامحهم بتعاليم دينهم ، أن أهملوا ملكهم ، وأطمعوا الأجنبى فى هذا الملك ، حتى أمعن فى نهشه على أيدى القياصرة فى الشمال ، وأيدى الرومان والإغريق فى الغرب ، ومن وراء هؤلاء جميعا أم الدواهى بريطانيا ، تمعن فى الدس والكيد للعثمانيين كرها بدينهم ، وحرصا على محو القرآن من الأرض ، وكلمة أحد الساسة منهم القائلة : « لا يمكن لبريطانيا أن تسود العالم والقرآن بين أيدى المسلمين » أقول : أن هذه الكلمة معروفة لا تحتاج إلى تدليل .

ومما يجب أن نستطرد له فى هذا التعليق ، تحمس المسيحيين العرب لفكرة الانفصال عن تركيا والعمل على وحدة العرب ، فقد أقاموا الأرض وأقعدوها فى لبنان بلد « مارون » ربيب فرنسا الأم الحنون ، التى جنى عليها بغيها ما بات يعلم العالم ، والتى إن سألت الله أن يشفى نفسى من شىء ، فإنما أسأله أن لا يميتنى حتى أرى نجم فرنسا يتردى إلى حضيض ليس تحته تحت ، لما مسنا من بغيها وهضمها أيام استعمارها لبنان بأيدى نصاراه

الذين حطموا كيان جبل عامل الثائر على البغى ، حطموه بسلاح فرنسا انتصارا لها ، وحرصا عليها من وراء العصبية الدينية الذميمة ، التى غرسها فى صدورهم التبشير الافرنسى ضد جيرانهم المسلمين .

أقول : لقد أقام الساسة من هؤلاء اللبنانيين ، تمدهم بالقوة بريطانيا وفرنسا وحتى إيطاليا الأمة الهزيلة ، أقاموا الدنيا وأقعدوها بالدعاية العريضة للعروبة ، وأمدوا الجمعيات العربية بالأموال التى لا تأكلها النيران ، وملأوا أنهار الصحف ، وألفوا الكتب فى تعزيز العروبة ، وانضموا إلى المسلمين من الدعاة لها حتى كان المجلس العرفى فى عاليه ، أيام السفاح جمال القائد التركى ، كان يعج بأعيان المسلمين وعلمائهم ، وبينهم النزر اليسير من النصارى ، إذ آوتهم باريس فلم تظفر منهم تركيا بمن تعلقه على أعواد المشانق إلى جانب زملائه من المسلمين العرب ، ما عدا نفرا يعد على أصابع اليد الواحدة .

ليست العبرة هنا فيما اذكر من عبر السياسة العربية بين الحربين العالميتين ، لأنى كنت أقر القوميين على نهضتهم هذه ، ولا أفرق فيهم بين مسلم ومسيحى ، ولكن العبرة فى أن المسيحيين الذين تفانوا فى خدمة العروبة أيام الأتراك ، رأيناهم بعد أن زالت صولة الترك عن العرب ، وقامت دولة العروبة على يد فيصل بن الحسين ، رأيناهم أشد تنكرا للعروبة منهم للترك ، ورأيناهم يحاربون كل فكرة ترمى إلى تحرير العرب من بغى فرنسا فى سوريا ولبنان ، وبغى انكلترا فى العراق ومصر وفلسطين ، إذن لم يكونوا ينتصرون للعروبة أيام انضوائهم تحت لواء العرب فى جهادهم الترك ، وإنما كانت العروبة وسيلة يتذرعون بها لمحو الترك ، ثم يعودون بعدهم لمحاسبة العرب باسم الصليبية الأولى ، ومن رأى الفظائع التى ارتكبها نصارى لبنان فى جبل عامل أيام ثورته على فرنسا ، وغلبة فرنسا عليه ، وكان جيشه حافلا بأبناء مارون ، أقول : من رأى ذلك كما رأيت عرف كيف يسدد سهام اللوم على الجيرة من الجيرة ، والمواطن العربى من أخيه .

وها كم دليلا على ذلك الهضم للجار من الجار ، خدمة للأجنبى بدافع العصبية للدين :

١ — عندما ثار جبل عامل بأحراره على فرنسا مطلع السنة العشرين للميلاد ، وكانت أول ثورة على الاستعمار والاستعباد فى سوريا ، استمر عصف المجاهدين بالطغاة

ذوى الكلب والجوع والجشع من قراصنة فرنسا ، طوال ستة أشهر حتى لم يبق فى قوس الأم الحنون منزع ، وكنت إذ ذاك من المثيرين بما أقول وأشعر ، وكنا نتغنى بالغد المشرق بعد أن ندحر المستعمر ، ولكن الملك الهاشمى فى دمشق كان متربعا على عرشه ثم لا يعنيه من هذه الثورة إلا أن بعث إلينا بضابط أردنى ، يدعى على خلقى ، ومعه شرذمة لا تتجاوز الخمسين مسلحا ، ثم وقف عند هذا الحد ، وشباننا يقمعون الحملة إثر الحملة فى وادى عاشور ، باب الجبل الأشم .

والثورة إذا لم تتعزز بالمال والسلاح من منظمات قائمة ، أو حكومات جارية ، لا بد وأن تؤول إلى التلاشى ، لذلك كان من الطبيعى أن تضعف وتتلاشى ، ولكن بعد أن كانت الحملة الأخيرة بقيادة الجنرال كاترو ، فرقة كاملة ، يضاف إليها ضعفها من الشباب اللبنانى المارونى الغيور على فرنسا اليوم ، كما كان غيورا على العروبة أمس .

نحن فى صميم الثورة ، ويتصل بنا أن بعض الثائرين يسيئون إلى مواطنينا فى الجبل من نصارى العرب ، فتنادينا للاجتماع ، وكان مؤتمر « الحجير » فى واد سحيق يدعى بهذا الاسم ، وهو قلب جبل عامل ، وقد شهد هذا المؤتمر أعيان وعلماء جبل عامل ورؤساء عشائرها ، حتى الزعيم المطلق كامل الأسعد ، وقد كان طبيعيا أن يشهد المؤتمر رؤساء الشباب الثائر أمثال صادق الحمزة وزملائه .

وكان المتكلم الأول : العلامة السيد عبد الحسين شرف الدين الذى أعلن الثورة بنفسه فى الجبل ، وقد جاء بخطابه على العزوف عن نصارى العرب الذين هم فى جوارنا والاحتفاظ بتعزيزهم وحسن جوارهم ، وقد أمن أعضاء المؤتمر على ذلك ، مشيدين بأن الثورة إنما قامت على الأجنبى المستعمر ، وإن كان هوى المسيحيين معه إلا أنهم جيراننا ، ولا نحب أن نتناحر ونحن أبناء وطن واحد .

ثم لم يكتف العلامة الشيخ حسين مغنية وهو من كبار رجال السادة الفقهاء ، ولم يكتف بذلك حتى استدعى قادة الثورة وعلى رأسهم صادق الحمزة ، ثم وضع القرآن الكريم بين أيديهم وأخذ عليهم أن يقسموا عليه ، أن لا يمسوا جيرتهم من مسيحيي العرب بسوء ، وكانت هذه اليمين أحد بندين عظيمين من البنود التى عليها انعقد المؤتمر ،

أما البند الثانى فقد كان تأليف وفد من العلماء والزعماء يتصل بالملك الهاشمى فيصل لإبلاغه أن جبل عامل يطلب الانفصال عن لبنان ، والعودة إلى حضن أمه سوريا .

سقت هذا التمهيد لأصل بقارئى إلى أنه لم يمض على المؤتمر ، بعد تدمير الحملة الافرنسية لمدن وقرى جبل عامل ، وبعد غرامة فرضوها عليهم تكاد تناهز المليون دينارا من الذهب وكان الذى يتقاضى المال باسم فرنسا مسيحيا مارونيا يدعى « رزق الله نور » أقول : لم يمض على ذلك بضعة أشهر ، حتى صدر كتاب ملوك العرب للمؤرخ المسيحى المارونى « أمين الريحانى » هذا الذى تتغنى به الأعراب بما ملك الدعاة النصارى علينا بتمويههم أسباب السماء والأرض .

صدر هذا الكتاب وفيه : « لقد تنادى علماء وزعماء جبل عامل لعقد مؤتمر فى وادى الحجير ، واستخاروا الله بالسبحة على ذبح النصارى ، فخارلهم الله أن يذبحوهم فذبحوهم » .

تلك هى عبارة المؤرخ الأديب أمين الريحانى الذى يبعث بإنتاج قلمه إلى الأجيال ، فقد استصغر علماء طائفة تبلغ ٩٠ مليونا من العالم ، استصغرها إلى حد جعل عقول فقهائها رهنا بحبات سبحة يستخيرون الله بها على ذبح أمة .

هذا الريحانى معدود من أعلام النصارى الغير على عروبتهم ، فأين عروبته أو صدقه فى ادعاء العروبة من هذا البهتان الذى يصم به طائفة تبلغ نصف مليون فى لبنان بأنها سخيفة إلى حد التدنى فيما تقول وتفعل ، ولا ذنب لهذه الطائفة إلا أن أعيان القائمين بحركة القضية العربية أيام الترك من صميمها ، وعلى رأسهم الرئيس الأول للحركة : عبد الكريم الخليل ، الذى كان أول ضحية لها على يد السفاح أحمد جمال باشا ، لا ذنب لها إلا هذا ، وإلا أنها أول طائفة ثارت على الاستعمار بعد الحرب الكبرى فى سبيل عروبتها ، فهل كانت تستحق مثل هذا التأريخ على يد الريحانى المارونى ؟

وبرهان آخر على أن المسيحيين لم يعضدوا العرب فى وجه الترك لسواد عيون العروبة ، ولكن ليقضوا على الخلافة العثمانية التى أذاقتهم البلاء أيام سيطرتها على بلاد العرب ، وفيهم النصارى المضطهدون من الترك ، فلقد كان المسيحيون معذورين فى الثورة على الترك ،

لأن الضيم الذى لحقهم من الأتراك باسم الإسلام لايطاق ، إذ كانوا فى ذلك العهد ، أذل من قوم سبأ ، ولـكنهم ما بالهم تنكروا للعرب وملوك العرب وساسة العرب بعد أن باد العهد التركى ؟ ؟ وما بالهم كانوا لايحبون لرئيس حكومتهم أن يلفظ كلمة عروبة أو عرب فى أى خطاب يلقيه من على السدة العليا فى جمهورية لبنان الـكبير الضخم ؟ ؟ فاسمع أيها القارئ واعجب :

كنت على رأس السنة السابعة والثلاثين فى نويرك أجتازها إلى المـكسيك بدعوة من الجالية العربية ، ويشاء الله أن يشعر بى نفر من مهاجرينا فى نويرك ، وعلى رأسهم السيدان على محيى الدين وداوود رمضان ، فيحملونى على قبول دعوتهم لمأدبة يلتف حولها أعيان المهاجرين من معززى حركة النهضة العربية ، وأقبل هذه الدعوة شاكرا .

ثم يشاء الله أن يدعونى الشاعر نسيب عريضة قبلها لمأدبة تضم أدباء العرب فى نويرك ، فلبيت الدعوة ،.وكان فيمن دار بالخوان السيد مكرزل ، صاحب جريدة الهوى ، وكانت هذه الجريدة أقسى الصحف المسيحية المتعصبة حملا على العرب والعروبة والعاربين والمستعربين ، وكان منى عتاب لطيف للسيد الصحافى ، فأجابنى : « لا تلومونا فان إخواننا العرب يريدون بكلمة عروبة الإسلام ، ثم هم يريدوننا بدعوتنا إلى هـذه العروبة ، أن نعود إلى العهد البائد الذى رزحنا فيه تحت نير العبودية الإسلامية » .

لقد صارحنى بهذا ونحن على المأدبة ، فقلت له ، وقد آن وقت مغادرة المطعم : لعلى أجيبك عن هذا فى المأدبة الـكبرى التى تقام لأخيك الحومانى مساء اليوم ، فهل تقبل ؟ قال : بلا شك ، وسأتكلم أنا فى هذه المأدبة وأطرق هذا الباب ، وافترقنا على أن نلتقى مساء فى الندوة الرحبة ، التى تجمع أعضاء حزب الجامعة العربية ، وقد تأسس يومذاك لانشاء فروع فى الولايات المتحدة لاغاثة الأحرار من الثائرين على الاستعمار فى سوريا .

ويتقدم السيد مكرزل بدوره للخطابة فى مأدبة التكريم لمناظرة الحومانى ، ويلقى كلمة أفاض بها فى توجيه نقده للعرب والعروبة ، زاعما أن العرب إنما يتخذون العروبة وسيلة يصلون بها لتعزيز إسلامهم ، ونحن فى غنى عن تعضيدهم فى ذلك ، لأنا لم ننس بعد عصبية المسلمين من الترك ، وقد سيطروا علينا قرونا أذاقونا فيها ألوانا شتى من العذاب باسم الدين .

ذلك موجز ما صارحنى به الأستاذ مكرزل صاحب جريدة الهدى المارونية اللبنانية التى تصدر فى نويرك ، ونحن جمهور كبير نستمع إليه فى أعقاب تلك المأدبة ، ولقد هم بالرد عليه كثير من المسيحيين المعتدلين ، والذين انخرطوا فى سلك الجامعة العربية ، والذين تربطنى معهم أواصر المودة من وراء الأدب ، أمثال الأساتذة نسيب عريضة ، ورشيد أيوب ، ووليم كاستفليس وإيليا أبو ماضى ، وحتى بعض القسس لم ترقهم صراحة السيد مكرزل ، ولا سيما وقد واجه بها من مارسوا فيه الأدب الحر والعروبة الخالصة ، إلا وهو صاحب التكريم .

على أنى رجوتهم جميعا أن يتركوا لى الرد عليه ، وكان كذلك ، فقد وجهت الكلام للمستمعين ، باسطاً لهم مبادىء القضية العربية والأسس التى قامت عليها ، ثم قيام الملك الهاشمى وأبنائه بعبء الثورة على الترك ، مع حلفائهم بريطانيا وفرنسا ، وأثبت لهم عن هذه الطريق أن العرب حاربوا مع المسيحيين دولة الإسلام الأولى ومهبط الخلافة فى العا الإسلامى ، وإذن فالعرب ضحوا باسلامهم فى سبيل عروبتهم ، وذلك خلافا لما يزعم الزميل مكرزل ، من أنهم يريدون بالعروبة وسيلة للإسلام .

تلك لمحات مرت بى فى التعليق على محاضرة الرئيس ، ساقتنى إلى البث والشكوى من اخواننا المسيحيين العرب ، الذين آثروا الإفرنسيين علينا . والمثل يقول : جارك القريب ولا أخوك البعيد . وهب أن الترك الذين أعطوهم استقلالهم كانوا مسيئين إليهم ، فما الذى ألجأ إخواننا وجيراننا إلى أن يسيئوا إلينا ؟ ؟ وهل كانوا وحدهم مظلومين من الترك ؟ ؟ أفلسنا وإياهم مظلومين ؟ أفلم نكن معهم فى بوتقة واحدة من ظلم الأتراك ؟ ؟ فلماذا تنكروا لنا بعد جهادنا وإياهم فى سبيل الانفصال عن الترك ؟ ؟ ولماذا أفاقوا على أن العروبة طريق للإسلام ، بعد أن كانوا شركاءنا بالانتصار لها والحرص عليها ؟ ؟

لماذا يستأثرون فى العهد الإفرنسى وبعده بخيرات لبنان ، ونحن شركاؤهم فى الوطن ؟ ولماذا جعلونا أقلية وليسوا هم أكثرية وانما أحصوا نفوس لبنان كما يشاؤن فى العهد الإفرنسى ، ولا يزال احصاؤهم منذ ثلاثين سنة قائماً دون أن يجددوه ، ويشركونا فى الإشراف على الإحصاء لنعلم : أهم الأكثرية فى لبنان أم نحن الأكثرية الساحقة ؟ ؟

ثم لماذا يستهجرون المسيحية من الخارج حتى الأرمن الذين لم يلبثوا مهاجرين إلينا أكثر من عام واحد حتى أدخلوهم فى الجنسية اللبنانية ، بينما نرى الأكراد المهاجرين منذ خمسين عاما إلى لبنان لم يعملوا على تجنيسهم بل لم يجيبوا طلبنا إلى ذلك رغم الإلحاح والتوسل ؟؟ ولماذا يعملون اليوم على تجنيس مسيحيي فلسطين دون مسلميهم ، ومجموعهم لاجئ إلينا ويستدعى العطف والرثاء ؟ ؟

كل هذه نفثات قذفها الصدر وأنا بعيد عن وطنى لبنان ، تحت سماء القاهرة التى أعزتنى وأكرمتنى بعد تشريدى من لبنان بسبب مجلتى « العروبة » التى كانت تصدر فى بيروت ، والتى جرت على باسمها كل بلاء من الإفرنسيين واللبنانيين معا .

لا أحب أن أنفث كل كوامنى فى هذا الموجز ، ولكنى أدخره لوقت آخر ، وإنما جر على هذا البحث اللاحق بتعليقى على كلمات صاحب الدولة أحمد حلمى باشا ، وليس فى تعليقى هذا بعد عن صميم الموضوع ، لأن الذى جر علينا هذه الويلات ، إنما هو الحكم التركى الجائر الذى ألجأنا للثورة عليه مع ألد أعدائنا من الغربيين ، إذ هو عدونا فى القومية ، ولكنهم أعداؤنا فى القومية والدين .

ولولا جور الترك علينا ، ولولا استخفافهم بالدين الإسلامى ، ولولا اعتصامهم بكل ما هو أجنبى عنا ، لما انفصلنا عنهم ، ولبقينا وإياهم أمة تملأ الأرض من بحر الهند إلى المحيط الأطلسى ، أمة لا يقوى العالم على قمعها ما دامت قائمة على العدالة والإخاء ، والمساواة التى سنها لهم محمد ، والتى ضمن لهم بها سيادة العالم ، ولكن ملوكهم وأعيانهم ومترفيهم انغمسوا فى الشهوات ، واسترسلوا فى الغوايات ، ونبذوا رسالة محمد وتجاهلوا الوسيلة التى ضحى محمد وأصحابه فى سبيل تثبيتها فى النفوس وترسيخها فى القلوب ، فعمد هؤلاء بفسقهم وفجورهم واستخذائهم لأعداء الإسلام ، فكان من الطبيعى أن ينهاروا ، وأن يذهب ملكهم الذى لا تغيب الشمس عنه ، ضحية هذا الفجور وذلك الاستخذاء ، فكم نحتاج إلى تضحيات بالنفس والزمن والمال ، لنسترد ما قبض المستعمر عليه بالنواجذ ، وأعمل فيه معاول الهدم لحقنا والبناء لباطله ؟ ؟ وكم نبيت ونصبح على الآلام ، إذ نسمع بالفواجع التى يقصف بها الأجنبى تراثنا ليمحوه من سجل الوجود ، فى فلسطين والمغرب الأقصى

ومصر والسودان والعراق وأطراف جزيرة العرب التى لم يسلم منها شبر إلا وقد عاثوا فيه حتى أصبحت مصداقا لقول الشاعر فى قنابره :

لم يبق فى أرض الجزيرة بقعة إلا وعاث بها ظلوم غاشم
قف على بى الجثث التى هى مسرح للسافيات وللوحوش مطاعم
أذرى بتربتها الدموع وقل أن أذرى بها الدر الذى أنا ناظم

* * *

أمصارع القوم الذين توطدت للعز منهم فى ثراك دعائم
قومى الألى وردوا المعارك وثباً وعلى الجماجم موجها متلاطم
هل تغفل الأيام ذكر جهادكم فينا ، ويبعثه الحنين الدائم
فى العالم العلوى حيث نزلتم عقدت مناحات لكم ومآتم

المحاضرة التاسعة عشرة :

حياة المحاضر

الأستاذ عبد الله عبد الجبار

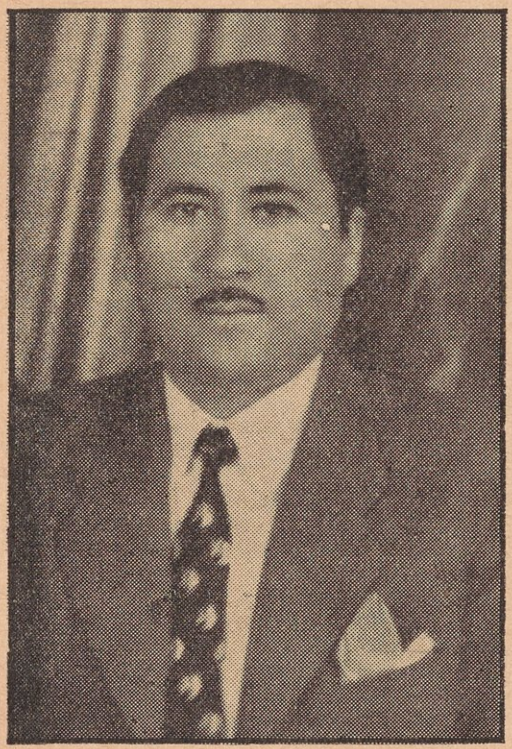

مولده ولد بمكة المكرمة سنة ١٣٣٨ في السنة الثامنة والثلاثين بعد الثلاثمائة والألف لهجرة الرسول صلى الله عليه وسلم ونشأ في نفس المدينة .

دراسته تلقى الدروس الابتدائية في المدرسة الفخرية العثمانية وغادرها إلى مدرسة الفلاح فأنهى دروسه الثانوية فيها . وكلتا المدرستين في مكان ولادته ونشأته ، وكان انتهاؤه من دراستيه هاتين عام ١٣٥٥ . ثم غادر بلده في بعثة حكومية إلى مصر للدراسة العالية فتخرج من كلية دار العلوم بجامعة القاهرة سنة ١٣٥٩ .

عمـــله

عاد إلى وطنه فعمل مدرسا فى مدرسة تحضير البعثات والمعهد العلمى السعودى ، ثم أصبح مديرا لهذا المعهد ، وبعد ذلك نقل لإدارة البعثات العلمية السعودية بمصر سنة ١٣٦٩ وهو الآن يشغل فيها منصب مراقب عام لهذه البعثات .

آثاره

أصدر عام ١٣٧٤ مسرحيتى « العم سحتوت » و « الشياطين الخرس » وقصة « أمى » وهو يعمل الآن فى إخراج كتاب ضخم عن الأدب الحجازى فى عدة أجزاء بالاشتراك مع الأستاذ محمد عبد المنعم خفاجى المدرس فى كلية الأزهر الشريف .

شخصيته

يمتاز الأستاذ عبد الله عبد الجبار بالوداعة فى غير ميعان ، والاصالة فى غير ضعة . والتواضع فى غير تهافت ، والجرأة فى غير طيش ثم فى الكرم بغير رياء ولا تكلف .

أما أدبه فهو الصورة الحية لمهبط الوحى من رقة فى لفظ وجزالة فى أسلوب وطرافة فى معنى ومنطق فى بيان .

المحاضرة التاسعة عشرة

من مشكلات الأدب العربى الحديث

ألقاها المحاضر بنفسه فى منزل الأستاذ أحمد الملائكى

مساء يوم الأحد الواقع فيه ١٧ / ٩ / ٥٥

تحتل هذه المشكلة التى تتبلور فى هذا السؤال : « لمن يكتب الأديب ؟ للخاصة أم للعامة ؟ » مكانا خصبا فى عقول الأدباء والنقاد ، ومناقشاتهم ومساجلاتهم وتتفرع عنها مشاكل أخرى مثل مشكلة الحرية فى الفن ، والجمالية فى التعبير وغير ذلك مما نحاول أن نلقى عليه ضوءا كاشفا فى هذا المقال . الواقع أن الأديب لا يكتب للعامة ولا يكتب للخاصة ، وإنما يكتب أولا وقبل كل شىء لأولئك الذين يتجاوب معهم فى الإحساس والشعور ، وبقدر ما يكون تشبع هؤلاء بالروح الفنية ونزوعهم للميول الأدبية يكون حرص الأديب على أن يقرأوا أدبه ويستوعبوا فنه ويتصلوا بنتاجه . وإذا كان الأديب واقعيا هادفا فإنه يسره أن يقرأ أدبه الطبقات الكادحة والطبقات المتوسطة والعمال والزراع وصغار الموظفين ، لأنه حينئذ سيجد نفسه تنداح فى نفوسهم وأفكاره وعواطفه تتغلغل فى أفكارهم وعواطفهم ، وكلما اتسمت هذه الفئات بسمة الأدب والفهم ازداد حرص الأديب الهادف على مخاطبتها وتجلية شعورها . ولا شىء يذكى قريحة الأديب كالشعور بالتجاوب الصادق بينه وبين من يكتب لهم ويصور حياتهم ؛ أفراحهم وأحزانهم ، ملاهيهم ومآسيهم ، ولا شىء يضايق الأديب مثل إحساسه بغباء الكثرة الكاثرة من الدهماء ؛ أولئك الذين لا يفهمون كلامه أو لا يفهمونه على وجهه ، أولئك الذين لا يترجمون الإشارة والرمز — وقد اضطر إليهما — إلى تعبير واضح صريح يهز كيانهم ويؤثر فى أعماقهم أبلغ تأثير .

وإذا كان الأديب غزليا مترفا ، فإن شعوره بالغبطة والابتهاج لا يتم إلا إذا قرأ شعره وقصصه أولئك الأغنياء المنعمون من ذوى الذوق الفنى المترف الذين يتفقون معه فى المنزع والمشرب والإحساس بحياة الصالونات ، وحياة اللهو والقصف والمجون .

وإذا أوتى هؤلاء حظا من الثقافة والذوق الأدبى فإن حرص الشاعر الغزلى على أن يقرأوا أدبه يتضاعف ، لأنهم أقدر الناس على إدراك براعته فى رسم تلك الحياة الغنية المترفة وتصوير أجوائها وملابساتها وملامسها الناعمة وطيوبها الفاغمة وبراعمها الحريرية.

ومهما يكن من شىء فإن الباعث الأساسى الذى يدفع الأديب للإنتاج هو هذه المشاركة العاطفية والوجدانية — هو ذلك الإحساس المشترك سواء أكان إحساسا بالغنى أو بالفقر أو كان إحساسا بالكدح أو بحياة الفراغ والجدة ، وسواء كان إحساسا بالذل والعبودية والاضطهاد أو إحساسا بالعز والتسلط والاستعلاء . وكلما أحيط ذلك الإحساس بالإطار الأدبى من جانب القراء المستهلكين كانوا أكثر إيثارا من جانب المؤلفين المنتجين ! وهذا التجاوب إذن هو الذى يعقد الصلة الروحية بين الأدب ، والقراء .

بقيت هناك زاوية هامة لم يتعرض لها الذين تناولوا هذا الموضوع مع أنها بديهية وهى أن الأديب يكتب لأعدائه ، كما يكتب لأصدقائه أيا كانت لون هذه العداوة ، شخصية أو أدبية ، سياسية أو دينية ، حزبية أو طائفية ، ولو سبرنا نفسية جرير وهو يهجو الفرزدق أو الفرزدق وهو يهجو جريرا ، لألفينا كلا منهما حريصا أشد الحرص اعلى أن يصل هجاؤه لقرنه وأن يهتز له قلبه ، وأن يزلزل كيانه المعنوى زلزالا عنيفا مدمر . . . ويخيل إلى أن أحدهما فى لحظة من لحظات الحنق الأسود لو خير بين أن يقرأ الناس جميعا شعره ما عدا خصمه ، وبين أن يقرأه خصمه وحده دون بقية الناس لاختار الحالة الثانية !

وحينما تأزمت الأمور بين المتنبى وكافور ، وآذنت القطيعة بينهما بالشر المستطير أخذ المتنبى يعد العدة للرحيل وهو مطوى الضلوع على حنق مدمر ، حتى إذا كان يوم عرفه من سنة ٣٥٠ هـ وقبل أن يغادر مصر بيوم واحد أصدر منشورا سياسيا ضد الأمير كافور ، وهذا المنشور يتمثل فى داليته المشهورة التى مطلعها :

عيد بأية حال عدت يا عيد بما مضى أم لأمر فيك تجديد

وإنى لأتصور المتنبى وهو يفر من وجه كافور كيف كان يتنازعه عاملان : عامل الخوف من أن يقع فى قبضة الأسود المخصى — على حد تعبيره — وعامل التشفى والانتقام حين يتمثل كافورا وقد وقعت فى يده تلك القصيدة ، كيف كان يستشيط غضبا ويتميز غيظا وتتدلى مشافره أسى وحنقا ، فيشعر بالسعادة الغامرة والارتياح النفسى العميق : ليقرأ كافور — أولا وقبل كل شىء تلك القصيدة ولا عليه بعد ذلك أيقرؤها الناس أم لا يقرأونها ! هذا هو شعوره فى ذلك الموقف !

ولو صح ما قيل من أن الورقة التى تضمنت تلك القصيدة حين وصلت ليد كافور أمر بإحراقها ولم يقف على ما فيها ، وتصورنا أن المتنبى علم بهذا التصرف ، لعلمنا أية صاعقة نزلت على قلب المتنبى وهدت كيانه !

فالأديب اذن يكتب لعدوه كما يكتب لصديقه ، وماذا نسمى العدو فى هذين المثلين وهو فرد — أنسميه خاصة أم نسميه عامة لست أدرى ؟ !

وما أكثر القصص الواقعية الحديثة والقصائد المتحررة الواعية التى تحفل بها مجلة حرة كمجلة « الآداب » التى تصور مآسى الشعوب وحياة البؤس والشقاء ، صدقونى إذا قلت لكم إن منشئي تلك القصائد والقصص لا يسعدهم شىء قدر ما يسعدهم أن يقرأها الطغاة والمستبدون والمستعمرون والمستغلون ، لأنها السلاح الذى ينفذون به فى صميمهم ، ولأن الأدباء يريدون — عن وعى وعن غير وعى — أن يعكروا صفو هذه الطبقة الجشعة المستبدة ويحيلوا جناتهم النفسية جحيما أليما وعذابا مقيما .

فالأدب الواقعى إذن لا يكتب للكافة وحدها ولا يغترف من واقع الجماهير ليرد إليهم وحسب وإنما يكتب لهم ، ويكتب لأعدائهم ، وربما كان حرصه على تنغيص حياة هؤلاء الأعداء ووخز ضميرهم وإثارة احساسهم بفقدانهم الشعور الإنسانى ، لا يقل عن حرصه على رفع مستوى الجماهير وتحريكهم لرد الحقوق السلبية ونيل الحرية المفقودة ولا يكون ذلك الا بمخاطبتهم والكتابة اليهم ... وثمت شىء آخر يدعو لتوجيه الخطاب لهذه الفئات وهو توهينها وإضعاف روحها المعنوية وتحطيم تلك الأصنام البشرية التى تعبد من دون الله .

والملاحظ أن شكسبير وموليير من المؤلفين الذين تمثل رواياتهم باستمرار فى بلدان الديموقراطيات الشعبية والأتحاد السوفياتى . . . كما تمثل فى غيرها من البلاد . ومعنى هذا أن شكسبير وموليير يخاطبان أصحاب اليمين وأصحاب الشمال على السواء فهما إذن لم يكتبا لفئة معينة من الناس لا خاصة ولا عامه وإنما كتبا للناس جميعا ، والسر فى هذا أنهما اكتشفا أكسير الخلود والبقاء وهو الروح الانسانى الخالد . . . مع توافر العناصر الفنية الأخرى بطبيعة الحال . . .

هذه صورة مقتضبة لواقع الأدباء النفسى حين يكتبون أدبهم الفني ويذيعونه على الناس ، والواقع أن الأديب حر لا يعرف القيد ، وأن الناقد الأدبى لا يسعه أن يفرض على الأدباء التزام مذهب بعينه ، أيا كان هذا المذهب ، فالبيئة والتربية والثقافة والمزاج الشخصى وروح التفاؤل أو التشاؤم ، والانطوائية أو الانبساطية وغيرها من العوامل هى التى تعين خط السير للأديب فتجعله كلاسيكيا أو رومانسيا ، واقعيا أو رمزيا . ويلوح لى أن جوهر الخطأ فى هذه القضية يتبلور فى الخلط بين المذاهب الاجتماعية وبين المذاهب الأدبية ، فقد يعتنق أديب ما مذهب الاشتراكية ، ولكنه لا يستطيع أن يكون أديبا اشتراكيا ، ذلك لأن مزاجه الفنى قد تجوهر فى الشعر الغنائى مثلا . . . وإذا ما حاول أن يقصر نفسه على أن ينتج أدبا واقعيا أدركه الفشل أو تمخض عن غباء وصور شوهاء لاغناء فيها . . .

وأعرف أديبا شاعرا درس مذهبه الاجتماعى دراسة دقيقة شاملة وسجل آراءه فى كتب ومقالات . وطالما تاقت نفسه إلى أن يصور أحاسيسه عن مذهبه شعرا . ولكنه ما ان يهم بذلك حتى يخامره إحساس غريب واحد وهو أنه يتصور نفسه فى متاهات مجهولة تفضى به إلى شاطئ مجهول فينظم قصائده دائرة حول هذا المحور الغريب ! !

وقد تكون أديبا واقعيا تؤمن إيمانا جازما بالواقعية ، ولكنك مع ذلك لا تستطيع أن تنتج إلا أدبا رومانيسيا حزينا دائرا حول ذاته الحائرة الحزينة وذلك لأن طاقتك الفنية قد تحددت فى هذا الاطار ! .

وليس معنى هـذا أن الشاعر الغزل الرقيق مثلا ، لا يمكن أن يكون أديبا وطنيا بارعا « كلا » فقد تتعدد ميادين الـكلام أمام الأديب فيبرز فى هذا الميدان كما يبرز فى ذاك ويتوج بأكليل الغار هنا كما يتوج هناك ... ولنضرب لذلك مثلا: أديبا عرفته العربية سباقا فى كل حلبة من حلبات الشعر والنثر التى يطرقها ذلكم هو الأستاذ محمد على الحومانى فهو فى قصائده العربية والاسلامية والوطنية يحلق فى سماء الفن والشعر بأجنحة قوية مكينة تماما مثل ما كان يحلق فى ريعان شبابه حين كان يناجى ربة الشعر بالقصيد مستلهما حواءه الملهمة فإذا هى أفانين من السحر والخمر الحلال تسبى العقول والقلوب بروعتها وفتنتها وجمالها ورقتها .

والسر فى هذا هو استعداد الحومانى الفنى والنفسى وشعوره بقيمة الحرية الأدبية واحساسه بضرورة الاستجابة القوية فى نظم القريض . . ولو افترضنا جدلا أن معتسفا أفترض على الحومانى أن ينظم قصيدة وطنيـة فى الوقت الذى لا تستجيب نفسه إلا للغزل والنسيب أو قصيدة غزلية حين لا يكون متهيئا إلا لتصوير حنق العرب على اليهود ورسم مشكلة اللاجئين فى قضية فلسطين ! أقول لو حدث ذلك الاعتساف لحرمنا وحرم الأدب الحى من روائع الحومانى فى الغزل والتشبيب ومن أوابده الشعرية فى الوطنية والعروبة والاسلام على السواء ، فإن شرما يمنى به الأدب أن يقسر الأديب نفسه أو يقسره غيره على الـكتابة فى هذا الموضوع أو ذاك دون استجابة نفسية صادقة — ولست أدرى أيهما أجدى على الأديب : أن نترك الأدباء أحرارا ينتجون كما يريدون ويعبرون عن ذواتهم كما يشاءون ، أم أن نقسرهم على التزام مذهب بعينه ونحبسهم فى إطارنا الواقعى فينتجون أدبا مسيخا فاترا ؟ ! فأخشى ما يخشى على الأديب الواقعى هذه الدعوة القاسرة التى حشدت فى زمرة الأدباء الواقعيين كثيراً من أدعياء الأدب . . . .

ونحب أن نشير هنا إلى مشكلة الحرية فى الواقعية وسفور الآراء الاجتماعية والسياسية التى قد تحيل القصة الفنية إلى مقال إجتماعى، والقصيدة الحديثة إلى خطبة منبرية لفقدان عنصرى الفن والجمالية . ولا مراء فى أن زعماء الواقعيـة الهادفة كانوا متحيزين فى الفن وأن جدارة الأثر الفنى لديهم جميعا رهينة بما يبثه الفنان من الدعاية لأفـكار معينة

والدفاع عنها بحرارة وشجاعة . . . وهـذه الروح التحيزية تجافى قضية الحرية فى الفن والأدب ويتناولها بالنقد والتفنيد كثير من الأدباء والنقاد مما لا نود تفصيله فى هذا المجال ... ولـكن الأدباء المتقدمين يدافعون عنها ويشرحون مزاياها ، فقد كتب إيليا أهرنبورغ مقالا عنوانه « نعم ان أدبنا متحيز » جاء فيه : « إنه من الطبيعى جدا ، أن يحب الـكتاب أشياء ويكرهوا أشياء أخر ، وإذا كانوا يتميزون عن معاصريهم فإنما يتميزون بحساسية عواطفهم ، لا بالعواطف الخابية .

« ان (دانتى) قد عاش نفس حياة معاصريه فساهم فى نضالاتهم السياسية وخصها بكثير من أشعاره ، وهذه الروح التحيزية لم تحل أبدا بينه وبين أن يبدع ، بل على العكس ساعدته على خلق هذه « الـكوميديا الالهية » التى لاتزال تحرك إحساساتنا على الرغم من أن أصداء أحداث القرن الثامن عشر السياسية قد سكنت منذ أمد بعيد » .

ونلاحظ أن التقدمية تدعو إلى حرية الفنان . ولـكن هذه الحرية ليست تجريدية وإنما هى مقيدة بالواقعى الملموس .

ومع هذه الواقعية والروح التحيزية فإن انجلز يفرق بين التحيز والنزوع ، ويرى أن آراء الـكاتب كلما كانت مغلفة كانت أدعى لسمو الأثر الفنى وتحقيق أصالته الفنية ...

وقد كتب بصفة خاصة عن النزوع إلى الرواية الاشتراكية فى نهاية القرن الماضى إلى مرغريت هاركتس قائلا : « إنى لأبعد ما يكون عن اتهامك بالخطأ لانك لم تكتبى قصة اشتراكية خالصة رواية ذات نزعة Tenden graman كما نسميها نحن الألمان كى تمجد آراء الـكاتب الاجتماعية والسياسية » .

ليس هذا ما أعنى ، إذ كلما كانت آراء الكاتب مقنعة كان ذلك أفضل للأثر الفنى . كما أوجه اللوم إلى مينا كوتسكى لأن الشخصية عند أرنولد « أحد أبطال روايتها ج . ن » قد ذابت فى المبدأ بصورة كلية . . .

وللأديب الإيطالى « ألبرتومورافيا » رأى فى قضية التحيز جلاه لنا حين سئل عن موقفه من اتجاه الفن للسياسة بقوله : « إننى لا أميل مطلقا لمدرسة الفن للفن ولا لمدرسة الفن للسياسة . . . إن رسالة الأديب هى أنه يجب أن يمثل الحياة بمساوئها وخيراتها

وأن يحلل هذه الحياة نفسيا وفلسفيا واجتماعيا بدون أن يعطى هو حكمه عليها أو أن يحل مشاكلها . . . يجب أن يكون الأديب كالمتفرج . . . إننى أومن بالواقعية وأساسها أن يسجل الفنان ملاحظاته — كما تسجل السينما التقريرية الوثائق العلمية — ثم يضيف إليها إحساساته وخبرته كإنسان » ، ونحن لا نزيد شيئا على رأى الأديب الإيطالى العالمى إلا أن يكون الفنان إنسانا حرا شريفا حين يسجل حقائق الحياة !

وتأتى بعد هذا مشكلة الجمالية والتعبير .

وسارتر فى كتابه « ما هو الأدب » ينبذ الأدب الشعرى والفنى والميتافيزقى ويدعو إلى نثر يهدف إلى عمل أخلاقى واجتماعى وسياسى بين البشر غايته بكل بساطة الاتصال بالآخرين . . .

وهو مع هذا الالتزام لا ينكر الجمالية والفن وإن كان يحلهما المحل الثانى « فإن اللذة الجمالية فى النثر ليست صافية إلا إذا جاءت — بالإضافة . . . ولنكتب أولا بنية أن نقول شيئا للأحياء ولا يضيرنا ألا يبقى لأحفادنا الذين لن يحسوا بقيمة الحوادث الراهنة إلا الإعجاب بأسلوبنا ، ولكن لا يحسن بنا أن نتوخى الأسلوب لذاته، إن المسئولية والصدق يأتيان أولا ، والأسلوب والجمالية فى المحل الثانى » .

وأنا أوجه هذا الكلام للذين يحسبون الواقعية ابتذالا فى التعبير ، وأحب أن ألفت النظر بصفة خاصة إلى قول سارتر « ولا يضيرنا ألا يبقى لأحفادنا إلا الإعجاب بأسلوبنا » فهو إذن مؤمن بروعة أسلوبه وخلوده وإن كان قد وضعه فى المرتبة التالية للمسئولية والصدق.

وقصارى القول ان الواقعية فى الأدب العربى الحديث يتهددها عاملان خطران هما :

(١) ملتزمون غير أدباء . (٢) وأدباء غير ملتزمين .

فقد تطفل على مائدتها هذان الصنفان من الناس ، فأما أولهما فقد آمن إيمانا راسخا بالواقعية وظن أن حرارة هذا الإيمان تبيح له أن يدخل حرم الفن المقدس فغشيه دون أن تكون له الكفاية الأدبية والأدوات الفنية اللازمة لإجادة التصوير والتعبير فكان نتاجه سببا فى هبوط المستوى الفنى للأدب الواقعى .

وأما ثانيهما فأدباء كانوا يعيشون فى أبراجهم العاجية أو قضوا حياتهم فى الترف والنعيم والمجون ، ولا يحسون بمبدأ الالتزام عقيدة تسرى فى دمائهم ومع ذلك أحبوا أن يكون لهم نصيب فى هذا اللون الجديد فجاء أدبهم كألعاب البهلوان البارع ولكنه خال من الحرارة والصدق والإيمان !

يا دعاة الأدب للحياة — أنقذوا الأدب من هذه الطفيليات يستقم لكم بناء الأدب الجديد — وبعد فما هو قصارى القول فى هذا الموضوع .

مجمل الرأى أن الأديب يكتب للفرد كما يكتب للجماعة ويكتب للأصدقاء كما يكتب للأعداء ، وأن الأديب الواقعى لا يكتب للعامة وحدها ولا للخاصة وحدها وإنما يكتب لهم جميعا وأن عباقرة الأدب كشكسبير وأبى العلاء المعرى يكتبون للناس جميعا .

هذا هو رأى الناقد الأدبى على أساس الواقع النفسى للأدباء لا على أساس الاتجاه الغائى . أما رأى الشخص الذى يعتنق مذهبا خاصا فى الحياة فيتبلور فى هذا الإحساس المركز الذى صوره الشاعر العظيم بقوله :

« إن لم أحترق أنا ، وإن لم تحترق أنت ، وإن لم نحترق كلنا ، فكيف يمكن لهذه الظلمات ، أن تصبح ضياء ؟ » .

وهذا هو واجب الأديب العربى الحر فى العصر الحاضر ، بوصفه إنسانا — أولا — يشعر بآلام قومه وآمالهم ، وبوصفه فنانا — ثانيا — يستطيع أن يصهر فى بوتقته الفنية تلك الآلام وهذه الآمال ثم يصوغها قنابل شعرية ومدافع سريعة الطلقات إما بالإثارة المباشرة وتصوير الواقع الأليم كما فعل الشاعر كامل الشناوى فى قصيدته التى نظمها أثناء معركة القنال ودماء الفدائيين والمجاهدين تبلل ثرى الوادى الخصيب وقلوب الأحرار فى ظلمات السجون يسحقها الكبت والظلم والطغيان ، إذ يقول فيها :

يا أخى فى الظلم والسجن وفى القيد الحديد
يا أخى فى الضيم والصبر على عيش العبيد
يا أخى فى السخط والنقمة والوعى الجديد

أنت فى صمتك مرغم أنت فى صبرك مكره
فتـــكلم وتـــألم وتعلم كيف تكره

وأما بالتذكير بمجد الآباء كما يفعل كثير من الشعراء — وأما بالتحقير المثير الباعث للهمم والحافز لاسترداد الشعور بالعزة والكرامة كما فعل الشاعر الحجازى السيد ابراهيم هاشم الفلالى فى قصيدته « ماذا أقول » التى يقول فيها :

ماذا أقول وما استفاد القوم من عظة وقاله
صهيون أرسى فى مرا بعنا وحط بها رحاله
والغرب يركلنا فنلـــ ثم من حقارتنا نعالة
أرسى مراسيه العدو بأرضنا ونضا نصاله
فاللاجئون تضوروا جوعا ولم يجدوا النخاله
وما رأيت جموعهم وكأنهم نصب مهالة
تالله أن الصمت أبلغ فى الشقاء من المقاله !

وكما فعل الحومانى فى قوله من قصيدته « ذو الفقار » فى ديوانه « أنت أنت » :

يا أبا القاسم استبد بنا الحز ن وأدمى جفوننا تسهيدا
كم مشينا على الوقيد حفاة نتبارى إلى السماء صعـودا
ثم هانت نفوسنا فنسينا تحت وطء الهوان ذاك الوقيدا
وتوالت سود الخطوب علينا فصغرنا حتى صغرنا اليهودا

واما بنداء أرواح الشهداء زملاءهم فى الكفاح من الأحياء كما فعل الشاعر معين بسيسو اذ يقول على لسان أحد شهداء فلسطين :

أنا أن سقطت فخذ مكانى يارفيقى فى الكفاح
واحمل سلاحى لا يرعك دمى يسيل من السلاح
وانظر إلى عينى أغمضتا على نور الصبـــاح
وانظر إلى شفتى أطبقتا على هوج الرياح
أنا لم أمت . . أنا لم أزل أدعوك من خلف الجراح

وعلى هذا فالأديب العربى الحر — بوصفه إنسانا يدين بمبدأ خاص فى الحياة — لا بوصفه ناقدا أديبا — جدير به أن يدعو زملاءه الأدباء الواقعيين لأن يحملوا الرسالة ويؤدوا الأمانة وأن يذيبوا مهجهم على القرطاس ويصوروا احساس الجماهير ويوقظوا شعورهم ليرفعوا صوت الشعب الذى هو صوت الله .

جدير به أن يؤنبهم وينقدهم إذا ما تقاعسوا عن النضال ، كما فعل سارتر إذ اعتبر فلوبير وغونكور مسئولين عن حركة القمع التى تبعث حكومة الكومون Commune لأنهما لم يكتبا سطرا للحيلولة دونها .

جدير به بعد ذلك أن يضحى ويحترق وأن يهيب بإخوانه وزملائه أى يضحوا ويحترقوا حتى تظل جذوة الكفاح متقدة أبدا مشتعلة دائما فمشعل الحرية منذ كانت الحرية لا يضيئه إلا دم الشهداء وأقلام الأحرار .

النقاش

بدأ النقاش الأستاذ يوسف حمودة ردا على المحاضر فى أن الأديب إنما يكتب لمن يتجاوب معه فى أحاسيسه ، سواء كان من الخاصة أو العامة . «يقول المناقش : إن كثيرا من الأدباء والفنانين شعراء وغيرهم ، قد أدوا رسالتهم إلى المجتمع دون أن يكون لهذه الرسالة تجاوب فى نفوس معاصريهم ، ولعلنا نقرأ عباقرة فى الأجيال السابقة فارقوا الحياة على غصص من ظلم شعوبهم لهم ، حيث لم تتجاوب أصداء رسالاتهم فى نفوس معاصريهم ، فكيف نقول : إن الأديب أو الفنان ، إنما يكتب لمن تتجاوب أحاسيسهم فى نفوس قارئيه ؟

ويقول الدكتور مندور ردا على المحاضر فى أن الأديب ناثرا أو ناظما يلتزم فى رسالته إلى مجتمعه أن تعبر عن ذاته المشرفة على أمته ، ليستطيع تشخيص الداء وتركيب الدواء يقول : هذا الرأى إنما يتمشى مع الكاتب الأديب ، وأما الفنان الشاعر ، فلا يمكن إلزامه بقيد ما فى حدود فنه ، لأنه ملهما أكثر منه منشئا ، فإلزامه إنما هو إلزام طبيعته ولا سلطة للمجتمع على الطبيعة ، لأنها المتحكمة الأولى بالإنسان الذى هو وليدها فى فنه الموهوب قبل أن يكون وليدها فى أدبه المكسوب » .

على أن مقرر الندوة لم يقر الأستاذ حمودة على دفعه المحاضر بأن كثيراً من العباقرة فارقوا الحياة دون أن تتجاوب أصداؤهم فى أحاسيس مجتمعاتهم . يقول المقرر ، وهو مؤلف الكتاب : ليس المفروض فى تجاوب الأحاسيس بين الأديب وقارئه أن يكون هذا القارئ معاصرا له ، فقد تتجاوب أصداء العبقرى فى أحاسيس جيل يخلف جيله أجيالا متتالية ، ممن قرأوه ، فالكاتب إنما يكتب لمن يقرأه فتتجاوب أصداء فنه فى نفسه لا لمن يقرأه وهو معاصر له .

كم من عبقرى طواه التاريخ فى أعماقه دون أن يشعر به معاصروه ، ثم يبعثه فنه فى أجيال تليه ، إذ كان لهذه الأجيال لا لجيله ، وكم من عبقرى يسبق الزمن فيتنكر له عصره ، ثم يبعث الله من يتذوق فنه فيقيم له التماثيل ، ولو أردنا أن نعد العباقرة من هذا النوع فى أعماق التاريخ لأعوزنا الحصر إلى قلم لا ينضب .

أما كلمة السيد مندور فإنما تتوجه إلى دفع المحاضر فيما إذا جردنا الشاعر أو الفنان من تأثره بزمانه ومكانه فيصح معنا حينئذ أن لانلزمه بما يقتضيه جيله من إصلاح ، وكيف لايكون الفنان ملتزما إصلاح قارئه ، وهو إنما بعث لهذا الإصلاح ؟ ثم كيف لا يستطيع الفنان أن يوجه أمته إلى حيث يحب وهو وليد هذه الأمة ؟ وكيف يستلهم أو يستوحى دونما تأثر بآلام أمته وآمالها ؟ إن هذا لايكون حتى يكون الفنان الإنسان من غير جبلة الإنسان ، فأنا مع الدكتور فى أن الفنان من عالم الطير لا يلتزم توجيه الإنسان ، وأن الفنان فى عالم الإنسان لا يلزمه توجيه الطير لأنهما عالمان متغايران فى ألوان الحياة .

أما أنا الفنان الإنسان لا يلزمنى توجيه الإنسان ، وقد بعثتنى الطبيعة موجها له ، فلا مناص لى من هذا الالتزام فى جيلى ، أو فى الأجيال التى تليه ، فرب فنان مبعوث بعبقريته لجيل يسبق جيله ألف عام إلى الحياة المثلى .

التعليق

إذا كان الأديب وليد تفاعل المجموعة الإنسانية ، وتأثره بما يسود هذه المجموعة من خير وشر يتنافسان فى بسطها وقبضها ، وإذا كان الأديب هو الفقيه الأول فى الحياة القائمة على صون تلك المجموعة من تسرب الفساد إليها ، وإذا كان هو الشاعر بالمسئولية بين يدى سموها وانحدارها ، أقول : إذا كان الأديب هو هذا كان بلا أدنى شك هو الطبيب الذى يعالجها إذا اعتلت ويحرص عليها إذا نقهت .

فرسالته إذ ذاك لا تختص بالعامة ولا الخاصة إذ ليس الأديب من خاصة الناس ولا عامتهم ولكنه منهما جميعا فهو بحنانه وعطفه من طبقة الناس الدنيا ، ثم هو بعقله وتفكيره من طبقتهم العليا ، هو لبنى الإنسان جميعا وبنو الإنسان له وحده إذ هو المسئول الوحيد عن الإنسانية جمعاء ، فهو يكتب لهذه الإنسانية سواء تجاوبت أصداء روحه فى أحاسيس بنيها أم تجاوزوها إلى أصداء أخرى .

وما أجمل ما يتمثل به عامة الناس : «اعمل المعروف وارمه فى البحر» وهذا صريح فى أن عامة الناس تستلهم الحق فيما تفكر ، وصريح فى أن فاعل العرف لا يكون مخلصا حتى يفعله للحق فقط لا للإنسان الذى يشاركه الشخوص إلى هذا الحق ، فليكتب

الكاتب ولينظم الشاعر وليرسم الفنان ، ليفعل كل أولئك ما خلق لفعله ابتغاء الواجب المقدور عليه فى عالم الحق إذ كان هو رسول هذا الحق إلى العالم المحدق به والذى هو مسئول عنه .

وإذا كانت رسالة الأديب أن يكتب لمن يشاركه الإحساس فى الأدب الحى ، فماذا يفعل هذا الأديب إذا لم يجد هذا الشريك له ؟ ، أفلا نجد أكثر عباقرة العالم نشأوا فى محيط ينكر عليه عبقريته وقد يضحون به قربانا لآلهتهم التى كان كفره بها مثار عبقريته ؟ ؟ أفلا ينكمش الأديب إذا عق بنو جلدته أدبه ؟ ؟ أفلا تصدأ أفكاره فيتحول بها إلى ما لم يخلق له من حياة ؟ ؟ أما إذا كانت رسالته مشبعة بروح الحق الذى يكتب له ويجاهد بلسانه وفكره وقلمه فى سبيله ، فلا يبالى إن تجاوبت أصداء فنه فى صدور معاصريه أو من يليهم ، فإذا أفلح فى حياته بذلك التجاوب كان سعيدا فى هذه الحياة وأما إذا أخفق فإن له من ضميره وعقيدته وصلابة إيمانه بأنه إنما خدم الحق بمهنته ، إن له عزاء يحتسب معه جهاده.وصبره عند من يستلهمه ويوحى إليه ، وفى ذلك نمو عبقريته وخلوده .

فالأديب إذن أديبان أحدهما يكتب لمن يفهمه ويقدره ، وهذا إنما يكون سعيدا على مقدار تفهم غيره لأدبه وقدرهم هذا الأدب ، فإذا لم يلمس بأدبه شعورهم لا لأنه غير أديب بل لأنه مخلوق لغيرهم ، فهو إذ ذاك من أشقى الناس ولعله يدفن عبقريته فى الحانة أو القبر .

والثانى يكتب لواجبه الإنسانى بين يدى الحق المهيمن عليه فى أداء هذه الرسالة ، ثم لا يتساءل ونفسه عن موضع تلك الرسالة من قارئيه أبين أيديهم هى أم وراء ظهورهم . لأنه لا يكتب للإنسانية عن طريقهم وإنما يكتب لهم عن طريق الإنسانية .

من هنا نصل إلى أن أكثر عباقرتنا كالمتنبى مثلا ، فقدتهم الأمة وهم فى قمة مجدهم ذلك لأنهم كانوا يكتبون ويتحسسون من نفوس قارئيهم لتبين الأثر الذى يتركه أدبهم فى نفوس اولئك القراء سواء كانوا أعداء لهم أم أخلاء ، حتى إذا صدمهم الواقع بما لم يحسبوا له حسابا فى سجل خلودهم ، صعقوا بأيديهم أو أيدى أعدائهم ، فكان

أجلهم المحروم فتقاً فى كيان أمتهم لا يسده أدب غيرهم حتى قيام الساعة ، لأن كل عبقرى هو جزء من كل فى حمل رسالة الإنسانية إلى العالم ، لا يتقوم ذلك الكل إلا بمجموع أجزائه .

ثم نرى المحاضر يجزم فى أن الأديب حر لا يعرف القيد « فنسأله عن معنى هذه الحرية : أهو حر فى أن يفكر بمضمون رسالته أو لا يفكر ؟ أم هو حر فى أن يؤدى هذه الرسالة إلى أبناء جلدته أو لا يؤديها ؟ أم هو حر أن يكتب هذه الرسالة بقلم أو بغير قلم ؟ ثم أهو حر فى أن يستهدف للحق برسالته أم يستهدف للباطل ؟

ما هى هذه الحرية ؟ ألست مقيدا إذا كنت أديبا حقا فى أن أؤدى رسالتى على أتم وجه يقتضيه واجبى الإنسانى ؟ أو لست مقيدا فى أن أجلس إلى مكتبى وأمسك القلم وأغمسه فى الدواة بين يدى أداء هذه الرسالة ؟ ! ثم ألست مقيدا بالمنطق الذى يحرك لسانى أو قلمى لأقول وأكتب ؟ أو لست مقيدا وأنا أؤدى هذه الرسالة إلى أبناء جنسى بأن أكون مبينا فى لسانى أو قلمى ؟ وما هو هذا البيان ؟ أهو غير التعبير عن الشعور بلغة تعاقبت على قيد الإنسان بها عقول وعقول فى مجاهل التاريخ ؟ أى شىء يحدق بالإنسان العبقرى وليس فيه قيد لعبقريته ؟ إن الحياة التى هى العنصر الأول فى اتجاهنا نحو النور ، إنما هى مجموعة قيود ، وأقسى هذه القيود ما ينوء الأديب أو الفنان تحت عبئه ، وهو يؤدى رسالته إلى عالمه .

فكيف يؤدى الشاعر مثلا رسالته إذا تحرر من قيود الشعر فى لغته وبيانه وأوزانه واصطلاح مجتمعه على توفر هذه الأسباب فيه ليكون شاعرا ؟ وأن أقسى ما يعترض الشاعر وهو يؤدى رسالته إلى عالمه ، استجابة الفن له بسهولة فيما يقول أو يفكر ، وقد يلفظ هذا الشاعر أو الموسيقى كبده بين يديه وهو يخضع لقيود فنه ، ثم لا يستجيب فنه له ، إذن فالحياة كلها قيود من مادتها إلى أدبها ، وأشقى أبنائها فى الرزوح تحت أعباء هذه القيود هم الأدباء وغواة الفنون .

أما أن نعتنى بالحرية للأديب أنه غير ملزم بموضوع ما من مواضيع القول ، فهذا ليس تحررا من قيود الأدب ، لأن أداة الأدب التى هى تفكير فى الحياة ، ووسيلة لأداء

رسالتها إلى الحى ، هذه الأداة هى فى صميم استسلامه لقيود تضغط فكره وتغل يديه وتعقل لسانه إذ يفكر أو يكتب أو يقول ، نعم ليس لى أن أقيد الأديب فى موضوع ما ، ولكنه بطبعه واستلهامه مقيد بما هو أقسى على هذا الطبع .

الغريب فى الأستاذ المحاضر أنه يبنى حكمه على نظريته القائلة : « بأن الأديب إنما يكتب للمتأثرين به ولو كانوا أعداءه » فيتمثل بأن كتاب مجلة كالآداب لا يسعدهم شىء قدر ما يسعدهم أن يقرأ الطغاة والمستبدون آثارهم الحافلة بتصوير البؤس والشقاء السائدين أمتهم .

ومن أخبر الأستاذ المحاضر أن الطاغى المستبد يقرأ ما يهذى به الشعراء والأدباء ؟ ولقد قال هو نفسه : أن كافورا الإخشيدى كان يشق رسائل المتنبى قبل أن يقرأها فينزل خبر ذلك على المتنبى كالصاعقة ، وأبو مسلم الخراسانى كان يشق رسائل عبد الحميد كاتب مروان الحمار قبل أن يقرأها ، وقد قال عبد الحميد هذا لمروان : إنى كتبت له رسالة لو قرأها لكان لك أكثر مما هو عليك .

وأعرف أن رياض الصلح دكتاتور لبنان السابق عندما هاجمه الصحفيون والكتاب والشعراء لقاء تزويره نصف برلمان لبنان فى سبيل تمديد الرئاسة لزميله بشارة الخورى ، كان يقف فى البرلمان على منصة الخطابة ويقول : لا أبالى ما يقوله الشعراء ولا ما تنشره الصحف من هراء وحسبى أنى أحكم لبنان ذا الوجه العربى . وعدم المبالاة معناه عدم القراءة .

وهذا الأستاذ خليل تقى الدين وهو من أدباء لبنان وشعرائه ، يشغل منصب السفير لبلاده فى مصر ، اجتمعت إليه وقدمت له آخر إنتاجى من الشعر « حواء الملهمة » وأنا أعلم أنه حريص على قراءة كل أثر أدبى ، وبعد شهر سألته كيف رأيت « حواء » فضحك وقال : لو سألتنى عن طعامى كيف آكله ؟ لأجبتك : لا أعرف ، فإن لدى من الأعمال ما لو اعترض تيارا جارفا لوقف عن الطغيان .

هذا تقى الدين يشغله عن القراءة فى أعز ما يهدى إليه من صديقه عمله الصالح ، فكيف بمن يشغلهم استبدادهم وطغيانهم واسترسالهم فى الشهوات عن كل عمل صالح ، كيف يتوجهون لقراءة قصيدة أو مجلة لا تنشر فى نظرهم غير سفساف الأدب والشعر .

إن هؤلاء الذين تعنيهم يا أستاذ من طغاتنا المستبدين لا يقرؤون من الصحف أو الكتب إلا ما رفع إليهم مؤشرا عليه بالخط الأحمر من رقيبهم الخاص الذى يتولى تقديم ما يهمهم أمره فى الصحف مما يساعدهم على الطغيان ويحول بينهم وبين ما يلفتهم إلى الإصلاح فى أمة لم يسودوها إلا عن طريق الفساد ، ولو أن لكل مستبد ناموسا مخلصاً يطلعه على ما يضر فى سيادته الأمة ، مما يكتب الكاتب أو ينظم الشاعر ، وينصح له فى الوعظ والتوجيه ، لما كانت عقبى كل مستبد طاغ ما نرى من الخذلان والانهيار آخر الأمر .

أما الحومانى الذى تذكره ويعلق على قولك هـذا فإليك تحليله فى آثاره التى تستشهد بها على حكمك :

إن الحومانى هذا عندما كان ينظم لتتجاوب أحاسيسه فى صدور قارئيه ، وعندما كان يطبع كتبه ليقرأها الناس ، وعندما كان لا يترك مجلة إلا حاملة أثرا من قلمه نظما أو نثرا ليعجب به الناس ، أقول : إن هذا الحومانى كان فى مطلع شبابه يصدر الكتب حافلة بالشعر والقصص ليتحسس منه الناس فيقابلوا أثره بالإعجاب ، هذا الرجل يرى تلك الآثار بعد شبابه كما يراها غيره من أساطين الأدب ، تافهة جافة ليس فيها شىء من الفن البديع ولا من التوجيه الصالح .

فهو يعترف إبان كهولته بأنه لا يرضيه من آثاره إلا ما نظمه أو كتبه وهو يستلهم الجمال لأنه أحب وصهره الحب ، أو يستلهم الحق لأنه شعر بآلام أمته وهى ترسف تحت وطء الهون فى قيود الظلم والاستعباد ، من أجل ذلك قال ويقول إن مؤلفاته بلغت الثمانية عشر ثم لا يرضى إلا عن القليل منها « كحواء » و « فلان » و « أنت أنت » و « كبلاسم » و « من يسمع » .

ذلك لأنه أنشأ هذه الكتب وهو فى غفلة عما يتنبأ لتأثيرها فى المجتمع ، ثم أنشأ غيرها مما لا يرضى عنه وليس له ذكر فى عالمه ، وهو يعلق عليها كل آماله فى الفراغ الذى

تشغله تحت سماء الواقع ، وهكذا لو سألت أى أديب أو فنان لقال لك : إن أكثر آثاره شيوعا وعملا فى نفسه ما أنشأه وفقا لضميره المستلهم دونما نظر إلى مجتمع يكتب له أو حبيب يشبب فيه ، أيقره ذلك المجتمع على ما يكتب ، ويبادله الحبيب هذا الحب فيما ينظم؟

أذكر جيدا أنى كنت ، وأنا أنظم شعرى فى مطلع شبابى ، لا أفكر فى غير ما سيحدثه هذا الشعر فى المجتمع سواء كان وطنيا أو اجتماعيا ، وكنت أتلوه بنفسى فى المحافل وأجد من التشجيع والاستحسان ما يزهونى ويملأ قلبى عجبا وخيلاء .

وأذكر أنى كنت ، وأنا أنظم الشعر فى مطلع كهولتى لا أفكر فى غير التعبير عما اشعر به تجاه من أحببت وما أحببت ، وسرعان ما رأيت وأنا أجوز شيخوخة الشباب إلى شباب الشيخوخة ، أن ما أصدرت للمجتمع فى مطلع شبابى لم يكن إلا هواء لا يحمل أديبا ولا شاعرا على الاحتفاظ به ، بينما أجد ما أصدرته وأنا معرض عن كل أنانية فيما أقول ، يشيع نثاره على الألسن وتحفل كثير من مكتبات غواة الفنون كثيرا منه ، وقد أعيد طبع الكثير منه ، فقد طبع ديوان « حواء » فى لبنان والعراق ومصر ، وطبع ديوان « فلان » فى لبنان وهو يطبع الآن فى مصر ، ويوشك أن يعاد طبع بلاسم فى القاهرة الخ ..

ولشدما أعجبنى وأطربنى تعليق المحاضر على رأى الأديب الايطالى الذى يرى أن الأديب يجب أن يعنى بتصوير الحياة أية كانت دون أن يعطى حكمه عليها ، ويجب أن يكون كالمتفرج . « علق الأستاذ المحاضر على رأيه بقوله : لانزيد شيئا على رأى الأديب الا أن يكون الفنان إنسانا حرا شريفا حين يسجل حقائق الحياة » .

إن المحاضر فى رأيه هذا أسمى من الكاتب الإيطالى الذى وصفه بالعالمى ، وهل يصح فى الأدب العالمى أن يرى : أن الأديب يجب أن يكون كالمتفرج ؟ ؟ وكيف يكون الأديب متفرجا وهو المسؤل الأول عن الحياة ؟؟ ثم من يقول : ان الأديب وهو عبقرى الأمة يقف عند تصوير ما يحدق به من حياة فى رسالته الإنسانية ؟ ؟ فلو كان واجب الأديب فى رسالته هو هذا لوقفت الإنسانية عند حدها الأول ولم تصعد بأبنائها من الوحشية إلى مستوى الإنسان هذا الذى يفرض احترامه على ملكوت السماء .

إن واجب الأديب أن يتجاوز تصوير الحياة المحدقة به إلى تصفيتها ، وتوجيه الحى إلى الصافى منها ثم إلى ما يبدع من خلقه مضافاً إليها ضرورة التجديد خوفا من الركود . فالحياة السامية أبداً ودائما هى وليدة محاسن الماضى والحاضر ثم ما يتخيله العبقرى من محاسن المستقبل ، ذلك هو الأديب الحق المعبر عنه بالعبقرى ناظما أو ناثراً أو رساما . أما الذى يقف بأدبه عند تصوير ما يحدق به حسناً كان أو سيئاً ثم يترك الحكم لغيره فى اعتناق هذه الحياة أو نبذها إنما هو أديب مصور وعصرى لم يبلغ مرتبة العباقرة الخالقين . وما أخسها كلمة يقولها الأديب الإيطالى : «وظيفة الأديب أن يصور ويتفرج» ، فكم بين هذه وبين القول : إن وظيفة الأديب أن يكتنه الحياة ثم يدل أمته على الصالح منها ويأمرها به وعلى السيء منها فينهاها عنه ثم يكون هو أول مأمور بالصالح ومنته عن الطالح ليكون المثل الأعلى لأمته .

ان كل ما يسمو بالأمة من نتاج أدبائها هو أدب سام ، وكل ما ينحدر بها من هذا النتاج هو أدب منحط يجب أن يعاقب الأديب عليه قبل أن يموت ليرى عاقبة ما أقدم عليه فى تضليل أمته ، ثم على الأمة أن تكون بالمرصاد لكل من يتأدب على هؤلاء الجناة فى الأدب من خلعاء ومتهتكين وملاحدة ومضللين ، زاعمين أن هذا من الأدب وغافلين عن أن الأمة إذا استرسلت فى أدب أبى نواس أو ابن الراوندى كان مصيرها إلى الانهيار كمصير الأمة العربية آخر أمرها ومصير فرنسا اليوم ، وهل انهيار الأمة يتسبب عن أدب ؟ ؟ وهل الأدب الذى يفضى بالأمة إلى هذا الانهيار يسمى أدبا ؟ ؟

لقد رأينا اليوم إذ تحلل الأدباء كتابا وشعراء من واجب الإنسانية المقدس باندفاعهم وراء الشهوات وخاصة أدب الصحافة المستهتر ، أقول : لقد رأينا ما دهمنا من فساد الشباب العنيد للنهوض بالأمة فى مستقبلها ، ومن شاء أن يتحقق من ذلك فليقرأ ما كتبه رئيس تحرير صوت الشرق فى جريدة الجمهورية عن تفشى الالحاد فى جامعة القاهرة وحصره المؤمنين منهم فى حدود التسعة من كل مائة ، والملحدين الذين يجهرون بإلحادهم ونقمتهم على الأديان فى حدود الأربعين من كل مائة ، وما بقى من المائة فى شك وحيرة من عقيدتهم أهم على حق فيها أم على باطل » .

كل ذلك وليد الأدب الخسيس الظالم الذى يعنى بتصوير مساقط الحياة ورجعيتها إلى الوحشية الأولى فى جاهلية الإنسان يوم لم يفقه من أدب الحياة إلا طعامه ونكاحه ، هذا الأدب الذى نراه فى الصحف والكتب الماجنة هو السبب الأول فى تضليل ناشئتنا فى الجامعات والمجتمعات ، كما كان السبب الأول فى انهيارنا منذ بدأ الأمويون وقفى على آثارهم العباسيون فى العود إلى جاهليتهم التى إنما قام الإسلام ليطهرهم منهـا ويتخير لهم الحياة المثلى التى تحصر فيهم سيادة العالم وظهور الإنسانية آخر الأمر وأصبح الإسلام فيهم حائرا بين جاحد وجامد وكانت قوة الاستمرار فى الإسلام التى نهض بها محمد وخلفاؤه الراشدون هى التى ساعدتهم على الفتوح وانتشار الملك والسيادة ليشبعوا جشعهم من الشهوات لا ليعززوا ناموس محمد ، لذلك انهاروا آخر أمرهم صاغرين داخرين .

وهكذا سيكون هذا الأدب الماجن المستهتر هو السبب الأول فى انهيار ما نستقبله من حياة . وبذلك سنبقى عبيدا أرقاء لأعدائنا وعارا أبديا على تراثنا الخالد . فالأستاذ المحاضر فى تعليقه على رأى الأديب الإيطالى فى أن الأديب لا يقف عند حد التصوير وإنما يجب أن يكون إنسانا « لا وحشا » وحرا « لا عبدا » وشريفا « لا نذلا » ومسجلا لحقائق الحياة « لاسفاسيفها » ذلك هو الأديب العبقرى الحق وهذا واجبه فى أمته .

صـــدر للمؤلف

١ — ديوان الحومانى	شـــعر	طبع لبنان
٢ — نقد السائس والمسوس	«	« «
٣ — القنابل	«	« فى نويرك
٤ — المـآسى	قصص	« سوريا
٥ — وحى الرافدين (ج ١)	اجتماع	« لبنان
٦ — « « (ج ٢)	«	« «
٧ — حـــواء	شـعر	« « والعراق ومصر
٨ — سلوى	قصص	« «
٩ — بين النهرين	أدب	« «
١٠ — فى باريس	قصص	« العراق
١١ — مع الناس	سياسة وأدب	« مصر
١٢ — من يسمع ؟؟	« «	« لبنان
١٣ — بلاسم	فلسفة وأدب	« سوريا
١٤ — النخيل	شـعر	« مصر
١٥ — أنت أنت	«	« «
١٦ — فلان	«	« لبنان
١٧ — الأصفياء	علم وأدب	« مصر

DATE DUE

الحوماني ،محمد علي
الاصفياء
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01038319

